كتاب

لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

لشرح

الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية

تأليف

العالم الطويل الباع الواسع الاطلاع صاحب البرهان الجلي
الشيخ محمد بن احمد السفاريني الأثري الحنبلي
رحمه الله تعالى

الجزء الأول

أخذت تعليقات هذا الكتاب من التعليقات التي علوا بها على النسخة المخطوطة مفتي الديار النجدية الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين المتوفى عام ١٢٨٢ هجرية والشيخ سليمان بن سحمان وغيرهما من أهل العلم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تقدست عن الاشباه ذاته ، وتنزهت عن سمات الحدوث صفاته ، ودلت على وجوده وقدمه مخلوقاته ، وشهدت بربوبيته وألوهيته مصنوعاته ، وأقرت بالافتقار (١) اليه برياته ، وأذعنت لعظمته وحكمته مبتدعاته ، سبحانه من اله (٢) تحيرت العقول فى بديع حكمته ، وخضعت الالباب لرفيع عظمته ، وذلت الجبابرة لعظيم (٣) عزته ، ودلت على وحدانيته محدثاته ، يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويوصل ويقطع ، فلا يسأل عما يصنع ، كما نطقت به آياته ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا ضد ولا ظهير ولا وزير فالكل خلقه واليه غاياته ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، وأمينه على وحيه ، وشهيده على أمره ونهيه ، من بهرت (٤) العقول معجزاته ، وأعجزت النقول دلائل نبوته وارهاصاته (٥) ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، واصهاره (٦) وأحبابه ، وأنصاره وأحزابه ، ما دامت آلاء الله وأرضه وسمواته ، وما انقشعت (٧) بنور رسالاته غياهب الشرك وظلماته ، وابتسمت الايام بعد عبوسها ، وظهرت (٨) الاحكام بعد طموسها ، وأينعت الاوقات بعد يبوسها ، وولى ظلام الظلم وانمحت آفاته ، أما بعد فيقول العبد الفقير الى مولاه العلى ، محمد ابن الحاج أحمد السفارينى (٩) الاثرى الحنبلى ، قد كان فى سنة ثلاث وسبعين بعد المائة وألف طلب

الاشارة « مط » فى التعليقات تعنى النسخة المطبوعة و « مخ » تعنى النسخة المخطوطه

(١) مط « بالانقياد » (٢) مط « سبحان من اليه (٣) مخ « لمنيع » (٤) مط «أبهرت» (٥) بهامش مخ : الارهاصات ما يتقدم على البعثة من الخوارق يكون توطئة لها كقصة الفيل قاله المصنف فى باب معجزات الانبياء أ هـ (٦) مط « واظهاره » (٧) مط « انشقت » (٨) مط « وأظهرت » (٩) بهامش مخ : نسبة الى سفارين قرية من أعمال نابلس اهـ

منى بعض أصحابنا النجديين ان أنظم أمهات مسائل اعتقادات أهل الاثر ، في سلك سهل لطيف معتبر ، ليسهل على المبتدئين (١) حفظه ، وتفهم معانيه ولفظه ، وذلك بعد قراءتهم علينا من مختصرات العقائد (٢) جملة كلمعة (٣) الامام الموفق ، ومختصر نهـاية المبتدئين لشـيخ مشايخنا البدر البلباني ، والعين والاثر للشيخ عبد الباقي والدأبي المواهب ، فابتهج قلبه بما أوقفناه عليه من الفوائد ، فتعللت باشتغال (البال ، وتشويش - ٤) الخاطر بالبلبال (٥) وتشتت الافـكار (وتغـير الاطوار ٦) فألح بالسؤال (٧) والالتماس ، وقال ما فى فراغك عن هذه الخواطر واشتغالك بهذا المطلوب الحاضر مدة من باس ، فلما لم ينـدفع بالاندفاع ، ولم يفـد التعليل (٨) لهذا الطالب الملتاع ، نظمت أمهات مسائل عقائد السلف فى سمط (٩) عقد أبهى من اللآلىء البهية ، وسميتها (الدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية) وعدتها مائتا بيت وبضعة عشر ، وتكفى وتشفى من معظم الخلاف الذى ذاع وانتشر • ثم بعد تمام نظمها ، والفراغ مما أودع فى ضمنها من (١٠) علمها ، ألح المذكور واخوانه ، وذووه وخلانه (١١) على تصنيف شرح (١٢) لهذا العقد الذى شفا وأبرى ، وقالوا صاحب البيت بالذى فيه أدرى ، فتجشمت تلك المسالك الوعرة ، والمدارك التى تقاعس عن ادراك حقائقها غير الالمعية المهرة ، فانى وان كنت غير ألمعى ولا ماهر ، ولكنى تطفلت على ما أودع حذاق هـذا الشأن فى الطروس والدفاتر ، فأجبتهم انجاحا لمطلوبهم ، وطلبا لشفاء صدورهم وصلاح قلوبهم ، وعولت فيما قصدت على المولى الجواد الجليل ، فهو عونى وحسبى ونعم الوكيل • وسميته (بلوامع (١٣) الانوار البهية ، وسواطع الاسرار الاثرية ، لشرح

---

(١) مط «المبتدىء» (٢) مط «وعقائد» (٣) بهامش مخ : اللمعـة فى اللغة القطعة من النبات اذا أخذت فى اليبس كما فى القاموس ثم استعير للقطعة من الكتب •

(٤) زيادة من مخ (٥) بهامش مخ : البلبال شدة الهم والوساوس كما فى القاموس أ هـ (٦) من مخ وبهامشها : أى الحاجات أ هـ (٧) مخ « فى السؤال »

(٨) مط «التعلل» (٩) بهامش مخ : السمط الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ • أهـ (١٠) مخ: فى ضمن (١١) مخ «واخدانه» (١٢) مط «يشرح» (١٣) مط «بلوائح» •

البدرة المضية فى عقد الفرقة المرضية)• ولأقدم أمام المطلوب مقدمة ، تشتمل على عشر تعريفات محتمة ، فأقول بعد البراءة من القوة والحول ، والاعتماد على ذى الكرم والطول ••

المقدمةوتقسيم الشريعة الى علوم

المقدمة المشتملة على عدة تعريفات

(التعـــريف الاول)

اعلم ان الملة المحمدية تنقسم الى اعتقاديات وعمليات ، فالاعتقاديات هى التى لم تتعلق بكيفية عمل مثل اعتقادوجوب وجود القادر المختار ووحدانيته ، وتسمى أصلية أيضا • والعمليات هى ما يتعلق بكيفية العمـــل ، وتسمى فرعية ، فالمتعلق بالعملية علم الشرائع والاحكام لانها لاتستفاد الامن (جهة ـ ١) الشرع فلا يســبق الفهم عند اطلاق الاحـــكام الا اليهـــا ، والمتعلق بالاعتقاديات هو علم التوحيد والصفات ، وعلم الكلام ، وعلم أصول الدين • ولما كان هذا العلم أهم لابتناء العمليات عليه أوردوا البراهين والحجج عليه واكتفوا فى العمليات بالظن المستفاد من الادلة الســمعية ، ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان خاليا من البدع الكلامية ، والشبه الخيالية ، والخصوم المعتزلية ، لم تكن أدلة علم أصول الدين مدونة هذا التدوين ، فلما كثرت الشبه والبدع ، وانتشر الاختلاف بين أهل العلم وفشا وسطع ، وصار كل امام بدعة له نحلة يعول عليها ، وعقيدة يدعو الناس اليهـــا ، وأوضاع يرجع فى مهماته اليها ، دون علماء الـــكلام قواعده المعلومة ، وأوضاعه المفهومة ، لدفع الشبه والخصوم ، وردهم عن تهافتهم الى الصواب المعلوم ، عن النبى المعصوم •

تعريف علـــم الكلام ومبادئه

وعلم الكلام هو علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية أى المنسوبة الى دين النبى صلى الله عليه وسلم وان لم تكن مطابقة للواقع لعدم اخراج الخصم من المعتزلة والجهمية والقدرية والجبرية والكرامية وغيرهم عن أن

(١) زيادة من مخ

بكون من علماء الكلام وان خطأناه أو كفرناه • (وقيل) تعريف علم الكلام الذى هو التوحيد وأصول الدين : العلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية ، أى العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية ، سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا ، وسواء كانت من الدين فى الواقع ككلام أهل الحق أولا ككلام المخالف ، واعتبر فى أدلتها اليقين لانه لاعبرة بالظن فى الاعتقاديات بل فى العمليات « وموضوعه » هو المعلوم من حيث يتعلق به اثبات العقائد الدينية اذ موضوع كل علم مايبحث فى ذلك العلم عن عوارضه الذاتية ، ولاشك انه يبحث فى هذا العلم عن أحوال الصانع ، من القدم والوحدة والقدرة والارادة وغيرها ليعتقد ثبوتها له تعالى ، وأحوال الجسم والعرض من الحدوث والافتقار والتركيب من الاجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك ليثبت للصانع ما ذكر (١) مما هو عقيدة اسلامية أو وسيلة اليها ، وكل هذا بحث عن أحوال المعلوم كاثبات العقائد الدينية ، وهذا أولى من زعم ان موضوعه ذات الله تعالى وتقدس للبحث عن صفاته وأفعاله واعلم انا لا نأخذ الاعتقادات الاسلامية من القواعد الكلامية ، بل انما نأخذها من النصوص القرآنية والاخبار النبوية ، وليس القصد بالاوضاع الكلامية الا دفع شبه الخصوم والفرق الضالة عن الطرق الحقية ، فانهم طعنوا فى بعض منها بأنه غير معقول فبين لهم بالقواعد الكلامية معقولية ذلك البعض • (واستمداد) هذا الفن من الكتاب المنزل والتفسير والحديث الثابت والفقه والاجماع والنظر • (ومسائله) القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية • (وغايته) أن يصير الايمان والتصديق بالاحكام الشرعية متقنا محكما لاتزلزله شبهة من شبه المبطلين • (ومنفعته) فى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانسانى على وجه لا يؤدى الى الفساد ، وفى الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد • وسيأتى حد كل بحث من هذا عند ذكره فى النظم ان شاء الله تعالى والله تعالى الموفق

---

(١) يعنى من القدم وما تقدم معه وانظر ما يأتى من التعليق على أوائل الباب الاول •

التنـــازع فى الدين ومايجب فيه

(الثـــانى)

اعلم ان الصحابة الكرام قد تنازعوا فى كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الامة ايمانا بلا انفصام ، ولكن بحمد الله تعالى لم يتنازعوا فى مسئلة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال ، بل كلهم على اثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال ، فكلمتهم واحـــدة من أولهم الى آخرهم لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشيء منها ابطالا ، ولا ضربوا لها مثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملهـــا على مجازها • بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالايمـــان والتعظيم ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الاهواء والبدع حيث جعلوا القرآن عضــين ، فأقروا ببعض آيات الصفات وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع ان اللازم لهم فيما أنكروه ، كاللازم لهم فيما أقروا به وأثبتوه ، فأهل الايمان اذا تنازعوا فى شيء من القرآن ، ردوه الى الله ورسوله كما رتب عليه الايمان ، فكل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله جليه وخفيه ردوه اليهما ، فلو لم يكن فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما تنازعوا فه لم يأمر الله بالرد اليه ، اذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع الى من لا يوجد عنده فصل النزاع ، وقد أجمع الناس على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه ، والرد الى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد اليه نفسه فى حياته والى سنته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، وقد جعل الله هذا الرد من موجبات الايمان ولوازمه ، فاذا انتفى انتفى الايمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هـــذين الامرين فانه من الطرفين ، فكل منهما ينتفى بانتفاء الآخر ، وقد نهى الصديق ثم الفاروق ومن بعدهما من الصحابة عن القول بالرأى حتى قال عمر رضى الله عنه : ان أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يعوها ، ونفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا فى الدين برأيهم فضلوا وأضلوا • وقال رضى الله عنه : **أيها الناس اتهموا الرأى فى الدين فلقد رأيتنى وانى لأرد أمر رسول**

الله صلى الله عليه وسلم برأيي فأجتهد ولا آلو وذلك يوم أبي جندل - (يعني يوم قضية الحديبية) . وأضل كل رأي وأبطله وأفسده وأعطله الرأي المتضمن لتعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن ضاهاهم حيث استعملوا قياساتهم الفاسدة وأراءهم الباطلة وشبههم الداحضة (١) في رد النصوص الصحيحة والآيات الصريحة ، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التي وجدوا السبيل الى تكذيب رواتها وتخطئتهم ، وحرفوا المعاني التي لم يجدوا الى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الاول بالتكذيب ، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل ، فأنكروا رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ، وأنكروا مباينته للعالم واستواءه على عرشه ، وعموم قدرته ، وحرفوا النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأي المجرد الذي حقيقته انه زبالة الاذهان ونخالة الافكار وعصارة الآراء ووساوس الصدور ، فملأوا به الاوراق سوادا ، والقلوب شكوكا والعالم فسادا ، فكل من له مسكة من علم ودربة من فهم يعلم ان فساد العالم وخرابه انما نشأ من تقديم الرأي على الوحي والهوى على النقل ، وما استحكم هذان الاصلان الفاسدان في قلب الا استحكم هلاكه ولا في أمة الا وفسد أمرها أتم فساد ، وقد قال الامام أحمد رضي الله عنه : رأي فلان ورأي فلان عندي سواء وانما الحجة في الآثار ، وروى ابن عبد البر بسنده عن عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل عن أبيه رضي الله عنه :

دين النبي محمد آثار ... نعم المطية للفتى الاخبار
لا تعد عن علم الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس طالعة لها أنوار

وقال بعض أهل العلم وأحسن :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين النصوص وبين رأي فقيه

---

(١) مط « الرافضة »

كلا ولا رد النصوص تعمدا   حذرا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذى رميت به   من فرقة التعطيل والتمويه

ثم ان الرأى المذموم هو الرأى المجرد الذى لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا قياس جلى بل هو خرص وتخمين ، فهذا الرأى الذى ورد التحذير منه والتنفير عنه ، وأما الرأى المستند الى الاستدلال والاستنباط من النص وحده أو من نص آخر معه فى الأحكام فهذا من ألطف فهم النصوص وأدقه وما ورد عن السلف مما يشعر بمدح الرأى وقبوله فالمراد به هذا والله أعلم •

الراى والتأويل وسبب انتشار البدع

(الثالث)

الرأى مصدر رأى رأيا مهموز والجمع آراء (١) وهو التفكر فى مبادىء الأمور ونظر عواقبها وعلم ما تؤول اليه من الخطأ والصواب ، وأصحاب الرأى عند الفقهاء هم أهل القياس والتأويل كأصحاب الامام أبى حنيفة وأبى الحسن الاشعرى • وأصحاب الرأى ضد أصحاب الظاهر من داود (٢) وابن حزم (٣) ومن نحا نحوهم • وأصحاب التأويل ضد أصحابنا من اتباع المأثور والمرور كما جاء مع التفويض واعتقاد التنزيه بأن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير • وكان سبب انتشار البدع وظهورها وزيادتها ونشورها المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله وكنيته أبو العباس سابع خلفاء بنى العباس وأمه (أمة - ٤) اسمها مراجل ، ولى الخلافة سنة مائة وسبعين (٥) وكان من رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وشجاعة وبراعة وفصاحة وسماحة الا أنه كان رافضيا معتزليا قدريا فهو خبيث الاعتقاد ، كبير الفساد والعناد • **وفى سنة مائتين واحدى عشر أمر أن ينادى : برئت الذمة ممن ذكر معاوية**

---

(١) مط «ارى» (٢) بهامش مخ : ابن على الظاهرى نسبة الى الظاهر لانه يأخذ بظاهر الحديث اهـ (٣) بهامش مخ : أبو محمد بن حزم الظاهرى كان يقال سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان أ هـ (٤) من مخ

(٥) بهامش مط : قوله ولى الخلافة سنة الخ هو سبق قلم وانما هذا عام ولادته وانما ولايته على ما ذكر المؤرخون سنة مائة وثمان وتسعين

(رضى الله عنه) بخير فان أفضل الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى سنة مائتين واثنتى عشرة أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا الى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فاشمأزت منه النفوس ودعا الناس لرأيه المعكوس وكادت الفتن أن تقوم على ساقها . فكف عن ذلك الى سنة ثمان عشرة فامتحن الناس بالقول بخلق القرآن فأجاب من أجاب طوعا وكرها وامتنع سيدنا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ومن امتنع معه من أئمة الحديث ، وطلب الامام أحمد فهلك المأمون ولم يره الامام أحمد ولله الحمد ، وكان هلاك المأمون فى شهر رجب سنة ثمان عشرة بعد المائتين .

كتب اليونان وفتنة المأمون

قال العلماء ان المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة قبرس - طلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها اليه الا مطران واحد فانه قال : جهزها اليهم فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية الا أفسدتها وأوقعت بين علمائها . قال الصلاح الصفدى : حدثنى من أثق به ان شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه كان يقول : ما أظن ان الله يغفل عن المأمون ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الامة من ادخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها . قال الصلاح الصفدى : لم يبتكر (١) المأمون النقل والتعريب بل فعل ذلك قبله كثير فان يحيى بن خالد البرمكى عرب من كتب الفرس كليلة ودمنة وعرب لأجله كتاب المجسطى من كتب اليونان . والمشهور أن أول من عرب كتب اليونان خالد بن يزيد بن معاوية لما ولع بكتب الكيمياء .

ثم قال الصفدى : والخلاف ما زال فى هذه الامة منذ توفى صلى الله عليه وسلم حتى فى موته ودفنه وأمر الخلافة بعده وأمر ميراثه وأمر قتال مانعى الزكاة الى غير ذلك ، بل فى نفس مرضه صلى الله عليه وسلم لما

(١) مط « يستبكر »

قال « ائتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى » على ما هو مذكور فى مواطنه ، وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان بنى اسرائيل افترقوا على احدى وسبعين فرقة ، وان أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة وهى الجماعة » وهو صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى قد أخبر أن هذه الامة ستفترق ، ومتى افترقت خالف بعضها بعضا ، ومتى خالفت تمسكت بشبه وحجج وناظر كل فرقة من تخالفها فانفتح باب الجدل واحتاج كل أحد الى ترجيح مذهبه ، وقوله بحجة عقلية أو نقلية أو مركبة منهما ، فهذا الامر كان مأمونا قبل المأمون ، نعم زاد الشر والضرر وقويت به حجج المعتزلة وغيرهم وأخذ أصحاب الاهواء ومخالفو السنة مقدمات عقلية من الفلاسفة فأدخلوها فى مباحثهم وفرجوا بها مضايق جدالهم وبنوا عليها قواعد بدعهم فاتسع الخرق على الراقع وكاد(١) منار الحق الواحد يشتبه بالثلاث الاثافى والرسوم البلاقع ، على أن السنة الشريفة مرفوعة المنار مأمونة السرار خافقة الاعلام راسخة الاحلام باهرة السنا ساطعة الجنى

ويزيدها مر الليالى جدة　　وتقادم الايام حسن شباب

وأهل السنة قد فتح لهم السلف الصالح مغلق أبوابها ، وذللوا بالشواهد الصادقة الصادعة ما جمح من صعابها ، وأطلعوا نيرها الاعظم فطمس من البدع تألق شهابها ، وأجنوا من اتبع هديهم ثمر اليقين متحد النوع وان كان متشابها ، وجاسوا خلال الحق فميزوه وأهل مكة أخبر بشعابها

ومن قال ان الشهب أكبرها السها　　بغير دليل كذبته الدلائل

وما ذكره الصلاح الصفدى مما يشم منه رائحة العذر للمأمون عما أدخله على الامة فيه حق وباطل ، فأصل الخلاف كان موجودا الا أنه فى أمور يسهل بعضها بخلاف ما فشا بفتنة المأمون . قال الامام الحافظ الذهبى فى كتابه العرش : لما ولى المأمون وكان متكلما عربت له كتب الاوائل فدعا

---

(١) مطر « وكان »

الناس الى القول بخلق القرآن وتهددهم وخوفهم فأجابه خلق كثير رغبة ورهبة وامتنع من اجابته الامام أحمد بن حنبل وأبو مسهر عالم دمشق ونعيم بن حماد عالم مصر والبويطى فقيه مصر وعفان محدث العراق وطائفة سواهم فسجنهم ثم لم ينشب ان مات بطرسوس ودفن ثم استخلف بعده أخوه المعتصم فامتحن الناس ونهض باعباء المحنة قاضيه أحمد بن أبى دؤاد وضربوا الامام أحمد رضى الله عنه ضربا مبرحا فلم يجبهم وناظروه وجرت أمور صعبة . انتهى .

ترجمة علوم الاوائل

وأما خالد بن يزيد فعربت له كتب الطب والنجوم ، وقيل الذى عربت له كتب الطب والنجوم المنصور ، وأما خالد فانما ولعه فى صنعة الكيمياء وله فى ذلك رسائل وكان قد أخذ تلك الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مرياس الرومى (١) .وأما المنصور فأول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية بالعربية مثل كليلة ودمنة وأقليدس كما فى تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطى.وقال : وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم . وأما المأمون فهو أول من أدخل علم المنطق وسائر العلوم اليونانية فى الملة الاسلامية وأحضرها من جزيرة قبرص وترجمت له كتب كثيرة كما فى أوائل السيوطى . انتهى . وبسبب ذلك حدثت الفتن بين المسلمين ، والبغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والاهواء ، وكثرت الوقائع والاختلافات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول ، وترتيب الابواب والفصول ، وتكثير المسائل بادلتها ، وايراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الاوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، فسموا ما يفيد معرفة الاحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الادلة اجمالا فى افادتها الاحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح ومعظم خلافياته مع الفرق الاسلامية خصوصا المعتزلة لانهم أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه جماعة الصحابة

(١) مط « الروصى »

رضى الله عنهم فى باب العقائد .

أول مصنف فى الكلام وأمر المعتزلة وواصل ابن عطاء

فأول من صنف فى علم الكلام والجدال والخصام مع أهل السنة والجماعة أبو حذيفة واصل بن عطاء وهو رئيس المعتزلة وأول من سمى معتزليا اعتزل مجلس الحسن البصرى رحمه الله فسمى بذلك . كان واصل بن عطاء هذا أحد البلغاء المتكلمين فى علم الكلام وغيره وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينا وكان أحد الاعاجيب لان لثغته كانت قبيحة جدا فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه . وذكر ابن خلكان كغيره من أهل التاريخ وأخبار الناس ان واصل ابن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى رحمه الله فلما ظهر الاختلاف فقالت الخوارج بتكفير مرتكبى الكبيرة وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين ، وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين ، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولاتباعهما معتزلون . فهذا سبب تسميتهم بالمعتزلة . ولواصل من التصانيف كتاب المرجئة ، وكتاب التوبة ، وكتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب خطبته التى أخرج منها الراء ، وكتاب معانى القرآن ، وكتاب الخطب فى العدل والتوحيد ، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، وكتاب السبيل الى معرفة الحق ، وغير ذلك . وكانت ولادته سنة ثمانين من الهجرة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى سنة احدى وثلاثين ومائة وهو من موالى بنى منبه (؟) وقيل من موالى بنى مخزوم

عمرو بن عبيد

وأما عمرو بن عبيد بن باب فمن موالى بنى عقيل آل غزادة (١) بن يربوع بن مالك ، كان جده باب من سبى كابل (٢) من جبال السند ، وكان عمرو شيخ المعتزلة فى وقته ، وله كتاب تفسير عن الحسن البصرى ، وله كتاب الرد على القدرية ، وله كلام كثير فى العدل والتوحيد على اعتقاد المعتزلة . وولد سنة ثمانين من الهجرة ومات سنة أربع وأربعين ومائة وهو

---

(١) كذا وفي تاريخ بغداد « عرادة » (٢) مط « كالملل »

راجع الى (؟) مكة بموضع يقال له مران على ليلتين من مكة (١) من جهة البصرة والله أعلم

(الرابع)

الخبر وتعريف الصدق والكذب

الخبر ان طابق ما فى الخارج فهو صدق ، وان لم يطابق الواقع فى الخارج فهو كذب ، ولا فرق فى ذلك بين اعتقاد المطابقة مع الصدق أو عدمها مع الكذب وبين ان لا يعتقد شيئا أو يعتقد عدم المطابقة مع وجودها أو يعتقد وجودها مع عدمها . فاذا علم هذا علم انه لا واسطة بين الصدق والكذب ، وهذا مذهب أهل الحق خلافا للجاحظ فى زعمه ان المطابقة مع اعتقاد المطابقة صدق ، وغير المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة كذب ، وغيرهما واسطة لا صدق ولا كذب ، فيدخل فى الواسطة أربعة أقسام فتصير الاقسام عنده ستة . ويكون الصدق والكذب فى مستقبل كما يكونان فى زمن ماض . وموردهما النسبة التى تضمنها الخبر بايقاع المخبر .

تقسيم الخبر الى معلوم صدقه وغيره

ومن الخبر ماهو معلوم صدقه وهو أنواع **(أحدها) مايكون علم صدقه ضروريا بنفس الخبر من غير نظر كالخبر الذى بلغت رواته حد التواتر لفظيا كان أو معنويا على الاصح (الثانى) مايكون ضروريا بغير نفس الخبر بل لكونه موافقا** للضرورى وهو ما يكون متعلقه معلوما لكل أحد من غير كسب وتكرر نحو : الواحد نصف الاثنين (الثالث) **ما يكون ضروريا (٢)** كخبر الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وخبر كل الأمة ، لان الاجماع حجة ، فكل واحد من هذه الثلاثة **علم** بالنظر والاستدلال (النوع الرابع) ما يكون غير ضرورى وغير نظرى ولكنه موافق للنظر وهو الخبر الذى علم متعلقة بالنظر كقولنا : العالم حادث .

ومن الخبر ما هو **معلوم** كذبه وهو أيضا أنواع (أحدها) **ما علم** خلافه بالضرورة كقول القائل النار باردة (الثانى) ما علم خلافه بالاستدلال كقول الفيلسوف العالم قديم (الثالث) أن يوهم أمرا باطلا من غير أن

---

(١) بهامش مخ : بل ثلاث للمجد وخمس للرواحل المثقلة .
(٢) كذا فى الاصلين والظاهر «نظريا»

يقبل التأويل لمعارضته للدليل العقلى كما لو اختلق بعض الزنادقة حديثا كذبا على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم يتحقق انه كذب (الرابع) أن يدعى شخص الرسالة عن الله عز وجل بغير معجزة •

ومن الخبر أيضا ما هو محتمل للصدق والكذب (فالاول) ما تقدمت أنواعه الضرورية من المتواتر وموافق الضرورى ونظـرى كخبر الله تعالى ورسوله والاجماع وخبر من وافق أحدها أو ثبت به صدقه (الثانى) من الخبر المعلوم كذبه ما تقدمت أنواعه مما خالف ما علم صدقه (الثالث) من الخبر وهو المحتمل الصدق والكذب فثلاثة أنواع (أحدها) كخبر العدل يترجح صدقه على كذبه ويتفاوت فيه الظن (الثانى) ما ظن كذبه كخبر الكذاب يترجح كذبه على صدقه وهو متفاوت أيضا و (الثالث) ما شك فيه كخبر مجهول الحال فيستوى فيه الاحتمالان لعدم المرجح • ولا يلزم من عدم علم صدق الخبر كذبه •

مدلول الخبر

ومدلول الخبر من حيث هو الحكم بالنسبة لا بثبـوتها ، فاذا قيل زيد قائم ـ فمدلوله الحكم بثبوت قيامه لا نفس ثبوت قيامه ، اذ لو كان الحكم بالنسبة ثبوت قيام زيد للزم منه أن لا يكون شىء من الخبر كذبا بل يكون كله صدقا • وخالف القرافى فقال : العرب لم تضع الخبر الا للصدق لاتفاق اللغويين والنحويين على ان معنى قام زيد حصول القيام منه فى الزمن الماضى ، واحتماله الكذب ليس من الوضع بل من جهة المتكلم • انتهى قال الكورانى : التحقيق فى هذا المقام هو أن الخبر مثل زيد قائم اذا صدر عن المتكلم بالقصد يدل على الايقاع وهو الحكم الذى صدر عن المتكلم ، ويدل أيضا على الوقوع ، فكل منهما يسمى حكما ، فاحتمال الصدق والكذب وصدق الخبر وكذبه فى نفس الامر انما هو باعتبار الايقاع لانه المتصف بذلك لا الوقوع ، وأما باعتبار افادة المخاطب فالحكم هو الوقوع لأنك اذا قلت زيد قائم فانما تفيد المخاطب وقوع القيام لا أنك أوقعت القيام على زيد فانه لا يعد فائدة والله أعلم •

المتواتر والآحاد

(الخامس تعريف المتواتر والآحاد ومتعلقات ذلك)

التواتر لغة تتابع شيئين فصاعدا بمهلة ، واصطلاحا خبر عدد يمتنع معه لكثرته تواطؤ على كذب - عن محسوس أو عن عدد كذلك الى أن ينتهى الى محسوس من مشاهدة أو سماع . فقوله خبر جنس يشمل المتواتر وغيره ، وباضافته الى عدد يخرج خبر الواحد ، وبقوله يمتنع معه الخ يخرج به خبر عدد لم يتصف بالوصف المذكور ، وخرج بقيد المحسوس ما كان عن معلوم بدليل عقلى كاخبار أهل السنة دهريا بحدوث العالم لتجويز غلطهم فى الاعتقاد . **وهذا الخبر المتواتر مفيد للعلم بنفسه فقيد** بنفسه لاخراج الخبر الذى صدق المخبرين به بسبب القرائن المحتفة به . والحاصل بخبر التواتر ضرورى عند أصحابنا والاكثر اذ لو كان نظريا لافتقر الى توسط المقدمتين ولما حصل لمن ليس من أهل النظر كالنساء والصبيان ولساغ الاختلاف فيه عقلا كسائر النظريات ، فالعلم الضرورى ما اضطر العقل الى التصديق به وهذا كذلك (وقال أبو الخطاب الكلوذانى وجمع) انه نظرى اذ لو كان ضروريا لما افتقر الى النظر فى المقدمتين وهما اتفاقهم على الاخبار وامتناع تواطئهم على الكذب فصورة الترتيب (١) ممكنة . ورد ذلك بأن ما ذكره مطرد فى كل ضرورى (وقال الطوفى فى مختصره) الخلاف لفظى اذ مراد الاول بالضرورى ما اضطر العقل الى تصديقه ، والثانى البديهى الكافى فى حصول الجزم به تصور طرفيه ، والضرورى ينقسم اليهما ، فدعوى كل فريق غير دعوى الآخر ، والجزم حاصل على كلا القولين .

ثم اعلم ان خبر التواتر لا يولد العلم بل يقع العلم عنده بفعل الله تعالى عند الفقهاء وغيرهم من أهل الحق ، وخالف قوم ، وهو على المعتمد بمنزلة اجراء العادة بخلق الولد من المنى والله قادر على خلقه بدون ذلك خلافا لمن قال بالتولد .

والتواتر من حيث هو قسمان لفظى كحديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » فقد رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم نيف

(١) مخ «التركيب»

وستون صحابيا منهم العشرة المبشرون بالجنة رضى الله عنهم أجمعين • والتواتر يكون فى القرآن كالقراءات السبع ، واختلف فى الثلاث الباقية هل هى متواترة أولا ، والحق انها متواترة • وأما الاجماع فالمتواتر فيه كثير • وأما السنة فالمتواتر فيها قليل حتى ان بعضهم نفى المتواتر اللفظى من السنة الا حديث « من كذب على متعمدا » وزاد بعضهم حديث الحوض كما سنذكره فى محله ، وكذا حديث الشفاعة قال القاضى عياض : بلغ التواتر ، وحديث المسح على الخفين قال ابن عبد البر : رواه نحو أربعين صحابيا واستفاض وتواتر •

(وأما التواتر المعنوى) من السنة بأن يتواتر معنى فى ضمن أحاديث مختلفة الالفاظ متحدة المعنى فكثير ، فالمتواتر المعنوى هو تغاير الالفاظ مع الاشتراك فى معنى كلى ولو بطريق اللزوم كحديث الحوض وسخاء حاتم وشجاعة على رضى الله عنه وغيرها ، وذلك اذا كثرت الاخبار فى الواقع واختلف فيها لكن كل واحد منها يشتمل على معنى مشترك بينها بجهة التضمن أو الالتزام فيحصل العلم بالقدر المشترك وهو مثلا الشجاعة لعلى رضى الله عنه والسخاء لحاتم ونحو ذلك •

والمعتمد عدم انحصار التواتر فى عدد وانما يعلم حصول العدد اذا حصل العلم عنده ، ولا يلزم الدور اذ حصول العلم معلول الاخبار ودليله كالشبع والرى معلول المشبع والمروى ودليلهما وان لم يعلم القدر الكافى منهما • ويختلف العلم الحاصل بالتواتر باختلاف القرائن كالهيئات المقارنة للخبر الموجبة لتعريف متعلقه ، واختلاف أحوال المخبرين فى اطلاعهم على قرائن التعريف ، واختلاف ادراك المستمعين لتفاوت الاذهان والقرائح ، واختلاف الوقائع على عظمها وحقارتها • والمعتمد حصول العلم بالتواتر لكل من بلغه فيتفق الناس كلهم فى العلم به الا أنه يتفاوت المعلوم عند الامام أحمد رضى الله عنه والمحققين منهم شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وغيره ، وعنه لا ، قال (المحقق ابن قاضى الجبل) : الاصح التفاوت فانا نجد بالضرورة الفرق بين كون الواحد نصف الاثنين وبين ما علمناه من جهة التواتر مع كون اليقين حاصلا فيهما ، وكما نفرق بين علم اليقين وعين

اليقين وحق اليقين • ولا يشترط اسلام العـــدد المشروط فى التواتر ولا عدالتهم خلافا لقوم اعتبروهما ، قالوا لان الكفر والفســـوق عرضـــة للكذب والتحريف ، ولأن النصارى نقلوا أن اليهود قتلوا المسيح وهو باطل بالنص (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وبالاجماع • والجواب أنا نمنع حصول شرط التواتر للاختلال(١) فى الطبقة الاولى لكونهم لم يبلغوا عدد التواتر ، وكذا الجواب عن أخبار الامامية بالنص على امامة على رضى الله عنه • ولا يشترط أيضا أن لا يحويهم بلد ولا يحصيهم عدد خلافا لطوائف من الفقهاء ، لان أهل الجامع لو أخبروا عن سقوط المؤذن عن المنارة والخطيب عن المنبر لكان اخبارهم مفيدا للعلم فضلا عن أهـــل بلد

الآحاد والخلاف فى افادته العلم وتكفير منكره

وأما الآحاد فهو ما عدا المتواتر ـ فدخل مستفيض مشهور وهو ما زاد نقلته على ثلاثة عدول • وعزيز ، وهو ما (لا ـ ٢) تنقص نقلته عن عدلين • وخبر الآحاد ان كان مستفيضا مشهورا أفاد علما نظريا كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبى اسحاق الاسفراينى وابن فورك ، وقيل يفيـــد القطع ، وغير المستفيض من سائر أخبار الآحاد يفيد الظن فقط ولو مع قرينة عند الاكثر لاحتمال السهو والغلط ونحوهما على ما دون عـــدد رواة المستفيض لقرب احتمال السهو والخطأ على عددهم القليل ، وقال الامام الموفق وابن حمدان والطوفى وجمع انه يفيـــد العلم بالقرائن ، قال العلامة علاء الدين على بن سليمان المرداوى فى شرح التحرير : وهذا أظهر وأصح ، والقرائن وان قال الماوردى لا يمكن أن تضبط بعادة فقد قال غيره بل يمكن أن تضبط بما تسكن اليه النفس كسكونها الى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى فيها احتمال عنده البتة • الا اذا نقله أى نقل خبر الآحاد غير المستفيض آحاد الائمة المتفق عليهم ، وعلى امامتهم وجلالتهم وضبطهم من طرق متساوية وتلقته الامة بالقبول فيفيد العلم حينئذ ، قال القاضى أبو يعلى : هذا المذهب • وقال أبو الخطاب هذا ظاهر كلام أصحابنا •

---

(١) مخ «للاختلاف» (٢) من مخ

واختاره ابن الزاغونى والامام تقى الدين ابن تيمية قدس الله روحه ، وقال : الذى عليه الاصوليون من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد رضى الله عنهم أجمعين ان خبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول تصديقا وعملا به يوجب العلم الا فرقة قليلة تبعوا طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ، والاول ذكره أبو اسحاق وأبو الطيب وذكره عبد الوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسى وأمثاله من الحنفية وهو الذى عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الاشعرية وغيرهم . انتهى

احاديث الصحيحين والنظر فى افادتها العلم

قال ابن الصلاح ما أسنده البخارى ومسلم - العلم اليقينى النظرى واقع به خلافا لقول من نفى ذلك محتجا بأنه لا يفيد فى أصله الا الظن وانما تلقته الامة بالقبول لانه يجب عليهم العمل بالظن ، قال والظن قد يخطىء ، قال ابن الصلاح وقد كنت أميل الى هذا وأحسبه قويا ثم بان لى ان المذهب الذى اخترناه أولا هوالصحيح لان ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء والامة فى اجماعها معصومة من الخطأ . وقال الامام النووى من الشافعية خالف ابن الصلاح المحققون والاكثرون وقالوا يفيد الظن ما لم يتواتر . انتهى . قال الامام ابن عقيل والحافظ ابن الجوزى والقاضى أبو بكر الباقلانى وأبو حامدوابن برهان والفخر الرازى والسيف الآمدى وغيرهم : لا يفيد العلم ما نقله آحاد الامة المتفق عليهم ولو تلقى بالقبول . وقال الاستاذ أبو اسحاق الاسفرائنى : يفيده عملا لا قولا . انتهى . ونص الامام أحمد رضى الله عنه فى رواية الاثرم انه يعمل به ولا نشهد بأن النبى صلى الله عليه وسلم قاله . وأطلق ابن عبد البر وجماعة انه قول جمهور أهل الأثر والنظر حتى قال بعضهم ولو مع قرينة . ونقل حنبل عى الامام أحمد رضى‌الله عنه : أخبار الرؤية حق‌نقطع على العلم بها . وقال له المروذى هنا انسان يقول : الخبر يوجب عملا لا علما . فعابه وقال لا أدرى ما هذا . وفى كتاب الرسالة لاحمد بن جعفر الفارسى عن الامام أحمد رضى الله عنه . لانشهد على أحد من أهل القبلة انه فى النار لذنب عمله ولا لكبيرة اتاها الا أن يكون ذلك فى حديث كما جاء نصدقه ونعلم انه كما جاء . قال القاضى ذهب الى هذا جماعة من أصحابنا انه يفيد .

وذكره القاضى فى مقدمة المجرد عن علمائنا ، وجزم به ابن أبى موسى ، وقاله كثير من أهل الاثر وبعض أهل النظر والظاهرية وابن خويزمنداد المالكى وانه مخرج على مذهب مالك . ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أن ما أسند فى الصحيحين مقطوع بصحته قال : وانا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد اليه . قال ثم وقفت على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه انه نقل القطع بالحديث الذى تلقته الامة بالقبول عن جماعات ونقل ما قدمنا عنه وزاد : وابن حامد والقاضى أبو يعلى وأبو الخطاب وابن الزاغونى وأمثالهم من الحنابلة ، وشمس الائمة من الحنفية . قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة .

(تنبيه) قد قدمنا أن المستفيض مازاد نقلته على ثلاثة عدول فلابد أن يكونوا أربعة فصاعدا . وقال قوم هو ما عده الناس شائعا . وقال محيي الدين يوسف الجوزى : المستفيض ما ارتفع عن ضعف الآحاد ولم يلتحق بقوة المتواتر . والله أعلم .

(السادس)

الأخذ بالآحاد فى العقائد

يعمل بخبر الآحاد فى أصول الدين ، وحكى الامام ابن عبد البر الاجماع على ذلك . قال الامام أحمد رضى الله عنه : لا نتعدى القرآن والحديث . وقال القاضى أبو يعلى يعمل به فى الديانات اذا تلقته الامة بالقبول ، ولهذا قال الامام أحمد رضى الله عنه قد تلقتها العلماء (١) بالقبول. قال العلامة ابن قاضى الجبل : مذهب الحنابلة ان أخبار الآحاد المتلقاة بالقبول تصلح لاثبات أصول الديانات ، ذكره القاضى أبو يعلى فى مقدمة المجرد والشيخ تقى الدين فى عقيدته . انتهى . وقال أبو الخطاب وابن عقيل وغيرهما : لا يعمل به فيها . ولا يكفر منكر خبر الآحاد فى الاصح ، حكى ابن حامد الوجهين عن الاصحاب ، ونقل تكفيره عن الامام اسحاق بن راهويه . قال فى المسودة قد اختلف العلماء فى تكفير من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل ، وقد ذكر ابن حامد فى أصوله عن أصحابنا فى ذلك

(١) منخ « الامة »

وجهين ، والتكفير منقول عن الامام اسحاق بن راهويه . انتهى . قال ابن حامد لكن غالب أصحابنا على كفره فيما يتعلق بالصفات . وذكر في مكان آخر أن جحد أخبار الآحاد كفر كالمتواتر عندنا فانه يوجب العلم والعمل . فأما من جحد العلم بها فالاشبه انه لا يكفر ويكفر في نحو ما ورد في الاسراء والنزول ونحوهما من الصفات كما في حاشية الجراعى على أصول العلامة ابن اللحام رحمهما الله تعالى . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شرح العقيدة الاصفهانية : يجب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفاته تعالى فليس ذلك موقوفا على أن بقوم دليل عقلى على تلك الصفة بعينها فانه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أخبرنا بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم ندرك ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله تعالى عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته) (١) ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الاخبار بشأن الربوبية كما سنذكر هذه المقالة في محالها ان شاء الله تعالى

(السابع)

مذهب السلف

المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم باحسان واتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالامامة وعرف عظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف دون من رمى ببدعة أو شهر بلقب غير مرضى مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجبرية (٢) والجهمية والمعتزلة والكرامية ونحو هؤلاء مما يأتى ذكرهم عند تعداد الفرق ، لكن لما كان

---

(١) مخ « رسالته » وكلاهما مقرو. به في السبع
(٢) بهامش مخ - الجبرية بالتحريك خلاف القدرية والتسكين لحن أو هو الصواب والتحريك للازدواج . قاموس . ا هـ

فشو البدع وظهورها بعد المائتين لما عربت الكتب العجمية كما تقدم وزاد البلاء وأظهر المأمون القول بخلق القرآن وظهر مذهب الاعتزال ظهورا لا مزيد عليه بسبب انحراف الخلفاء عن مذهب الحق وكان الذى قام فى نحورهم ورد مقالتهم وابطال مذهبهم وتزييفه وذم من ذهب اليه أو عول عليه أو انتمى الى ذويه أو ناضل عنه أو مال اليه سيدنا وقدوتنا الامام المبجل والحبر البحر المفضل أبا عبد الله الامام أحمد بن محمد بن حنبل نسب مذهب السلف اليه وعول أهل عصره من أهل الحق فمن بعدهم عليه ، والا فهو المذهب المأثور والحق الثابت المشهور لسائر أئمة الدين وأعيان الامة المتقدمين (١) قال حرب بن اسماعيل السكرمانى فى كتابه المصنف فى مسائل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه واسحاق بن ابراهيم بن راهويه مع ما ذكر فيها من الآثار عن النبى المختار والصحابة الابرار والتابعين الاطهار ومن بعدهم ، قال : هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الاثر المعروفين بالسنة المقتدى بهم فيها ، وأدركت من أدركت من علماء العراق والحجاز والشام عليها ، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن سبيل السنة ومنهج الحق • قال وهو مذهب الامام أحمد واسحاق وبقى بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم - فذكر الكلام فى الايمان والقدر والوعيد والامامة الخ كلامه كما سننبه عليه فى محاله • وممن ألف فى عقائد السلف وذكر معتقدهم فى كتب التفسير المنقولة عن السلف مثل تفسير عبد الرزاق وتفسير الامام أحمد واسحاق وبقى بن مخلد وعبد الرحمن ابن ابراهيم دحيم وعبد بن حميد وعبد الرحمن بن أبى حاتم ومحمد ابن جرير الطبرى وأبى بكر بن المنذر وأبى بكر عبد العزيز وأبى الشيخ الاصفهانى وأبى بكر بن مردويه وغيرهم • وكذلك الكتب المصنفة فى السنة والرد على الجهمية وأصول الدين المنقولة عن السلف مثل كتاب الرد على الجهمية لمحمد بن عبد الله الجعفى شيخ البخارى ، وكتاب خلق

---

(١) مط « المقدمين »

الافعال للبخارى ، وكتاب السنة لابى داود ولابى بكر الاثرم ولعبد الله ابن الامام أحمد ولحنبل بن اسحاق ولابى بكر الخلال ولابى الشيخ الاصفهانى ولابى القاسم الطبرانى ولابى عبد الله بن منده وأمثالهم ، وكتاب الشريعة لابى بكر الآجرى ، والابانة لابى عبدالله ابن بطة ، وكتاب الاصول لابى عبدالله الطلمنكى ، وكتاب رد عثمان بن سعيد الدرامى ، وكتاب الرد على الجهمية له وغير ذلك . فالائمة الاربعة والسفيانان والحمادان وابنا أبى شيبة والليث بن سعد وابن أبى ذئب وربيعة بن أبى عبد الرحمن والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة وابن ماجه وابن حبان وأبو ثور وابن جريج والاوزاعى وابن الماجشون وابن أبى ليلى وأبو عبيد بن سلام ومسعر بن كدام الامام ومحمد بن يحيى الذهلى امام اهل خراسان بعد اسحاق بلا مدافعة وأبو حاتم الرازى ومحمد بن نصر المروزى وغير هؤلاء كلهم على عقيدة واحدة سلفية أثرية ، وان كان الاشتهار للامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه للعلة التى ذكرناها حتى ان الشيخ أبا حسن الإشعرى قال فى كتابه — الابانة فى أصول الديانة — ما نصه بحروفه « فان قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له قولنا الذى به نقول وديانتنا التى بها ندين ، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، فنحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه الامام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به المبتدعين ، فرحمة الله عليه من أمام مقدم ، وكبير مفهم (١) وعلى جميع أئمة المسلمين » انتهى . فنسب المذهب اليه لاشتهاره بذلك مع ان سائر أئمة الدين سلكوا تلك المسالك وبالله التوفيق .

---

(١) مخ «مفخم»

(الثـــامن)

اول ظهور البدع

قال الجلال السيوطى فى الاوائل : أول من تفوه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بنى أمية فقـــال بأن الله تعالى لا يتكلم • قال شيخ الاسلام فى الرسالة الحموية الكبرى : أصل فشو البدع بعد القرون الثلاثة وان كان قد نبغ أصلها فى أواخر عصر التابعين • قال ثم أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخـــوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين فان أول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه ، وقد قيل ان الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان وأخـــذها ابان عن طالوت ابن أخت لبيـــد بن الاعصـــم (وأخـــذها طالوت عن لبيـــد بن الاعصـم) اليهودى الســـاحر الذى ســـحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هـــذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصائبة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود والكنعانيين الذين صنف بعض الساحرين فى سحرهم ، والنمرود هو ملك الصابئة كما ان كسرى ملك الفرس والمجوس فهو اسم جنس لا اســـم علم • قال : وكانت الصابئة اذ ذاك الا قليلا منهم على الشرك وعلماؤهم الفلاسفة وان كان الصابىء قد لا يكون مشركا بل مؤمنـــا بالله واليـــوم الآخـــر كمـــا قال تعـــالى (ان الذين آمنـــوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لكن كثيرا منهم أو أكثرهم كانوا كفارا ومشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ،ومذهب النفاة الذين يقولون ليس له صفات الاسلبية أو اضافية أو مركبة منهما وهم الذين بعث سيدنا ابراهيم خليل الرحمن اليهم ، فيكون الجعد أخذ عقيدته عن الصابئة الفلاسفة وأخذها الجهم أيضا ـ فيما ذكره الامام أحمد رضى الله عنه ـ عنه وعن غيره وكذلك أبو نصر الفارابى دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئة تمام فلسفته لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهنـد وهم

الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فرجعت أسانيد الجهم الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين اما من الصابئين واما من المشركين ، فلما عربت الكتب الرومية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب أهل الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم •

ولما كان بعد المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسى (١) وذويه • وكلام الائمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبى يوسف والشافعى واحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافى وغيرهم فى هؤلاء فى ذمهم وتضليلهم معروف ، وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب (التأويلات) وأبو عبد الله محمد ابن عمر الرازى فى كتابه الذى سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء مثل أبى على الجبائى وعبد الجبار بن احمد الهمذانى وأبى الحسين البصرى وغيرهم هى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسى فى كتابه كما يعلم ذلك من كتاب الرد الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمى أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارى وسمى كتابه (رد عثمان ابن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى من التوحيد) فانه حكى هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسى ثم ردها بكلام اذا طالعه العاقل الذكى يسلم حقيقة ما كان عليه السلف ويتبين له ظهور الحجة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم • وقد أجمع أئمة الهدى على ذم المريسية بل أكثرهم كفرهم وضللهم ، ويعلم بمطالعة كتاب ابن سعيد الدارمى ان هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين الذين تسموا بالخلف هو مذهب المريسية فلا حول ولا قوة الا بالله ، فمذهب السلف حق بين باطلين وهدى بين ضلالين ، قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : لا يوصف الله تعالى الا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والحديث • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : مذهب السلف انهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من

---

(١) بهامش مخ : مريسة كسكينة قرية منها بشر بن غياث المريسى • قاموس أ هـ

غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فالمعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنما ، والمسلم يعبد اله الارض والسماء • والله أعلم •

(التاســع)

مذهب السلف هو الحق

مذهب السلف هو المذهب المنصور ، والحق الثابت المأثور ، وأهله هم الفرقة الناجية ، والطائفة المرحومة التى هى بكل خير فائزة ولكل مكرمة راجية ، من الشفاعة والورود على الحوض ورؤية الحق وغير ذلك من سلامة الصدر والايمان بالقدر والتسليم لما جاءت به النصوص ، فمن المحال أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض من لا تحقيق لديه ـ ممن لا يقدر قدر السلف ولا عرف الله تعالى ولا رسوله ولا المؤمنين به حق المعرفة المأمور بها ـ من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، وهؤلاء انما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ذلك بمنزلة الاميين ، وان طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقـــالة التى مضمونها نبذ الاسلام وراء الظهور ، وقد كذبوا وأفكوا على طريقة السلف وضلوا فى تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين باطلين الجهل بطريقة السلف فى الكذب عليهم والجهل والضلال بتصويب طريقة غيرهم •قال الحافظ ابن رجب فى كتابه (بيان فضل علم السلف ، على علم الخلف) ما نصه « ومن محدثات الامور ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام فى ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهى أشد خطرا من الكلام فى القدر لأن الكلام فى القدر كلام فى أفعاله وهذا كلام فى ذاته وصفاته ، وينقسم هؤلاء الى قسمين أحدهما من نفى كثيراً مما ورد به الكتاب والسنة لاستلزامه عنده التشبيه كنفى الرؤية والاستواء ، وهذا طريق المعتزلة والجهمية وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم ، وقد سلك سبيلهم فى بعض الامور كثير ممن ينتسب الى السنة والحديث من المتأخرين •والثانى من رام اثبات ذلك بأدلة العقول التى لم يرد بها الاثر ورد على أولئك

مقالتهم كالكرامية ومن وافقهم حتى ان منهم من أثبت الجسم اما لفظا واما معنى ومنهم من أثبت له تعالى صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة ، وقد أنكر السلف على مقاتل رده على جهم بأدلة العقل وبالغوا فى الطعن عليه، والصواب ما عليه السلف الصالح من امرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا يصح عن أحد من السلف خلاف ذلك البتة خصوصا الامام احمد رضى الله عنه • ولا خوض فى معانيها ولا ضرب مثل لها وان كان بعض من كان قريبا من زمنه فيهم من فعل ذلك من ذلك(؟) اتباعا لطريقة مقاتل بن سليمان فلا يقتدى به فى ذلك وانما الاقتداء بأئمة الاسلام كابن المبارك ومالك والثورى والاوزاعى والشافعى واحمد واسحاق وأبى عبيد ونحوهم رضى الله عنهم ، فكل هؤلاء لا يوجد فى كلامهم شىء من جنس كلام المتكلمين فضلا عن كلام الفلاسفة ولم يدخل ذلك فى كلامه من سلم من قدح وجرح ، وقد قال أبو زرعة الرازى : كل من كان عنده علم فلم يصن علمه واحتاج فى نشره الى شىء من الكلام فلستم منه • وقال الحافظ ابن رجب أيضا : وفى زماننا تتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم الى زمن الشافعى واحمد واسحاق وأبى عبيد ، وليكن الانسان على حذر مما حدث بعدهم فانه حدث بعدهم حوادث كثيرة وحدث من انتسب الى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الامة وانفراده عنهم بفهم يفهمه أو بأخذ مالم تأخذ به الامة من قبله ، وأما الدخول مع ذلك فى كلام المتكلمين والفلاسفة فشر محض وقل من دخل فى شىء من ذلك الا وتلطخ ببعض أوضارهم كما قال الامام احمد رضى الله عنه : لا يخلو من نظر فى الكلام الا تجهم • وكان هو وغيره يحذرون من أهل الكلام وان ذبوا عن السنة

وأما ما يوجد فى كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لا يتوسع فى الخصومات والجدال ونسبته الى الجهل أو الحشو أو الى أنه غير عارف بالله أو بدينه فمن خطوات الشيطان نعوذ بالله منه • انتهى ملخصا •

وفى الآداب للعلامة ابن مفلح رحمه الله تعالى عن الطبرانى قال حدثنا عبد الله ابن الامام احمد قال حدثنى أبى قال : قبور أهل السنة من أهل

الكبائر روضة ، وقبور أهل البدعة من الزنادقة حفرة • فساق أهل السنة أولياء الله ، وزهاد أهل البدعة أعداء الله • وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تسمع ومن دعوة لا يستجاب لها » وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى بعضها « ومن دعاء لا يسمع » وفى بعضها « أعوذ بك من هؤلاء الاربع » وأخرج الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى » ورواه النسائى من حديث انس رضى الله عنه وزاد « وارزقنى علما تنفعنى به » ويأتى الكلام على هذا بأبسط من هذا فى المقدمة والله أعلم

(العـــاشر)

من اصـــلاح الشارح

اعلم رحمك الله تعالى ان اصطلاحي فى هذا الشرح الاستدلال بالكتاب القديم (١) وبقول النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، واقتفاء بالصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم وما درج عليه الرعيل الاول من القرون المفضلة مما تلقاه أئمة الدين بالقبول ، وأثبتوه بالنقـول ، وأصلوه فى الاصول ، وان زعم متحذلق انه يباين العقول ، فهو كلام باطل ومذهب معلول • فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام تأتى بمحـــارات العقول لا بمحالاتها ، فمن زعم ان العقل يحيل شيئا مما جاءت به الانبياء عليهـــم الصلاة والسلام فلا يخلو من أحد أمرين اما عدم ثبوته عنهم واما عجز العقل عن ادراكه ، ولا يلزم من عجز العقول عن ادراك شيء من الاصول أو غيرها أن يكون مستحيلا كحديث النزول مع عدم الانتقال وكون القرآن كلام الله وصفته مع عدم الانفصال (٢) ونظائر ذلك كثيرة جدا ، فمن لم

(١) يأتى فى التعليق على مسئلة القرآن ما فى هذا • وفى تنبيه ابن سحمان ص ٢٠ « الذى عليه أهل السنة والجماعة ان كلام الله سـبحانه وتعالى حادث الآحاد قديم النوع »

(٢) يأتى ما فى هذا فى التعليق على مسألتى النزول والقرآن فى المتن والشرح •

يسلم للمنقول وقابله بالرد بالمعقول فهو ضال مخبول ،فمذهبنا هو ماوافق صحيح المنقول وصريح المعقول الذى يجمع ما فى الاقوال المختلفـــة من الصواب ويجتنب ما فيها من الخطأ والارتياب وهدا هو مذهب سلف الأمة وسائر الأئمة ، وهو الذى يدل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف ، فان الله تعالى بين فى كتابه الحق ، بما ضربه فيه من الامثال للخلق ،ويذكر لك من البراهين ، مايفيد لسليم الصدر عين اليقين ، فاذا تأمل العاقل الفهيم نهاية ما يذكره أهل النظر من جميع طوائف المتكلمة والمتفلسفة ونحوهم يجد الذى فى القرآن أكمل منه وأوضح بيانا معسلامته من المراءوالجدال ، وزبالات افهام الرجال ، ومن لم يكن علمه متلقى من الكتاب والسنة فهو غير نافع ولا منتفع به بل ضره أكثر من نفعه ، وعلامة هذا العلم كما قال الحافظ ابن رجب أن يكتسب صاحبه الزهو والفخر والعجب والخيـــلاء وطلب العلو والرفعة فى الدنيا والمنافسة فيها وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس اليه •

ومرادى بالشيخ وشيخ الاسلام حيث أطلق شيخ الاســلام ابن تيمية ، ومرادى بالمحقق تلميذه ابن القيم ، وبالعلامة ابن مفلح • واعلم أن غالب ما فى هذه التعريفات ستمر بك فى محالها وانما قصدت جمعها لك لتكون على بصيرة منها وهذا أوان الشروع فى المقصود من شرح المنظومة والله أعلم •

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير بسملة المتن

((بسم الله)) أى باسم مسمى هذا اللفظ الاعظم الموصوف بأوصاف الكمال، فالباء متعلقة بمحذوف وتقديره فعلا خاصا مؤخرا أولى من تقديره اسما عاما مقدما ، أما أولوية كونه فعلا فلانه الاصل فى العمل وحينئذ فمحل الجار والمجرور النصب على المفعولية بالفعل المقدر ، وأما أولوية كونه خاصافلانه أدل على المطلوب فتقدير أؤلف عند التأليف أولى من أبتدىء وكذا عنـد القراءة ونحو ذلك فيقدر عند كل أمر ماينا سبه ، وأما أولوية تقديره مؤخرا فلأمرين ، أحدهما الاهتمام بالابتداء باسم الله تعالى لفظا وتقديرا لانه تعالى

مقدم ذاتا فقــدم ذكرا ليوافق الاســم المسمى ، والثــانى لافادة التخصيص كما فى قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) لا يقال الاولى ملاحظة قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) لأنا نقول المطــلوب الأهــم ثم القراءة لأنها أول مانزل عليه صلى الله عليه وسلم وأول ما طرق المسامع الشريفة من الوحى فكان الانسب تقديم القراءة لمزيد الاعتناء بها والاهتمام لها • وحذفت همزة الوصل من الاسم خطا كما حذفت لفظا ، وكتبت الباء متصلة بالسين لكثرة الاستعمال ، وطولت الباء للتعظيم ولتكون كالعوض عن الهمزة ، ويروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه ضرب من لم يطول الباء • وهى للاستعانة أو المصاحبة أو التعدية أى أقدم اسم الله وأجعله ابتداء نظمى وتأليفى • والاسم لغة ما دل على مسمى وعرفا ما دل مفردا على معنى فى نفسه ولم يقترن بزمان • والتسمية جعل اللفظ دالا على المعنى ، وهو مشتق عند البصريين من السمو وهو العلو لأنه يدل على مسماه فيعليه ويظهره وعند الكوفيين من السمة وهى العلامة لأنه علامة عــلى مســماه (١) وأوصل بعضهم لغات الاسم الى ثمانية عشر ونظمها فى قوله :

ثمان وعشر من لغات أتت لنا ... فى الاسم بنص العارفين بنقلها
سم سمة اسم سماء كذا سما ... سماة بتثليث الاوائل كلهــا

الاسم عــين المسمى أو غيره

(فائدة) الاسم فى حق المخلوق غير المسمى وفى الخالق تعالى لا غير ولا عين قال الامام المحقق شمس الدين أبو عبد الله محمد بن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) أسماء الله الحسنى التى فى القرآن من كلامه تعالى وكلامه غير مخلوق ولا يقال هى غيره ولا هى هو ، وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه غيره وهى مخلوقة ، (ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره - ٢) انتهى • و«الله» علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وهو عربى عند الأكثر وزعم البلخى من المعتزلة انه معرب عبرى أو سريانى ، وأكثر محققى النظار على عدم اشتقاقه بل هو اسم مفرد مرتجل للحق جل شأنه ، قال فى شرح المواقف

---

(١) بهامش مخ قال الشيخ شعبان فى معنى ذلك شعرا
مــن الوسم للكوفى اشتقاق مضعف ، وعند سواه من سما الاسم أى أعلاه
(٢) زيادة فى هامش مخ

لفظ الجلالة

وعلى تقدير كونه فى الاصل صفة فقد انقلب علما مشعرا بصفات الكمال للاشتهار • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) زعم السهيلى وشيخه ابن العربى ان اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه سبحانه قديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ولا ريب انه ان أريد بالاشتقاق هذا المعنى فهو باطل ولكن من قال بالاشتقاق لم يرد هذا المعنى ولا ألم بقلبه وانما أراد أنه دال على صفة له تعالى وهى الالهية كسائر أسمائه الحسنى من العليم والقدير فانها مشتقة من مصادرها بلا ريب وهى قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب من قال بالاشتقاق فى الله ، ثم الجواب عن الجميع انالانعنى بالاشتقاق الا أنها ملاقية لمصادرها فى اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله ، وتسمية النحاة المصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه ان أحدهما متولد من الآخر وانما هو باعتبار أن أحدهما متضمن للآخر وزيادة ، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مبادىء وانما هو اشتقاق تلازم يسمى المتضمن (بالكسر) مشتقا والمتضمن (بالفتح) مشتقا منه ولا محذور فى اشتقاق أسماء الله بهذا المعنى • انتهى • ثم اختلف من قال بأنه مشتق فى مأخذ الاشتقاق ، فقيل انه من تأله اذا تذلل فمعناه المتذلل له والثلاثى منه أله يأله بفتح الحشو فى الماضى والمضارع والمصدر بمعنى اعتمد ولجأ الى غيره كما قال :

ألهت اليه فى بلايا تنوبنا ... فألفيته فيها كريما ممجدا

أى التجأت اليه واعتمدت عليه ، والتفعل فى تأله للدلالة على حصول شىء فشىء كما فى تفهم وتعلم ونظائره ، ووجهه ان معنى أله الى الشىء استند اليه وهو يقتضى الذل والافتقار لأنه لا يعتمد على غيره الا بعد ذله لديه وافتقاره اليه فكان معنى تأله تذلل وافتقر واحتاج • وقيل من وله يوله من باب علم ولها ومعناه تحير لكن قلبت الواو همزة فصار الها كما أبدلوا وسادة فقالوا اسادة ونحوه فلما دخلت عليه اداة التعريف صار الأله ثم حذفت الهمزة لكثرة دورانه على الألسنة فصار الله فزيدت الالف بين اللام والهاء لتكون كالعوض عن الهمزة فصار اللاه لكن لا تكتب الألف كما لا تكتب

فى الرحمن لكثرة الاستعمال فى الدوران • واطلاق المصدر وارادة اسم الفاعل أو اسم المفعول شائع فى لغة العرب بمعنى المالوه اليه أى المعتمد عليه المتذلل له المحتاج اليه أو المألوه فيه أى المتحير فيه لدقة طريق معرفته • وقيل انه مشتق من اللهو يعنى الطرب وشدة الفرح واللعب من لهى يلهى بفتح وسطه لكن حذفت الواو من لهو فصار له فأدخلت أداة التعريف وزيدت الالف بين اللام والهاء لتكون كالعوض عن الواوالمحذوفة كما مر ومعناه الملهو به أى المطروب والمفروح به يعنى عند معرفته • وقيل انه مشتق من اللوه أى الاستتار من لاه يلوه اذا استتر لكن قلبت الواو من لوه ألفا فصار لاه فأدخلت أل عليه فصار اللاه فحذفت الألف خطا كما مر • ومن قال بعدم الاشتقاق فقد سلم من هذه التكلفات (١) والله أعلم

الكلام فى الرحمن الرحيم

((الرحمن الرحيم)) اسمان مشتقان من رحم بجعله لازما بنقله الى باب فعل بضم العين أو بتنزيله منزلة اللازم اذ هما صفتان مشبهتان وهى لاتشتق من متعد ، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى غالبا كما فى قطع وقطع ومن غير الغالب قد يفيد ناقص البناء ما لا يفيده زائده من المبالغة كحذر وحاذر فان حذر أبلغ من حاذر ، فالرحمن صفة فى الاصل بمعنى كثير الرحمة جدا ثم غلب على البالغ فى الرحمة غايتها وهو الله ، والرحيم ذوالرحمة الكثيرةوأتى به بعدالرحمن الدال على جلائل النعم اشارة الى ان ما دل عليه من دقائق الرحمة وان ذكر بعد مادل على جلائلها الذى هو المقصود الاعظم هو مقصود أيضا ، ولئلا يتوهم أنه غير ملتفت اليه • وقال بعض الصوفية الرحمن هو المحسن باعطاءالامورالملكوتية مثل الروح والعقل والايمان والشهوة والقدرة ونحوها ، وقيل هو المحسن فى الدنيا لعموم احسانه لأنه يعم باحسانه المسلم والكافر وغيرهما ،والرحيم بالضد ، فباعتبار كونالرحمن للدنيايكونالرحيم للآخرة ، وبكونهللملكوتية يكون الرحيم لعالم الشهادة من اعطاء المأكول والمشروب والملبوس الى غير

(١) بهامش مخ (قال ابن القيم القول الصحيح أن الله أصله الاله كما قال سيبويه وجمهور أصحابه الا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لمعانى الاسماء الحسنى والصفات العلى انتهى • وقال ابن جرير فى الكلام على هذا الاسم قال فانه على ما روى لنا عن ابن عباس قال : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ا ه

ذلك . فان قيل اذا كان الرحمن الرحيم اسمين فكيف أعربا نعتا لله تعالى والاعلام لا ينعت بها قيل قد قال هذا قوم وأعربوهما على أنهما بدل ، وقال السهيلي البدل ممتنع أيضا كعطف البيان لان الاسم الاول لا يفتقر الى تبيين لانه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا : وما الرحمن ؟ ولم يقولوا : وما الله . قال السهيلي لكنه وان أجرى مجرى الاعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم ، وقال المحقق ابن القيم في (بدائع الفوائد) أسماء الرب تعالى أسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا ينافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع . يعني كقوله تعالى (الرحمن علم القرآن * الرحمن على العرش استوى * أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) وهذا شان الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجيء اسمه « الله » كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمة كاسمه « الله » فانه دال على صفة الالوهية. ولم يجيء قط تابعا لغيره بل متبوعا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ولهذا لا تجيء هذه ونحوها مفردة بل تابعة . قال ابن القيم روح الله روحه: وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى بديع وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم وكأن الاول الوصف والثاني الفعل فالاول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه ، والثاني دال على انه يرحم خلقه برحمته أى صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * انه بهم رؤوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم فعلمت بهذا ان رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته . قال رحمه الله تعالى : وهذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب وان تنفست عندها مرآة قلبك لم تتجل لك صورتها . انتهى . ورحمة الله جل شأنه وتعالى سلطانه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضيل (١) والانعام ، وأما تفسيرها برقة في القلب تقتضي التفضيل فالتفضيل غايتها فيراد منها غايتها

---

(١) كذا «والمشهور التفضل»

كما يقوله من يقوله من المتكلمة كالزمخشرى فى كشافه وغيره من النظار فهذا انما يليق برحمة المخلوق لا برحمة الخالق تعالى وتقدس وبينهمابون• ونظير ذلك العلم فان حقيقة علمه تعالى القائمة به ليست مثل الحقيقة القائمة بالمخلوق بل نفس الارادة التى يرد بعضهم الرحمة اليها هى فى حقه تعالى مخالفة لارادة المخلوق اذ هى فى المخلوق ميل قلبه الى الفعل أو الترك والله منزه عن ذلك وكذلك رد الزمخشرى لها فى حقه تعالى الى الفعل بمعنى الانعام والتفضيل ، فان فعل العبد الاختيارى انمايكون لجلب نفع للفاعل أو دفع ضرر عنه ولا كذلك فعله تعالى،فمافرضه أهل التأويل موجود فيما فروا اليه من المحذور ، وبهذا ظهر أنه لا حاجة الى دعوى المجاز فى رحمته تعالى فانه خلاف الاصل وهو انما يصار اليه عند تعذر حمل الكلام على حقيقته ولا تعذر هنا كما لا يخفى •وأيضا معيار المجاز صحة نفيه كما اذا قيل زيد أسد أو بحر أو قمر لشجاعته أو كرمه أو حسنه فانه يصح أن تقول زيد ليس بأسد أو ليس ببحر أو ليس بقمر وهذا مما لا خلاف فيه بينهم ولا يصح أن يقال : الله ليس برحيم ، فلو كانت الرحمة مجازا فى حقه تعالى لصح ذلك • ولا ريب ان الرحمة صفة كمال وسائر الكتب السماوية مملوءة بذكرها واطلاقها عليه تعالى ، ومن العجب أن تكون هذه الصفة العظيمة حقيقة فى حق المخلوق مجازا فى حق الخالق • والحاصل ان الصفة تارة تعتبر من حيث هى هى ، وتارة تعتبر من حيث قيامها به تعالى • وتارة من حيث قيامها بغيره تعالى • وليست الاعتبارات متماثلة اذ ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والكلام على الصفات فرع عن الكلام فى الذات فكما انا نثبت ذاتا ليست كالذوات فلنثبت رحمة ليست كرحمة المخلوق كما أشار الى ذلك وقرره ونبه عليه وحرره ابن القيم رحمه الله فى البدائع

فوائد

فوائد تتعلق بالبسملة

(الاولى) انما بدأ المصنفون كتبهم بالبسملة تأسيا بالكتاب المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم واقتداء به فى مكاتباته للملوك وغيرهم وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بسم الله

الرحمن الرحيم (فهو-١) أقطع » رواه عبد القادر الرهاوى فى الاربعين البلدانية وكذا الخطيب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه • ومعنى ذى بال أى حال شريف يحتفل له ويهتم به من مصنف ودارس ومدرس وخطيب وخاطب وبين يدى كل الامور المهمة ، ويعنى بالاقطع ناقص البركة وقد يكون غير معتد به • وروى ابن ماجه والبيهقى من حديث أبى هريرة أيضا رضى الله عنه مرفوعا « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة على فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة » تفرد بذكر الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم اسماعيل بن زياد وهو ضعيف وفى رواية « كل أمر ذى بال لا يفتتح (فيه-١) بذكر الله » وقد روى أبو داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » اسناده صحيح (الثانية) اختلف القدماء فيما اذا كان الكتاب كله شعرا فجاء عن الشعبى رحمه الله منع ذلك ، وعن الزهرى رحمه الله قال مضت السنة أن لا يكتب فى الشعر بسم الله الرحمن الرحيم ، وعن سعيد بن جبير رحمه الله جواز ذلك وتابعه على ذلك الجمهور ، وقال الخطيب : **وهو المختار** • انتهى • ولاسيما ان كان المنظوم من نفائس العلوم • قال بعض العلماء الراجح عند الجمهور طلب البسملة فى ابتداء الشعر ما لم يكن محرما أو مكروها • قال وأما ما تعلق بالعلوم فمحل اتفاق (الثالثة) البسملة آية منفردة بنفسها فاصلة بين السور القرآنية ليست من أول كل سورة لا الفاتحة ولا غيرها على الصحيح من المذهب وفاقا للامام أبى حنيفة ، وأما مالك رضى الله عنه فقال ليست هى من القرآن رأسا ، وعند الشافعى رضى الله عنه انها آية من كل سورة من القرآن سوى براءة • ومراد من قال انها ليست من القرآن غير التى فى سورة النمل فانها بعض آية اجماعا فيكفر منكرها بخلاف البسملة غيرها فتبصر (الرابعة) فى بعض فضائل البسملة ، فى ذلك أحاديث وآثار كثيرة جدا قال الزهرى فى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) هى بسم الله الرحمن الرحيم • وروى الامام

---

(١) من مخ

أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال « هو اسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين اسم الله الاكبر الا كما بين سواد العين وبياضها من القرب » (١) وكذلك رواه أبو بكر ابن مردويه ، وروى الامام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم في المستدرك واللفظ للنسائي عن أبي المليح ـ واسمه عامر وقيل زيد ـ بن أسامة بن عمير عن أبيه رضي الله عنه قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فعثر بعيرنا فقلت تعس الشيطان فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقل تعس الشيطان فانه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صرعته ولكن قل بسم الله فانه يصغر حتى يصير مثل الذباب » . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقل بسم الله الرحمن الرحيم فانها تسعة عشر حرفا فيجعل الله كل حرف منها جنة من واحد منهم . ذكره ابن عطية والقرطبي وابن كثير في تفاسيرهم عن وكيع عن الاعمش عن أبي وائل عنه (٢) . قال أبو القاسم الجنيد بن محمد قدس سره : في بسم الله هيبته وفي الرحمن عزته وفي الرحيم مودته . وفضائل البسملة غير محصورة وأدلة شرفها مشهورة (الخامسة) قال بعض الصوفية وغيرهم اسم الله الاعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم كلها ، وعند أكثر أهل العلم انه لفظ الجلالة ، وعدم الاجابة لاكثر الناس مع الدعاء به لتخلف بعض الشروط التي من أهمها الاخلاص وأكل الحلال ، وقد أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول اللهم اني أسألك بأني أشهد انك أنت الله لا اله الا أنت الاحد الصمد لم يلد ولم

الاسم الاعظم

---

١ في سنده سلام بن وهب الجندي ، وفي ترجمته من ميزان الذهبي. ذكر هذا الخبر وقال : منكر بل كذب

٢ ينظر سنده الى وكيع

يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، فقال له « لقد سألت الله بالاسم الذى اذا سئل به أعطى واذا دعى به أجاب » ورواه الحاكم الا أنه قال فيه « لقد سألت الله باسمه الاعظم » وقال : صحيح على شرطهما • قال الحافظ المنذرى قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسى : واسناده لا مطعن فيه ، قال ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود اسنادا منه • انتهى • وقال المحقق ابن القيم ومجموع اسم الله الاعظم هو الحى القيوم وذكر ذلك فى نونيته بقوله :

ولأجل ذا جاء الحديث بأنه	فى آية الكرسى وذى عمران
اسم الاله الاعظم اشتملا على	اسم الحى والقيوم مقترنان
فالكل مرجعها الى الاسمين يد	رى ذاك ذو بصر بهذا الشأن

أشار الى ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حديث حسن صحيح من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين (والهكم اله واحد الا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة سورة آل عمران (الله لا اله الا هو الحى القيوم) • وأخرج الامام أحمد وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بأبى عياش زيد بن الصامت الزرقى وهو يصلى وهو يقول اللهم انى أسألك بأن لك الحمد لا اله الا أنت يا حنان يا منان يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد دعا الله باسمه الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى » ورواه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وزاد هؤلاء الاربعة « يا حى يا قيوم » وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم • وزاد الحاكم فى رواية له « أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » وقد روى يعلى (؟) ورواته ثقات عن السرى بن يحيى عن رجل من طيىء وأثنى عليه خيرا قال كنت أسأل الله عز وجل أن يرينى الاسم الاعظم الذى اذا دعى به أجاب فرأيت مكتوبا فى الكواكب فى السماء : يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام • والذى فى جلاء الافهام للمحقق ابن القيم : وفى مسند أبى يعلى الموصلى عن بعض

الصحابة انه طلب أن يعرف اسم الله الاعظم فرأى فى منامه مكتوبا فى السماء بالنجوم : يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام • انتهى

ابتـداء شرح خطبة المتن

((الحمد لله القديم البـاقى مسبب الاسباب والارزاق))
((حى عليم قادر موجـود قامت به الاشياء والوجود))

((الحمد)) لغة الثناء باللسان على الجميل الاختيارى على جهـة التعظيم والتبجيل (١) ، وعرفا فعل ينبىء عن تعظيم المنعم على الحامد وغـيره • والشكر لغة هو الحمد اصطلاحا ، وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فى ما خلق لأجله ، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه يجتمعان فيما اذا كان باللسان فى مقابلة نعمة ، وينفرد الحمد فيما اذا كان (باللسان لا فى مقابلة نعمة ، وينفرد الشكر فيما اذا كان - ٢) بغير اللسان فى مقابلة نعمة • واختار الجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات على الجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث لانه مع كونه على نسق الكتاب العظيم أليق بالمقام ، وتفاؤلا بذلك • وهى وان كانت خبرية لفظا فهى انشـائية معنى • واختار مادة الحمد لاشتماله على الحاء الحلقية والميم الشفوية والدال اللسانية فى استعمالها بالثناء عـلى رب البرية حتى لا يخـلو مخرج من نصيبه من ذلك بالكلية • و « ال » فى الحمد للاسـتغراق أو الجنس أو العهد أى كل الحمد مستحق أو جنسه مختص ومملوك ((لله)) وعلامة ال الاستغراقية أن يخلفها كل ونحـوها ، وال الجنسـية اذا تعقبتهـا لام الاختصاص كان المعنى جنس الحمد مختص ومملوك له تعالى فتفيد ما أفادته ال الاستغراقية ضمنا • وان كانت ال للعهد فالمعهود ثناء الله على نفسـه وثناء ملائكته ورسله وأنبيائه وخواص خلقه ولا نظر لغير ثنائهم • واللام فى لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص • ولما ابتدأ بالبسملة ابتـداء حقيقيا وهو الاتيان بها قبل كل شىء أعقبها بالحمدلة ابتـداء اضـافيا أى بالنسبة لما بعدها وهو ما يقدم على الشروع فى المقصود بالذات جمعا بـين حديثى البسملة والحمدلة ، ولم يعكس لموافقة الكتاب العزيز فان الصحابة

١ بهامش مخ : التبجيل التعظيم وزنا ومعنى وفعلا ومصدرا أهـ
٢ من مخ

القدم والبقاء في صفاته تعالى وان اسماءه توقيفية

افتتحوا كتابته في الامام الكبير بالتسمية والحمدلة تلوها وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم في جميع الامصار سواء في ذلك من يقول بأن البسملة آية ومن لا يقول ذلك فكان أولى ((القديم)) نعت لله وهو اسم من أسمائه (١) وتقدم في الرحمن انه ونحوه من أسماء الله تعالى وان جرى مجرى الاعلام فهو وصف يراد به الثناء ، فأسماؤه تعالى أسماء ونعوت • والقديم هو الذى لم يسبق وجوده عدم فانه سبحانه وتعالى متصف بالقدم وهى صفة سلبية في اصطلاحهم ، والصفات السلبية ما مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى ، فقدمه تعالى ذاتي واجب له تعالى غير مسبوق بعدم ، اذ هو تعالى لا ابتداء لوجوده • واعلم ان القدم اما ذاتي كقدم الواجب ، واما زماني كقدم زمان الهجرة بالنسبة لليوم ، ومنه (حتى عاد كالعرجون القديم) ومنه القدم الاضافي كقدم الاب بالنسبة للابن (فائدة) القديم أخص من الازلي لان القديم موجود لا ابتداء لوجوده والأزلي ما لا ابتداء له وجوديا كان أو عدميا فكل قديم أزلي ولا عكس •

---

١ لمفتي الديار النجدية في عصره العلامة الشيخ عبد الله بابطين المتوفى سنة ١٢٨٢ تعليق على هذا الموضع هذا نصه : قوله ان القديم اسم من أسمائه تعالى فيه نظر من وجهين الاول ان اسماء الله تعالى عند أهل السنة توقيفية والتوقيفي هو الذى لا يثبت الا بنص وهذا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ليس في شيء منها تسمية الله بالقديم وانما سمى الله نفسه بالاول والآخر وهذا يغني عن القديم وهو أبلغ منه في المعنى لدلالته على القدم وانه لم يسبقه شيء بل ولم يماثله فان الاول يدل على سبق الله تعالى لكل شيء كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله انت الاول فليس قبلك شيء • وأما الوجه الثاني فلأن أسماء الله كلها حسنى أى بالغة في الحسن منتهاه فهي مشتملة من كل معنى كمال على أحسنه وأتمه وأعمه فلا نقص فيها بوجه من الوجوه فلم يكن من أسمائه المريد ولا المتكلم ولا الصانع لانقسام مثل هذه الاسماء الى صفتي مدح وذم باعتبارين واما الاخبار عنه بأنه متكلم ومريد وصانع فهذا جائز لان باب الاخبار عنه أوسع من باب الانشاء وحيث تقرر ذلك فان القديم ليس من الاسماء الحسنى فان القدم معنى اعتبارى لا يدل على الاولية فان معناه المتقدم على غيره وان كان حادثا ومتأخرا بالنسبة الى شيء آخر ومما يدل على ذلك قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) وبذلك لا يصح اطلاق القديم على الله باعتبار أنه من أسمائه وان كان يصح الاخبار به عنه كما قلنا ان باب الاخبار أوسع من باب الانشاء والله أعلم

وفرق آخر أيضا وهو أن القديم يستحيل أن يلحقه تغير أو زوال بخلاف الأزلى الذى ليس بقديم كعدم (١) الحوادث المنقطع بوجودها ((الباقى)) مشتق من البقاء وهو امتناع لحوق العدم ، والبقاء صفة واجبة له تعالى (٢) كما وجب له القدم ، لان ما ثبت قدمه استحال عدمه لانه سبحانه لو قدر لحوق العدم له لكانت نسبة الوجود والعدم الى ذاته تعالى سواء ، فيلزم افتقار وجوده الى موجد يخترعه بدلا عن العدم الجائز عليه تقدس وتعالى عن ذلك فيكون حادثا واللازم باطل فكذا الملزوم لان وجوده تعالى واجب لذاته • (تنبيه) نقل بعض المحققين ان البقاء صفة نفسية ، وعن الأشعرى انها صفة معنى ، والمشهور عند المتكلمين المحققين انها صفة سلبية كالقدم ومنهم من ذهب الى أن القدم سلبى والبقاء وجودى ومعنى ما ذكرنا انه تعالى لا يشاب بالعدم وهذا من نعوت الجلال ، والجلال عبارة عن الصفات السلبية ، ففى القدم سلب الحدوث ، وفى البقاء سلب الفناء ولحوق العدم فنعوت الجلال كالقوام للكمال ((مسبب الاسباب)) المتوصل بها الى مسبباتها أى خالق الاسباب المتوصل بها الى المطلوب • قال أهل اللغة السبب الحبل وكل شىء يتوصل به الى أمر من الامور • وفى عرف الشرع ما يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم لذاته ، فالاول احتراز من الشرط فانه لا يلزم من وجوده الوجود ، والثانى احتراز من المانع لانه لا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته ، والثالث احتراز

---

(١) مخ (كقدم) ويأتى فى التعليق على ما قيل من قدم القرآن ما يقتضى النظر فى كلامه هنا

(٢) للشيخ عبد الله بابطين تعليق على هذا الموضع وهو : ليس فى كلام المؤلف ما يدل صراحة على أن الباقى من أسماء الله الحسنى ولم أجد حتى ساعتى هذه ما يدل على أنه من أسماء الله وان كان فى القرآن قد أضيف البقاء الى الله فى قوله (ويبقى وجه ربك) لكن التعبير عن الصفة بالفعل لا يعنى أن يشتق له اسم منها ولذلك لم يشتق لله اسم من نحو قوله (الله يستهزىء بهم - ويمكر الله - واكيد كيدا - والسماء بنيناها - والارض فرشناها) وأمثال ذلك لكن الباقى ان ثبت انه من أسمائه وجب اثباته والا فلا نطلقه على الله وان كان الاخبار به عنه سائغا فباب الاخبار أوسع وفى القرآن ما دل على هذا المعنى وزيادة وهو قوله تعالى (والآخر) فان معناه هو الذى ليس بعده شىء والله أعلم

مما لو قارن السبب فقدان الشرط ووجود المانع كالنصاب قبل تمام الحول أو مع وجود الدين فانه لا يلزم من وجوده الوجود لكن لا لذاته بل لأمر خارج عنه وهو انتفاء الشرط فى الاول ووجود المانع فى الثانى ، فالتقييد بكون ذلك لذاته للاستظهار على ما لو تخلف وجود المسبب مع وجدان السبب لفقد شرط أو وجود مانع كمن فيه سبب الارث ولكنه قاتل أو رقيق ، وعلى ما لو وجد المسبب مع فقدان السبب لكن لوجود سبب آخر كالردة المقتضية للقتل اذا فقدت ووجد قتل يوجب القصاص أوزنا محصن فتخلف هذا الترتيب عن السبب لا لذاته بل لمعنى خارج ، ولهذا قال بعض الاصوليين السبب عبارة عن وصف ظاهر منضبط دل الدليل الشرعى على كونه معرفا لثبوت حكم شرعى طرديا كان كجعل زوال الشمس سببا للصلاة أو غير طردى كالشدة المطربة سواء أطرد الحكم معه أو لم يطرد ، لان السبب الشرعى يجوز تخصيصه وهو المسمى تخصيص العلة • فان قلت هل من أسمائه تعالى المسبب حتى أطلقته عليه مع أن أسماءه توقيفية أم كيف الحكم ؟ قلت ذكر غير واحد من المحققين منهم الامام المحقق فى (بدائع الفوائد) ان ما يطلق عليه سبحانه فى باب الاسماء والصفات توقيفى وما يطلق عليه فى باب الاخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم والشىء والموجود أو القائم بنفسه • قال فى البدائع فهذا فصل الخطاب فى مسئلة أسمائه هل هى توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لا يرد به السمع • (تنبيه) فى نسخة من منظومتى بدل مسبب الاسباب مقدر الآجال : وهو أولى لامرين ، الاول ان المقدر من صفات أفعاله المعبر عنها بالفواضل لان تقدير الآجال - وفى نسخة بدل الآجال : الاقدار ، وهو أعم - وتدبير الامور والاحكام - فعل هو احسان منه تعالى وهو السبب لوجود الحمد والشكر ، لان الاحسان يدعو الى ذكر المحسن بفضائله التى يتأتى بها الاحسان ، والاقدار جمع قدر بسكون الدال وهو عبارة عن مبلغ الشىء ومنتهاه من حيث المكان والزمان وكل ما له قدر فمصنوع مفتقر الى مخصص (١) يقدر المتصف به من الاقدار من طول وعرض

---

(١) ينظر ما يأتى فى التعليق على أوائل الباب الاول •

وعمق فالله تعالى جعل لكل شيء قدرا لا يتجاوزه وحدا لا يتعداه (الثانى) الدلالة على تقدير الآحال جمع أجل محركة غاية الوقت فى الموت وحلول الدين ومدة الشيء قال تعالى (اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها * وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا) والاخبار والآثار فى ذلك كثيرة جدا ((و)) مقدر ((الارزاق)) بالفتح جمع رزق بالكسر ما ينتفع به من حلال وحرام ويأتى الكلام عليه فى محله هو سبحانه ((حى)) أى لم يزل موجودا وبالحياة موصوفا وسائر الاحياء يعترضهم الموت والعدم فى أحد الطرفين أو فيهما معا (كل شيء هالك الا وجهه) والحياة صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى ((عليم)) بالسرائر والخفيات التى لا يدركها علم خلقه كقوله تعالى (عليم بذات الصدور) وجاء على بناء فعيل للمبالغة فى وصفه بكمال العلم أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وهو مشتق من العلم ويأتى الكلام عليه ((قادر)) أى ذو القدرة التامة ، والقدرة عبارة عن صفة يوجد بها المقدور على طبق العلم والارادة • قال شيخنا الشهاب المنينى فى كتابه شرح تاريخ العتبى : للقادر معنيان أحدهما أن يكون بمعنى القدير من القدرة على كل شيء وذلك صفة الله تعالى وحده دون غيره وانما يوصف القادر منا على بعض المقدورات دون بعض • وثانيهما أن يكون القادر بمعنى المقدر يقال منه قدر بالتخفيف والتشديد معنى واحد قال تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) أى نعم المقدرون ، والمراد بقوله من القدرة على كل شيء يعنى على كل ممكن لانه الذى تتعلق به القدرة كما يأتى فى محله ((موجود)) سبحانه وتعالى بالوجود القديم لان العالم وكل جزء من أجزائه حادث ومفتقر من حيث وجوده وعدمه اليه تعالى من حيث صانعيته وايجاده اياه ، وصانع العالم المحتاج اليه فى وجوده لا يكون الا واجبا بخلاف وجود غيره فانه جائز ، وحاصل ذلك أن يقال قد ثبت حدوث العالم ، أو يقال لا شك فى وجود حادث وكل حادث فبالضرورة له محدث فاما أن يدور أو يتسلسل وكلاهما محال ، واما أن ينتهى الى قديم

تفسير حى عليم قادر موجود

---

(١) يأتى ما فيه فى التعليق على المتن

لا يفتقر الى سبب أصلا وهو المراد ، ومن ثم قلنا ((قامت)) أى وجدت واستمرت ((به)) سبحانه وتعالى ((الاشياء)) **كلها من الجواهر والاعراض** العلوية والسفلية ((و)) قام به ((الوجود)) لكل موجود سواه فهو الذى خلقه وسواه وأحدثه وأنشاه ، فوجود البارى صفة له واجب قديم ووجود غيره جائز محدث باحداث الخالق الحكيم • وعطفه على الاشياء من عطف الخاص على العام للتنصيص عليه ردا على القائلين بكلية الوجود ووحدته ، وانه قديم وانه موجود فى الخارج ، وهذا ضرب من الهذيان وان جل ناقلوه فان القائلين به هم القائلون بالوحدة ، ولا يخفى ان القول بها ضرب من الزندقة ، فان من المعلوم بصريح العقل وصحيح النقل ان الخالق المبدع ليس هو بمخلوق ولا جزءا من أجزائه ولا صفة من صفاته ، تعالى وتقدس عما يقولون علوا كبيرا • ومن يقول ان الكليات الطبيعية ثابتة فى الخارج فانه يقول انها جزء من المعينات أو صفة لها ، ولهذا يقولون المطلق جزء من المعين والعام بعض الخاص فيلزم من زعم ان وجود الرب تعالى هو الكلى أن يكون الخالق جزءا من المخلوق أو صفة له ، وهذا مما يعلم بطلانه بصريح العقل وصحيح النقل • وأما المثل الافلاطونية فإذا قيل ان ثم وجودا كليا مطلقا مقارنا لجميع الموجودات فهو بمنزلة الانسانية المطلقة والحيوانية المطلقة ، والعقل الصريح يقطع أن الانسانية المقارنة لا تكون خالقة لكل انسان ، ولا الحيوانية خالقة لكل حيوان فكيف يكون الوجود المجرد خالقا لكل موجود أو قديما غير مخلوق ؟ فان هذه الكليات لو قدر وجودها وانها جواهر عقلية - مع ان هذا باطل ولا وجود لها الا فى الاذهان وهؤلاء تخيلوها فى أذهانهم فظنوا وجودها فى الخارج - فعلى فرض تسليم ذلك فهى جواهر بسيطة لا توصف بأنها حية ولا عالمة ولا قادرة ولا متكلمة ، فتعالى الله عن مقالات أهل الوحدة والحلول والفلسفة والزندقة علوا كبيرا • والحاصل انه لا ذرة ولا شذرة من جوهر ولا عرض ولا ملك ولا فلك ولا روح ولا نفس ولا جن ولا انس من جميع العالم السفلى والعلوى الا وهو مخلوق ومصنوع لله تعالى كان بعد أن لم يكن فلا يستحق الوجود الواجب شىء سواه ، ولا التفات

الكلام فى الوجود

لمن لم يهده الله فأثبت القدم لبعض مخلوقات الله تعالى كما يأتى الكلام على ذلك فى محله عند قولنا * وضل من أثنى عليها بالقدم *

وجود الخلق دليل وجود الخالق

* ((دلت على وجوده الحوادث سبحانه فهو الحكيم الوارث)) *(١)

((دلت)) دلالة عقلية قطعية ((على وجوده)) سبحانه وتعالى ((الحوادث)) جمع حادث وهو خلاف القديم ، والدلالة هى كون الشىء بحيث يلزم من العلم به العلم أو الظن بشىء آخر أو من الظن به الظن بشىء آخر ، فالاول يسمى دليلا برهانيا وبرهانا ان لم يتخلله الظن ، والا فدليلا اقناعيا وامارة ، والشىء الثانى يسمى مدلولا • ثم الدال ان كان لفظا فالدلالة لفظية والا فغير لفظية ، فان توسط الوضع فيها كالخطوط والعقود والاشارة والنصب فوضعية والا فعقلية كدلالة العالم على الصانع ، وقد استدل به جمع محققون من علماء الكلام وغيرهم وهو مبنى على مقدمتين ، احداهما ان الحوادث موجودة والثانى ان الحادث لا يوجد الا بقديم ، وبعضهم يعبر ان الممكنات موجودة وان الممكن لا يوجد الا بواجب • فأما المقدمة الاولى فدليلها ما يشاهد من حدوث الحوادث فانا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه

---

١ علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :
قوله . دلت على وجوده الحوادث : أشار المؤلف رحمه الله الى دليل معروف بين المتكلمين على وجود البارى جل وعلا وهو أن هذه الحوادث اما أن تكون محدثة أو غير محدثة والثانى محال لان غير المحدث يستحيل عدمه وحدوثها دليل على عدمها من قبل والاول اما أن يكون حدوثها بنفسها أولا فالاول محال لان كل حادث لابد له من محدث ولا يمكن أن تحدث نفسها بنفسها للدور واذا كان لابد لها من محدث تعين أن يكون هو الله تعالى لانه هو الواجب الوجود • والمؤلف رحمه الله لم يقصد حصر الدليل على وجود الله بالحوادث فقط فان جميع أنواع الادلة على وجود الله متفقة لا الادلة العقلية ولا السمعية ولا الفطرية حتى ان البهائم بل الجمادات تعرف ان لها ربا موجودا يستحق التعظيم والتنزيه وهى تسبح بحمده كما قال تعالى (وان من شىء الا يسبح بحمده) وكما سمع تسبيح الحصا بيد النبى صلى الله عليه وسلم وينبغى أن يعرف ان كل حادث من الحوادث فانه يدل على ثبوت الصفة التى هو من أثرها لله تعالى فنفع الخلق كلهم وايصال الرزق اليهم واعطاء كل مخلوق ما خلق له كل هذا يدل على كمال رحمته وعلمه، وانتظام الخلق والشرع على أتم وجه دليل على كمال حكمته ، ونصره لأوليائه ومدافعته عنهم دليل على كمال علمه وعزته وقهره • وعلى هذا فليقس الباقى والله أعلم •

الحوادث ليست ممتنعة فان الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجوبها ووجودها ينفي امتناعها • وهذا دليل قاطع واضح بين على ثبوت الممكنات • وأصرح من ذلك وأوضح ان نفس حدوث الحوادث دليل على اثبات المحدث لها فان العلم بأن الحادث لا بد له من محدث أبين من العلم بأن الممكن لابد له من واجب ، فتكون هذه الطريق أبين وأقصر كما في النظم • وأما المقدمة الثانية وهي ان الحادث لابد له من محدث فلاستحالة حدوثه بنفسه كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) يقول الله تعالى أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم ، ومعلوم ان المحدث لا يوجد بنفسه ، وطريق العلم بذلك أن يقال : الموجود أما حادث واما قديم ، والحادث لابد له من قديم ، فيلزم ثبوت القديم على كل حال ، وذلك ان الفقر والحاجة لكل حادث وممكن وصف لازم لها فهي مفتقرة اليه دائما حال الحدوث وحال البقاء ، ومن زعم من أهل الكلام ان افتقارها اليه في حال الحدوث فقط كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم ، أو في حال البقاء فقط كما يقوله من يقوله من المتفلسفة القائلين بمساواة العالم له ، وكلا القولين خطأ كما قاله شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية روح الله روحه في شرح عقيدة شمس الدين الاصبهاني رحمه الله تعالى ، فالامكان والحدوث متلازمان فكل محدث ممكن وكل ممكن محدث ، والفقر ملازم لهما فلا تزال مفتقرة اليه لا تستغني عنه لحظة عين ، وهو الصمد الذي يصمد اليه جميع المخلوقات ولا يصمد هو الى شيء بل هو سبحانه المغني لما سواه • وللامام ابن تيمية :

الفقر لي وصف ذات لازم أبدا   كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

((سبحانه)) وتعالى وهو اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وانتصابه بفعل متروك اظهاره ولا يخفى حسن موقعه هنا أي هو سبحانه وتعالى منزه عن أن يخلق الخلق سدى أو يشاركه في احداث شيء من الحوادث شريك ، بل هو الخالق المختار بلا حاجة ولا اضطرار بقدرة قاهرة لحكمة باهرة ولهذا قلنا ((فهو)) تعالى ((الحكيم)) أي المتقن لخلق الاشياء بحسن

الحكيم والحكمة الآلهية

التدبير وبديع التقدير ، بحيث يخضع العقل لرفعته ، ويشهد باتقان صنعته، كما قال تعالى (أحسن كل شيء خلقه) وقال (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) والحكيم من أسمائه الحسنى وهو ذو الحكمة وهي اصابة الحق بالعلم ، فالحكمة منه تعالى علم الأشياء وايجادها على غاية الاحكام ، ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات ، وهذا الذى وصف به لقمان فى قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال الامام الحافظ ابن الجوزى فى كتابه (صيد الخاطر) : العقل لا ينتهى الى حكمة الخالق سبحـــانه وقد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته فتعرضه بالتفاصيل على ما تجرى به عادات الخلق جهل • ثم قال : ألا ترى الى أول المعترضين وهوابليس اللعين كيف ناظر فقال أنا خير منه وقول أبى العلاء المعرى * رأى منك مالا يشتهى فتزندقا (١) * ثم قال ويحك أحضر عقلك وقلبك واسمع ما أقول ، أليس قد ثبت أن الحق مالك وللمالك أن يتصرف كيف يشاء ؟ أليس قد ثبت انه حكيم والحكيم لا يعبث ؟• قال وأنا أعلم ان فى نفسك من هذه الكلمة شيئا فانك قد سمعت عن جالينوس انه قال : ما أدرى أحكيم هو أم لا ؟ والسبب فى قوله هذا انه رأى نقضا بعد احكام فقاس الحال على أحوال الخلق وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى فليس بحكيم ، قال وجوابه لو كان حاضرا أن يقال : بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة ؟ أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك ؟ فكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال ؟؟ وهذه المحنة التى جرت لابليس فانه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو فكـــر علم ان واهب العقل أعلى من العقل ، وان حكمته أوفى من كل حكيم ،لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول ، فهذا اذا تأمله المنصف زال عنه الشك•انتهى• ومراد الحافظ ابن الجوزى من كان ممن لا يرى طريقا الى ادراك حكمته الا بالعقل ، كيف وقد جاء فى صحيح المنقول ما يوافق صريح المعقول من الكتاب والسنة ما لا يبقى فى لب اللبيب أقل اختلاج وأدنى ريب والله أعلم بكل غيب • وهو ((الوارث)) أى الباقى بعد فناء الخلق والمسترد لأملاكهم ومواريثهم بعد موتهم قال تعالى (انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا

(١) بهامش مخ : هذا كقول ابن الراوندى قبحه الله
هذا الذى صير الاوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا اهـ

يرجعون) وقال تعالى (وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) فلا يبقى عليها ولا عليهم لأحد غيره سبحانه ملك ولا ملك ، ويقول الله تعالى فى ذلك اليوم بعد فناء الخلق (لمن الملك اليوم) ولا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول (لله الواحد القهار) وسيأتى الكلام على دقائق تتعلق بالأسماء عند مباحثها ان شاء الله تعالى

ثم انى بعد ابتدائى بالبسملة والحمدلة والثناء عليه تعالى بما هو أهله عقبته بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم اظهارا لعظمة قدره ، وأداء لبعض حقوقه الواجبة اذ هو الواسطة بين الله وبين عباده ، وجميع النعم الواصلة اليهم التى من أعظمها الهداية للدين القويم انما هى به وعلى يديه صلى الله عليه وسلم ، وامتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) واغتناما للثواب الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له » وفى رواية « تصلى عليه مادام اسمى فى ذلك الكتاب » وللجمع بين الثناء على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه فقلت :

★ ((ثم الصلاة والسلام سرمدا على النبى المصطفى كنز الهدى))
★ ((وآله وصحبــــه الابرار معادن التقـــوى مع الاسرار)) ★

معنى الصلاة على النبى ص من الله والعباد

((ثم الصلاة)) وهى من الله الرحمة (١) ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم التضرع والدعاء بخير ، هذا هو المشهور والجارى على ألسنة الجمهور ولم يرتض هذا الامام المحقق ابن القيم فى كتابيه (جلاء الافهام) و (بدائع الفوائد) وغيرهما ورده من وجوه (أحدها) ان الله تعالى غاير بينهما فى قوله (عليهم صلوات من ربهم ورحمة) (٢) (الثانى) ان سؤال الرحمة يشرع لكل مسلم والصلاة تختص بالنبى صلى الله عليه وسلم وآله فهى حق له ولآله ولهذا منع كثير من العلماء الصلاة على معين غيره يعنى وغير سائر الانبياء والملائكة ولم يمنع أحد من الترحم على معين من المسلمين

(١) بهامش مخ واختار ابن القيم انها بمعنى الثناء من الله ا هـ وفى تنبيه ابن سحمان ص ٤ « الصواب ما ذكره البخارى فى صحيحه عن أبى العالية قال : صلاة الله ثناؤه على عبده فى الملأ الاعلى »

(٢) بهامش مخ ولعطف الرحمة على الصلاة ، والعطف يقتضى المغايرة اهـ

(الثالث) ان رحمة الله عامة وسعت كل شيء وصلاته خاصة لخواص عباده (١) • وقولهم الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل أيضا من وجوه

---

(١) بهامش مخ ما نصه : وتمام كلام المحقق منقول من كتابه المذكور قال : الرابع أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الانبياء • الخامس انه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الامر وأسقطت الوجوب عند من أوجبها وليس الامر كذلك • السادس أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق طبعه عليه فأطعمه وسقاه أو كساه أنه صلى عليه ويقال رحمه • السابع ان الانسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلى عليه • الثامن أن الصلاة لابد فيها من كلام فهى ثناء من المصلى على من يصلى عليه ، الى أن قال : التاسع ان الله سبحانه فرق بين قرن صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما في فعل واحد فقال ان الله وملائكته يصلون على النبى، وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون بمعنى الرحمة وانما هى ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه • الى أن قال : الوجه العاشر ان الله أمر بالصلاة عقب أخباره بأنه وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضا عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة • ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم فينقص اللفظ والمعنى - الى أن قال :
« الحادى عشر • أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا • وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست رحمة من العبد فتكون صلاة الله عليه من جنسها وانما هى ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم من العبد فجزاه الله من جنس عمله • الى أن قال : الوجه الثانى عشر • أن أحدا لو قال : عن رسول الله رحمه الله ، أو قال رسول الله رحمه الله - لبادره الامة بالانكار عليه وعدوه مبتدعا غير موقر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مصل عليه ولا مثن عليه بما يستحقه • ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك - الى أن قال :
الثالث عشر أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الاصليه بمعنى الرحمة أصلا • والمعروف عند العرب من معناها انما هو الدعاء والتبريك والثناء فالواجب حملها على معناها المتعارف • الرابع عشر أنه يسوغ بل يستحب لكل مسلم أن يسأل الله أن يرحمه فيقول اللهم ارحمنى ومعلوم أنه لا يسوغ لاحد أن يقول اللهم صل على بل الداعي بهذا معتد في دعائه • والله لا يحب المعتدين بخلاف سؤاله الرحمة فعلم أنه ليس معناهما واحدا
الخامس عشر • ان أكثر المواضع التى تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة • كقوله تعالى : ورحمتي وسعت كل شيء • وقوله • أن رحمتى سبقت غضبى ، وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين • فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة • والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب • انتهى نقلا من كتاب جلاء الافهام وتمامه فيه ا هـ

(أحدها) ان الدعاء يكون بالخير والشر والصلاة لا تكون الا فى الخير (الثانى) ان دعوت يتعدى باللام وصليت لا يتعدى الا بعلى ، ودعا المعدى بعلى ليس بمعنى صلى وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء (الثالث) ان فعل الدعاء يقتضى مدعوا ومدعوا له تقول : دعوت الله لك بخير : وفعل الصلاة لا يقتضى ذلك لا تقول : صليت الله عليك ولا لك ، فدل على أنه ليس بمعناه فأى تباين أظهر من هذا ؟ • قال ولكن التقليد يعمى عن ادراك الحقائق فاياك والاخلاد الى أرضه • قال فى البدائع : ورأيت لأبى القاسم السهيلى كلاما حسنا فى اشتقاق الصلاة - فذكر ما ملخصه : ان معنى اللفظة حيث تصرفت ترجع الى الحنو والعطف الا أن ذلك يكون محسوسا ومعقولا فالمحسوس منه صفات الأجسام والمعقول منه صفة ذى الجلال والاكرام ، وهذا المعنى كثير موجود فى الصفات(١) والكبير (٢) • يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات ، وهو من أسماء الرب تعالى وتقدس عن مشابهة الاجسام ومضاهاة الانام ، فما يضاف اليه تعالى من هذه المعانى معقولة غير محسوسة، فاذا ثبت هذا فالصلاة كما قلنا حنو وعطف من قولك : صليت : أى حنيت صلاك وعطفته فأخلق بأن تكون الرحمة كما سمى عطفا وحنوا تقول اللهم اعطف علينا أى ارحمنا قال الشاعر

وما زلت فى لينى له وتعطفى ‏ ‏ ‏ ‏ عليه كما تحنو على الولد الأم

وأما رحمة العباد فرقة فى القلب اذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم وأثنى عليه ، ورحمة الله للعباد جود وفضل فاذا صلى عليه فقد أفضل وأنعم ، وهذه الافعال اذا كانت من الله أو من العبد فهى متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه الى غيره فرجعت كلها الى معنى واحد الا أنها (٣) فى معنى الدعاء والرحمة والصلاة معقولة أى انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء لأنه لا يقدر على أكثر منه وثمرته من الله الاحسان والانعام ، فلم تختلف الصلاة فى معناها وانما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها • والصلاة التى هى الركوع والسجود انحناء محسوس فلم يختلف المعنى فيها الا من جهة المعقول وليس ذلك باختلاف فى الحقيقة،

(١) مح فى «الاسماء والصفات» (٢) فى الاصلين « والكثير » كذا (٣) مخ «لأنها»

ولذلك تعدت كلها بعلى واتفقت فى اللفظ المشتق من الصلاة ، ولم يجز صليت على العدو أى دعوت عليه ، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة وان كان راجعا اليه اذ ليس كل راحم ينحنى على المرحوم وينعطف عليه من شدة الرحمة • انتهى • ((والسلام)) بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل • وفى المطلع : قال الازهرى فى قولك : السلام عليك قولان ، أحدهما اسم السلام ومعناه اسم الله عليك ومنه قول لبيد :

معنى السلام وقرنه بالصلاة

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ، ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والثانى سلم الله عليك تسليما وسلاما ومن سلم الله عليه سلم من الآفات كلها • قال الحافظ ابن الجوزى فى (مفتاح الحصن) وأما الجمع بين الصلاة والسلام فهو الاولى والاكمل والافضل لقوله تعالى (صلوا عليه وسلموا تسليما) ولو اقتصر على أحدهما جاز من غير كراهة فقد جرى عليه جمع منهم مسلم فى صحيحه خلافا للشافعية • وفى كلام بعضهم لا أعلم أحدا نص على الكراهة حتى أن الامام الشافعى نفسه اقتصر على الصلاة دون تسليم فى خطبة الرسالة والله أعلم ((سرمدا)) أى دائما متصلا على ممر الليالى والايام قال فى القاموس : السرمد الدائم والطويل من الليالى • أى صلاة وسلاما ممتدين دائمين امتدادا دائما سرمدا وبالله التوفيق ((على النبى)) قال فى المطلع يهمز ولا يهمز فمن جعله من النبأ همزه لانه ينبىء الناس عن الله ولأنه ينبأ هو بالوحى ومن لم يهمز فاما سهله واما أخذه من النبوة وهى الرفعة لارتفاع منازل الانبياء على الخلق ، وقيل مأخوذ من النبى الذى هو الطريق لانهم الطرق الموصلة الى الله تعالى • وهو انسان أوحى اليه بشرع (١) وان لم يؤمر بتبليغه فان أمر بتبليغه فهو رسول أيضا على المشهور فبين النبى والرسول عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول نبى وليس كل نبىّ رسولا • والرسول أفضل من

لفظ النبى

(١) بهامش مط ما لفظه : قوله وهو انسان أوحى اليه بشرع الخ اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم رجل حر بالغ من بنى آدم ويجب أن يعتقد أنه من العرب من قريش من بنى هاشم قال الفاسى فى شرح دلائل الخيرات من قال انه ليس بعربى أو ليس بقرشى فكافر • وكذا يجب أن يعتقد أنه ولد بمكة ونشأ بمكة ونشأ بها وهاجر الى المدينة ومات بها وقبره موجود فيها قال الفاسى فى

النبى اجماعا لتميزه بالرسالة التى هى أفضل من النبوة على الاصح خلافا لابن عبد السلام ووجه تفضيل الرسالة لأنها تثمر هداية الامة والنبوة قاصرة على النبى فنسبتها الى النبوة كنسبة العالم الى العابد ، ثم ان محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معا بشخص واحد أما مع تعدد المحل فلا خلاف فى أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة ((المصطفى)) أى المختار والمستخلص مأخوذ من الصفوة مثلثة يقال استصفى الشيء أخذ منه صفوه واختاره كاصطفاه ، وفى مسلم والنسائى عن واثلة بن الاسقع رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله تعالى اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم » ورواه الترمذى ولفظه « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ((كنز)) أى معدن ومقر ((الهدى)) وموضعه الذى نشأ عنه واستقر لديه والكنز فى الاصل المال المدفون تحت الارض وفى الحديث « لاحول ولا قوة الا بالله كنز من كنوز الجنة » أى أجرها مدخر لقائلها والمتصف بها كما يدخر الكنز المدفون لصاحبه . والهدى فى الاصل مصدر كالسرى والتقى ومعناه الرشاد والدلالة ولو غير موصلة ومن أسمائه تعالى الهادى وهو الذى بصر عباده وعرفهم طرق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق الى مالا بد له منه فى بقائه ودوام وجوده ، وفى الحديث « الهدى الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » المراد بالهدى هنا السيرة والهيئة والطريقة ، ومعنى الحديث ان هذه الخلال من شمائل الأنبياء وخصالهم الحميدة وانها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم لاأن المعنى أن النبوة تتجزأ ، ولاأن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة ، فان النبوة غير مكتسبة ولامجتلبة بالأسباب ، وانما هى كرامة

تفسير الهدى

الكتاب المذكور كما اذا قال : ليس الذى كان بمكة ، أو لم يكن بالمدينة ، ولا توفى بها . أى من قال ذلك فهو كافر لان هذا جحد له صلى الله عليه وسلم . وكذلك انه لم يخلق من نطفة وانما هو كعيسى وآدم عليهما السلام أو قال انه لم يكن بشرا آدميا فكل ذلك نص العلماء على كفر قائله ومدعيه

من الله تعالى كما يأتى تقرير ذلك فى محله ان شاء الله تعالى ، وتخصيص هذا العدد مما كان يستأثر النبى صلى الله عليه وسلم بمعرفته ((و)) الصلاة والسلام الدائمان السرمديان على ((آله)) صلى الله عليه وسلم ، وهم أتباعه على دينه ، قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه ـ جلاء الافهام : يقال آل الرجل له نفسه وآله لمن تبعه وآله لأهله وأقاربه ، فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى » وقوله تعالى (سلام على آل ياسين) ونازع فى هذا قوم فقالوا لا يكون الآل الا الاتبـــاع والاقارب وأجابوا عما ذكر بأن المراد من الآية والحديث الاقارب • واختلف فى آله صلى الله عليه وسلم فقيل هم الذين حرمت عليهم الزكاة وهم عندنا كالحنفية بنو هاشم خاصة ، وعند الشافعية بنو هاشم وبنو المطلب ، وقيل بنو هاشم ومن فوقهم الى غالب وهذا قول أشهب من أصحاب مالك ، وقيل هم ذريته وأزواجه خاصة حكاه ابن عبد البر فى التمهيد ، وقيل آله أتباعه على دينه الى يوم القيامة حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم وأقدم من روى عنه هذا القول جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ذكره البيهقى واختاره بعض الشافعية (١) قلت وكثير من علمائنا فى مقام الدعاء خاصة ، وقيل هم الاتقياء من أمته حكاه القاضى حسين والراغب وجماعة لما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل من آلك قال « كل مؤمن تقى » (٢) وفى القاموس آل الرجل أهله وأتباعه وأولياؤه ولا يستعمل الا فيما فيه شرف غالبا فلا يقال آل الاسكاف كما يقال أهله • وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو صاحب ، وهل ألفه منقلبة عن هاء وأصله أهل كما هو مذهب سيبويه أو عن واو كما هو مذهب الكسائى ؟ ظاهر كلام ابن القيم فى جلاء الافهام ترجيح الثانى وكلاهما مسموع ويصغر على أهيل وأويل والصواب جواز اضافة آل الى الضمير قال الشاعر :

تفسير الآل

---

(١) بهامش مخ ما لفظه وهذا هو مذهب جمهور أهل الحديث قال بعضهم :

آل النبى هـم اتباع ملتـــه ... من الاعاجم والسودان والعـرب
لو لم يـــكن آله الا اقاربه ... صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

(٢) أنظر ترجمة نافع بن هرمز من ميزان الذهبى • المعلمى

أنا الفارس الحامى حقيقة والدى　وآلى فما تحمى حقيقـــة آلكا (١)

وفى شعر عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم

وانصرَ عـــلى آل الصـــليـ　ـب وعابـــديه اليـــوم آلك

نعم هو بالنسبة الى اضافته الى الظاهر قليل • وانما اتبعنا آله عليه الصلاة والسلام له لما تضافرت به الاخبار وصحت به الآثار من قوله صلى الله عليه وسلم « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم » الى مالا يحصى الا بكلفة ((و)) الصلاة والسلام الدائمان المتصلان على ((صحبه)) اسم جمع لصاحب وقال الاخفش جمع له وبه جزم الجوهرى فقال وجمع صاحب صحب كراكب وركب • والضمير عائد على النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالصاحب هنا الصحابى ((الابرار)) جمع البر أى البار وهو الصادق والكثير البر والصدق فى اليمين ، وفى أسمائه الحسـنى « البر » دون البار ، قال العلامة أبو بكر بن أبى داود فى كتابه (تحفة العباد) البر هو العطوف على عباده المحسن اليهم عم ببره جميع خلقه ، فلم يبخل عليهم برزقه ، وهو البر بأوليائه اذ خصهم بولايته ، واصطفاهم لعبادته ، وهو البر بالمحسن فى مضاعفة الثواب له ، وبالمسىء فى الصفح والتجاوز عنه • والابرار كثيرا ما يخص بالأولياء والزهاد والعبـــاد ، والصحابة الكرام ، أفضل أولياء الانام ، وفى الآية الكريمة (وتوفنا مع الابرار) والصحابى من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا ولو لحظة ومات على ذلك ولو تخلله ردة • وقسم الامام الحافظ ابن الجوزى الصحبة الى ثلاث مراتب (الاولى) من كثرت معاشرته ومخالطته للنبى صلى الله عليه وسلم بحيث لا يعرف صاحبها الا بها فيقال هذا صاحب فلان وخادمه لمن تكررت خدمته لا لمن خدمه مرة واحدة أو ساعة أو يوما (الثانية) من اجتمع به صلى الله عليه وسلم مؤمنا ولو مرة واحدة لأنه يصدق عليه انه صحبه وان لم ينته الى الاشتهار به (الثالثة) من رآه صلى الله عليه وسلم رؤية ولم يجالسه ولم يماشه فهذا ألحق بالصحبة الحاقا وان كانت حقيقة الصحبة لم توجد فى حقه ولكنها صحبة الحاقية حكمية لشرف قدر

مراتب الصحابة

---

(١) بهامش مخ ما لفظه : الحقيقة ضد المجاز وما يحق أن تحميه والراية • ا هـ

النبى صلى الله عليه وسلم لاستواء الكل فى انطباع طلعة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيهم برؤيته اياهم أو رؤيتهم اياه مؤمنين بما جاء به وان تفاوتت رتبهم رضوان الله عليهم • وفى وصفنا اياهم بالابرار اشارة الى المذهب الراجح من أنهم عدول كلهم ولا يبحث عن عدالة أحد منهم لا فى رواية ولا فى شهادة والمراد مالم يظهر معارض كزنا ماعز وفى قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » دليل على عدالتهم اذ لو لم يكونوا عدولا لما حصل الاهتداء بالاقتداء بهم • وعلى الناس ذكر محاسنهم والكف عما جرى بينهم من الفتن ويجب حمل ذلك على اجتهادهم وظن كل فريق منهم أن ما صار اليه هو الواجب وأنه أرفق للدين وأوفق للمسلمين وكل مجتهد مأجور والله ولى الامور ولهذا وصفهم بقوله ((معادن)) جمع معدن وهى المواضع التى يستخرج منها جواهر الارض كالـــذهب والفضة وغيرهما ، والعدن الاقامة ، والمعدن مركز كل شىء ، ومنه حديث « فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم » أى عن أصولها التى ينسبون اليها ويتفاخرون بها أى هم مستقر ((التقوى)) ومواضعها والتقوى لغة الحجز بين الشيئين وشرعا التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وأصل اتقى اوتقى لأنه من وقى وقاية فقلبت الواو تاء وأدغمت التاء فى التاء ((مع الاسرار)) البديعة والاحوال الرفيعة • والسر ما استودعته لأخيك وكرهت أن يطلع عليه أحدا وقد قال صلى الله عليه وسلم « المجالس بالأمانة الا ثلاثة مجالس سفك دم حرام وفرج حرام واقتطاع مال بغير حق » رواه أبو داود من حديث جابر مرفوعا ، وأخرج الامام احمد من حديث أبى الدرداء « من سمع من رجل حديثا لا يشتهى أن يذكر عنه فهو أمانة وان لم يستكتمه » وقال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله رضى الله عنهما يا بنى ان أمير المؤمنين يدنيك - يعنى عمر رضى الله عنه - فاحفظ عنى ثلاثا ، لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا يطلعن منك على كذبة • ولا شك ان الصحابة رضى الله عنهم كانوا أعمق الناس أسرارا وأبرهم قلوبا وأعلاهم أنوارا •

تنبيهات

الجمع بين الآل والصحب

(الاول) كثيرا ما يجمع المصنفون فى الصلاة بين الآل والص
ويعطفونهم عليهم مع شمول الآل لهم فى مقام الدعاء على المعتمد ك
القاضى أبو يعلى أحد أركان المذهب وقدمه المجد فى شرحه والاما
فى المغنى لرغم أنوف المبتدعة من الرافضة وأشباههم أذلهم الله تعالى
ذكر الحافظ أبو زرعة الرازى واسمه عبيد الله (١) ابن عبد الكر

عدد الصحابة

الامام (٢) أبى الحسين (٣) مسلم بن الحجاج ان أصحاب النبى
عليه وسلم يزيدون على مائة ألف.قال البرماوى فى شرح « الزهر
هذا على الاصح فى النقل عنه كما رواه ابن المدينى فى ذيله على
الصحابة ، وروى أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ممن روى عن
منه صلى الله عليه وسلم ، واستبعده البرماوى ، قلت قد جزم بهـ
الحافظ جلال الدين السيوطى فى الخصائص الصغرى وذكره ش
الشهاب المنينى فى نظمها بقوله :

وصحبه أفضـــــل خلق الله	بعد النبيـــين بلا اشــــ
هم كالنجوم كلهم مجتهـــد	يا ويل أقوام بهم لم يهتـ
والفضل فى ما بينهـــم مراتب	وعدهـــم للأنبيا يقــــ

حكم الصلاة على غير الانبياء

(الثالث) اختلف العلماء فى الصلاة على غير الانبياء عليهم الـ
والسلام هل تجوز استقلالا أم لا ؟ قال الامام المحقق ابن القيم فى
الافهام) هذه المسألة على نوعين ، أحدهما أن يقال اللهم صل على آ
فهذا يجوز ويكون عليه الصلاة والسلام داخـلا فى آله فالافراد
لفظا لا معنى . الثانى أن يفرد واحد بالذكر كقوله اللهم صل على
حسن أو أبى بكر أو غيرهم من الصحابة ومن بعدهم ، فكره ذلك
مالك ، قال لم يكن ذلك من عمل من مضى . وهو مذهب أبى
وسفيان بن عيينة والثورى وبه قال طاوس ، وقال ابن عباس ر

---

(١) فى الأصلين : « عبد الله » خطأ
(٢) فى مط «شيخ الاسلام» وكذا كتبت أولا فى المخطوط ثم
اصلاحها
(٣) فى مط « أبى الحسن » خطأ

عنهما لا تنبغى الصلاة الا على النبى ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار . وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز روى ابن أبى شيبة عن جعفر ابن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز رحم الله روحه : أما بعد فان ناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة وان من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء كتابى فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، وهذا مذهب الشافعية ولهم ثلاثة أوجه منع تحريم أو كراهة تنزيه أو من باب ترك الاولى حكاها النووى فى الاذكار . وقالت طائفة من العلماء تجوز الصلاة على غير النبى استقلالا ، قال القاضى أبو يعلى من أئمة مذهبنا فى كتابه رءوس المسائل وبذلك قال الحسن البصرى وخصيف ومجاهد ومقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان وكثير من أهل التفسير وهو قول الامام احمد رضى الله عنه نص عليه فى رواية أبى داود وقد سئل أينبغى أن لا يصلى على أحد الا على النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أليس قال على لعمر صلى الله عليك ؟ قال القاضى وبه قال اسحاق بن راهويه وأبو ثور وابن جرير الطبرى واحتجوا بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم على (١) جماعة من أصحابه ممن كان يأتيه بالصدقة . واختار الامام المحقق ابن القيم الجواز مالم يتخذه شعارا أو يخص به واحدا اذا ذكر دون غيره ولو كان أفضل منه كفعل الرافضة مع أمير المؤمنين على وأهل بيته دون غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فيكره حينئذ ولو قيل بالتحريم لكان له وجه . هذا ملخص كلامه والله أعلم

((وبعد فاعلم أن كل العلم كالفرع للتوحيد فاسمع نظمى))
((لأنه العلم الذى لا ينبغى لعاقل لفهمه لم يبتغ))

الكلام على بعد وأما بعد

((وبعد)) الواو بدل عن أما النائبة عن مهما ولتضمنها معنى الشرط لزمت الفاء فى جوابها ، وبعد من الظروف المبنية مالم تضف لفظا ومعنى أو ينوى ثبوت لفظ المضاف اليها أو تقطع عن الاضافة رأسا فتعرب حينئذ فى الثلاثة،وان حذف المضاف اليها او نوى ثبوت معناه بنيت على الضم،ويؤتى

(١) فى مط «عن»

بها للانتقال من أسلوب الى غيره أى بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه • ويستحب الاتيان بها فى الخطب والمكاتبات لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى بها فى خطبه ومكاتباته للملوك وغيرهم • ونقل الامام القاضى علاء الدين المرداوى الحنبلى فى كتابه شرح التحرير انه نقل اتيانه صلى الله عليه وسلم بأما بعد فى خطبه ونحوها خمسة وثلاثون صحابيا • واختلف فى أول من نطق بها فقيل داود عليه السلام وعن الشعبى انها فصل الخطاب الذى أوتيه لأنها تفصل بين المقدمات والمقاصد ، وقيل أول من نطق بها يعقوب ، وقيل أيوب ، وقيل سليمان عليهم السلام ، وقيل قس بن ساعدة الايادى ، وقيل كعب بن لؤى ، وقيل يعرب بن قحطان ، وقيل سحبان وائل • وعلى هذه الاقوال ففصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه السلام « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » ـ والاول ـ وهو أول من تكلم بها داود عليه السلام ـ أشبه كما قاله الحافظ ابن حجر العسقلانى وغيره ، ويمكن الجمع لكن نسبة أولية ذلك لسحبان وائل ساقط جدا ، نعم زعم بعض الناس ان سحبان أول من نطق بها فى الشعر حيث قال :

لقد علم القوم اليمانون اننى   اذا قلت أما بعد انى خطيبها

وقد نظم ذلك الشمس الميدانى مع زيادة آدم عليه السلام فقال :

جرى الخلف أما بعدمن كان بادئا   بها عد أقوالا وداود أقرب
ويعقوب أيوب الصبور وآدم   وقس وسحبان وكعب ويعرب

((فاعلم)) الفاء فى جواب الواو النائبة عن اما لتضمنها معنى الشرط ، والعلم صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والاجسام والاعراض والواجب والممكن والممتنع تمييزاً جازماً مطابقا ((ان كل العلم)) أى سائر العلوم الشرعية وكذا العقلية بأنواعها وتفاريعها من أصولها وفروعها ((كالفرع ل)) علم ((التوحيد)) المتفرع عليه والناشىء عنه المنظور اليه والمقتبس منه ((فاسمع)) سماع فهم وعرفان وقبول واذعان ((نظمى)) لأمهات مسائله ومهمات دلائله • والتوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل

معنى لفظ التوحيد

فمعنى وحدت الله نسبت اليه الوحدانية (١) لا جعلته واحدا فان وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل . قال في القاموس التوحيد ايمان بالله وحده . انتهى . أي التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الخبر الدال على أن الله تعالى واحد في ألوهيته لا شريك له ، والتصديق بذلك الخبر أن ينسبه الى الصدق ومطابقة الواقع بالقلب واللسان معا ، لأنا نعني بالتوحيد هنا الشرعي وهو افراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ولا تشبه صفاته الصفات ولا تنفك عن الذات ولا يدخل أفعاله الاشتراك (٢) ، فهو الخالق دون من سواه . وانما كانت العلوم كالفرع لعلم التوحيد لانه أشرف العبادات وأفضل الطاعات ، وشرط في صحة كل عبادة وطاعة ، وشرط لقبول الاعمال ، اذ هو معرفة ذي العظمة والجلال ، فمن لم يوحد المعبود ، فكل عمله مردود . وانما سمي هذا العلم بالتوحيد لانه أشهر مسائله وأشرفها ، ويسمى أيضا بعلم الكلام لأن مباحثه كانت معنونة في كتب القدماء بقولهم : الكلام في كذا ، أو لأن أشهر مواضع الخلاف فيه مسئلة كلام الله تعالى حتى جرى ما جرى لأئمة الدين بنزغة الشيطان للمخالفين ولكون علم التوحيد أصل العلوم وأس (٣) النجاة وسلم المعرفة للحي القيوم قلنا((لانه)) أي علم التوحيد ((العلم)) العظيم القدر الفخيم الامر ((الذي لا ينبغي))أي لا يطلب ولا يحسن ولا يجمل ((ل)) شخص بالغ((عاقل))من ذكر وأنثى من بني آدم ((لفهمه)) أي لادراك صور معرفته في ذهنه واقتداره على الاتصاف بالعلم به ((لم يبتغ)) أي لم يطلبه ويدأب في تحصيله ليكون في ايمانه على بصيرة ، وفي عبادته على يقين ومعرفه منيرة ، ويباين أهل الشك والريب والحيرة ، بل عليه أن يشمر عن ساق الجد والاجتهاد ، ويدأب في سائر أحواله لينال المراد ، ويباين أهل الفرقة والتفنيد (١) ويخلع من عنقه ربقة التقليد

((فيعلم الواجب والمحالا كجائز في حقه تعالى))

---

(١) في مخ « نسبته للوحدانية » (٢) أنظر التعليق على شرح الناظم لقوله في أول الباب الاول « بأنه واحد » (٣) مخ « وراس »
(١) مط « والتقييد »

الـمـــواجب والمحال والجائز

((فيعلم الواجب)) أى يجب على كل مكلف شرعا أن يعرف مايجب لله تعالى وهو مالا يتصور فى العقل عدمه كوجوده تعالى ووجوب قدمه، وقدم الواجب لشرفه اذ به يتصف البارى جل وعلا ولأن بمعرفته يعرف قسيماه ((و)) يعلم ((المحالا)) وهو ما لايتصور فى العقل وجوده كالشريك له تعالى ، وألفه للاطلاق ، وقدمه على الجائز لانه كالبسيط بالنسبة اليه، ولانه المقابل للواجب، ولاجل القافية ،((ك)) ما يجب على كل مكلف أن يعلم لكل حكم ((جائز)) وهو مايصح فى نظر العقل وجوده وعدمه عـــلى السواء كارسال الرسل وانزال الكتب وشرع الشرائع ونسخ بعضـــها ببعض الى سائر ما يجوز ((فى حقه تعالى)) وتقدس ، ومثل ذلك لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيعرف الواجب فى حقهم من الصدق والامانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه ، والمستحيل فى حقهم من الكذب والخيانة وكتم شىء مما أمروا بابلاغه ، والجائز فى حقهم من الاكل والشرب والنوم والنكاح والامراض الغير المزرية بمناصبهم العالية كما يأتى تفصيل ذلك فى محاله ان شاء الله تعالى :

((وصار من عادة أهـــل العلم	أن يعتنوا فى سـبر ذا بالنظم))
((لأنه يسهل للحفظ كمـــا	يروق للسمع(١) ويشفى من ظما))
((فمن هنا نظمت لى عقيـــدة	أرجوزة وجيـــزة مفيـــدة))
((نظمتها فى سلكها مقـــدمة	وست أبواب كذاك خاتمـــة))

التعـــريف بارجوزة المتن

((وصار)) فى هذه الازمنة ومن قبلها فى سائر الامصار ، بعد كثرة الخلاف وتباين الفرق وظهور البدع من قديم الاعصار ((من عادة أهـــل العلم)) بالسنة الدائبين فى تحرير أدلتها والقائمين بنشرها وتعليمها والوقوف على أصولها وتبين دقائق محال الخلاف لخوف الزيغ والانحراف ((أن يعتنوا)) أن يقصدوا ويشتغلوا ويهتموا ((فى سبر)) أى تتبع مهمات مسائل ((ذا)) أى هذا العلم الذى هو علم التوحيد وضبط أمهات تفاصيله ((بالنظم)) لسهولة حفظه لانه كلام متسق مقفى موزون فيرسخ فى الحافظة من غير مزيد مشقة بخلاف المنثور فانه أصعب رسوخا فى الحافظة كما لا يخفى

---

(١) مط « من سمع »

فمن ثم قلنا معللين للنظم ((لأنه)) أى المنظوم المفهوم من النظم((يسهل))
يقال سهل ككرم سهالة وسهلة وتسهيلا (١) لان ويسر ومن الارض ضد
الحزن ، أى ييسر ((للحفظ)) والعلوق فى الحافظة((كما))انه((يروق))
أى يحسن ويحمل ويلذ ((للسمع)) لكونه ينبسط له ويلتذ بسماعه لتقفيته
ووزنه ((ويشفى)) أى يبرىء ((من ظما)) أى من شدة عطش واشتياق الى
معرفة أصول علم التوحيد ومهمات مسائله ، والظمأ مهموز العطش أو أشده
وظمىء اليه اشتاق وترك الهمز للوزن ((فمن هنا)) أى من أجل ماذكرنا
من تمييز النظم على النثر ((نظمت)) النظم التأليف وضم شىء الى آخر
يقال نظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ألفه وجمعه ((لى)) ولمن كان مثـــلى
واعتقاده اعتقادى على النحو الاثرى ((عقيدة)) سلفية أثرية ((أرجوزة))
وزنها أفعولة كأفحوصة أى مرجزة النظم من الرجز أحد بحور الشعر على
الارجح وجمعها أراجيز قال الشاعر « أبالاراجيز يا ابن اللؤم توعدنى »
((وجيزة)) أى قليلة من أوجز فى كلامه اذا اختصره وقلله ((مفيدة))أى
مربحة لمن قرأها وتأمل معانيها حق التأمل ((نظمتها)) أى نظمت مسائلها
ومهماتها ((فى سلكها)) أى خيطها قال فى القاموس السلكة بالكسر الخيط
يخاط بها والجمع سلك وجمع الجمع أسلاك ((مقدمة)) بكسر الدال المهملة
على الافصح اسم فاعل من قدم بمعنى تقدم ومنه (لا تقدموا بين يدى الله
ورسوله) أى لا تتقدموا عليه ، ومقدمة العلم ما يتوقف الشروع فيه عليها
كمعرفة حده ورسمه وموضوعه وغاية المقصود منه ، ومقدمة الكتاب تقال
طائفة من كلامه قدمت امام المقصود منه لارتباط له بها وانتفاع بها فيـــه
((وست (٢) أبواب)) جمع باب وهو فرجة فى ساتر يتوصل بها من خارج
الى داخل ومن داخل الى خارج ، وفى العرف اسم لطائفة من العلم يشتمل
على فصول وفروع ومسائل غالبا ((كذاك)) ، أى كما أنه يشتمل على
مقدمة وستة أبواب يشتمل على ((خاتمة))وهى فى اللغة عاقبة الشىء وآخرته
وهنا من هذا القبيل ما يأتى بها المصنف أو الناظم فى آخـــر كتابه أو فى

---

(١) كذا فى الاصلين والذى فى القاموس «سهل ككرم سهالة وسهله تسهيلا يسره » وهو الصواب ، المعلمى
(٢) مط « وستة »

آخر بحث أو مسئلة لتعلقها بما تقدمها فى الجملة وهذه (١) فهرست ما ذكرنا (المقدمة) فى ترجيح مذهب السلف على غيره (الباب الاول) فى معرفة الله تعالى وما يتعلق بذلك (الثانى) فى الافعال (الثالث) فى الاحكام والكلام على الايمان ومتعلقات ذلك (الرابع) فى بعض السمعيات من الحشر والنشر واشراط الساعة ونحو ذلك (الخامس) فى النبوات ومتعلقاتها وفى ذكر فضل الصحابة وأفضلهم (السادس) فى ذكر الامامة ومتعلقاتها (والخاتمة) فى فوائد جليلة وفرائد جزيلة لا يسع الجهل بها وستمر بك بابا بابا ان شاء الله تعالى • ولما نظمت هذه العقيدة الاثرية :

((وسمتها بالدرة المضية   فى عقد أهل الفرقة المرضية))

((على اعتقاد ذى السداد الحنبلى   امام أهل الحق ذى القدر العلى))

((حبر الملا فرد العلا الربانى   رب الحجى ماحى الدجى الشيبانى))

((وسمتها)) من السمة وهى العلامة أى سميتها يعنى عقيدتى التى نظمتها فى التوحيد ((بالدرة)) بضم الدال المهملة المشددة وفتح الراء المشددة أيضا اللؤلؤة العظيمة والجمع در ودرر ودرات ((المضية)) أى المنورة من الاضاءة يقال ضاءت وأضاءت بمعنى يعنى استنارت فصارت مضيئة ((فى عقد)) أى اعتقاد ((أهل الفرقة)) أى الطائفة ((المرضية)) فى اعتقادها المأثور عن منبع الهدى وينبوع النور ويأتى الكلام عليها قريبا ((على اعتقاد)) متعلق بنظمت والاعتقاد هو حكم الذهن الجازم فان كان موافقا للواقع فهو صحيح والا فهو فاسد ، والحاصل ان كل معنى عبر عنه الانسان بكلام خبرى من اثبات أو نفى تخيله أو لفظ به اما أن يحتمل متعلقه النقيض بوجه من الوجوه أولا ، الثانى العلم ، والاول اما أن يحتمل النقيض عند الذاكر لو قدره أولا ، الثانى الاعتقاد ، فان طابق هذا الاعتقاد لما فى نفس الامر فهو اعتقاد صحيح وان لم يطابق ما فى نفس الامر فهو اعتقاد فاسد ، والاول وهو الذى يحتمل النقيض عند الذاكر لو قدره الراجح منه ظن ، والمرجوح وهم ، والمساوى شك • وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى ((ذى)) أى صاحب ((السداد)) بفتح السين المهملة المشددة فدالين مهملتين بينهما ألف القصد فى الدين

الامام احمد

---

(١) مط « هذه »

والسبيل قال فى القاموس والسدد الاستقامة كالسداد - يعنى بالفتح - وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش لما يسد به الخلة وقد يفتح أو لحن ا هـ و وقد جزم النضر بن شميل وجمع بلحن من فتح سداد فى قوله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس وامير المؤمنين على رضى الله عنهما : « اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » وفيه حكاية مشهورة (١) . والمراد بذى السداد هو الامام الامجد امامنا أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس بن عبد الله بن حيان بفتح المهملة وتشديد التحتية وبعد الالف نون ابن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن (ذهل بن - ٢) ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب - بكسر الهاء واسكان النون وبعدها موحدة - بن أفصى - بالفاء والصاد المهملة - بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الامام المروزى ثـم البغدادى ((الحنبلى)) نسبة الى جده أبى أبيه حنبل ((امام أهل الحق)) الذين هم الفرقة الناجية لاقتفائهم المأثور عن منبع الهدى ومعدن الخيرات وينبوع النور ((ذى)) صاحب ((القدر)) أى المقدار ((العلى)) أى المرتفع السامى لكثرة فضائله وتوفر محامده ومناقبه وآثاره فى الاسلام المشهورة ومقاماته فى الدين المذكورة فقد انتشر ذكره فى البلاد وعم نفعه العباد . قال الامام اسحاق بن راهويه : الامام أحمد بن حنبل حجة بين الله تبارك وتعالى وبين عبيده فى أرضه . وقال الامام الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحدا أتقى ولا أورع ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل . وقال أحمد بن سعيد الدارمى : ما رأيت أسود رأس أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اعلم بفقه معانيه من أبى عبد الله احمد بن حنبل . ومن ثم قلت ((حبر الملا)) بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الموحـدة

---

(١) بهامش مخ ما نصه : « أى مع المأمون والنضر بن شميل وذلك آن المأمون رواه بالفتح فقال النضر انما هو بالكسر يا أمير المؤمنين ، فقال : تلحنني يا نضر ؟ فقال : انما لحن هشيم فيه ، أما سمعت قول العرجى ؟

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغـر

وجرى بينهما محاورات ..

(٢) زيادة من مخ

العالم والصالح ، والملأ بفتح الميم واللام مهموز أشراف الناس وجماعتهم وذوو الشارة منهم ((فرد)) أى واحد صاحب الخصال ((العلى)) أى المرتفعة السامية بأوصافها الجميلة ونعوتها الفضيلة ((الربانى)) أى العالم العامل المعلم للعلم غيره ، وهو منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون للدلالة على كمال الصفة ، وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته ، وعن المبرد انه منسوب الى ربان الذى يربى الناس بالتعليم ، وقال الصوفية هو الكامل من كل الوجوه فى جميع المعانى • وفى البخارى : الربانى الذى يربى بصغار العلم قبل كباره • وقال بعضهم الربانى من أفيضت عليه المعارف الالهية فعرف بها ربه وعرف الناس بعلمه ، ورأيتنى كاتبا فى كتابى « القول العلى فى شرح حديث سيدنا أمير المؤمنين على » عند قوله رضى الله عنه : « الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » ما لفظه : العالم الربانى وهو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لكامل • قال ابن عباس رضى الله عنهما : الربانى هو المعلم أخذه من التربية أى يربى الناس بالعلم كما يربى الطفل أبوه • وقال سعيد بن جبير : هو الفقيه العليم الخبير • وقال سيبويه : زادوا ألفا ونونا فى الربانى اذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب كما قالوا شعرانى ولحيانى لعظيم الشعر واللحية • وقال أبو نعيم (١) الزاهد : سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الربانى فقال : سألت ابن الاعرابى فقال : اذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا ربانى ، فان حرم خصلة منها لم يقل له ربانى • وفى « مفتاح دار السعادة » للامام المحقق ابن القيم : معنى الربانى الرفيع الدرجة فى العلم العالى المنزلة فيه وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : « لولا ينهاهم الربانيون والاحبار » انتهى • والله أعلم ((رب)) أى صاحب ((الحجا)) كالى العقل والفطنة والمقدار العالى • كان سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه ربعة من الرجال حسن الوجه حسن الهيئة لا يخوض فى شىء من أمور الناس ذا وقار وسكينة من أحيا الناس وأكرمهم نفسا وأحسنهم عشرة وأدبا كثير الاطراق وغض البصر معرضا عن اللغو لا يسمع منه الا المذاكرة

---

(١) كذا فى الاصلين والصواب « أبو عمر »

بالحديث وذكر الصالحين • قال الامام الحافظ أبو داود : كانت مجالس الامام أحمد مجالس آخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا • قال : وما سمعته ذكر الدنيا قط • وقال ثعلب في صفته : رأيت رجلا كأن النار توقد بين عينيه • وقال عبد الملك الميموني : ما أعلم انى رأيت أحدا انظف ثوبا ولا أشد تعاهدا لنفسه في ثيابه وشعر رأسه وبدنه من الامام أحمد بن حنبل • وكان يحب الفقراء ويعرض عن أهل الدنيا وكان حسن الخلق دائم البشر لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، يحب في الله ويبغض في الله ، ويحب لمن أحبه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، حسن الجوار يؤذى فيتحمل • وكان أصبر الناس على الوحدة فكان لا يرى الا في مسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، ويكره المشي في الاسواق • وكان يقول الخلوة أروح لقلبي • وكان يقال كان ابن مسعود رضي الله عنه أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هديا وسمتا ، وكان أشبه الناس بهدى عبد الله وسمته علقمة بن قيس ، وكان أشبه الناس بعلقمة ابراهيم النخعي ، وكان أشبه الناس بابراهيم منصور بن المعتمر ، وكان أشبه الناس بمنصور سفيان الثوري ، وكان أشبه الناس بسفيان وكيع بن الجراح • قال محمد بن يونس : وكان أشبه الناس بوكيع الامام أحمد بن حنبل رضوان الله عليهم أجمعين • وكان الامام أحمد رضي الله عنه يخضب بالحناء خضبا ليس بالقاني • واعلم انه لا شبهة عند أئمة الدين بأن سيدنا الامام أحمد رضي الله عنه امام السنة والصابر في المحنة ((ماحي)) بنور السنة واضاءة المتابعة وسنا الوراثة المحمدية أي مذهب أثر ((الدجى)) أي ظلمة البدعة يقال دجا الليل دجوا ودجوا أظلم كأدجى وتدجى وليلة داجية أي مظلمة ودياجي الليل حنادسه ، فان امامنا وسيدنا الامام أحمد رضي الله عنه كسر سورة أهل البدع وشل جموعهم ورد كيدهم في صدورهم وأبقى شجاهم في نحورهم ((الشيباني)) نسبة الى أحد أجداده شيبان المذكور في نسبه فالامام أحمد رضي الله عنه من صريح ولد اسماعيل ومن صميم العرب ، وكان أبو الامام أحمد والى سرخس من أبناء الدعوة العباسية ، وتوفي وله ثلاثون سنة سنة تسع وسبعين ومائة وللامام

أحمد نحو خمس عشرة سنة فان أمه حملت به بمرو وقدمت بغداد وهي حامل به فوضعته بها وولیته أمه واسمها صفية وهي شيبانية أيضا فانها صفية بنت ميمون بن عبد الله الشيباني (من بني عامر - ١) نزل أبوه بهم فتزوجها وجدها عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني من وجوه بني شيبان تنزل به قبائل العرب للضيافة ، فحاز امامنا رضى الله عنه شرف النسبين وكمل له بأصيله تمام الشرفين .

((فانه امام أهل الاثر فمن نحا منحاه فهو الأثرى))

((فانه)) أي الامام احمد رضى الله عنه ((امام)) وقدوة ((أهل))أي أصحاب ((الاثر)) يعني الذين انما يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه أو في سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو ما ثبت وصح عن السلف الصالح من الصحابة الكرام ، والتابعين الفخام ،دون زبالات أهل الاهواء والبدع ، ونخالات أصحاب الآراء والبشع ((فمن)) أي انسان من هذه الامة ((نحا)) أي قصد ويمم ((منحاه)) أي مقصده ومذهبه وسار بسيرته من اتباع الاخبار واقتفاء الآثار ((فهو)) أي ذلك الذاهب مذهب الامام احمد ((الاثرى)) أي المنسوب الى العقيدة الاثرية والفرقة السلفية المرضية . ويعرف أيضا بمذهب السلف وهو مذهب سلف الامة وجميع الأئمة المعتبرين المقلدين في أحكام الدين ، وقد قال الامام على بن المديني وهو شيخ الامام احمد وشيخ الشافعي وشيخ البخاري وغيرهم : اتخذت احمد اماما فيما بيني وبين الله تعالى ، وقال اذا أفتاني احمد بن حنبل لم أبال اذا لقيت ربي كيف كان ، وقال : أحمد سيدنا حفظ الله أحمد هو اليوم حجة الله على خلقه ، وقال : ان الله تعالى أعز هذا الدين برجلين لا ثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة . وقد قال قتيبة وأبو حاتم : اذا رأيت الرجل يحب الامام أحمد بن حنبل فاعلم انه صاحب سنة . وقال ابن ماكولا : الامام احمد هو امام النقل وعلم الزهد والورع . وقال غير واحد من أئمة الدين : الامام احمد امام أهل السنة . وفي قصيدة اسمعيل بن فلان الترمذي :

---

(١) ليس في مخ

لعمرك ما يهوى لاحمد نكبة ... من الناس الا ناقص العقل معور
هو المحنة اليوم الذى يبتلى به ... فيعتبر السنى فينا ويسبر
فقا أعين المراق فعل ابن حنبل ... وأخرس من يبغى العيوب ويحفر

وقال أبو مزاحم الخاقانى :

لقد صار فى الآفاق أحمد محنة ... وأمر الورى فيها فليس بمشكل(١)

وقال ابن أعين رحمه الله تعالى :

أضحى ابن حنبل حجة مبرورة ... وبحب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمد متنقصا ... فاعلم بأن ستوره ستهتك (٢)

وعلى كل حال ، الامام أحمد هو امام أهل السنة بلا محال ، فهو المبيض وجه السنة ، النافض عن وجهها غبار البدعة ، فكل سنى أثرى فهو امامه •

مذهب احمد هو مذهب السلف

فان قلت اذا كان مذهب السلف هو ما عليه الائمة جميعا تبعا للتابعين والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين • وهو الذى كان عليه سيد المرسلين وخاتم النبيين ، فكيف ينسب هذا المذهب للامام أحمد دون من تقدمه من أئمة الدين ؟ قلت : الامر كما ذكرت والحق كما استخبرت ، وهذه المقالة هى الشريعة الغراء ومقالة أهل الفرقة الناجية بلا محالة ، ولا يرتاب ذو لب لبيب ، ورأى صحيح مصيب ، انها هى التى كان عليها النبى الحبيب ، صلى الله عليه وسلم وأصحابه أهل الاصابة والتصويب ، والتابعين لهم باحسان من أهل التفصيل والتبويب • ولكن لما كان فى المائة الثالثة اشرابت الفتن ، واستعلنت البدع والمحن ، وقامت دولة أهل الابتداع على

---

(١) زاد بهامش مخ هذا البيت :

ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضا ... وتعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

(٢) بهامش مخ ما لفظه : وقال الامام أبو يوسف يحيى الصرصرى رحمه الله تعالى :

اذا ما رأيت المرء تجهل أمره ... فزنه بمعيار الرجال ابن حنبل
فان كان بدعيا سيعبس وجهه ... كذائق شهد فيه حبات حنظل

الخ وهى طويلة في الامام احمد وأصحابه الى أن قال فيها :

وأخبرنى من كان أصل طريقتى ... على بن ادريس بأصل مؤصل
وقد كان كنزا مودعا جوهر التقى ... بصيرا بفقه القلب غير مجهل
عن الشيخ عبد القادر الحجة الذى ... تحلى بأنوار الرضا والتوكل
بأن اعتقاد الاولياء اعتقاده ... به يقتدى منهم أخير بأول
ومن يعتقد فى الناس غير اعتقاده ... وان كان ذا نسك فعنه بمعزل

ساق ، وأعلن بقواعد أهل الاعتزال ذوو الضغائن والنفاق ، وساعدهم على ذلك أئمة الجور والخلفاء الفساق ، قام الامام أحمد كالنمر الهصور ، لا بل كالبحر الطامى والرئبال الجسور ، فرد كيدهم فى نحورهم ، وألقى بلابلهم فى صدورهم ، فقمع مقالتهم وزيفها عليهم وبين فسادهم بكل حال ، فردهم على أعقابهم خائبين لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، فلا جرم نسب المذهب اليه ، لانه المقصود اذ ذاك بالذات والمعول علية ، فانه هو الذى انتصر للحق ونصره ، وشدخ رأس أهل البدع وهصره ، وبين الصحيح من الفاسد والغث من السمين ، والحق من الباطل والصدق من المين • فلما كان الامام أحمد رضى الله تعالى عنه هو الذى فل مضاربهم ، وبين معايبهم ، وكشف عن زيغهم ، ودحض تلوينهم وتحريفهم ، وانتصر لما كان عليه السلف من الاثبات بلا تمثيل ، ومن التنزيه بلا تعطيل ، ومرور الآيات المتشابهات بلا تأويل (١) ، ودعا الى هذه المقالة ، وأقام عليها كل برهان ودلالة ، نسبت له المقالة ، وصار امام أهلها فى كل حالة ، وألف كتابه فى الرد على الجهمية والزنادقة ، وهذا الكتاب رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبد الله وذكره كله فى كتاب السنة الذى جمع فيه نصوص الامام أحمد وكلامه ، وعلى منوال كتاب الخلال «السنة» جمع البيهقى كتابه الذىسماه « جامع النصوص » من كلام الشافعى •

وخطبة كتاب الامام احمد «الرد على الجهمية» : الحمد لله الذىجعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الاذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا **ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم** مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مخالفة الكتاب ، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب

---

(١) ينظر ما يتعلق بهذا فى التعليق على شرح قول الناظم « فكل ماجاء من الآيات الخ »

الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون الجهال بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » • ثم ساق الكتاب قد قرأناه ورويناه عن علماء معتبرين وفضلاء راسخين والله ولى المتقين • وقد ذكـــر كتاب الامام أحمد هذا أئمة المذهب قال الخلال : كتبت هذا الكتاب من خط عبد الله وكتبه عبد الله من خط أبيه الامام احمد رضى الله عنه • واحتج القاضى أبو يعلى فى كتابه « ابطال التأويل » بما نقله منه عن الامام احمد • وذكر ابن عقيل فى كتابه بعض ما فيه عن الامام أحمد ، ونقل منه أصحابه قديماً وحديثا ، ونقل منه الامام الحافظ البيهقى وعزاه الى الامام أحمد ، وصحح هذا الكتاب شيخ الاسلام ابن تيمية عن الامام احمد ، واعتمده الامام المحقق ابن القيم فى جل تآليفه وصححه فى كتابه «الجيوش الاسلامية» وقال لم يسمع من أحد من متقدمى اصحاب الامام أحمد ولا متأخريهم طعن فيه والله أعلم • فلما انتصر الامام أحمد رضى الله عنه للسنة السنية ، والفرقة الناجية المرضية ، وقمع أهل البدع وزيف مقالتهم ، وأدحض بدعتهم ، وأظهر ضلالتهم ، صار هو علم السنة وامامها ، وصاحبها وخليلها ومقدامها، حتى ان الامام أبا الحسن على بن اسمعيل الاشعرى امام الطائفة الاشعرية انتسب الى الامام أحمد ، ورأى اتباعه على عقيدته هو المنهج الاحمد ، قال فى كتابه « الابانة فى أصول الديانة » لما أنكر قول المعتزلة والقـــدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة : فان قال قائل : « فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له قولنا الذى به نقـــول وديانتنا التى بها ندين التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه الامام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهـــاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ،وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه

من امام مقدم ، وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين » انتهى (١) •

ولد سيدنا وقدوتنا وامامنا الامام أحمد رضى الله عنه فى شهر ربيع الاول سنة أربع وستين ومائة ببغداد وتوفى نهار الجمعة من شهر ربيع الاول لاثنتى عشرة ليلة خلت منه سنة احدى وأربعين ومائتين وغسله المروذى وأدرج فى ثلاث لفائف وحزر من صلى عليه بمائة ألف ألف وعلى السور ستون (٢) ألفا سوى من كان فى السفن ، وكان الامام احمد رضى الله عنه يقول : قولوا لاهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز • وأسلم من اليهود والنصارى والمجوس يوم موته عشرون ألفا (٣) وناحت الجن عليه وهتفت بموته الهواتف • قال أبو زرعة : كان يقال عندنا بخراسان الجن نعت أحمد بن حنبل قبل موته ، وسمعوا قائلا : مات رجل بالعراق فذهبت الجن كلها تصلى عليه الا المردة • وقد رثى بقصائد جمة ودفن ببغداد بباب حرب •

((سقى ضريحا حله صوب الرضا والعفو والغفران ما نجم أضا))

((وحله وسائر الأئمة منازل الرضوان أعلى الجنة))

((سقى ضريحا)) أى قبرا وفى حديث دفن النبى صلى الله عليه وسلم « يرسل الى اللاحد والضارح فأيهما سبق تركناه » قال فى النهاية الضارح هو الذى يعمل الضريح وهو القبر فعيل بمعنى مفعول من الضرح وهو الشق فى الارض ومنه فى خبر سطيح أو فى على الضريح ((حله)) أى سكنه الامام أحمد ونزل به يقال حل المكان وبه يحل ويحل نزل به كاحتله وبه فهو حال ((صوب)) فاعل سقى وهو بفتح الصاد المهملة وسكون

---

(١) بهامش مخ ما لفظه :
وروى أن الشيخ قطب الاولين الكرام الشيخ عبد القادر الجيلانى قدس سره النورانى أنشد وهو على المنبر :
أنا حنبلى ما حييت وان أمت فوصيتى للناس أن يتحنبلوا اهـ
وللشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى :
ويا لنعمة العظمى اعتقاد ابن حنبل عليها اعتقادى يوم تبلى السرائر
وللشيخ مرعى بن يوسف :
لئن قلد الناس الأئمة اننى لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب
أقلد فتواه وأعشق قوله وللناس فيما يعشقون مذاهب
(٢) مخ نحو ستين (٣) أنكر الذهبى فى تاريخ الاسلام هذه الحكاية راجع مقدمة الجزء الاول من مسند الامام احمد بتحقيق احمد شاكر ص ١٣٠

الواو ، فموحدة كالصيب انصباب الغيث واراقته ومجيء السماء بالمطر أي غيث ((الرضا)) واراقته على قبره وانصبابه على ضريحه أي رضوان الله ورحمته وجوده وبركته ((و)) سقى ضريحا حله الامام احمد صـــوب ((العفو)) من الله والصفح((والغفران)) بضم الغين المعجمة وسكون الفاء فراء فنون قبله الف اسم من الغفر وهو الستر والتغطية ، يقال غفر الله له ذنبه مغفرة وغفرانا غطى عليه وعفا عنه ، ومن أسمائه تعالى الغفار والغفور وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده وعيوبهم المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، والمغفرة الباس الله تعالى العفو للمذنبـــين ، ولا يزال رضوان الله ورحمته وعفوه ومغفرته نازلة على ضريح الامام أحمد رضى الله عنه ومتواصلة ومستمرة ((ما نجم)) أي كوكب من نجوم السمـــاء ((أضا)) أي استنار يقال ضاء واضاء بمعنى استنار وصار مضيئا ، أي مدة دوام استنارة الكواكب في كبد السماء ، وفيه من المناسبة أنه تشبه بالنجوم العلماء بجامع الانارة والهداية في الظلماء ((وحله)) الله سبحانه أي أحل الامام احمد بن حنبل رضوان الله عليه ((و)) أحل ((سائر)) أي بقية ((الأئمة)) من علماء الامة وأعلام الأئمة من الأربعة المتبوعةمذاهبهموغيرهم من أئمة الدين وأعلام المسلمين الذين بذلوا جهدهم في نشر السنة وتدوين الشريعة على الطريقة المرضية الحسنة ((منازل الرضوان))منالرحيمالرحمن الكريم المنان في ((أعلى الجنة)) أي الدرجات العالية من الجنان على حسب مقاماتهم الشامخة ، ومناصبهم الباذخة فلهم الفضيلة بالســبق والاجتهاد ، وبذل النصح وارشاد العباد وعلى الذين جاؤا من بعدهم على ممر الزمان ، أن يقولوا « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان »، فرضوان الله ورحمته وعفوه وصفحه وغفرانه وبركته عليهم ولهم ما تعاقب الملوان وكر الجديدان ، والله ولى الاحسان .

فـــوائد

فوائد

نقدمها امام المقصود لا يستغنى عن معرفتها في هذا الفن ليكون الطالب لنيل هذه المطالب على بصيرة (الاولى) لابد لكل طالب علم أن يتصوره اما بحده أو رسمه ليكون على بصيرة في طلبه وأن يعرف موضوعه ليمتاز عنده

الاولى مبادىء هذا العـــلم

عما سواه مزيد امتياز فان العلـوم انما يتميز بعضها عن بعض بامتيـاز الموضوعات وأن يصدق بغاية مآله والا كان طلبه واجتهاده عبثا ولابد أن يكون معتدا بها بالنظر لمشقة التحصيل ، والا فربما فتر جده ، وأن تكون مترتبة على ذلك الشيء المطلوب والا فربما زال اعتقادها بعد الشروع فيه فيصير سعيه فى تحصيله عبثا فى نظره ، فاذا علمت هذا (فحد) هذا العلم المسمى بأصول الدين وبعلم العقائد وبعلم التوحيد وبعلم الكلام العلـم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية أى العلم بالقـواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية • والمراد بالعقائد الدينية المنسوبة الى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا وسواء كانت من الدين فى الواقع ككلام أهل الحق أو لا ككلام المخالف واعتبر فى أدلتها اليقين لانه لا عبرة بالظن فى هذا العلم (١) بل فى العمليات ، وخرج عن التعريف العلم بغير الشرعيات ، وبالشرعيات الفرعية وعلم الله تعالى والملك وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بالاعتقاديات ، ودخل علم علماء الصحابة بذلك فانه كلام وأصول وعقائد وان لم يكن يسمى فى ذلك الزمان بهذا الاسم حيث كان متعلقا بجميع العقائد بقدر الطـاقة البشرية مكتسبا من النظر فى الادلة اليقينية أو كان ملكة تتعلق بها بأن يكون عندهم من المآخذ والشرائط ما يكفيهم فى استحضار العقائد على ما هو المـراد بقولنا العلم بالعقائد من الادلة ، وموضوع كل علم شرعيا كان أو عقليا ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية (فموضوع) هذا العلم البحث عن أحوال الصانع سبحانه من القدم والوحدة والقدرة والارادة وغيرها مـن صفاته وأفعاله الاختيارية ، وكذلك ما يبحث عن الجواهر والاعراض والاجسام والحدوث والافتقار والتركيب من الاجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك مما لا يجوز عليه تعالى (٢) (وغايته) أن يصير الايمـان والتصديق بالاحكام الشرعية متقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين فيرتقى من حضيض التقليد الى ذروة الايقان بسبب التمكن من الاستدلال ، ومن فوائده أيضـا ارشاد الطالبين ، والزام المعاندين ، باقامة الحجج والبراهين ، ونفض غبار شـبه

---

(١) راجع ما تقدم أوئل الشرح فى التعريف السادس
(٢) أنظر ما يأتى فى التعليق على شرح أوائل الباب الاول

الخصوم عن قواعد الدين ، وصحة النية ، والاعتقادات الاسلامية التى يقع بها العمل فى حيز القبول (وثمرة) جميع ذلك الفوز بسعادة الدارين والظفر بما هو كمال فى الكونين • ففى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانسانى على وجه لا يؤدى الى الفساد ، وفى الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد (ومسائله) القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية (واستمداده) من الكتاب والسنة والاجماع والنظر الصحيح •

الثانية المقصود من ترتيب القواعد

(الفائدة الثانية) مما ينبغى أن يعلم أن القواعد الكلامية ما رتبت هذا الترتيب وبوبت هذا التبويب لتؤخذ منها الاعتقادات الاسلامية والقواعد الدينية ، بل المقصود منها ليس الا دفع شبه الخصوم ودحض نهج أهل البدع والضلال فانهم طعنوا فى بعض منها بأنه غير معقول ، فبين علماء السنة بأن زعمهم على غاية من الغلط والذهول ، فان الانبياء تأتى بمحارات العقول لا بمحالاتها ، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية معقولية ما انكروا ، وزيفوا عليهم من بدعهم الفظيعة ونزعاتهم الشنيعة ما ابتكروا ، وانما أخذ أهل (السنة ـ ١) الاعتقادات ، واعتمدوا من المعتقدات ، على ما جاءت به النصوص الصريحة ، والاخبار الصحيحة ، ودرج عليه سلف الامة ، ونهج اليه أعلام الائمة ، من الرعيل الاول ومن عليهم دون سواهم المعول •

الثالثة لمعةعن أول البدع ظهورا

(الثالثة) أول بدعة ظهرت بدعة القدر وبدعة الارجاء وبدعة التشيع والخوارج ، وهذه البدع ظهرت فى القرن الثانى والصحابة موجودون وقد أنكروا على أهلها كما سيأتى بيان ذلك ، ثم ظهرت بدعة الاعتزال ولم يزل المسلمون على النهج الاول ولزوم ظاهر السنة وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم الى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، والبغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والاهواء ، وكثرت المسائل والواقعيات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال واستنباط النتائج وتمهيد القواعد وانتاج القضايا والفوائد ، وأخذوا فى

(١) من مخ

التبويب والتفصيل ، والترتيب والتأصيل ، فأسست فرقة المعتزلة قواعد الخلاف ، ونهجت منهج الفرقة والانحراف ، وكان أول من اعتزل عن مجلس سيد التابعين الحسن البصري واصل بن عطاء رئيس الطائفةالمعتزلة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي وهو أول خلاف حدث في الملة هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقالت الخوارج انه كافر ، وقالت الجماعة انه مؤمن ، وقالت طائفة نقول انه فاسق لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين ، وخلدوه في النار ، فقال الحسن البصري رضي الله عنه : اعتزلوا عنا فاعتزلوا حلقة الحسن وأصحابه فسموا معتزلة وسموا هم أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي على الله تعالى ونفي الصفات القديمة عنه • وقال بعض العلماء : وقف على مجلس الحسن البصري رجل فقال يا امام ظهر في هذا الزمان جماعة يكفرون صاحب الكبيرة — يعني بهم الخوارج — وجماعة يقولون لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة — يعني بهم المرجئة — فما تعتقده من ذلك ؟ فأطرق الحسن مفكرا في الصواب فبادره واصل بن عطاء بالجواب فقال : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، وقام الى اسطوانة في المسجد يقرر مذهبه ويثبت المنزلة بين المنزلتين ويقول : الناس ثلاثة مؤمن وكافر ولا مؤمن ولا كافر وهو صاحب الكبيرة اذا مات بلا توبة ، فقال له الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسموا المعتزلة لذلك • ورفيق واصل في الاعتزال وقرينه عمرو بن عبيد المتكلم الزاهد وكان من العلم والعمل والزهد والورع والديانة على جانب عظيم حتى ان الحسن البصري لما سئل عنه أجاب السائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الانبياء ربته ان قام بأمر قعد به وان قعد بأمر قام به وان أمر بشيء كان ألزم الناس له وان نهى عن شيء كان أترك الناس له • ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن ولا باطنا أشبه بظاهر منه • انتهى **(١)** ويروى ان واصل

الخلاف في الفاسق وبدء أمر المعتزلة

---

(١) بهامش مخ ما نصه :

وروى أن الحسن البصري قال في عمرو بن عبيد : هذا سيد الفتيان ان لم يحدث ، فأحدث هذا الحدث العظيم فكأن الحسن رضي الله عنه تفرس فيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل ا هـ سمعته من شيخنا عبد الله (بابطين)

بن عطاء تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبيا كان (١) يتكلم بأحسن من هذا ؟ وفصاحة واصل مشهورة وكان يلثغ بالراء فكان يجتنبها حتى كأنها ليست من الحروف (٢) ثم خلفه الجبائى (٣) وكان الاشعرى امام الطائفة الاشعرية من أصحابه ثم فارقه لما ظهر له فساد مذهبه كما هـو مشهور والله أعلم •

الرابعة التعريف بأهل السنة

(الرابعة) أهل السنة والجماعة ثلاث فرق : الاثرية وامامهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، والاشعرية وامامهم أبو الحسن الاشعرى رحمه الله ، والماتريدية وامامهم أبو منصور الماتريدى (٤) وأما فرق الضـلال فكثيرة جدا وهذا أوان الشروع فى المقصود وبالله التوفيق •

---

(١) مخ « نبى ماكان »

(٢) بهامش مخ «روى انه اجتمع مع بعض العلماء ممن كان يبكته بلثغته فقال له قل أمر الامير أن تحفر بئر فى قارعة الطريق • فقال فى الحال أوعز القائد بقلب قليب فى وسط الجادة

(٣) وهو بعده بزمان

(٤) بهامش مخ ما نصه ·
« هذا مصانعة من المصنف رحمه الله تعالى فى ادخاله الاشعرية والماتريدية فى أهل السنة والجماعة ، كيف يكون من أهل السنة والجماعة من لا يثبت علو الرب سبحانه فوق سمواته واستواءه على عرشه ويقول حروف القرآن مخلوقة وان الله لا يتكلم بحرف ولا صوت ولا يثبت رؤية المؤمنين ربهم فى الجنة بأبصارهم ، فهم يقرون بالرؤية ويفسرونها بزيادة علم يخلقه الله فى قلب الرائى • ويقول الايمان مجرد التصديق وغير ذلك من أقوالهـم المعروفة المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة » وفى تعليق للشيخ عبد الله بابطين ما لفظه : « تقسيم أهل السنة الى ثلاث فرق فيه نظر فالحق الذى لاريب فيه ان أهل السنة فرقة واحدة وهى الفرقة الناجية التى بينها النبى صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها بقوله هى الجماعة وفى رواية من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى ، أو من كان على ما أنا عليه وأصحابى • وبهذا عرف أنهم هم المجتمعون على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا يكونون سوى فرقة واحدة والمؤلف نفسه يرحمه الله لما ذكر فى المقدمة هذا الحديث قال فى النظم (وليس هذا النص جزما يعتبر فى فرقة الا على أهل الاثر) يعنى بذلك الاثرية وبهذا عرف أن أهل السنة والجماعة هم فرقة واحدة الاثرية والله أعلم

المقـــدمة في ترجيح مذهب السلف

المقـــدمة

في ترجيح مذهب السلف على غيره من سائر المذاهب

وقد قدمنا ما يفيد أن مذهب السلف هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ومن بعدهم من أئمـــة الدين والديانة والمعرفة والصيانة والسنة والأمانة ، وانما نسب لامامنا الامام أحمـــد رضى الله عنه لانه انتهى اليه من السنة ونصوص رسول الله صلى الله عليـــه وسلم أكثر مما انتهى الى غيره ، وابتلى بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره ، فصار اماما في السنة أظهر من غيره ، ولهذا قال بعض شـــيوخ المغاربة : المذهب لمالك والشافعي وغيرهما من الأئمـــة ، والظهـــور للامام احمد بن حنبل • فالذى عليه احمد عليه جميع الأئمة وان زاد بعضهم على بعض في العلم والبيان واظهار الحق ودفع الباطل •

((اعلم هـــديت انه جاء الخبر   عن النبى المقتفى خير البشر))

((بأن ذى الأمة سوف تفترق   بضعا وسبعين اعتقـادا والمحق))

((ما كان في نهج النبى المصطفى   وصحبه مـن غير زيغ وجفا))

((اعلم)) فعل أمر من العلم وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع أى كن متهيئا ومتفهما لادراك ما يلقى اليك من العلوم وما في ضمن المنثـور من كلامى والمنظوم ((هديت)) جملة معترضة دعائية من الهداية وهي الدلالة والمراد بها هنا الدلالة الموصلة الى المطلوب بقرينة المقام ((انه)) أى الشأن والامر ((جاء الخبر)) يعنى الحديث المعول عليه في القديم والحديث ((عن النبى)) المصطفى والحبيب ((المقتفى)) أى المختص المتبع ، ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم المقفى ، قال في النهاية هو المولى الذاهب وقد قفى يقفى فهو مقف يعنى انه آخر الانبياء المتبع لهم فاذا قفى فلا نبى بعده • انتهى • وقال الامام المحقق ابن القيم في كتابه « زاد المعاد في هدى خير العباد » المقفى الذى قفى على آثار من تقدمه من الرسل فقفى الله به على آثار من سبقه منهم وهذه اللفظة مشتقة من القفو قفاه يقفوه اذا تأخـــر عنه ((خـــير البشر)) بل خير جميع الخلق من الأنس والجن والملائكة فهو سيد العالم وصفوة بنى آدم وأفضل خلق الله وخير مخلوقات الله صلى الله عليـــه

وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ((بأن ذى)) أى هذه ((الأمة)) المحمدية والملة الأحمدية ((سوف)) أى س((تفترق))فيما بعد ((بضعا))أى الى بضع ((وسبعين)) فرقة ، والبضع فى العدد بالكسر وقد تفتح ما بين الثلاث الى التسع ، واذا جاوزت لفظ العشر ذهب البضع فلا يقال بضع وعشرون ، أو يقال ذلك كما فى القاموس ، وعلى هذا القول جرينا فى النظم فيقال بضعة وعشرون رجلا وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس ((اعتقادا)) أى افتراقهم لأجل الاعتقاد فهو مفعول لأجله وهى ضالة منحرفة عن الصراط المستقيم والنهج القويم ((و)) انما ((المحق)) من جميعها طائفة واحدة وهى((ماكان)) سيرها واعتقادها ونهجها واعتمادها ((فى نهج)) أى منهج ((النبى المصطفى)) أى صفوة خلق الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال ان من أسمائه صلى الله عليه وسلم المصطفى وهو مشهور ملهوج به وهو صادق عليـــه ولائق به ، قال القاضى عياض فى الشفاء بعد أن ذكر المأثور من أسمائه ما لفظه : وجرى منها أى القابه وسماته فى كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله واطلاق الامة جملة شافية كتسميته بالمصطفى وبالمجتبى وبالحبيب والله أعلم • ((و)) من كان منهم فى نهج ((صحبه)) رضوان الله عليهم أى من كان على منهاجهم وسار بسيرهم من اقتفاء الرسول فى اتباع المنقول ((من غير زيغ)) أى من غير ميل ولا انحراف ولا شك ولا انصراف ((و)) من غير ((جفا)) بالجيم أى من غير تجاف عن هديهم وازالة عن نهجهم، والجفاء نقيض الصلة ويقصر ويصح أن يقرأ بالخاء المعجمة ويكون المعنى من غير ميل ولا كتم وستر ، والخافية ضد العلانية ، والمشار اليه فى البيتين هو ما رواه سيدنا الامام أحمد من حديث معاوية رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « الا ان من قبلكم من أهــل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق عـــلى ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجمـــاعة » ورواه أبو داود وزاد فيه : « وانه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله » قوله الكلب بفتح اللام قال الخطابى هو داء يعرض للانسان من عضـــة الكلب

(الكلب ـ ١) وقال وعلامة ذلك فى الكلب أن تحمر عيناه ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه فاذا رأى انسانا ساوره • وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة كلهم فى النار الا فرقة واحدة » فقيل له : من هم يا رسول الله ؟ يعنى الفرقة الناجية ، فقال : « هو من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » ، وفى رواية : «ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلهم فى النار الا فرقة واحدة وهى ما كان على ما أنا عليه وأصحابى » • قال بعض العلماء : هم يعنى الفرقة الناجية أهل الحديث يعنى الاثرية والاشعرية والماتريدية (٢) قلت ولفظ الحديث يعنى قوله الا فرقة واحدة ينافى التعدد ولذا قلت

((وليس هذا النص جزما يعتبر   فى فرقة الا على أهل الاثر))

((وليس هذا النص)) المذكور عن منبع النور ومصباح الديجور((جزما)) يحتمل المصدرية أى أجزم به جزما أو انه مفعول لاجله أى من جهة الجزم واليقين ((يعتبر)) أى يستدل به ويوافق ((فى فرقة)) أى لا ينطق ويصدق على فرقة من الثلاث وسبعين فرقة ((الا على)) فرقة ((أهل الاثر))وماعداهم من سائر الفرق قد حكموا العقول ، وخالفوا المنقول ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم والواجب أن يتلقى بالقبول فانى يصدق عليهم الخبر أو يطبق عليهم الاثر •

تنبيهات

تنبيهات

الاول تعداد الفرق

الاول قال بعض أهل العلم أهل البدع خمسة : يعنى من جهة أصولها ثم كل (فرقة ـ ٣) تتشعب وتتفرق فرقاشتى ،أحدها المعتزلة القائلون بأن العباد خالقو أعمالهم وينفون رؤية الله تعالى فى الآخرة ويقولون بوجوب الثواب والعقاب والصلاح والاصلح على الله ، ومن أصول المعتزلة القول بالعدل وثبوت المنزلة بين المنزلتين والتوحيد يعنى نفى الصفات كما تقدم ، وهم عشرون فرقة يضلل بعضهم بعضا •

فرق المعتزلة

---

(١) من مخ

(٢) بهامش مخ « تأمل قوله أهل الحديث الخ وادخاله الاشعرية والماتريدية » راجع التعليق الطويل ص ٧٣

(٣) من مخ

(أحدها) الواصلية اتباع واصل بن عطاء قالوا بجميع ما ذكر وخطأوا أحد الفريقين من عثمان رضى الله عنه ومقاتليه وجوزوا أن يكون سيدنا عثمان رضى الله عنه بين الكفر والايمان وخلدوه فى النار ، وكذا علـى ومقاتلوه ، وحكموا بأن طلحة والزبير وعليا رضى الله عنهم بعد وقعة الجمل لو شهدوا على حبة لم تقبل شهادتهم كالمتلاعنين •

(الثانية) العمرية مثلهم الا أنهم فسقوا كلا الفريقين •

(الثالثة) الهذلية أصحاب أبى الهذيل العلاف قالوا بفناءمقدورات الله من الجنة والنار وان العباد مجبورون فى الآخرة ، ولهذا تسمى المعتزلة أبا الهذيل جهمى الآخرة ، وان الله عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما عين ذاته مريد بارادة لا فى ذات متكلم بكلمة «كن» لا فى ذات ، وهو يوافق قول جهم فى بعض الوجوه وان كان المعتزلة كلهم جهمية •قال شيخ الاسلام ابن تيمية : أول من حفظ عنه أنه قال مقالة التعطيل للصفات فى الاسلام الجعد ابن درهم الذى ضحى به خالد القسرى ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه ، وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، وأخذها ابان من طالوت ابن أخت لبيد بن الاعصم ، وأخذها طالوت من لبيد ابن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ،وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، والنمرود هو ملك الصابئة المشركين اسم جنس ككسرى لملك الفرس وقيصر ملك الروم ، وكـان الصائبون هؤلاء يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ، فمذهب النفاة من هؤلاء يقولون فى الرب تعالى ليس له الا صفات سلبية أو اضافية أو مركبة منهما ، وأخذها الجهم أيضا فيما ذكره الامام احمد رضى الله عنه عن السمنية وبعض فلاسفة الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، قال شيخ الاسلام فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والنصارى والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين اما من الصابئين واما من المشركين •

(الرابعة) النظامية أصحاب ابراهيم بن سيار (١) النظام قالوا ان الله

---

(١) فى الاصلين «يسار» خطأ

لا يقدر أن يفعل بعباده فى الدنيا مالا صلاح لهم فيه ، ولا أن يزيد وينقص من عقاب وثواب ، وكونه مريدا لفعله كونه خالقه ،ولفعل العبد كونه أمر(١) به ، والانسان هو الروح والبدن ، والأعراض والاجسام لا تبقى ، والجسم مؤلف من الاعراض ، والعلم والجهل المركب مثلان ، والايمان والكفر كذلك ، وان الله خلق الخلق دفعة والتقدم والتأخر فى الكون والظهور ، ونظم القرآن ليس بمعجز ، والتواتر يحتمل الكذب ، والاجماع والقياس ليس حجة ، وأوجبوا النص على الامام وثبوته لعلى لكن كتمه عمر

(الخامسة) الاسوارية وهم أصحاب الاسوارى زادوا على من قبلهم ان الله لا يقدر على ما أخبر بعدمه أو علم عدمه (والانسان قادر على ما أخبر بعدمه أو علمه - ٢)

(السادسة) الاسكافية أصحاب أبى جابر الاسكاف قالوا ان الله لا يقدر على الظلم على العقلاء لكن على الصبيان والمجانين .

(السابعة) الجعفرية أصحاب جعفر بن مبشر وابن حرب زادوا ان فى فساق الامة من هو شر من الزنادقة والمجوس ، والاجماع على حد الشرب خطأ ، وسارق الحبة منخلع عن الايمان

(الثامنة) البشرية أصحاب بشر بن المعتمر قالوا الاعراض من الطعوم والروائح وغيرها تقع متولدة ، والقدرة بسلامة البنية ، والله قادر على تعذيب الطفل ظالما

(التاسعة) المردارية وهم أصحاب أبى موسى عيسى بن صبيح المردار تلميذ بشر قالوا ان الله قادر على الكذب والظلم ،ووقوع فعل بين فاعلين تولدا(٣) والناس قادرون على مثل القرآن وأحسن منه ، ويكفرون القائل بخلق الاعمال والرؤية

(العاشرة) الهشامية أصحاب هشام بن عمر قالوا لا يطلق اسم الوكيل على الله تعالى لاستدعائه موكلا ، ولا دلالة فى القرآن على الحلال والحرام، والامامة لا تنعقد مع الاختلاف ، والجنة والنار لم تخلفا بعد ، ولم يقتل

---

(١) مخ «آمرا»
(٢) من مخ (٣) مخ «تولد»

عثمان ، ومن أفسد صلاة عقدها بشروطها فأول صلاته معصية

(الحادية عشرة) الصالحية وهم أصحاب الصالح جوزوا قيام السمع والبصر والعلم والقدرة بالميت ، وخلو الجواهر عن الاعراض

(الثانية عشرة) الحائطية أصحاب احمد بن حائط من أصحاب البطال قالوا للعالم الهان قديم ومحدث والمسيح هو الذى يحاسب الناس فى الآخرة

(الثالثة عشرة) الحدبية أصحاب فضل الحدبى زادوا التناسخ وان كل حيوان مكلف ، بل قيل فى كل نوع من الحيوان نبى من جنسه

(الرابعة عشرة) المعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمى قالوا ان الله لا يخلق شيئا غير الاجسام ، ولا يوصف بالقدم ، ولا يعلم نفسه ، والانسان لا فعل له غير الارادة

(الخامسة عشرة) الثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى قالوا ، الافعال المتولدة لا فاعل لها ، والمعرفة متولدة من النظر ، وانها واجبة قبل الشرع ، واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصيرون ترابا لا يدخلون جنة ولا نارا وكذا البهائم والاطفال ، والاستطاعة سلامة الآلة ، ومن لا يعلم خالقه من الكفار معذور ، ولا فعل للانسان غير الارادة وما عداها حادث بلا محدث ، والعالم فعل الله بطبعه

(السادسة عشرة) الخياطية أصحاب أبى الحسن بن أبى عمر الخياط قالوا بالقدرة ، وتسمية المعدوم شيئا وجوهرا وعرضا ، وقالوا عن ارادة الله كونه غير مكره ولا كاره وهى فى فعله الخلق ، وفى فعل العباد الامر ، والسمع والبصر العلم بمتعلقهما

(السابعة عشرة) الجاحظية أتباع عمرو الجاحظ أبى عثمان بن بحر البصرى المتكلم صاحب التآليف فى كل فن وكان تلميذ أبى اسحاق ابراهيم ابن سيار (١) البلخى المتكلم الذى تقدم ذكره ، قالوا المعارف كلها ضرورية ، ولا ارادة فى الشاهد ، والاجسام ذوات طبائع ، ويمتنع انعدام الجواهر ، والنار تجتذب اليها أهلها لا أن الله يدخلهم فيها ، والخير والشر

---

(١) فى الاصلين «يسار» خطأ

من فعل العبد ، والقرآن جسد ينقلب تارة رجلا وتارة امرأة

(الثامنة عشرة) الكعبية أصحاب أبى القاسم عبد الله الكعبى قالوا فعل الرب واقع بغير ارادته ولا يرى نفسه ولا غيره الا بمعنى العلم

(التاسعة عشرة) الجبائية وهم شيعة أبى على الجبائى قالوا ارادة الله حادثة لا فى محل والعالم يفنى فناء لا فى محل ، والله متكلم بكلام يخلقه فى جسم ، ولا يرى فى الآخرة ، والعبد خالق فعله ، ومرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر واذا مات بلا توبة يخلد في النار ، ولا كرامة للأولياء ، ويجب على الله اكمال عقل المكلف واعداد أسباب التكليف له من بعث الرسل والمعجزة على يده • وشاركه ابن له - يعنى أبا على - وهوأبوهاشم، وانفرد أبو على بأن الله عالم بلا صفة وسمعه وبصره كونه حيا بلا آفة •

(العشرون) الهاشمية فرقة أبى هاشم قالوا لا توبة عن كبيرة مع الاصرار على غيرها اذا كان عالما بقبحها ، ولا مع عدم القدرة عليها ، ولا يتعلق علم بمعلومين على التفصيل ، وأثبت لله خمس حالات الحيية والعالمية والقادرية والموجودية ، والالهية موجبة للأربعة ، فهذه العشرون فرقة المشهورة من فرق أهل الاعتزال ، وكلها متصفة بالبدع والضلال •

فرق الشيعة

الفرقة الثانية الشيعة الشنيعة

وافترقت الى اثنتين وعشرين فرقة وأصول ذلك كله ثلاث فرق غلاة وامامية وزيدية ، أما الغلاة فافترقت ثمانية عشر فرقة يكفر بعضها بعضا (أحدها) السبأية وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذى قال لأمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه : أنت الاله حقا : فأحرق من أصحاب هذه المقالة من قدر عليه منهم فخد لهم أخاديد وأحرقهم بالنار وقال :

انى اذا سمعت قولا منكرا ... أججت نارا ودعوت قنبرا

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، وابن سبأ هذا أول من ابتدع الرفض ، قال وكان منافقا زنديقا أراد فساد دين الاسلام كما فعل بولص صاحب الرسائل التى بأيدى النصارى حيث ابتدع لهم بدعا أفسد بها دينهم وكان يهوديا فأظهر النصرانية نفاقا لقصد افساد ملتهم ، وكذلك كان ابن سبأ يهوديا فقصد ذلك وسعى فى الفتنة فلم يتمكن لكن حصل

بين المؤمنين تحريش وفتنة فقتل فيها عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وتبع ابن سبأ جماعات على بدعته وضلالته ، وقال هؤلاء ان عليا رضى الله عنه لم يمت وانما الذى قتله عبد الرحمن بن ملجم شيطان وأما على ففى السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه ، وانه ينزل الى الارض ويملأها عدلا ، ويقولون عند الرعد عليك السلام يا أمير المؤمنين

(الثانية) الكاملية وهم أتباع أبى كامل قالوا بكفر الصحابة رضى اللهعنهم بترك بيعة على ، وبكفر على رضى الله عنه بترك طلب حقه ، ويعتقـــدون التناسخ وان الامامة نور يتناسخ وقد يصير فى شخص نبوة

(الثالثة) البيانية أتباع بيان (١) بن سمعان التميمى قالوا الله تعالى على صورة الانسان ويهلك كله الا وجهه ، وروح الله حل فى على ثم فى ابنه محمد ابن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم ثم فى بيان

(الرابعة) المغيرية وهم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى قالوا الله تعالى جسم على صورة انسان من نور وقلبه منبع الحكمة ، ولما أراد الخلق تكلم بالاسم الأعظم فطار فوقع تاج على رأسه ثم كتب على كفه أعمال العباد فغضب من المعاصى فعرق فحصل منه بحران أحدهما ملح مظلم والآخر حلو نير ثم اطلع فى البحر النير فأبصر ظله فانتزعه فجعل منه الشمس والقمر وأفنى الباقى ثم خلق الخلق من البحرين فالكفر من المظلم والايمان من النير ، ثم أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم والناس فى ضلال وعرض الامانةوهى منع الامامة (٢) على السموات والارض والجبال فأبين أنيحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان — قالوا وهو أبو بكر حملها بأمر عمر بشرطأنيجعل الخلافة بعده له ، قالوا والامام المنتظر زكريا بن محمد بن على بن الحسين ابن على رضى الله عنهم وهو حى فى جبل حاجر

(الخامسة) الجناحية وهم المنسوبون الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر ذى الجناحين قالوا الأرواح تتناسخ فكان روح الله فى آدم ثم فى شيث ثم فى الأنبياء والأئمة حتى انتهت الى على وأولاده الثلاثة ثم الى

---

(١) فى الاصل بنان بنون بعد الباء والصواب بيان كما فى المواقف وشرح القاموس

(٢) فى الاصلين منبع الامامة وفى المواقف « وهى منع على عن الامامة »

عبد الله قالوا وهو حى يجبل أصبهان ،وأنكروا القيامة واستحلوا المحرمات

(السادسة) المنصورية وهم أتباع أبى منصور العجلى قالوا الامامة صارت لمحمد بن على بن الحسين وعرج الى السماء ومسح الله رأسه بيده وقال يا بنى اذهب وبلغ عنى (١) • قالوا والرسل لا تنقطع والجنة رجل أمرنا بموالاته وهو الامام، والناررجل أمرنا بمعاداته ، وكذا الفرائض والمحرمات

(السابعة) الخطابية وهم أتباع أبى الخطاب الاسدى قال الأئمة أنبياء وأدعى النبوة لنفسه وقال : الحسنان رضى الله عنهما ابنان لله وجعفر اله لكن أبو الخطاب أفضل منه ومن على ويستحلون شهادة الزور لموافقيهم على مخالفيهم ، قالوا والجنة نعيم الدنيا والنار آلامها ، واستباحوا المحرمات وتركوا الفرائض ، قالوا ويمكن أن يوحى الى كل مؤمن ومنهم من هو خير من جبرئيل وميكائيل وهم لا يموتون بل يرفعون الى الملكوت

(الثامنة) الذمية الذين ذموا النبى صلى الله عليه وسلم قالوا لأن عليا اله بعثه ليدعو له فدعا الى نفسه ، وقد قيل عند هؤلاء بالهيتهما ولهم فى التقديم خلاف ، وقيل عندهم هما وفاطمة والحسنان آلهة وهم يقولون فاطم ولا يقولون فاطمة تحاشيا عن التأنيث

(التاسعة) الغرابية وهم الذين قالوا محمد أشبه بعلى من الغراب بالغراب فغلط جبرئيل من على الى محمد بالرسالة

(العاشرة) الهشامية وهم أتباع هشام بن الحكم قالوا ان الله جل شأنه طويل عريض عميق متساو كالسبيكة البيضاء يتلألأ من كل جانب وله لون وطعم ورائحة ويقوم ويقعد ويعلم ما تحت الثرى بشعاع ينفصل عنه اليه وهو سبعة أشبار بأشبار نفسه مماس للعرش بلا تفاوت وارادته هى حركة لا عينه ولا غيره ، وانما يعلم الأشياء بعد كونها بعلم لا قديم ولا حادث ، وكلامه صفة لا مخلوق ولا قديم ، والاعراض لا تدل على البارى ، والأئمة دون الانبياء

(الحاديةعشرة) الزرارية وهم أتباع زرارة بن أعين قالوا صفات الله حادثة ولا حياة قبل الصفات ، ولهم أقوال خبيثة جدا

---

(١) زاد فى المواقف « وهو الكسعف »

(الثانية عشرة) اليونسية وهم أتباع يونس بن عبد الرحمن القمى ، قال الصلاح الصفدى فى الوافى بالوفيات كان يونس على مذهب القطعية فى الامامة ثم انه أفرط فى التشبيه فقال ان الله تعالى يحمله حملة عرشه وهو أقوى منهم كما أن الطائر المعروف بالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى من رجليه . واستدل بقوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وهذا الاستدلال خطأ منه فان الآية مصرحة بأن العرش هو المحمول

(الثالثةعشرة) النعمانية وهم أتباع محمد بن النعمان قال ان الله تعالى نور غير جسمانى على صورة انسان وانما يعلم الاشياء بعد حدوثها

(الرابعة عشرة) الرزامية قالوا الامامة لمحمد بن الحنفية ثم لابنه عبد الله ثم لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم لأولاده الى المنصور ثم حل الاله فى أبى مسلم وانه لم يقتل واستحلوا المحارم

(الخامسة عشرة) المفوضة قالوا الله تعالى فوض خلق العالم الى محمد صلى الله عليه وسلم

(السادسة عشرة) البدائية جوزوا البداء على الله

(السابعة عشرة) النصيرية قالوا ان الله تعالى حل فى على رضى الله عنه

(الثامنة عشرة) الاسماعيلية ويلقبون بالباطنية لقولهم بباطن الكتاب، وأصل دعوتهم مبنية على ابطال الشرائع وانتقاص الدين ، فان قوما من المجوس راموا عند ظهور الفتن واختلاف الكلمة وتباين الدول كسر شوكة الاسلام وانتقاض عرى الدين ولم يمكنهم التصريح بذلك ولا اعلان ما قصدوه من الافك والمهالك ، فأخذوا فى تأويل الشريعة على وجه يعود الى قواعد أسلافهم ، ورأسهم فى ذلك (حمدان قرمط) ومنهم بل صاحب اظهار دعوتهم (أبو سعيد الجنابى) فظهر على البحرين واجتمع عليه جماعة من الاعراب والقرامطة فقوى أمره وقتل من حوله من أهل تلك القرى ، ثم قتل أبو سعيد سنة احدى وثلاثمائة قتله خادم له فى الحمام وقام مقامه ولده أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، وكان قد استولى على هجر والقطيف والاحساء وسائر بلاد البحرين ، فلما كان عام سبع عشرة وثلاثمائة وافى حجاج المسلمين أبو طاهر القرمطى بمكة

يوم التروية فنهب أموال الحاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت الحرام وقلع الحجر الاسود وأنفذه الى هجر وطرح القتلى فى زمزم وقلع باب الكعبة • والقرمط بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وبعدها طاء مهملة ، وكان أبو سعيد المذكور قصيرا مجتمع الخلق أسمر كريه المنظر فلذلك قيل له قرمطى ، والجنابى بفتح الجيم وتشديد النون وبعد الالف موحدة نسبة الى جنابة وهى بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف والقرامطة منها فنسبوا اليها

ولهم فى دعوتهم مراتب **(الزرق) وهو التفرس فى حال المدعو هل هو** قابل أم لا ولذلك منعوا القاء البذر فى السبخة (١) والتكلم فى بيت فيه سراج أى فقيه ثم (التأنيس) باستمالة كل واحد بما يميل اليه من زهد وخلاعة ، ثم (التشكيك) فى أركان الشريعة بمقطعات السور وقضاء صوم الحائض دون صلاتها والغسل من المنى دون البول لتتعلق القلوب بمراجعتهم فيها ، ثم (الربط) وهو أخذ الميثاق منه بحسب اعتقاده أن لا يفشى عنهم شيئا وحوالته على الامام فى كل ما أشكل عليه ، ثم (التدليس) وهو دعوى موافقة أكابر الدين لهم حتى يزداد ميلهم ، ثم (التأسيس) وهو تمهيد مقدمات يقبلها المدعو ، ثم (الخلع) وهو الطمأنينة الى اسقاط وجوب الافعال البدنية ، ثم (السلخ) عن الاعتقادات وحينئذ يأخذون فى الاباحة واستعجال اللذات وتأويل الشريعة • قال شيخ الاسلام أبو العباس تقى الدين ابن تيمية روح الله روحه : ذكر الكاشفون لأسرار القرامطة والهاتكون لأستارهم كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى أبى يعلى وطوائف كثيرة ما وجدنا مصداقه فى كتب القرامطة انهم وضعوا لأنفسهم اصطلاحات روجوها على المسلمين ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس الثنوية ، كقولهم السابق والتالى يعنون به العقل والنفس ، ويقولون هو اللوح والقلم ، قال وأصل دينهم مأخوذ من دين المجوس والصابئين ، ومن مذهبهم أن الله تعالى لا موجود ولا معدوم ، وربما خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، وقد دخل كثير من هذه القرمطة فى كلام كثير من المتصوفة

---

(١) فسره فى شرح المواقف بدعوة من ليس قابلا لها وهو ظاهر

كما دخل فى كثير من المتكلمة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وكتاب رسائل اخوان الصفا أصل مذهب القرامطة الفلاسفة فربما نسبوا هـــذا الكتاب بالافتراء الى جعفر الصادق ليجعلوه ميراثا عن أهل البيت • قال وهذا من أقبح الكذب وأوضحه فانه لا نزاع بين العقلاء ان رسائل اخوان الصفا انما صنفت بعد المائة الثالثة فى دولة بنى بويه قريبا من بناء القاهرة المعزية • ودولة العبيدية الحاكمية المنتسبين لأهل البيت الملقبين بالفاطمية من هذا النمط فان ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومن فرقهم الدروز والتيامنة والحمزاوية وأضرابهم ، وهؤلاء من أكفر الناس وبالله التوفيق

(وأما الزيدية) فهم ينتسبون للسيد الشريف زيد بن على زين العابدين ابن الحسين شهيد كربلا ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليهم وكان زيد اماما عالما شجاعا مقداما وكان قد بايعه جموع من الشيعة ثم قالوا له تبرأ من الشيخين - يعنون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما - فقال معاذ الله وزيرا جدى فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضـــة والنسبة رافضى ، ثم انقسموا ثلاث فرق « الاولى » الجارودية أصحاب أبى الجارود قالوا بالنص على على رضى الله عنه ، والصحابة كفروا بمخالفتـــه والخلافة بعد الحسن والحسين شورى فى أولادهما فمن خرج منهـــم بالسيف وهو عالم شجاع فهو امام ، واختلفوا فى المنتظر أهـــو محمد بن عبد الله ولم يقتل أو محمد بن القاسم أو يحيى بن عمر صاحب الكوفة (الثانية) السليمانية شيعة سليمان بن جرير قالوا الامامة شورى وانما تنعقد برجلين من خيار المسلمين وأبو بكر وعمر امامان وان أخطأت الامة فى البيعة لهما وكفروا عثمان وطلحة والزبير وعائشة (الثالثة) البترية أصحاب بتر التوصى قالوا بنحو قول من قبلهم الا أنهم توقفوا فى كفر عثمان رضى الله عنه (١)

(واما الامامية) فقالوا باتباع الاثنى عشر اماما وهم على والحسن والحسين وزين العابدين على بن الحسين والباقر محمد بن على زين العابدين وجعفر

---

(١) هذه الاقوال لا تنطبق على أقوال زيدية اليمن فلتراجع كتبهم،

الصادق بن محمد الباقر وموسى الكاظم بن جعفر الصادق وعلى الرضـــا ابن موسى الكاظم ومحمد الجواد بن على الرضا وعلى الهادى بن محمـــد الجواد وحسن العسكرى بن على الهادى ومحمد بن حسن الحجـــة فالامامية هم القائلون بزعمهم بقول هؤلاء الأئمة الابرار رضوان الله عليهم وسلامه ما تعاقب الليل والنهار ، فقالت الاماميه بالنص الجلى على امامة أمير المؤمنين على رضى الله عنه وكفروا الصحابة بمخالفته وساقوا الامامة الى جعفر الصادق ، ثم اختلفوا فى المنصوص عليه بعده وتشعب متأخـــرو الامامية الى معتزلة ومشبهة ومفضلة والله تعالى أعلم

الخوارج

الفرقة الثالثة الخوارج

وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وفارقوه بسبب التحكيم وكانوا اثنى عشر ألفا فأرسل اليهم ابن عباس رضى الله عنهما فجادلهم ووعظهم فرجع بعضهم وأصر على المخالفة آخـــرون وقالت فرقة ننظر ما يصدر من على من أمر التحكيم فان أنفذه أقمنا على مخالفته ، ثم انهم أعلنوا الفرقة وأخذوا فى نهب من لم ير رأيهم وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق » فقتلهم على وطائفته وقال صلى الله عليه وسلم فى حق الخوارج المارقين « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام (١) كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا عند الله تعالى لمن قتلهم يوم القيامة » وقد روى مسلم أحاديثهم فى صحيحه من عشرة أوجه . واتفق الصحابة على قتالهم وفرح على رضى الله عنه بقتلهم وأخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به ولما قيل لعلى الحمد لله الذى أراح منهم العباد قال كلا والذى نفسى بيده ان منهم لفى اصلاب الرجال وان منهم لمن يكون مع الدجال . ثم انهم تشعبوا الى سبع فرق

---

(١) مخ «الدين»

(الاولى) المحكمة الذين خرجوا على أمير المؤمنين على رضى الله عنه عند التحكيم وكفروه وهم اثنا عشر ألفا قالوا من نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ، ولم يوجبوا نصب الامام وكفروا عثمان وأكثر الصحابة وكل مرتكب للكبيرة

(الثانية) البيهسية أتباع بيهس واسمه الهيصم بن جابر كما فى القاموس قالوا الايمان هو العلم بالله تعالى وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فمن وقع فيما لا يعرف أحلال هو أم حرام فهو كافر لوجوب الفحص عنه ، وقيل لا حتى يرجع الى الامام فيحده وما لا حد فيه فمغفور ، وقيل اذا كفر الامام كفرت الرعية حاضرا كان أو غائبا ، والاطفال كآبائهم ايمانا وكفرا

(الثالثة) الازارقة أتباع نافع بن عبد الله الازرق الخارجى اللعين وقد خرج معه قوم من البصرة والاهواز وغيرهما من بلدان فارس وغيرها وعظمت شوكتهم وتملكوا الأمصار وكانت له آراء ومذاهب دانوا بها معه منها أنه كفر عليا رضى الله عنه بسبب التحكيم وزعم أن قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله) الآية نزل فى حقه وزعم أنه نزل فى حق عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ومنها انه كفر من لم يقل برأيه واستحل دمه وكفر القعدة عن القتال وتبرأ ممن قعد عنه وان من ارتكب كبيرة خرج من الاسلام وكان مخلدا فى النار مع سائر الكفار وحرم التقية وجوز قتل أولاد المخالفين له ونساءهم وقال لا حد للقذف ولا للزنا

(الرابعة) النجدية أتباع نجدة بن عامر الحنفى (١) قالوا لا حاجة الى الامام ويجوز نصبه ووافقوا الازارقة فى التكفير

(الخامسة) الاصفرية وهم أتباع زياد بن الاصفر خالفوا الازارقة فى تكفير القعدة وفى منع الحد على الزنا وفى أطفال الكفار وقالوا المعصية الموجبة للحد لا يدعى صاحبها الا بها وما لا حد فيه لعظمه كترك الصوم كفر ، ويزوجون المؤمنة من الكافر فى دار التقية دون العلانية

---

(١) مط «النخعى» خطأ

(السادسة) الاباضية اتباع عبد الله بن أباض قالوا مخالفونا كفار غير مشركين تجوز منا كحتهم وتقبل شهادة مخالفيهم عليهم ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن ، والاستطاعة قبل الفعل ، ومخلوق العبد مخلوق لله ، ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا كفر ملة ، وتوقفوا فى أولاد الكفار وفى النفاق أهو شرك أم لا وجواز بعثة الرسل بلا دليل وتكليف اتباعه ، وكفروا عليا وأكثر الصحابة رضى الله عنهم•وافترقوا أربع فرق (الاولى) الحفصية أتباع أبى حفص بن أبى المقدام زادوا ان بين الايمان والشرك معرفة الله فمن كفر بأمر سوى الشرك أو بارتكاب كبيرة فكافر لا مشرك (الثانية) اليزيدية قالوا سيبعث نبى من العجم بكتاب يكتب من السماء ويترك شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى ملة الصابئة وكل ذنب شرك (الثالثة) الحارثية أتباع أبى الحارث الاباضى خالفوا فى العذر والاستطاعة قبل الفعل (الرابعة) القائلون بطاعة لا يراد بها الله

(السابعة) العجاردة أتباع عبد الرحمن بن عجرد زادوا على النجدية وجوب دعوة الطفل الى الاسلام اذا بلغ وأطفال المشركين فى النار ، ويتشعب من مذهبهم احدى عشرة فرقة (الأولى) الميمونية أصحاب ميمون ابن عمران قالوا بالقدر والاستطاعة قبل الفعل ، والله يريد الخير دون الشر ولا يريد المعاصى ، وأطفال الكفار فى الجنة ، ولهم اعتقادات سيئة (الثانية) الحمزية أتباع حمزة بن أدرك وافقوهم الا أنهم قالوا أطفال الكفار فى النار (الثالثة) الشعيبية أشياع شعيب بن محمد هم كالميمونية الا فى القدر (الرابعة) الحازمية وهم أصحاب حازم بن عاصم (والخلفية) أصحاب خلف (والاطرافية) عذروا أهل الاطراف فيما لم يعرفوه ووافقوا أهل السنة فى أصولهم ونفوا القدر (الخامسة) المعلومية كالحازمية الا أن المؤمن عندهم من عرف الله بجميع أسمائه ، وفعل العبد مخلوق لله (السادسة) المجهولية قالوا تكفى معرفة الله ببعض أسمائه وفعل العبد له (السابعة) الصلتية وهم أصحاب عثمان بن أبى الصلت هم كالعجاردة لكن قالوا من أسلم واستجار بنا توليناه وبرئنا من أطفاله (الثامنة) التغالبة أصحاب تغلب(١) بن عامر قالوا بولاية الاطفال ،ونقل عنهم أن الاطفال لاحكم

(١) فى بعض الكتب « الثعالبة أصحاب ثعلب »

لهم ، ويرون أخذ الزكاة من العبيد اذا استغنوا واعطاءها الى العبيد اذا افتقروا ، ثم افترقوا أربع فرق (أحدها) الاخنسية أصحاب الاخنس ابن فليس وهم كالتغالبة الا أنهم توقفوا فى أهل دار التقية الا من علم حاله وحرموا الاغتيال بالقتل والسرقة ، ونقل عنهم تزويج المسلمات من مشركى قومهم (والمعبدية) أصحاب معبد بن عبد الرحمن خالفوهم فى التزويج من المشركين وخالفوا التغالبة فى زكاة العبد (والشيبانية) أصحاب شيبان بن سلمة قالوا بالجبر ونفى القدرة (والمكرمية) أصحاب مكرم العجلى قالوا ترك الصلاة كافر لجهله بالله وكذا كل كبيرة كفر • فاذن فرق الخوارج عشرون والله أعلم •

الفرقة الرابعة المرجئة

المرجئة

لقبوا بذلك لأنهم يرجئون العمل عن النية والاعتقاد أى يؤخرونه أو لأنهم يقولون لا يضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وهم خمس فرق

(الاولى) اليونسية قالوا الايمان المعرفة بالله والخضوع له والمحبة ولا يضر معها ترك الطاعات ، وابليس كان عارفا بالله وانما كفر باستكباره

(الثانية) العبيدية أصحاب عبيد المكتب رأوا أن علم الله لم يزل شيئا غيره وانه على صورة الانسان

(الثالثة) الغسانية أصحاب غسان الكوفى قالوا الايمان هو المعرفة بالله ورسوله وبما جاء من عندهما اجمالا وهو لايزيد ولا ينقص • وعنوا بالاجمال جواز أن يقال انه تعالى قد فرض الحج ولا أدرى أين الكعبة لعلها فى غير مكة أو يقال بعث محمدا ولا أدرى هو الذى بالمدينة أم لا

(الرابعة) الثوبانية هم أصحاب ثوبان المرجىء قالوا الايمان هو المعرفة والاقرار بالله وبرسله وما لا يجوز فى العقل أن يفعله ولو عفا عن عاص لعفا عن كل من هو مثله وكذا لو أخرج واحدا من النار ، ولم يجزموا بخروج المؤمن من النار

(الخامسة) التومنية وهم أصحاب أبى معاذ التومنى قالوا الايمان المعرفة والتصديق والمحبة والاخلاص والاقرار ، وترك بعضه كفر وليس بعضه

ايمانا وكل معصية يجمع على أنها كفر يقال لمرتكبها فسق وعصى لا فاسق ولا عاص ، ومن قتل نبيا أو لطمه فقد كفر لأنه دليل تكذيبه • هذه هي المرجئة الخالصة ومنهم من جمع بين الارجاء والقدر كمحمـــد بن شبيب وغيلان الدمشقى خال الاوزاعى • أول من تكلم فى القدر معبد الجهنى ثم غيلان

(السادسة) النجارية وهم أصحاب محمد بن الحسين النجار وافقوا أهل السنة فى خلق الأفعال وان الاستطاعة مع الفعل والعبد مكتسب ووافقوا المعتزلة فى نفى الصفات وحدوث الكلام وفرقهم ثلاث (البرغوثية) قالوا كلام الله اذا قرىء عرض واذا كتب جسم (والزعفرانية) قالوا كلام الله غيره وكل ما هو غيره مخلوق ومن قال كلام الله مخلوق فقد كفـــر (والمستدركة) استدركوا عليهم وقالوا انه مخلوق مطلقا لكنا وافقنا السنة والاجماع فى نفيه وقالوا أقوال مخالفينا كذب حتى قولهم لا اله الا الله

الجبريه

الفرقة الخامسة الجبـــرية

الذين يقولون انا مجبرون على أفعالنا ويسندون الافعال الى الله تعالى ، فمنهم (متوسطة) يسندون الفعل الى الله ويثبتون للعبد كسبا (وخالصة) لا تثبت للعبد شيئا كالجهمية أصحاب الجهم بن صفوان قالوا لا قدرة للعبد أصلا والله سبحانه وتعالى لا يعلم الشىء قبل وقوعه ، وعلمه تعالى حادث لا فى محل ، ولا يوصف بما يوصف به غيره كالعلم والقدرة والارادة • والجنة والنار يفنيان • ووافقوا المعتزلة فى نفى الرؤية وخلق الكلام وايجاب المعرفة بالعقل • وقول الجهمية من أعظم مقالات أهل الافك والضلال باتفاق سلف الامة وأئمتها حتى ان الامام عبد الله بن المبارك لما سئل عن الاثنتين وسبعين فرقة أجاب بأن أصولها أربعة الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية • فقيل له فالجهمية ؟ فقال ليست الجهمية من أمة محمد صلى الله عليه وسلم • وكان يقول انا لنحكى (١) قول اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام (٢) الجهمية فان الجهمية تارة تقول بالحلول وتارة قولها الى

---

(١) مخ «لنستطيع أن نحكى » (٢) مخ «قول»

التعطيل • انتهى • وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالته الحموية : أصل مقالة التعطيل للصفات انما أخذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين • قال فانه أول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام الجعد ابن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية اليه ، وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، وأخذها ابان من طالوت ابن أخت لبيد بن الاعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، وأخذها أيضا الجهم عن السمنية بعض فلاسفة الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والنصارى والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين والله أعلم

السادسة المشبهة

المشبهة

الذين شبهوا الله بمخلوقاته وقد اختلفوا فى طرق التشبيه (فمنهم) مشبهة غلاة الشيعة كما تقدم ، ومنهم مشبهة الحشوية قالوا هو تعالى من لحم ودم وله أعضاء حتى قال بعضهم لأصحابه (لما سألوه - ١) أعفونى من اللحية والفرج وسلونى عما وراءهما (ومنهم) مشبهة الكرامية أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام قالوا أن الله على العرش من جهة العلو وتجوز عليه الحركة والنزول فقيل يملأ العرش واختلفوا أيبعد متناه أو غيره ؟ (ومنهم) من أطلق عليه لفظ الجسم • وفى القاموس ومحمد بن كرام كشداد امام الكرامية القائل بأن معبوده مستقر على العرش وانه جوهر تعالى عن ذلك • انتهى • فسماه محمداوالمعروف انه عبدالله بن كرام(٢)• نعم الاستاذ أبو بكر محمد بن اسحاق بن حمشاد كان زعيم أصحاب عبد الله ابن كرام وكان فى دولة يمين الدولة وأمين الملة محمود بن سبكتكين كبير القدر عالى الذكر • قالوا وتحل الحوادث فى ذاته تعالى وانما يقدر عليها دون الخارجة عن ذاته • ويجب عندهم أن يكون أول خلقه حيا يصح منه

(١) من مخ (٢) بل هو أبو عبد الله محمد بن كرام

الاستدلال ، والنبوة والرسالة صفتان سوى الوحى والمعجزة والعصمة وصاحبها رسول ويجب على الله ارساله لا غير فهو حينئذ مرسل وكل مرسل رسول بلا عكس ويجوز عزله دون الرسول ،وجوزوا امامين كعلى ومعاوية الا أن امامة على وفق السنة بخلاف معاوية لكن تجب طاعته رعيته له ، والايمان قول الذر فى الازل « بلى » وهو باق فى الكل الا المرتدين •

ولا يخفى ما فى عد هذه الفرق من التداخل والمشهور أن أصول الفرق الضالة سبعة أولها المعتزلة ٢٢ ثم الشيعة ٢٢ فالخوارج ١٢ فالمرجئة ٥ فالنجارية ٣ الجبرية ١ المشبهة ٣ (١)

التنبيه الثانى

التنبيه الثانى رواية كلها فى الجنة الافرقة

ذكر أبو حامد الغزالى فى كتابه التفرقة بين الايمان والزندقة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة الا الزنادقة وهى فرقة » • هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات • قال : وظاهر الحديث يدل على انه أراد الزنادقة من أمته اذ قال : ستفترق أمتى ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد والصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ يزعمون ان الموت عدم محض وان العالم لم يزل كذلك موجودا بنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينسبون الانبياء الى التلبيس فلا يمكن نسبتهم الى الامة • انتهى•قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الاسكندرية : أما هذا الحديث فلا أصل له بل هو موضوع كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ بل الحديث الذى فى كتب السنن والمساند عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه انه قال : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار » • وروى عنه انه قال : « هى الجماعة » وفى حديث آخر : « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » وضعفه ابن حزم لكن رواه الحاكم فى صحيحه وقد رواه أبو داود والترمذى وغيرهم قال : وأيضا لفظ الزندقة لا يوجد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يوجد فى القرآن وأما الزنديق الذى

---

(١) مخ «المعتزلةثم الشيعة فالخوارج فالمرجئة فالجبرية فالمشبهةفالنجارية»

تكلم الفقهاء فى توبته قبولا وردا فالمراد به عندهم المنافق الذى يظهر الاسلام ويبطن الكفر • انتهى • قلت وقد ذكر الحديث الذى ذكره الغزالى الحافظ ابن الجوزى فى الموضوعات وذكر أنه روى من حديث أنس ولفظه : « تفترق أمتى على سبعين أو احدى وسبعين فرقة كلهم فى الجنة (١) الا فرقة واحدة » • قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال : « الزنادقة وهم القدرية » أخرجه العقيلى وابن عدى ورواه الطبرانى أيضا ـ قال أنس : كنا نراهم القدرية • قال ابن الجوزى وضعه الابرد بن أشرس وكان وضاعا كذابا وأخذه منه ياسين الزيات فقلب اسناده وخلطه ، وسرقه عثمان بن عفان القرشى وهؤلاء كذابون متروكون وأما الحديث الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان أمته ستفترق الى ثلاث وسبعين فرقة واحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار فروى من حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وابن عمر وأبى الدرداء ومعاوية وابن عباس وجابر وأبى امامة وواثلة وعوف بن مالك وعمرو بن عوف المزنى فكل هؤلاء قالوا واحدة فى الجنة وهى الجماعة ولفظ حديث معاوية ما تقدم فهو الذى ينبغى أن يعول عليه دون الحديث المكذوب على النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم • ثم أخذ يذكر بعض ما عليه أهل الفرقة الناجية فقال :

قول أهل السنة فى النصوص

((فأثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه))
((فكل ما جاء من الآيات أوضح فى الاخبار عن ثقات))
((من الاحاديث نمره كما قد جاء(٢) فاسمع من نظامى واعلما))

---

(١) مط « فى النار »

(٢) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :

هذا لفظ مجمل يحتاج الى تفصيل وبيان وبيانه انه ان أريد بهذا الكلام الاقتصار على مجرد اللفظ من غير تعرض لمعناه الذى دل عليه بل يعتقد بانه لفظ لا يسعنا أن نبحث فى معناه وانما الواجب علينا أن نقرأه كما نقرأ ا ب ت الخ ان أريد به هذا فهو مراد فاسد ليس هو مذهب السلف والأئمة كما قد بينه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالته المحمدية الكبرى وذكر أن من ظن أن طريقة السلف هى مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك فقد كذب على طريقتهم •• وأما ان أريد بهذا الكلام ما أراده السلف وهو أن يثبت معناها ويعتقد كما جاءت من غير كيف فهذا مراد صحيح وقد جاء معنى هذه العبارة عن السلف ، قال الشيخ تقى الدين ابن تيمية فقولهم : أمروها كما جاءت ، يقتضى ابقاء دلالتها على ما هى عليه فانها

((ولا نـرد ذاك بالعقـول لقول مفتر به جهـول))
((فعقـدنا الاثبـات يا خليلى من غير تعطيـل ولا تمثيل))

((ف)) انهم أى الاثرية من الفرقة الناجية ((أثبتوا النصوص))القرآنية والاحاديث النبوية متمسكين ((بالتنزيه)) لله سبحانه وتعالى ((من غير تعطيل)) للصفات الواردة فى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهو نفيها عنه تعالى ، فان المعطلين لم يفهموامن أسماءالله تعالى وصفاته الا ماهو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات فجمعوا بين التمثيل والتعطيل، فمثلوا أولا وعطلوا آخرا فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الاسماء والصفات اللائقة به عز وجل ، بخلاف سلف الامه وأجلاء الأئمة فانهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ((ولا تشبيه)) تعالى الله عن ذلك فانه تعالى قال فى محكم كتابه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فرد على المشبهة بنفى المثلية ورد على المعطلة بقوله : « وهو السميع البصير » واعلم أن قدماء المعتزلة كأبى على الجبائى وابنه أبى هاشم ذهبوا الى أن المماثلة هى المشاركة فى أخص صفات النفس فمماثلة زيد لعمرو عندهم مشاركته اياه فى الناطقية فقط ، وذهب الماتريدية الى أن المماثلة هى الاشتراك فى الصفات النفسة كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو . قالوا ومن لازم الاشتراك فى الصفة النفسية أمران ، أحدهما الاشتراك فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وثانيهما أن يسد كل منهما مسدالآخر وينوب الآخرمنابه فمن ثم يقال المثلان موجودان مشتركان فيما يجب ويجوز ويمتنع ، أو

جاءت بلا كيف ألفاظ دالة على معانى فلو كانت دلالتها منفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد ، أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة ... وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت ولا يقال بلا كيف فان نفى الكيف عما ليس بثابت لغو من القول ا هـ كلامه وبهذا علم أن أهل السنة يثبتون معانى أسماء الله ، وصفاته وان كانوا لا يتعرضون لفهم كيفيتها ولا يبحثون عنها لأن ذلك أمر غيبى لم يخبر عنه فحسبنا أن نقف على ما بلغ علمنا اليه وعلى هذا فيتعين الايمان باللفظ وما دل عليه من المعنى سواء كانت دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام ولكن بلا كيف والله أعلم

موجودان يسد كل واحد منهما مسد الآخر • والمتماثلان وان اشتركا فى الصفات النفسية لكن لابد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل ، ونسب الى الاشعرى انه يشترط فى التماثل التساوى من كل وجه ، واعترض بانه لا تعدد حينئذ فلا تماثل ، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا زيد مثل عمرو فى الفقه اذا كان يساويه فيه ويسد مسده وان اختلفا فى كثير من الاوصاف ، وفى الحديث « الحنطة بالحنطة مثلا بمثل » أراد به الاستواء فى الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها ، ولا يخفى أن من الممكن أن يقال المراد التساوى فى الوجه الذى به التماثل فزيد وعمرو اذا اشتركا فى الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما عن الآخر يصح القول بأنهما مثلان فيه والا فلا •وكل هذا مغالطة وتمويه ليس شىء منه مما نحن فيه ((فكل ماجاء)) عن الله تعالى فى القرآن العظيم ((من الآيات)) القرآنية ((أو صح)) مجيئه ((فى الاخبار)) بالاسانيد الثابتة المرضية ((عن)) رواة ((ثقات)) فى النقل وهم العدول الضابطون المرضيون عند أهل الفن العارفين بالجرح والتعديل ((من الاحاديث)) الصحيحة والآثار الصريحة مما يوهم تشبيها أو تمثيلا فهو من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله نؤمن به وبأنه من عند الله تعالى و ((نمره كما قد جاء)) عن الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)فيوصف

هل نصوص الصفات من المتشابه ؟

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٢ بعد حكاية عبارة ملخصة مما هنا ما لفظه :

« اعلم وفقك الله ان هذا الكلام ٠٠ لا ينبغى ان يؤخذ على اطلاقه ونسبته الى مذهب أهل السنة والجماعة من السلف رضوان الله تعالى عليهم بل فيه ما هو حق من كلام السلف ، وفيه ما هو من بعض أقوال المتكلمين الذين ينتسبون الى أهل السنة ممن كثر فى باب أسماء الله وصفاته اضطرابهم وكثف عن معرفته حجابهم ، فا نالسلف رضوان اللهعليهم لا يدخلون أسماء الله وصفاته الواردة فى الكتاب والسنة فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله الا الله ، نعم فيه ما ذكر على السلف انهم يمرون آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت وسيأتي بيان معنى ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى •
قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى الرسالة المسماة بالاكليل فى المتشابه والتأويل : فصل • واما ادخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله الا الله واعتقاد ان ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فانهم وان أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدع

الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وبما وصفه به السابقون الاولون لا يتجاوز القرآن والحديث . قال الامام أحمد رضى الله عنه لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا نتجاوز القرآن والحديث . فمذهب السلف انهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تكييف ، وهو سبحانه ليس كمثله شيء

وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين ، الاول من قال أن هذا من المتشابه وانه لا يفهم معناه . فنقول أما الدليل على ذلك فانى ما أعلم عن أحد من سلف الامة ولا من الائمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره انه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الاعجمى الذى لا يفهم ، ولا قالوا أن الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه . وانماقالوا : كلمات لها معان صحيحة . قالوا فى أحاديث الصفات : تمر كما جاءت . ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التى مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه . ونصوص أحمد والائمة قبله بينة فى انهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منه للبعض ما دلت عليه كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت ـ فى أحاديث الوعيد مثل قوله : « من غشنا فليس منا » وأحاديث الفضائل . ومقصوده ان الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا بالعرف المتأخر ، فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة والجهمية انهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله ، فهذا اتفاق من الأئمة على انهم يعلمون معنى هذا المتشابه وان لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر ، باتفاق الائمة من غير تحريف له عن مواضعه أو الحاد فى أسماء الله وآياته . انتهى . فتأمل ما ذكره شيخ الاسلام .. ثم تأمل ما ذكر الشارح بقوله : فمذهب السلف عدم الخوض فى هذا والسكوت عنه فانه يخالف ما ذكره شيخ الاسلام .. فتبين ان هذا ليس هو مذهب السلف وانه من القول عليهم بلا علم ولا برهان يدل على ذلك . ثم قال شيخ الاسلام: ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على ابطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المحرفين الملحدين والتأويل المردود وهو صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره ، فلو قيل ان هذا هو التأويل المذكور فى الآية وانه لا يعلمه الا الله وليس هذا مذهب السلف والأئمة وانما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى لا تحرف ولا يلحد فيها . وذكر كلاما طويلا .. » .

لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثافالله تعالى منزه عنه حقيقة فانه تعالى مستحق الكمال الذى لا غاية فوقه ، ومذهب السلف عدم الخوض فى مثل هذا والسكوت عنه وتفويض علمه الى الله تعالى (١) قال حبر القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : هذا من

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٤ : « وأما قول الشارح : فمذهب السلف عدم الخوض فى هذا والسكوت عنه وتفويض علمه الى الله فاعلم يا أخى أن شيخ الاسلام ابن تيمية ذكر فى العقل والنقل أقوال أهل التفويض فنذكر من ذلك ما يدل على بطلانه وانه من شر أقوال أهل البدع والالحاد . قال شيخ الاسلام قدس الله روحه فى ص ١١٥ فى الوجه ١٦ : واما التفويض فمن المعلوم ان الله تعالى أمرنا ان نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الاعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟ . فذكر أقوال الفلاسفة ثم قال : والجهمية والمعتزلة وأمثالهم يقولون انه أراد أن يعتقدوا الحق على ما هو عليه مع علمهم بانه لم يبين ذلك فى الكتاب والسنة بل النصوص تدل على نقيض ذلك فاولئك يقولون أراد منهم اعتقاد الباطل وأمرهم به ، وهؤلاء يقولون أراد اعتقاد ما لم يدلهم الا على نقيضه ، والمؤمن يعلم بالاضطرار ان كلا القولين باطل . ولا بد للنفاة أهل التأويل من هذا أو هذا ، واذا كان كلاهما باطلا كان تأويل النفاة للنصوص باطلا فيكون نقيضه حقا وهو اقرار الادلة الشرعية على مدلولاتها ومن خرج عن ذلك لزمه من الفساد ما لا يقوله الا أهل الالحاد . وما ذكرناه من لوازم قول أهل التفويض هو لازم لقولهم الظاهر المعروف بينهم اذ قالوا أن الرسول كان يعلم معانى هذه النصوص المشكلة المتشابهة ولكن لم يبين للناس مراده بها ولا أوضحه ايضاحا يقطع به النزاع . واما على قول اكابرهم ان معانى هذه النصوص المشكلة المتشابهة لا يعلمه الا الله وان معناها الذى أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها - فعلى قول هؤلاء يكون الانبياء والمرسلون لا يعلمون معانى ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص ولا الملائكة ولا السابقون الاولون وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه فى القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الانبياء معناه بل يقولون كلاما لا يعقلون معناه ، وكذلك نصوص المثبتين للقدر عند طائفة والنصوص المثبتة للامر والنهى والوعد والوعيد عند طائفة والنصوص المثبتة للمعاد عند طائفة ، ومعلوم أن هذا قدح فى القرآن والانبياء اذ كان الله أنزل القرآن وأخبر انه جعله هدى وبيانا للناس ، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين وأن يبين للناس ما نزل اليهم وأمر بتدبر القرآن وعقله ومع هذا فاشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته أو عن كونه خالقا لكل شىء وهو بكل شىء عليم أو عن كونه أمر أو نهى ووعد وتوعد أو عما أخبر به عن اليوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يعقل ولا يتدبر ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل اليهم ولا بلغ البلاغ المبين ، وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع : الحق فى نفس الامر ما علمته برأيى وعقلى وليس فى النصوص

المكتوم الذى لا يفسر (١) فالواجب على الانسان أن يؤمن بظاهره ويكل علمه الى الله تعالى • وعلى ذلك مضت أئمة السلف كالزهرى ومالك

ما ينافي ذلك لان تلك النصوص مشكلة متشابهة ولا يعلم أحد معناها وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدى والبيان من جهة الانبياء وفتحا لباب من يعارضهم ويقول ان الهدى والبيان فى طريقنا لا فى طريق الانبياء لانا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالادلة العقلية والانبياء لم يعلموا ما يقولون فضلا عن أن يبينوا مرادهم • فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون انهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والالحاد • الى آخر كلامه رحمه الله •

(١) قال ابن سحمان ص ٣٧ :

وأما قول الشارح قال ابن عباس هذا كلام من المكتوم الذى لا يفسر وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين ، وأما أهل التأويل فأبوا الا أن يفسروا ويؤولوا حتى خالفوا سلف الامة وأئمتها وابتدعوا فى ذلك وكل بدعة ضلالة انتهى •

فاعلم يا أخي أن هذا القول الذى نسبه الشارح الى ابن عباس رضى الله عنه وغيره من الصحابة ان كان صحيحا ثابتا فليس معناه ما توهمه الشارح من أن نصوص الكتاب والسنة الواردة فى أسماء الله وصفاته مما يوهم تشبيها فيكون من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله وانه مما لا يعقل معناه وانها لا تفسر وقد تقدم بيان ذلك فى معنى التفويض ونزيد ذلك ايضاحا بما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى هذا الكتاب حيث قال : واما تاويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التى أخبر عنها وذلك فى حق الله هو كنه ذاته وصفاته التى لا يعلمها غيره • ولهذا قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم والكيف مجهول • وكذلك قال ابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف يقولون انا لا نعلم كيفية ما أخبر الله عن نفسه وان علمنا تفسيره ومعناه • ولهذا رد أحمد بن حنبل على الجهمية والزنادقة فيما طعنوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله فرد على من حمله على غير ما أريد به وفسر هو جميع الآيات المتشابهات وبين المراد به وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن وكانوا يقولون ان العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به وان لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب فان ما أعده الله لاوليائه من النعيم ما لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر فذاك الذى أخبر به لا يعلمه الا الله بهذا المعنى فهذا حق • واما من قال ان التأويل الذى هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه الا الله فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا انهم يعلمون معناه كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقف عند كل آية وأسأله عنها • وقال ابن مسعود ما فى كتاب الله آية الا وأنا أعلم فيم أنزلت • وقال الحسن البصرى ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها • ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل مايطلب من علم الدين كما قال مسروق ما نسأل أصحاب محمد عن شيء الا وعلمه

والأوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والامام احمد واسحاق فكل هؤلاء رضى الله عنهم يقولون فى الآيات المتشـــابهة أمروها كما جاءت • قال سفيان بن عيينة ـ وناهيك به : كل ماوصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله • فهذا مذهب سلف الامة وفضلاء الأئمة رضى اللهعنهمفلهذا قلت ((فاسمع)) سماع اذعان وتفهم وامتثال وتعليم ((من))منطوق((نظامى)) ومفهومه ومحترزه ومعلومه ((واعلما)) فعل أمر مؤكد بنون التأكيدالخفيفة المنقلبة ألفا أى اعلم ذلك علم تحقيق وتحرير وتدقيق واعتمده واعتقـــده فانه نهج سلف الامة وسبيل أحبار الأئمـــة ((ولا نرد ذاك)) الوارد فى الكتاب المنزل وما جاء عن النبى المرسل ولا شيئا منه ((بالعقول))بضرب من التأويل أو التمويه والتضليل((ل))أجل((قول))انسان((مفتر))من الفريةوهى الكذب ومنه «فقدأعظم على اللهالفرية» أى الكذب ومنه قوله تعالى (ولا يأتين ببهتان يفترينه) يقال فرى يفرى فريا وافترى يفترى افتراء اذا كذب ومفتر اسم فاعل منه ((به)) أى بذلك القول الذى تقوله والتأويل الذى تأوله ((جهول)) صفة لمفتر من صفات المبالغة فان الله جل ثناؤه سمىنفسه فى كتابه العزيز بالرحمن الرحيم ووصف نفسه بالرحمة والمحبة فقال : (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) وقال : (ورحمتى وسعت كل شىء) وقال : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال : « ان الله يحب المتقين ـ ويحب المحسنين ـ ويحب الصابرين ـ و يحب الذين يقاتلون فى

فى القرآن ولكن علمنا قصر عنه • وقال الشعبى ما ابتدع قوم بدعة الا فى كتاب الله بيانها ، وأمثال ذلك من الآثار الكثيرة المذكورة بالاسانيد الثابتة مما ليس هذا موضع بسطه • انتهى •

فهذا ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه من علم الكيفية عما أخبر الله به عن نفسه وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب فان ما أعـده الله لاوليائه من النعيم مما لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر عـــلى قلب بشر فذاك الذى أخبر الله به لا يعلمه الا الله بهذا المعنى • فهذا الذى ذكره شيخ الاسلام هو الذى يحمل عليه قول ابن عباس وغيره من الصحابة ان كان النقل بذلك ثابتا عنهم وقد تقدم ان السلف رضوان الله عليهم كانوا يقولون انا لا نعلم كيفية ما أخبر الله عن نفسه وان علمنا تفسيره ومعنـاه فكان من المعلوم أن ابن عباس وغيره من الصحابة وأئمة السلف كانـــوا يفسرون ماتشابه من القرآن يعلمون معنى ذلك ولم يسكتوا عن بيان ذلك»

سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » وكذلك الرضا والغضب الى غير ذلك من سائر ما جاء به الكتاب العظيم والنبى الكريم ، فسلف الامة وعلماء الأئمة يؤمنون به ويثبتونه لله تعالى بالمعنى الذى أراده تعالى مع اعتقادهم التنزيه والتقديس ، عن التشبيه والتنقيص ، ومن الناس من يجعل رحمة الله وحبه تعالى عبارة عما يخلقه من النعمة وهذا ظاهر البطلان .

فان قيل ان اثبات هذا تشبيه لان الرحمة رقة تلحق المخلوق والرب منزه عن مثل صفات المخلوقين (فالجواب) ان الذى يلزم من هذه الصفات يلزم من غيرها فان الارادة فى حق المخلوق ميله الى ما ينفعه ودفع ما يضره والله تعالى منزه عن الاحتياج الى عباده وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه بل هو الغنى عن كل ما سواه .

فان قيل الارادة التى نثبتها لله ليست مثل ارادة المخلوقين كما انا قد اتفقنا وسائر المسلمين على أنه تعالى حى عليم قدير وليس هو مثل سائر الاحياء العلماء القادرين (فالجواب) انا نقول وكذلك الرحمة والمحبة التى نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمة المخلوق ومحبة المخلوق .

فان قيل لا نعقل من المحبة والرحمة الا هذا . قال لك نفاة الصفات ونحن لا نعقل من الارادة الا هذا . وقلنا نحن معشر أهل الاثر لا يخفى على عاقل فهيم ولا مؤمن سليم ان ارادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة الينا ، وارادته تعالى ومحبته ورحمته بالنسبة اليه ، فكما أن ذاته لا تشبه ذواتنا وحياته لا تشبه حياتنا ، فرحمته ومحبته ورضاه وغضبه كذلك ، فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فكيف تثبت له احدى الصفتين وتنفى عنه الاخرى مع ورود الجميع فى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وليس فى العقل ولا فى السمع ما يوجب التفريق ، اذ غاية ما يقال انا نثبت الارادة بالعقل لان وجود التخصيص فى المخلوقات دل على الارادة ، فيقال أولا انتفاء الدليل المعين لا يقتضى انتفاء المدلول فهب ان مثل هذا الدليل لا يثبت فى الرحمة والمحبة فمن أين نفيتم ذلك ؟ مع أن السمع أثبت ذلك . ويقال ثانيا فى اثبات ذلك بالطريق العقلى نظير الذى أثبتم به الارادة : ما فى المخلوقات من وجود المنافع للمحتاجين ، وكشف الضر عن المضرورين ،

والاحسان الى المخلوقات ، وأنواع الرزق والهدى والمسرات ، دليل على رحمة الخالق سبحانه • والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق ، تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته وحياته ، وتارة يدلهم بالنعم والآلاء على وجود بره واحسانه المستلزم رحمته ، وهذا كثير فى القرآن كقوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) الآية وقوله : (أو لم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) الآية وقوله فى سورة الرحمن بعد ذكر تعداد أنواع النعم : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وكذلك اثبات حكمته تعالى ومحبته التى تنبنى عليها حكمة خلقه وأمره مما يعلم بالسمع وبالعقل أيضا كما تعلم ارادته تعالى (بهما - ١) وسلف الامة وأئمتها على ان الله تعالى يحب ويحب وهو قول شيوخ (اهل - ١) المعرفة • وفى الحديث : « وأسألك الشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» • اذا علمت ذلك((فعقدنا)معشر الاثرية الذى نعقد عليه ، ونهجنا الذى نسلكه ونذهب اليه ((الاثبات)) للأسماء والصفات كما وردت به الآيات ودلت عليه الروايات ((ياخليلى)) من الخلة وهى نهاية المحبة وخلاصتها بحيث انها تخللت الاعضاء والمفاصل ، والمراد بالخليل هنا الموافق على مذهب السلف السائل عن منهاجه ودقائقه وأمهات مسائله وحقائقه ، فانا ندين الله تعالى باثبات ما جاءت به الآيات وصحيح الروايات وسلكته الأئمة السادات ((من غير تعطيل)) لها عن حقائقهاونفيها مع صحة مخارجها بل نثبتها ونؤمن بها ولا تشبيه فى مجرد اثباتها ((ولا)) أى ومن غير ((تمثيل)) لها بصفات المخلوق بل اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، فالممثل يعبد صنما ، والمعطل يعبد عدما ، والمثبت المسلم يعبد رب الارض والسماء ، المنعوت بنعوت الصفات والاسماء • وعندنا معشر السلف ومن نحا منحانا من علماء الخلف

((فكل من أول فى الصفات   كذاته من غير ما اثبات))

((فقد تعدى واستطال واجترى   وخاض فى بحرالهلاك وافترى))

---

(١) من مخ

((ألم تر اختلاف أصحاب النظر   فيه وحسن ما نحاه ذو الاثر))
((فانهم قد اقتــدوا بالمصطفى   وصحبه فاقنع بهــــذا وكفى))

حال المؤولين

((فكل من أول فى الصفات)) الثابتة للذات المقدسة عن سمــات المحدثات والمراد بالتأويل هنا أن يراد باللفظ ما يخالف ظاهره أو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر أو ؛ن حقيقته لمجازه وهو فى آيات الصفات المقدسة من المنكرات عند أئمة الدين من علماء السلف المعتبرين (١) فانا حيث أثبتنا ذاتا لا كالذوات ، فما المانع من اثبات صفات لا كصفات المحدثات ؟ فالكلام فى الصفات فرع على الكلام فى الذات ، فصفاته تعالى قديمة ثابتة ((كذاته)) تعالى ، فليس لنا أن نتأول فى صفات الله تعالى ولا فى ذاته ((من غير ما)) ما زائدة تأكيد للنفى ولاقامة الوزن ((اثبات)) عن صاحب الشرع وأصحابه وأئمة التابعين المعتبرين من علماء السلف وأتباعهم فهم العمدة دون غيرهم • وعلم من النظم أن الله سبحانه يطلق عليه الذات كما يقال انه شىء لا كالأشياء وانه ذات لا كالذوات ، بخلاف الماهية فأكثر المتكلمين

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٩ ما لفظه :
وأما قول الشارح : وأما أهل التأويل فأبوا الا أن يفسروا ويؤولوا حتى خالفوا سلف الامة وأئمتها وابتدعوا فى ذلك وكل بدعة ضلالة • انتهى •
فاعلم يا أخى أن التأويل المردود النى سلكه الجهمية ومن تبعهم مـــن المتكلمين هو صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره فلو قيل ان هذا هو التأويل المذكور فى الآية وانه لا يعلمه الا الله لكان فى هـــذا تسليم للجهمية ان للآية تأويلا يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمـــه الا الله وليس هذا منهب السلف والائمة وانما منهبهم نفى هــذه التأويلات وردها لا التوقف عنها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى لا تحرف ولا يلحد فيها ، فكان من المعلوم ان السلف الذين قالوا لا يعلم تأويله الا الله كانوا يتكلمون بلغتهم المعروفة بينهم ولم يكن لفظ التأويل عندهم يراد به معنى التأويل الاصطلاحى الخاص وهو صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه الى معنى يخالف ذلك فان تسمية هـــذا المعنى وحده تأويلا انما هو اصطلاح طائفة من المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ليس هو عرف السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم كما ذكر ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه والله أعلم • اذا تبين لك هذا فاعلم ان مراد من قال من السلف رضى الله عنهم انه لا يفسر يعنون انه لا يؤول ويحرف فيصرف عن ظاهره الى ما لا يدل عليه ظاهره كما أولوا الاستواء وفسروه بأنه الاستيلاء وكما فسروا اليد بالنعمة وهذا هو الذى نهى السلف عن تفسيره وتأويله بهذا المعنى والله أعلم •

منع اطلاقها على الله تعالى لأن معنى الماهية المجانسة وهى المشاركة فى الجنس والفصل ، قالوا وما روى عن الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى من أنه كان يقول ان لله ماهية لا يعلمها الا هو ، لم يصح عنه ، فان هذا اللفظ لم يوجد فى كتبه ولم ينقله عنه أحد من أصحابه العارفين بأقواله ، فلو ثبت عنه لحمل على أن مراده انه تعالى يعلم ذاته لا بدليل ، أو أن له أسماء لا يعلمها غيره كما فى حديث « وأسألك بكل اسم هولك أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » فلله أسماء لا يعلمها الا هو • وأما قوله عليه السلام « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » يعنى الاسماء الحسنى متصفة بأن من أحصاها دخل الجنة والله أعلم ((فقد تعدى)) فهذا خبر للمبتدأ الذى هو كل من أول وتعديه تجريه على مالم يأذن به الله ورسوله فانه فعل ماليس له ، وقال على الله بما لم يأذن الله ورسوله له به ((واستطال)) على السلف الصالح فكأنه استدرك عليهم ما يزعم انهم أغفلوه ، وحرر فيما يدعى أنهم أهملوه ((واجترى)) افتعال من الجرأة أى تشجع وافتات حده وتعدى طوره ولم يقتد بالصادق المصدوق ولا بأصحابه والتابعين لهم باحسان ((وخاض)) يقال خاض الماء يخوضه خوضا وخياضا دخله كخوضه واختاضه وبالفرس أورده كاخاضه وخاض الغمرات اقتحمها أى اقتحم ((فى بحر الهلاك)) أى الموت والانمحاق يعنى رمى نفسه فى بحر يذهب بدينه ويؤول به الى الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى ((وافترى)) على مولاه الذى خلقه وسواه ومن أظلم ممن افترى على الله فان من لم يسلم لم يسلم ، ومن لم يقتف طريقة السلف الصالح لم يربح ويغنم ، فعلى العاقل أن يتبع طريقة أهل الاثر فانها أسلم ، ودع عنك ماقيل من أن مذهب الخلف أعلم ، فانها من النزعات الفلسفية ، والزخارف البدعية ،والاحداس النفسية ، والوساوس الجهمية والتحذلقات الزندقية • فأين علم زيدوعمرو ممن شاهد الرسول وعاين الامر ؟ ومن ثم قلنا ((ألم تر اختلاف أصحاب النظر)) يعنى نظار المتكلمة من سائر الفرق والطوائف ورد بعضهم على بعص وتضليل بعضهم بعضا ((فيه)) أى فى نظرهم الذى يزعم كل فريق

منهم أنه هو العلم الحق والقول الصدق فيأتي غير ذلك الفريق فينقضه ويرمى صاحبه بالزندقة والتحميق ، فكل فرقة من المتأولين تخطىء الأخرى ، وتزعم أن ما اهتدت اليه بعقلها أحق وأحرى ، فترد ما زعمت تلك انه برهان ، فتجيء الأخرى فتبرهن على بطلانه وتزعم انه هذيان ، وتعتقد أن الذى زخرفته هو حق اليقين ، فتأتي فرقة أخرى فتزعم انه من وحى الشياطين ، فكل من طالع كتب أهل الكلام والمتصوفة ، علم ما فى قولهم من الهذرمة والزخرفة

والناس شتى وأراء مفرقة   كل يرى الحق فيماقال واعتقدا

((و)) ألم تر ((حسن ما)) أى المذهب الذى ذهب اليه والمنحى الذى ((نحاه)) وقصده ونهجه ((ذو)) أى صاحب مذهب ((الاثر)) من النبى الأمين والصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين الذين هم عمدة هذا الدين ((فانهم)) أى الاثرية المفهومين من قوله وحسن ما نحاه ذو الاثر ((قد اقتدوا))فيمااعتقدوه وعولوافيما اعتمدوه ((ب))النبى ((المصطفى))افتعال من الصفوة وهو نبينا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ((و)) اقتدوا من بعده صلى الله عليه وسلم ((بصحبه)) الذين صحبوه ونقلوا عنه الشريعة وعاينوا الوحى والتنزيل وعلموا من الرسول بما جاء به جبريل فان كنت تبغى السلامة وتسلم من البدع والندامة ((فاقنع))أى ارض((بهذا)) البيان ، المسند الى آيات القرآن ، والى حديث سيد ولد عدنان ، والى الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ((وكفى)) بهؤلاءمستنداومعتقدا فالسلامة فيما نحوه وأصلوه لا فيما زخرفه أهل التأويل وتقولوه (١)

تنبيهات

تنبيهات الاول

الاختلاف فى فهم الكمال

(الاول) لا خلاف بين العقلاء ان الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا فى الكمال والنقص فتراهم يثبت أحدهم لله ما يظنه كمالا وينفى

---

(١) بهامش مخ « بلغ قراءة امرار فى هذا الكتاب على شيخنا المحترم الشيخ عبد الله نفعنا الله به آمين وذلك فى ١٤ ج ١ سنة ١٢٥٩

قصور الفكر على الاستقلال

الآخر عين ما أثبته هذا لظنه نقصا ، وسبب ذلك أنهم سلطوا الافكار على مالا سبيل اليه من طريق الفكر ، فان الله تعالى خلق العقول وأعطاهاقوة الفكر وجعل لها حدا تقف عنده من حيث ما هى مفكرة لا من حيث ما هى قابلة للوهب الالهى ، فاذا استعملت العقول أفكارها فيما هو فى طورها وحدها ووفت النظر حقه أصابت باذن الله تعالى ، واذا سلطت الافكار على ماهو خارج عن طورها ووراء حدها الذى حده الله لها ركبت متن عمياء،وخبطت خبط عشواء ، فلم يثبت لها قدم ولم ترتكن على (١) أمر تطمئن اليه ، فان معرفة الله التى وراء طورها مما لا تستقل العقول بادراكها من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وانما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة فهو اختصاص الهى يختص به الانبياء وأهل وراثتهم مع حسن المتابعة وتصفية القلب من وضر البدع ، والفكر من نزغات الفلسفة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

ومما يوضح ذلك أن العقول لو كانت مستقلةبمعرفة الحق وأحكامهلكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وانزال الكتب واللازم باطل بالنص قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) فكذا الملزوم ، فلما بعث الله الرسل وأنزل الكتب وجبت لله على الخلق الحجة البالغة وانقطعت علقة الاعتذار (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه * لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ولما عجزت العقول من طريق الفكر عن معرفة الحق التى هى وراء طورها ومنحها القبول وقد أنزل الكتاب وأنزل فيه ما حارت فى ادراكه العقول من الآيات المتشابهات التى لا يعلم تأويلها الا الله ، أمرنا الشارع بالايمان بها ونهانا عن التفكر فى ذات الله رحمة منه بنا ولطفا لعجزنا عن ادراكه فان تسليط الفكر على ما هو خارج عن حده تعب بلا فائدة ، ونصب من غير عائدة ، وطمع فى غير مطمع ، وكد من غير منجع ، وقد أمرنا بالايمان بالمتشابه •

---

(١) مخ « ولم تركن الى »

وفى الحديث « تعلموا القرآن والتمسوا غرائبه -يعنى فرائضه أى حدوده- وهى حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه واعتبروا بأمثاله » رواه الديلمى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « كان الكتاب الاول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » وروى نحوه البيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة • وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه الا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس موقوفا بنحوه • وروى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال نؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولا ندين (١) به وهو من عند الله كله • وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسوخهم فى العلم ان آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه • ولما قدم صبيغ (٢) المدينة المنورة وجعل يسأل عن متشابه القرآن أرسل اليه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقد أعد له عراجين النخل فقال من أنت قال عبد الله صبيغ (٢) فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه وفى رواية فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة ثم تركه حتى برىء ثم أعاد عليه الضرب ثم تركه حتى برىء فدعا به ليعيده عليه فقال ان كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا أوردنى الى أرضى • فأذن له الى أرضه وكتب الى أبى موسى الأشعرى أن لا يجالسه أحد من المسلمين • وفى فروع ابن مفلح

---

(١) بهامش مخ «أى لا نعمل به» • (وقع) فى الاصلين « ابن صبيغ » وبهامش مخ : « لفظة ابن زائدة ، انما هو صبيغ بن عسل التميمى العراقى » •

من علمائنا ان عمر رضى الله عنه أمر بهجر صبيغ لسؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات انتهى • وهذا من سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسد باب الذريعة • والآية الشريفة دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم الى الله وسلموا اليه كما مدح الله تعالى المؤمنين بالغيب، فعلى العاقل الناصح لدينه ونفسه أن يسلك مسلك السلف الصالح وأن يرقى على سلم التسليم فانه من أنجح المصالح وأن يؤمن بالمتشابهات من آيات الأسماء والصفات كما فعل الصحابة والتابعون (١) ويمتثل أمر نبيه خاتم النبيين وامام المرسلين فى قوله «وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا» فلقد بالغ فى النصيحة بأدلة صحيحة وكلمات فصيحة فجزاه الله عنا خير ماجزى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته ورضى الله تعالى عن آله وصحبه والتابعين لهم باحسان وذوى الحق وحزبه

الثانى
بيان مذهب الحنابلة

— الثانى —

اعلم أن مذهب الحنابلة هو مذهب السلف فيصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فالله تعالى ذات لا تشبه الذوات ، متصفة بصفات الكمال التى لا تشبه الصفات من المحدثات ، فاذا ورد القرآن العظيم ، وصحيح سنة النبى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بوصف للبارى جل شأنه تلقيناه بالقبول والتسليم ، ووجب اثباته له على الوجه الذى ورد ونكل معناه للعزيز الحكيم (١) ولا نعدل به عن حقيقة وصفه ولا نلحد فى كلامه ولا فى أسمائه ولا فى صفاته ولا نزيد على ما ورد ، ولا نلتفت لمن طعن فى ذلك ورد • فهذا اعتقاد سائر الحنابلة كجميع السلف ، فمن عدل عن هذا المنهج القويم زاغ عن الصراط المستقيم وانحرف • فدع عنك فلانا عن فلان، وعليك بسنة سيد ولد عدنان ، فهى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والجنة الواقية التى لا انحلال لها • والله تعالى الموفق

---

(١) راجع ما تقدم فى التعليق على قول المتن « فكل ما جاء من الآيات .. الخ » •

الثالث ذم الخوض فى الكلام

- الثالث -

قد ذم السلف الصالح الخوض فى علم الكلام والتقصى والتدقيق فيما زعموا انه قضايا برهانية وحجج قطعية يقينية وقد شحنوا ذلك بالقضايا المنطقية والمدارك الفلسفية والتخيلات الكشفية والمباحث القرمطية • وكان أئمة الدين مثل مالك وسفيان وابن المبارك وأبى يوسف والشافعى واحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافى يبالغون فى ذم الكلام وفى ذم بشر المريسى وتضليله ، حتى أن هارون الرشيد خامس خلفاء بنى العباس قال يوما بلغنى أن بشر المريسى يقول ان القرآن مخلوق ولله على أن أظفرنى به الله لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا • فأقام بشر متواريا أيام الرشيد نحوا من عشرين سنة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهذه التأويلات التى ذكرها ابن فورك ويذكرهاالرازى فى (تأسيس التقديس) ويوجد منها فى كلام غالب المتكلمة من الجبائى وعبد الجبار وأبى الحسين البصرى وغيرهم هى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسى ورد عليه الامام الدارمى عثمان بن سعيد أحد مشاهير أئمة السنة من علماء السلف فى زمن البخارى فى المائة الثالثة فى كتابه الذى سماه (رد عثمان بن سعيد* على الكاذب العنيد * فيما افترى على الله من التوحيد) فحكى هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسى بكلام يقتضى أن المريسى أقعد بها وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت اليهم من جهته ، وقد أجمع أئمة الهدى على ذم المريسية وأكثرهم كفروهم وضللوهم ، وذموا الكلام وأهله بعبارات رادعة وكلمات جامعة • قال أبو الفتح نصر المقدسى فى كتابه (الحجة على تارك المحجة) باسناده عن الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعى يقول : مارأيت أحدا ارتدى بالكلام فأفلح • ولما كلمه حفص الفرد من أهل الكلام قال : لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه خلا الشرك بالله عز وجل خير له من أن يبتلى بالكلام • وقال : حكمى فى أصحاب الكلام أن يصفعوا وينادى بهم فى العشائر والقبائل : هذا جزاء من ترك السنة وأخذ فى الكلام • وقال سيدنا الامام احمد : عليكم بالسنة والحديث وما ينفعكم واياكم والخوض والمراء فانه لا يفلح من أحب الكلام • وقال

فى علماء أهل البدع من المتكلمة : لا أحب لأحد أن يجالسهم ولا يخالطهم ولا يأنس بهم ، فكل من أحب الكلام لم يكن آخر أمره الا الى البـــدعة فان الكلام لا يدعوهم الى خير ، فلا أحب الكلام ولا الخوض ولا الجدال، عليكم بالسنن والفقه الذى تنتفعون به ، ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء ، أدركنا الناس وما يعرفون هذا ويجانبون أهل الكلام • وقال رضى الله عنه : من أحب الكلام لم يفلح ، عاقبة الكلام لا تؤول الى خير ، أعاذنا الله واياكم من الفتن ، وسلمنا واياكم من كل هلكة • وقد نقل عن هذين الامامين من ذم الكلام وأهله كلام كثير مذكور فى كتب علماء السلف • وعن عبد الرحمن بن مهدى قال دخلت على الامام مالك بن أنس وعنده رجل يسأله عن القرآن والقدر فقال الامام مالك رضى الله عنه للرجل لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعن الله عمرا فانه ابتدع هذه البدعة من الكلام ،ولو كان الكلام علما لتكلم به الصحابة والتابعون رضى الله عنهم كما تكلموا فى الاحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل • فهل يكون أشد من هذا الانكار من هؤلاء الأئمة الكبار ؟• وقال محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة سمعت أبا حنيفة يقول لعن الله عمرو بن عبيد فانه مبتدع • والنصوص عن أئمة الهدى فى ذلك كثيرة جدا • وروى الامام الحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه (العرش) بسنده الى أبى الحسن القيروانى قال سمعت الاستاذ أبا المعالى الجوينى يقول : يا أصحابنـــا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى الى ما بلغ ما اشتغلت به• وقال الفقيه أبو عبد الله الدسيمى (١) قال حكى لنا الامام أبو الفتح محمد ابن على الفقيه قال دخلنا على الامام أبى المعالى الجوينى نعوده فى مرض موته فأقعد فقال لنا : اشهدوا على انى قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها السلف الصالح وانى أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور • قال الامام الحافظ الذهبى قلت هذا معنى قول بعض الائمة عليكم بدين العجائز ـ يعنى انهن مؤمنات بالله على فطرة الاسلام لم يدرين ما علم الكلام • قال الحافظ الذهبى وقد كان شيخنا أبو الفتح القشيرى رحمه الله تعالى يقول :

---

(١) بهامش مخ : خ : الرستمى •

تجاوزت حد الأكثرين الى العلى   وسافرت واستبقتهم فى المفاوز (١)
وخضت بحارا ليس يدرك قعرها   وسيرت نفسى فى فسيح المفـــاوز
ولججت فى الافكار ثم تراجع اخ   تيارى الى استحسان دين العجائز

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالته الحموية : وقد أخبر الواقف على نهايات اقدام المتكلمة بما انتهى اليه من مرامهم :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلهـــا   وسيرت طرفى بين تلك المعـــالم
فلم أر الا واضـــعا كف حائر   عـــلى ذقن أو قارعا ســـن نادم

وقول بعض رؤسائهم :

نهاية اقدام العقـــول عقـــال   وأكثر سعى العالمين ضـــلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا   وغاية دنيـــانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طـول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيـــل وقالوا

قال شيخ الاسلام ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضـــم وتركت أهل الاسلام وعلومهم وخضت فى الذى نهونى عنه والآن ان لم يتداركنى الله برحمته فالويل لفلان وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى • ويقول الآخر منهم : أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام • قال شيخ الاسلام : ثم اذا حقق عليهم الامر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر ، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر • وما ذكرناه من الأنباء قطرة من بحر لجى وبالله التوفيق

فان قلت اذا كان علم الكلام بالمثابة التى ذكرت ، والمكانة التى عنها برهنت ، فكيف ساغ للأئمة الخوض فيه ، والتنقيب عما يحتويه ؟ ثم انك أتيت ما عنه نهيت وحررت ما عنه نفرت ، وهل هذا فى بادى الرأى الا مدافعة ، وجمع للشيئين اللذين بينهما تمام الممانعة • قلت ان ما ذهب اليه وهلك من التمانع لمتنع ، وماسنح فى خلدك من التدافع لمندفع • بل العلم الذى نهينا عنه ، غير الذى ألفنا فيه • والكلام الذى حذرنا منه ، غير الذى صنف فيه كل امام وحافظ وفقيه • فعلم الكلام الذى نهى عنه أئمة الاسلام هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل ، والالحاد والاباطـــل ، وصرف

---

(١) بهامش مخ : خ : المراكز •

الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة ، والاخبار النبوية عن حقائقها الباهرة، دون علم السلف ومذهب الأثر ، وما جاء في الذكر الحكيم وصحيح الخبر ، فهذا لعمرى ترياق القلوب الملسوعة بأراقم الشبهات وشفاء الصدور المصدوعة بتراجم المحدثات ، ودواء الداء العضال ، وبازهر (١) السم القتال ، فهو فرض عين أو عين فرض على كل نبيه ، وهو العلم الذى تعقد عليه الخناصر لدحض حجة كل متحذلق وسفيه . فزال هذا الاشكال، والله ولى الافضال .

(١) ويقال « باك زهر » و « بادزهر » ووقع فى مخ « بان زهر » وبهامشها « هو حجر ينفع من السم » .

الباب الاول
معرفة الله
تعالى وتعداد
الصفات

الباب الاول

في معرفة اللّه تعالى ومايتعلق بذلك من تعداد الصفات التي يثبتها المتكلمة كالسلف وأسمائه تعالى وكلامه وغير ذلك

((أول واجب على العبيد   معرفة الاله بالتسديد))
((بأنه واحد لا نظير   له ولا شبه ولا وزير))
((صفاته كذاته قديمة (١)   أسماؤه ثابتة عظيمة))

((أول واجب على العبيد)) جمع عبد وله أحد عشر جمعا جمعها ابن مالك في قوله :

---

(١) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :
قوله صفاته كذاته قديمة ظاهره ان الصفات كلها قديمة كما صرح به في الشرح وهذا فيه تفصيل فان المعروف بين أهل السنة ان صفات الله تعالى قسمان صفات ذاتية كالحياة والعلم والقدرة والوجه واليدين ونحوها فهذه قديمة بلا ريب اذ انها صفات لازمة لله تعالى . وصفات فعلية وهي التي تتعلق بمشيئته وحكمته فان اقتضت حكمته فعلها فعلها وان اقتضت حكمته أن لا يفعلها لم تكن وهذا مثل الخلق والرزق والاحياء والاماتة والكلام .. والنزول والاستواء وغير ذلك من صفات فعله فهذا يكون قديم النوع أو الجنس وان كانت آحاده توجد شيئا فشيئا وحينا وآخر ومن المعلوم انه يوجد الفرق بين صفة الحياة والقدرة مثلا وبين صفة الاستواء فان الاول لا شك أن الله موصوف به اذلا وأبدا جل وعلا وأما الاستواء فلم يكن الا بعد خلق العرش وكذلك صفة نزوله الى السماء الدنيا وان كانت الصفات الفعلية قديمة الجنس فلم يزل الله تبارك وتعالى فعالا لما يريد فتنبه للفرق بينهما والله أعلم .
وفي موضع آخر : ان أراد المؤلف رحمه الله بكونها قديمة انها غير مخلوقة فصحيح لكن ينبغي ان يعبر بقوله غير مخلوقة . ولا يأتي بكلام مجمل . وان أراد انها قديمة في الازل فهذا مما يحتاج فيه الى التفصيل الذي يتبين به الحق فان الصفات قسمان ذاتية كالحياة والعلم والقدرة ونحوها مما لا ينفك الله عنها فهي صفات قديمة ، والثاني صفات فعلية فهذه نقول فيها ان جنسها او نوعها قديم واما بالنسبة الى كل فعل فان الله لم يزل ولا يزال يوجد افعاله شيئا فشيئا فهذا استواؤه على عرشه بعد أن خلق العرش وهذا نزوله الى سماء الدنيا بعد أن خلق السماء الدنيا ، ولا يمكن أن يتصور عاقل أن نزوله الى سماء الدنيا كان في الازل قبل أن يخلق السماء الدنيا أو أن استواءه كذلك قبل أن يخلق العرش وهذا أيضا كلامه لا يرتاب عاقل في ترتيب الحروف وسبق بعضها على بعض وكل هذا مما يدل على ما ذكرنا وان صفات الفعل يقال فيها ان نوعها او جنسها قديم أما بالنسبة الى كل فعل بذاته فلا والله أعلم .

عباد عبيد جمع عبـــد وأعبـــد أعابد معبـــوداء معبـدة عبـــد
كذلك عبدان وعبـــدان أثبتـــا كذاك العبدى وامددان شئت أن تمد

قال أبو على الدقاق ليس شيء أشرف ولا اسم أتم للمؤمن من الوصف بالعبودية قال الشاعر :

لاتدعنى الابيـــا عبـدها فانه أشرف أسمـــائى

وقال الآخر :

أصم اذا نوديت باســـمى وانني اذا قيل لى يا عبدها لسميـــع

((معرفة الاله)) سبحانه وتعالى وهى عبارة عن معرفة وجود ذاته تعالى بصفات الكمال ، فيما لم يزل ولا يزال ، دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته لاستحالة ذلك عقلا عند الأكثرين يعنى أن العقل يحيل معرفة كنه ذاته • وقوله أول واجب يعنى لنفسه على كل مكلف بالنظر فى الوجود والموجود، ووجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لا يوجب ولا يحرم ، وهذا مذهب أهل السنة • وقالت المعتزلة وجبت معرفة الله عقلا لا شرعا لأنها دافعة للضرر المظنون وهو خوف العقاب فى الآخرة حيث أخبر جمع كثير بذلك وخوف ما يترتب فى الدنيـــا على اختلاف الفرق فى معـــرفة الصانع من المحاربات وهلاك النفوس وتلف الاموال وكل مايدافع الضرر المظنون بل والمشكوك واجب عقلا كما اذا أردت سلوك طريق فأخبرت بأن فيها عدوا أو سبعا فانه يجب عليك اجتنابها خوف الوقوع فى الهلكة • ورد قولهم بمنع ظن الخوف فى الأعم الأغلب اذ لا يلزم الشعور بالاختلاف ولا بما يترتب عليه من الضرر ولا بالصانع وبما رتب فى الآخرة من الثواب والعقاب والاخبار بذلك انما يصل الى البعض ، وعلى فرض الوصـــول لا رجحان لجانب الصدق لأن التقدير عدم معرفة الصانع وبعثـــة الأنبيـــاء عليهم الصلاة والسلام ودلالة المعجزات ، ولو سلم ظن خوف فلا نسلم أن تحصيل المعرفة يدفعه لأن احتمال الخطأ قائم فخوف العقاب أو الاختلاف بحاله والعناء زيادة • وفى كتاب الشيرازى (جامع الانوار * لتوحيد الملك الجبار) من الاشعرية ان وجوب معرفة الله بالعقل والشرع معا • والتحقيق وجوب معرفة البارى جل شأنه شرعا وقوله ((بالتسديد)) أى التقـــويم

والتوفيق للسداد أى الصواب يعنى بالنظر الصائب فى الوجود والموجود كما مر آنفا • ويجب النظر قبلها لتوقفها عليه فهو أول واجب لغيره •وقال القاضى أول واجب وطاعة اكتساب ارادة النظر المؤدى الى المعرفة فمن تركه مع القدرة عليه لغير عذر اثم ولا اثم على الناظر فى مدة نظره • والنظر والمعرفة اكتساب وقد يوهبان لمن أراد الله هداه ولا يقعان ضرورة ،وقيل بلى وحمل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية على المعرفة النظرية (١) كمعرفة ابليس لا المعرفة الايمانية • وقال : مثبتو النبوات تحصل لهم المعرفة بالله بثبوت النبوة من غير نظر ولا استدلال فى دلائل العقول ، ذكره القاضى أبو يعلى فى (عيون المسائل) وغيره من كتبه • وذكر ابن حمدان فى(نهاية المبتدئين) ان معرفة الله تحصل باكتساب موجب أى أن البداية سبقت بالتوفيق لاصابة الدليل الموصل الى المعرفة واختصاص المريد بمعرفته سبق بفضله ومقارنة عونه بالوصول الى تمام أدلته فتكون المعرفة الحقيقية معرفة الدليل الموصل الى حقيقة معرفة الله تعالى وهو اكتساب موهوب كقصة ابراهيم الخليل عليه السلام فى النظر • والمعرفة تزيد وتنقص كالايمان نص عليه الامام احمد رضى الله عنه فمعرفة التفصيل أزيد من معرفة الجملة

وأول نعم الله تعالى الدينية على المؤمن وأعظمها أن أقدره على ارادة النظر والاستدلال لمعرفته تعالى • وقال خاتمة المحققين العلامة الشيخ عثمان النجدى فى تعليقته فى أصول الدين : أول نعم الله الدينية على عبده ان أقدره على معرفته (٢) •وقال ابن حمدان بعد أن ذكر الاول : وقيل ان هداه للايمان • وأول نعمه الدنيوية الحياة العرية عن ضرر • وقال القاضى : ادراك اللذات ونيل المشتهيات التى لا يتعقبها ضرر لأجلها ، وهو يعم كل حيوان ولكن يقيد المكلف بالشكر وهو اعترافه بنعمة المنعم على جهة الخضوع والاذعان وصرف كل نعمة فى طاعة ، فشكر المنعم واجب شرعا خلافا للمعتزلة فى قولهم بوجوب شكر المنعم عقلا • فيجب على كل مكلف،

---

(١) مخ « الفطرية •

(٢) بهامش مخ « ما نقله المصنف عن الشيخ عثمان هنا ذكره العلامة عبد الباقى فى عقيدته (العين والاثر) بحروفه » •

شرعا أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال ويجزم ((بأنه)) سبحانه وتعالى ((واحد)) لا يتجزأ ولا ينقسم فرد صمد (١) ((لا نظير ، له)) أى لا مثل له ((ولا شبه)) له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا شريك له فى ملكه ((ولا وزير)) له تعالى ، والوزير حبا الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه ، فلا وزير للبارى جل شأنه يحمل ثقله ويعينه فى تدبير خلقه ولا

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٢٨ ما لفظه :

« اعلم ان قول القائل ويجزم بأنه سبحانه وتعالى واحد لا يتجزأ ولا ينقسم قول مبتدع مخترع لم يقله أحد من السلف رضوان الله عليهم وليس مذكورا فى عقائد أهل السنة والجماعة بل هو من جنس ما يذكره أهل البدع من قولهم ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم وليس له أعراض ولا أغراض ولا أبعاض الى غير ذلك مما خالفوا به سلف الامة وأئمتها ٠ قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه المسمى بالعقل والنقل الذى قال ابن القيم رحمه الله تعالى فيه : « واذكر كتاب العقل والنقل الذى * ما فى الوجود له نظير ثان) ٠

قال بعد كلام له: وكثير من أهل الكلام يقول : التوحيد له ثلاث معان وهو : واحد فى ذاته لا قسيم له ولا جزء له ، وواحد فى صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، وهذا المعنى الذى تتناوله هذه العبارة فيها ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وفيها ما يخالف ما جاء به الرسول ـ فذكر كلاما حسنا الى أن قال : فانهم اذا قالوا لا قسيم له ولا جزء له ولا شبيه له فهذا اللفظ وان كان يراد به معنى صحيح فان الله ليس كمثله شيء وهو سبحانه لا يجوز عليه ان يتفرق ولا يفسد ولا يستحيل بل هو أحد صمد والصمد الذى لا جوف له وهو السيد الذى كمل سؤدده فانهم يدرجون فى هذه نفى علوه على خلقه ومباينته لمصنوعاته ونفى ما ينفونه من صفاته ويقولون ان اثبات ذلك يقتضى أن يكون مركبا منقسما وان يكون له شبيه ٠ وأهل العلم يعلمون ان مثل هذا لا يسمى فى لغة العرب التى نزل بها القرآن تركيبا وانقساما ولا تمثيلا ، وهكذا الكلام فى مسمى الجسم والعرض والجوهر والتحيز وحلول الحوادث وأمثال ذلك فان هذه الالفاظ يدخلون فى مسماها الذى ينفونه أمورا مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فيدخلون فيها نفى علمه وقدرته وكلامه ويقولون ان القرآن مخلوق لم يتكلم الله به ، وينفون بها رؤيته لان رؤيته على اصطلاحهم لا تكون الا لمتحيز فى جهة وهو جسم ، ثم يقولون والله منزه عن ذلك فلا تجوز رؤيته، ولذلك يقولون المتكلم لا يكون الا جسما متحيزا والله ليس بجسم متحيز ، فلا يكون متكلما ، ويقولون لو كان فوق العرش لكان جسما متحيزا والله سبحانه وتعالى ليس بجسم متحيز فلا يكون فوق العرش ، وأمثال ذلك ـ الى آخر كلامه وهو فى صفحة ثلاث وثلاثين ومائة ٠ والمقصود ان قول أهل البدع فى الواحد انه الذى لا ينقسم ولا يتجزأ قول مبتدع مخترع لم يقل به أحد من سلف الامة وأئمتها بل هو من كلام من ينتسب الى أهل السنة والجماعة من المتكلمين وغيرهم ٠

ظهير له في صنعه ولا معين له في ملكه ((صفاته)) سبحانه وتعالى الذاتية والفعلية والخبرية ((كذاته)) عز شأنه ((قديمة)) لا ابتداء لوجـــودها ولا انتهاء اذ لو كانت حادثة لاحتاجت الى محدث تعالت ذاته المقدسة وصفاته المعظمة عن ذلك ، فان حقيقة ذاته مخالفة لسائر الحقائق ، وكذلك صفاته تعالى • قال المحققون ليست حقيقته معلومة الآن فى الدنيا للناس وانما يعلم تعالى بصفاته ، وهل يمكن علم حقيقته فى الآخرة ؟ قال بعضهم نعم لحصول الرؤية فيها كما سيأتى وبعضهم «لا» والرؤية لا تفيد الحقيقة كما يأتى فمذهب السلف من الفرقة الناجية بين التعطيل وبين التمثيل فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العلى ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله تعالى وآياته، وليس فى العقل الصريح ولا فى النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا ، فالنبى المعصوم صلوات الله عليه وسلامه مع كمال علمه وقدرته وارادته وشدة حرصه على هداية أمته وبلاغ نصحه وشفقته عليهم أرشدهم الى هذا السبيل وكذا الصحابة والتابعون لهم باحسان فالسلف فى اثبات الصفات كالذات على الاستقامة

طوائف المنحرفين

وأما المنحرفون عن طريقهم فثلاث طوائف أهل التخييل وأهل التأويل وأهل التجهيل فأما (أهل التخييل) وهم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف فانهم يقولون ان ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر الايمان واليوم الآخر انما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا انه بين به الحق ولا هدى به الخلق ولا أوضح الحقائق • وليس فوق هذا الكفر كفر

(وأهل التأويل) هم الذين يقولون ان النصوص الواردة فى الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معانى ولم يبين لهم ذلك ولا دلهم عليها ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا فى صرف تلك النصوص عن مدلولها ومقصوده امتحانهـــم وتكليفهم واتعاب أذهانهم وعقولهم فى أن يصرفوه عن مدلوله ومقتضاه

ويعرفوا الحق فى غيره وسواه • وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن نحا منحاهم • ولا يخفى ما فى ضمن كلام هؤلاء من قصد الاضلال وعدم النصح ومناقضة ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وما وصفه الله به من الرأفة والرحمة وقد تظاهر هؤلاء بنصر السنة وهم فى الحقيقة لا للاسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا بل فتحوا لأهل الالحاد الباب وسلطوا القرامطة الباطنية من ذوى الفساد على الالحاد فى السنة والكتاب

(وأهل التجهيل) هم الذين يقولون أن الرسول لم يعرف معانى ما أنزل عليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معانى الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك ، وكذلك قولهم فى أحاديث الصفات وأن الرسول تكلم بكلام لا يعرف معناه ، وهذا قول كثير من المنتسبين الى السنة واتبــاع السلف فيقولون فى آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم معرفتهــا الا الله ويستدلون بقوله تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ويقولون تجرى على ظاهرها وظاهرها مراد مع قولهم ان لها تأويلا بهذا المعنى لا يعلمــــه الا الله • قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى « الحموية » التأويل الذى لا يعلمه الا الله هو الحقيقة التى يؤول الكلام اليها فتأويل الصفات هو الحقيقة التى انفرد الله تعالى بعلمها وهو الكيف المجهول الذى قال فيه السلف كمالك وغيره : الاستواء معلوم والكيف مجهول : فكيفية الاستواء مثلا هو التأويل الذى لا يعلمه الا الله جل وعلا (تنبيه) اختلف الناس فى اثبات صفـات البارى جل شأنه فأثبتها أهل الحق من غير نفى لها ولا لبعضها وهذا مذهب سلف الامة وسائر الأئمة • وأثبت المتكلمون بعضها من الحياة والقدرة والارادة والعلم والكلام والسمع والبصر ويسمونها الصفات الثبوتية والمعنوية وما عداها من صفات الافعال والسلوب ونحوها فحادثة عنــدهم • وذهبت المعتزلة والفلاسفة وأكثر فرق أهل الضلال الى نفيها كما يأتى تحرير بعض قول أهل الاعتزال ، نعم المعتزلة تثبت له تعالى الأسماء دون الصفات والله أعلم

فصل في أسماء الله تعالى

فصل في بحث أسمائه جل وعلا

أعلم أن المعتزلة ومن وافقهم واتبعهم يثبتون لله تعالى الأسماء دون ما تضمنته من الصفات ، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفة ، ومنهم من قال عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بلا سمع بصير بلا بصر فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات .قال شيخ الاسلام في رسالته (التدمرية) والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول ، فان هؤلاء يسفسطون في العقليات ، ويقرمطون في السمعيات ، وذلك انه قد علم بضرورة العقل انه لا بد من موجود قديم غني عما سواه ، اذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع ، وقد علم بالاضطرار أن المحدث لا بد له من محدث والممكن لا بد له من واجب كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) فاذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن (لهم-١) خالقا خلقهم ، واذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم ، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما في اسم عام لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الاضافة والتقييد والتخصيص ولا في غيره ، فلا يقول عاقل اذا قيل أن العرش شيء موجود وان البعوض شيء موجود ان هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركا كليا هو مسمى الاسم المطلق ، واذا قيل هذا موجود وهذا موجود فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره مع أن الاسم حقيقة في كل منهما ، ولهذا سمى الله تعالى نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا أضيفت اليه ، لا يشركه فيها غيره ، لأنه سبحانه القديم وأسماؤه قديمة وصفاته قديمة ، فاذا كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول

---

(١) من مخ

الله حى عليم قدير وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة قيل له لا فرق بين اثبات الأسماء وبين اثبات الصفات ، فمن زعم أن اثبات الصفات يقتضى تشبيها أو تجسيما لما يرى فى الشاهد قيل له ولا يرى فى الشاهد ما هو مسمى بحى وعليم وقدير الا ما هو كذلك ، فكل ما احتج به من نفى الصفات يحتج عليه من الأسماء الحسنى ، فما كان جوابا له كان جوابا لمثبتى الصفات • ولما كانت أسماؤه سبحانه ثابتة باتفاق أهل السنة والمعتزلة قال مشيرا لذلك فى النظم بقوله ((أسماؤه)) سبحانه وتعالى ((ثابتة)) بالنص والعقل ((عظيمة)) وصفها بذلك لأنها معظمة موصوفة بأنها حسنى وانها قديمة عند أهل الحق كصفاته الذاتية وكذا الفعلية ، والمراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله ، أو باعتبار الصفة كالعالم والقادر ، قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) أسماء الرب تعالى هى أسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا ينافى اسميته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم • وأما زعم المعتزلة أن الله كان أزليا بلا اسم ولا صفة فلماأوجد الخلق وضعوا له الأسماء والصفات كما نقله عنهم القرطبى والفاكهانى وغيرهما فهو خطأ فاحش قال السمين هذا القول منهم أشد خطأ من قولهم بخلق القرآن لاشعاره بالاحتياج للغير • وقال ابن حمدان فى (نهاية المبتدئين * فى أصول الدين) أسماء الله تعالى قديمة انتهى •

وقد نص الامام الشافعى أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة • وقال سيدنا الامام احمد :من قال أن أسماء الله تعالى مخلوقة فقد كفر • قال ابن حمدان ولا يقال أسماء الله هى المسمى ولا غيره اذ الغير مافارق أو يفارق بزمان أو مكان أو الوجود والعدم ، بل يقال الاسم للمسمى به أو صفة للمسمى وعلم عليه أو دال على المسمى ، وقيل أسماء الفعل غيره ، وأسماء الذات هى المسمى نفسه • قال وقد عظم على الامام احمد الكلام على الاسم والمسمى وأمسك عنه بعضهم وقال لا نعلم ، وقال القاضى الاسم والتسمية والوصف والصفة واحد فتسمية الخلق لله هو المسمى كما نقول فى التلاوة هو المتلو ، وأما

الاسم عين المسمى أو غيره

تسمية الله للخلق فهو غير الاسم لأنهم مخلوقون وكذلك أسماؤهم . وقال القاضى أيضا الاسم غير المسمى . وقال أخيرا الصحيح عندى أن الوصف ليس هو الصفة لأن الوصف حروف والصفة معنى يرجع الى ذات الموصوف وهى هيئة فيه ليست حروفا . قال وأما الاسم والتسمية فهما بمعنى واحد وان التسمية هى الاسم لأن الجميع بحروف فهى كالتـــلاوة والمتلو لأن الجميع حروف والمسمى هو الذات . انتهى ، وقال ابن بطة لا يقال فى اسم الله انه غيره ولا هو . انتهى كلام ابن حمدان

وقال الامام المحقق ابن القيم فى بدائع الفوائد اللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال مثلا له حقيقة متميزة متحصلة فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه لأنه شيء موجود فى اللسان مسموع بالآذان فاللفظ المؤلف من همزة الوصل والسين والميم عبارة عن اللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال مثلا ، واللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال عبارة عن الشخص الموجود فى الأعيان والأذهان وهو المسمى والمعنى ، واللفظ الدال عليه هو الاسم ، وهذا اللفظ أيضا قد صار مسمى من حيث كان لفظ الهمزة والسين والميم عبارة عنه ، فقد بان لك أن الاسم فى أصل الوضع ليس هو المسمى ، ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الاسم كما تقول حليته بهذه الحلية ، فالحلية غير المحلى فكذلك الاسم غير المسمى ، وقد صرح بذلك سيبويه ، وأخطأ من نسب اليه غير هذا وادعى أن مذهبه اتحادهما . قال فى البدائع وماقال نحوى قط ولا عربى ان الاسم هو المسمى ، ويقولون أجل مسمى ولا يقولون أجل اسم ، ويقولون مسمى هذا الاسم كذا ولا يقول أحد اسم هذا الاسم كذا ، ويقولون بسم الله ولا يقولون بمسمى الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله تسعة وتسعون اسما » ولا يصح أن يقال تسعة وتسعون مسمى ، ونظائره كثيرة جدا

قال ابن القيم فى البدائع واذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى فبقى هنا التسمية وهى (١) اغتر بها من قال باتحاد الاسم والمسمى ، والتسمية عبارة عن جعل المسمى ووضعه الاسم للمسمى . كما أن التحلية عبارة عن فعل

---

(١) مخ « التى »

المحلى ووضعه الحلية على المحلى ، فهنا ثلاث حقائق اسم ومسمى وتسمية كحلية ومحلى وتحلية وعلامة ومعلم وتعليم ، ولا سبيل الى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها • فاذا جعل الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد • فان قيل ما شبهة من قال باتحادهما؟ فالجواب شبهته أشياء منها ان الله تعالى هو وحده الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة ويلزم أن لا يكون له اسم فى الازل ولا صفة لأن أسماءه صفات ، وهذا أعظم ما قاد متكلمى الاثبات الى القول باتحادهما ، والجواب عن كشف هذه الشبهة ان منشأ الغلط فى هذا الباب من اطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعانى وتنزيل ألفاظها عليها ، ولا ريب ان الله تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها ، فلم يزل بصفاته وأسمائه وهو اله واحد له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وصفاته وأسماؤه داخلة فى مسمى اسمه (١) وان كان لا يطلق على الصفة انها اله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هى نفس الاله ، وبلاء القوم من لفظة الغير فانها يراد بها معنيين ، أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ماغاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون الا مخلوقا ، ويراد به مغايرة الصفة للذات اذا جردت عنها فاذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحا ولكن الاطلاق باطل ، فاذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التى امتاز بها عن غيره كان باطلا لفظا ومعنى • وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن وقالوا كلامه تعالى داخل فى مسمى اسمه ، فالله تعالى اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال ومن تلك الصفات صفة الكلام ، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة ، واذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى فاذا كان القرآن غير مخلوق ولا يقال أنه غير الله فكيف يقال ان بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة وهى غيره ، فقد حصحص الحق بحمد الله

---

(١) مخ « فى مسمى ذاته » •

وانحسم الاشكال وان أسماءه الحسنى التى فى القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غيره ولا هو هو ، وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه غيره وهى مخلوقة ، ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره وبالتفصيل تزول الشبه ويتبين الصواب

احتج من قال بأن الاسم عين الذات بقوله : « تبارك اسم ربك ـ واذكر اسم ربك ـ سبح اسم ربك » ونحو ذلك • والجواب أنها حجة عليهم فى الحقيقة لأن النبى صلى الله عليه وسلم امتثل هذا الامر وقال « سبحان ربى الأعلى » و « سبحان ربى العظيم » ولو كان الأمر كما زعموا لقال سبحان اسم ربى العظيم • ثم ان الامة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول عبدت اسم ربى ولا سجدت لاسم ربى ولا ركعت لاسم ربى ولا يا اسم ربى ارحمنى ، وهذا يدل أن هذه الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم • وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم فقد قيل فيه ان التعظيم والتنزيه اذا وجب للمعظم فقد يعظم ما هو من سببه ومتعلق به ، كما يقال سلام على الحضرة العالية والباب السامى والمجلس الكريم ونحوه ، ولا يخفى أن هذا الجواب غير مرضى لأن الرسول انما قال « سبحان ربى » فلم يعرج على ما ذكرتموه ، ولأنه يلزم مما ذكرتم أن يطلَق على الاسم التكبير والتحميد والتهليل وسائر ما يطلق على المسمى فيقال الحمد لاسم الله ونحوه وهذا مما لم يقله أحد • والجواب الصحيح أن الذكر الحقيقى محله القلب لأنه ضد النسيان ، والتسبيح نوع من الذكر فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه الا ذلك دون اللفظ باللسان ، والله تعالى أراد من عباده الامرين جميعا ولم يقبل الايمان وعقد الاسلام الا باقترانهما واجتماعهما ، فصار معنى الآيتين سبح ربك بقلبك ولسانك واذكر ربك بقلبك ولسانك فأقحم الاسم تنبيها على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى • قال ابن القيم فى البدائع وعبر لى

شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال المعنى سبح ناطقا باسم ربك متكلما به ، وكذا سبح اسم ربك المعنى سبح ربك ذاكرا اسمه • قال وهذه الفائدة تساوى رحلة لكن لمن يعرف قدرها •

واحتجوا أيضا بقوله تعالى (ما تعبدون من دونه الا أسماء) وانما عبدوا مسمياتها • والجواب انهم وان كان عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهى مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها فى الحقيقة فانهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الالهية لها وليس لها من الالهية الا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى فما عبدوا الا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحما وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم الا اسمه لا مسماه

تنبيهات

تنبيهات الاول مايوصف به الرب أو يخبر به عنه اقسام

الأول ما يجرى صفة أو خبرا على الرب تبارك وتعالى أقسام (أحدها) ما يرجع الى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشىء (الثانى) ما يرجع الى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع والبصير (الثالث) ما يرجع الى أفعاله كالخالق والرازق (الرابع) ما يرجع الى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتا اذ لا كمال فى العدم المحض كالقدوس السلام (الخامس) ما دل على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معان نحو المجيد العظيم الصمد ، فان المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فانه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ومنه قولهم : فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار • وأمجد الناقة علفا ، ومنه (ذو العرش المجيد) لسعة العرش وعظمته • والعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال ، وكذلك الصمد (السادس) صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، العفو القدير ، الحميد المجيد ، ونحو ذلك ، فان الغنى من صفات الكمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك نظائرهما

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل فى أوصافه تعالى الا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والالهية ، والسلام المتضمن لسلامته من كل نقص وبراءته من كل ما يضاد كماله ، وكذلك الاخبار عنه بالسلوب انما هو لتضمنها ثبوتا كقوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) فانه متضمن لكمال حياته وقيوميته ، وكذلك قوله (وما مسنا من لغوب) متضمن لكمال قدرته ، وكذلك قوله (ولا يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء) متضمن لكمال علمه ، ونظائر ذلك

الثاني مايدخل فى الاخبار أوسع من الاسماء والصفات

الثانى

يجب أن يعلم أن ما يدخل فى باب الاخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل فى باب أسمائه وصفاته كالشىء والموجود والقائم بنفسه ، فان هذا يخبر به عنه ولا يدخل فى أسمائه الحسنى وصفاته العلى

الثالث الاسماء الحسنى أعلام وأوصاف

الثالث

أسماؤه الحسنى أعلام وأوصاف فالوصف فيها لا ينافى العلمية وهذا بخلاف أوصاف العباد ، ثم أن الاسم من أسمائه له دلالات ، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة ، ودلالة على أحدهما بالتضمن ، ودلالة على الصفة الاخرى باللزوم ولأسمائه الحسنى اعتباران (أحدهما) من حيث الذات (والثانى) من حيث الصفات ، فهى بالاعتبار الاول مترادفة ، وبالاعتبار الثانى متباينة • ولما ذكر أسماءه سبحانه وتعالى وانها ثابتة للذات المقدسة وانها عظيمة قديمة أردف ذلك بقوله :

أسماؤه تعالى توقيفية

((لكنها فى الحق توقيفيه   لنا بذا أدلة وفيه))

((لكنها)) أى الأسماء الحسنى ((فى)) القول ((الحق)) المعتمد عند أهل الحق ((توقيفية)) بنص الشرع وورود السمع بها • ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز اطلاق الأسماء الحسنى والصفات العلى على البارى جل وعلا اذا ورد بها الاذن من الشارع ، وعلى امتناعه على ماورد المنع عنه ، واختلفوا حيث لا اذن ولا منع فى جواز اطلاق ما كان تعالى متصفا بمعناه ولم يكن من الأسماء الاعلام الموضوعة من سائر اللغات اذ ليس

جواز اطلاقها عليه تعالى محل نزاع لأحد بشرط أن لا يكون اطلاقها يوهم نقصا بل كان مشعرا بالمدح ، فالجمهور منعوا اطلاق ما لم يأذن به الشارع مطلقا ، وجوزه المعتزلة مطلقا ، ومال اليه بعض الاشاعرة كالقاضى أبى بكر الباقلانى ، وتوقف امام الحرمين الجوينى ، وفصل الغزالى فجوز اطلاق الصفة وهى ما دل على معنى زائد على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد انها توقيفية بأنه لا يجوز أن يسمى النبى صلى الله عليه وسلم بما ليس من أسمائه ، فالبارى أولى، وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلغتهم كقولهم (خداى) وشاع من غير نكير • رد هذا بأنه لو ثبت لكان كافيا فى الاذن الشرعى • والتوقيفى ما ورد به كتاب أو سنة صحيحة أو حسنة أو اجماع لأنه لا يخرج عنهما ، وأما السنة الضعيفة والقياس فلا يثبت بهما لأن المسألة من العلميات فلهذا قال ((لنا)) معشر أهل السنة واتباع السلف ((بذا)) أى باعتبار ثبوت التوقيف فى أسماء البارى جل وعلا من الشارع ((أدلة)) جمع دليل ((وفية)) عالية توفى بالمقصود لأن مالم يثبت عن الشارع لم يكن مأذونا فى اطلاقه عليه والأصل المنع حتى يقوم دليل الاذن فاذا ثبت كان توقيفا • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) مايطلق عليه سبحانه وتعالى فى باب الأسماء والصفات توقيفى ، وما يطلق عليه فى باب الاخبار لا يجب أن يكون توقيفا كالقديم والشىء والموجود والقائم بنفسه ، فهذا فصل الخطاب فى مسألة أسمائه هل هى توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع

تنبيهات

تنبيهات اذا كانت الصفة منقسمة الى كمال ونقص

(أحدها) اذا كانت الصفة منقسمة الى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها فى أسمائه تعالى بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع فان هذه الالفاظ لا تدخل فى أسمائه ، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الاطلاق بل هو الفعال لما يريد فان الارادة والفعل والصنع منقسمة ، ولهذا انما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلا وخبرا ، ثم انه لا يلزم من الاخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من

أسمائه الحسنى - المضل الفاتن الماكر - تعالى عن قوله فان هذه الاسماء لم يطلق عليه سبحانه منها الا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة • وقال السعد فان قيل قد وجدنا من الاوصاف ما يمتنع اطلاقه مع ورود الشرع به كالماكر والمستهزىء والمنزل والمنشىء والحارث والزارع والرامى أى والبانى والآمر والناهى قلنا لا يكفى فى صحة الاجتراء على الاطلاق مجرد وقوعها فى الكتاب والسنة بحسب ما اقتضاه المقام واتساق الكلام بل يجب أن لا يخلو عن نوع تعظيم ورعاية أدب ، وماقبل هذا أوضح منه وأتم فائدة

الثاني اطلاق الاسم يجيز اطلاق المصدر والفعل

الثانى

ان الاسم اذا أطلق على الله تعالى جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلا ومصدرا نحو السميع البصير القدير يطلق عليه منع السمع والبصر والقدرة ، ويخبر عنه بالافعال من ذلك نحو (قد سمع الله)(فقدرنا فنعم القادرون) هذا ان كان الفعل متعديا فان كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحى يطلق الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حى

الثالث احصاء الاسماء الحسنى

الثالث

احصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل معلوم فان المعلومات سواء اما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا ، والعلم اما علم بما كونه أو علم بما شرعه ، ومصدر الخلق والامر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالامر كله مصدره عن أسمائه الحسنى ولهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والاحسان اليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف واحسان اذ مصدره أسماؤه الحسنى ، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة اذ مصدره أسماؤه الحسنى أيضا ، فلا تفاوت فى خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلا ولا سدى ولا عبثا ، فالعلم بأسمائه واحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصاها كما ينبغى للمخلوق دخل الجنة

الرابع أسماؤه تعالى كلها حسن

الرابـع

أسماؤه كلها حسن ليس فيها اسم الا وهو حسن ، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت ، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل ، فالشر ليس اليه فكما لا يدخل فى صفاته ولا يلحق ذاته فلا يدخل فى أفعاله ، فالشر لا يضاف اليه فعلا ولا وصفا وانما يدخل فى مفعولاته وفرق بين الفعـــل والمفعول فالشر قائم بمفعواه المباين له لا بفعله الذى هو فعله . فتأمل هذا فانه خفى على كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم كما حرر ذلك كله فى البدائع

الخامس ترتيب الاسمـــاء والدعاء بها

الخامس

اختلف فى مراتب احصاء أسماء الله تعالى التى من أحصاها دخل الجنة وهذا قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح ، فقيل أحصى ألفاظها وعددها ، وقيل فهم معانيها ومدلولها ، وقيل دعاؤه بها كما قال تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) وهذا على مرتبتين ، احداهما دعاء ثناء وعبادة ، والثانى دعاء طلب ومسألة ، فلا يثنى عليه الا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ولذلك لا يسأل الا بها فلا يقال يا موجود أو ياشىء أو يا ذات اغفر لى وارحمنى بل يسأل فى كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلا اليه بذلك الاسم ، قال فى البدائع وهذه العبارة أولى من عبارة من قال نتخلق بأسماء الله ، فانها ليست بعبارة سديدة وهى منتزعة من قول الفلاسفة : الفلسفة التشبه به على قدر الطاقة . والحاصل ان لهم أربع مراتب أشدها انكارا عبارة الفلاسفة وهى التشبه به تعالى ، ثم يليها عبارة من قال التخلق بأسمائه تعالى ، وأحسن منها عبارة أبى الحـــكم بن برجان وهى التعبد ، وأحسن من الجميع الدعاء وهى المطابقة للأمر القــرآنى وبالله التوفيق

السادس
الالحـــاد في
أسمائه تعالى

السادس

الالحاد فى أسمائه تعالى المشار اليه في قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادة ـ ل ح د ـ تقول العرب التحد فلان الى فلان اذا عدل اليه فالالحاد فى أسمائه تعالى أنواع (أحدها) أن تسمى الاصنام بها كتسميتهم اللات من الالهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم الها وهذا الحاد حقيقة فانهم عدلوا بأسمائه الى أوثانهم وآلهتهم الباطلة (الثانى) تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك (والثالث) وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود أنه فقير ، وقولهم انه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم يد الله مغلولة ، وأمثال ذلك مما هو الحاد فى أسمائهوصفاته (ورابعها) تعطيل الاسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول الجهمية ومن تبعهم ان أسماءه تعالى ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانى فيطلقونعليه اسم السميع والبصير والحى والرحيم والمتكلم والمريد ، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا ارادة تقوم به ، وهذا من أعظم الالحاد فيها عقلا ولغة وشرعا وفطرة وهو مقابل لالحاد المشركين (وخامسها) تشبيه صفاته تعالى بصفات خلقه فهو الحاد فى مقابلة الحاد المعطلة تعالى الله عن الحادهم علوا كبيرا وبرأ الله أتباع رسوله وورثة نبيه القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه الا بما وصف به نفسه ووصفه به نبيه فأثبتوا لهالأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان اثباتهم بريئا من التمثيل ، وتنزيههم خليا عن التعطيل ، والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل • انتهى ملخصا من البدائع والله الموفق

فصـــل في
صفاته تعالى
واقســـام
التوحيد

فصل في بحث صفات مولانا عز وجل

أعلم أن التوحيد ثلاثة أقسام توحيد الربوبية وتوحيد الالهية وتوحيـــد الصفـــات فتوحيـــد الربوبيـــة أن لا خـــالق ولا رازق ولا محيى

ولا مميت ولا موجد ولا معدم الا الله تعالى ، وتوحيد الالهية افراده تعالى بالعبادة والتأله له والخضوع والذل والحب والافتقار والتوجه اليه تعالى ، وتوحيد الصفات أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا وإثباتا فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه . وقد علم أن طريقة سلف الامة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع ما أثبته من الصفات من غير الحاد فى الاسماء ولا فى الآيات فانه تعالى ذم الملحدين فى أسمائه وآياته فقال (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون) وقال تعالى (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعلمون بصير *) فطريقة سلف الامة وأئمتها اثبات الاسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات ، اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) والله سبحانه وتعالى بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل ، فاثبتوا له الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتعطيل . فالاثبات المفصل من أسمائه وصفاته ما أنزله فى محكم آياته كقوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم) الآية وقوله (قل هو الله أحد) السورة « وهو العليم الحكيم ــ وهو العليم القدير ــ وهو السميع البصير ــ وهو العزيز الحكيم ــ وهو الغفور الرحيم ــ وهو بكل شيء عليم » (الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) وقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ــ اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * ــ وغضب الله عليه ولعنه ــ وكلم الله موسى تكليما * ــ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ــ ويوم يناديهم ــ انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * ــ ورحمتي وسعت كل شيء » الى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أسماء الرب سبحانه وتعالى وصفاته فان فى ذلك

من اثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل واثبات وحدانيته بنفى التمثيل ما هدى الله به عباده الى سواء السبيل • فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، بخلاف من حاد وزاغ عن سبيلهم من الكفار والمشركين ، ومن ضاهى هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والقرامطة والجهمية والباطنية والملحدين ، فهم على الضد من ذلك ، فيصفون الله سبحانه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ، ولا يثبتون له الا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التأمل ، وانما يرجع الى وجود فى الاذهان لا فى الاعيان ، فقولهم يستلزم التعطيل والتمثيل ، فانهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلا يستلزم نفى الذات المقدسة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا • ولما كانت أسماؤه الحسنى (١) تعالى يقول باثباتها أهل السنة وكذا المعتزلة على ما مر قدم البحث عليها ، ولما كانت صفاته تعالى منها ما اتفق عليه كالصفات السبع ومنها ما اختلف فيه كصفات فعله تعالى ورحمته وغضبه ونحوها بدأ بما اتفق عليه منها وهى السبع صفات الثبوتية

الصفات الثبوتية

((له الحياة والكلام والبصر — سمع ارادة وعلم واقتدر))
((بقدرة تعلقت بممكن — كذا ارادة فع واستبن))
((والعلم والكلام قد تعلقا — بكل شيء يا خليلى مطلقا))
((وسمعه سبحانه كالبصر — بكل مسموع وكل مبصر))
((وان ما جاء مع جبريل — من محكم القرآن والتنزيل))
((كلامه سبحانه قديم (١) — أعيا الورى بالنص يا عليم))

---

(١) مخ « ولما كانت صفاته » •

(١) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :
قوله ان مذهب السلف ان كلام الله قديم وكذلك القرآن فيه نظر فان مذهب السلف كما هو معروف ان كلام الله مما يتعلق بمشيئته فاذا شاء تكلم ويتكلم متى شاء كيف يشاء بلا كيف وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه التسعينية ص ١٤٣ ما نصه بالحرف الواحد : الوجه الثانى ان أحدا من السلف والأئمة لم يقل ان القرآن قديم وانه لا يتعلق بمشيئته وقدرته ا هـ وقد ذكر فى غالب ظنى ان أول من قال بالقدم عبد الله بن سعيد بن كلاب ولا ريب ان الادلة تدل على أن الله تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء وان القرآن غير قديم ومن ذلك قوله تعالى : (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله) فان الاخبار عن سماع المرأة التى تجادل بلفظ الماضى

((وليس في طوق الورى من أصله   أن يستطيعوا سورة من مثله))

الحياة

الاولى ما أشار اليها بقوله مما يجب ((له)) سبحانه وتعالى ((الحياة)) وهي صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية تقتضي صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما

دليل على سبق ذلك للخبر ولا يصح أن يكون قد قال في الازل قد سمع الله قول التي تجادلك مع انها أي المجادلة لم تكن خلقت ويشبه ذلك قوله تعالى : (واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) فان الاخبار عن ذلك بلفظ الماضي دليل على سبقه للخبر والادلة على ذلك كثيرة . ومن المعلوم ان الصفات الكاملة من أعظمها ان الله تعالى لا يزال متكلما متى شاء كيف شاء كما هو المعروف من مذهب السلف ولله الحمد والمنة ولا يلزم من هذا القول أن يكون كلامه مخلوقا فان كلامه صفة من صفاته قد استعاذ به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . والاستعاذة لا تكون بمخلوق والله أعلم .

وفي تنبيه ابن سحمان ص ٢٠ ما لفظه :

فقوله : كلامه سبحانه قديم ، هو من جنس ما قبله من الالفاظ المبتدعة المخترعة التي لم ينطق بها سلف الامة وأئمتها ، والذي عليه أهل السنة والجماعة المخالفون لاهل البدع ان كلام الله سبحانه وتعالى حادث الآحاد قديم النوع ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته اذا شاء لا يمتنع عليه شيء أراده وان الله تعالى متصف بالافعال الاختيارية القائمة به فهو سبحانه قد تكلم في الازل بما شاء ويتكلم فيما لم يزل بقدرته ومشيئته بما أراد وهو الفعال لما يريد « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وأهل البدع المخالفون للسلف ينفون ذلك ويسمون هذه الافعال الاختيارية القائمة به سبحانه وتعالى حلول الحوادث والله لا يكون محلا للحوادث ويريدون بهذا ان لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتي يوم القيامة ولا يجيء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبان ولا يقوم به فعل البتة ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن لم يكن مريدا له فلا يقول له « كن » حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولا ينادي عباده يوم القيمة بعد أن لم يكن مناديا ولا يقول للمصلي اذا قال « الحمد لله رب العالمين » حمدني عبدي فاذا قال « الرحمن الرحيم » قال أثنى علي عبدي فاذا قال « مالك يوم الدين » قال مجدني عبدي » فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث كما تقدم بيان هذا وايضاحه في كلام ابن القيم رحمه الله وقال في الكافية الشافية لما ذكر أقوال أهل البدع المخالفين لاهل السنة .

والآخرون أولو الحديث كأحمد   ذاك ابن حنبل الرضا الشيباني
قد قال ان الله حقا لم يزل   متكلما ان شاء ذو احسان .
جعل الكلام صفات فعل قائم   بالذات لم يفقد من الرحمن
وكذاك نص على دوام الفعل بالا   حسان أيضا في مكان ثان
وكذا ابن عباس فراجع قوله   لما أجاب مسائل القرآن

بغير الحي ، قال العلماء رحمهم الله تعالى حياة البارى عز وجل مما اتفق عليه العقلاء،نعم الحياة فى حقه لا يجوزأن تكون بمعنى الحياة فى حقنا لأنها فى حقنا قوة تتبع اعتدال النوع وهذا فى حقه تعالى محال فمن ثم اختلف فى معناها فى حقه تعالى فقال أبو الحسين البصرى من المعتزلة حياته صحة العلم والقدرة فمعنى كونه حيا انه يصح أن يعلم ويقدر ، وعند الفلاسفة الحي هو الدراك الفعال ، وقال أهل السنة حياته صفة زائدة على العلم ، والارادة قديمة قائمة بذاته لأجلها يصح أن يعلم ويقدر لا نفس صحة العلم والقدرة، وكذا فسرها جمهور الأئمة من أهل السنة والجماعة ، فهى صفة كمال فى نفسها فاتصف بها جل وعلا فصفة الحياة هى الجامعة لسائر الصفات متقدمة الرتبة عليها فلا يتقدمها الا الوجود ، وهى لا تتعلق بشيء لا موجود ولا معدوم ومثلها الوجود والقدم والبقاء عند من يعدها من الصفات الذاتية ، وضابطها انها كل صفة لا تقتضى أمرا زائدا على قيامها بمحلها ، كما أن ضابط ما يتعلق من الصفات انها كل صفة تقتضى أمرا زائدا على القيام بمحلها فان العلم يقتضى معلوما والقدرة تقتضى مقدورا الخ (تنبيه) ذكر الامام المحقق ابن القيم فى البدائع أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران لفظيان ، وأمران معنويان ، فاللفظيان ثبوتى وسلبى فالثبوتى أن يشتق للموصوف منها اسم ، والسلبى أن يمتنع الاشتقاق لغيره ، والمعنويان ثبوتى وسلبى فالثبوتى انه يعود حكمها الى الموصوف ويخبر بها عنه ، والسلبى انه لا يعود حكمها الى غيره ولا يكون خبرا عنه • وهذه قاعدة عظيمة فى معرفة الأسماء والصفات كالكلام والعلم ونحوهما

الكلام (الثانية) ما أشار اليها بقوله ((و)) يجب له سبحانه وتعالى ((الكلام)) أى

وكذاك جعفر الامام الصادق ال مقبول عند الخلق ذو العرفان
قد قال لم يزل المهيمن محسنا برا جوادا عند كل أوان
الى آخر كلامه فانه قد أجاد فيه وأفاد فراجعه فيها • وأما ما ذكره فى القول السديد فى الأبيات التي نسبها لشيخ الاسلام قدس الله روحه أن صح النقل بذلك عنه حيث قال :
وأقول فى القرآن ما جاءت به آياته فهو القديم المنزل
فهذا القول ان صح لا ينافى كونه سبحانه يتكلم فيما لم يزل بقدرته ومشيئته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لاهل الكلام من المبتدعة وغيرهم والله أعلم •

يجب الجزم بأنه تعالى متكلم بكلام قديم ذاتي وجودي غير مخلوق ولا محدث ولا حادث (١)لا يشبه كلام الخلق، قال شيخ الاسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية في شرح « رسالة الاصفهاني » الامام المتكلم الاشعري : قد اتفق سلف الامة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ، وان كلامه تعالى غير مخلوق ، وأنكروا على الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم أن كلامه تعالى مخلوق خلقه في غيره وانه كلم موسى بكلام خلقه في الشجرة وكلم جبريل بكلام خلقه في الهواء ، واتفق أئمة السلف على أن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود • قال ومعنى قولهم منه بدأ أي هو المتكلم بهلم يخلقه في غيره كما قالت الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم بأنه بدأ من بعض المخلوقات وانه سبحانه لم يقم به كلام • قال ولم يرد السلف انه كلام فارق ذاته فان الكلام وغيره من الصفات لا يفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل الى غيره فكيف صفة الخالق تفارقه وتنتقل الى غيره ، ولهذا قال سيدنا الامام احمد كلام الله ليس بائن من خلقه في بعض الاجسام • قال شيخ الاسلام ومعنى قول السلف « واليه يعود » ماجاء في الآثار « ان القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في القلوب منه آية » وما جاءت به الآثار عن النبي المختار صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين لهم باحسان وغيرهم من أئمة المسلمين كالحديث الذي رواه الامام احمد في المسند وكتبه الى المتوكل في رسالته التي أرسل بها اليه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج (٢) منه » يعني القرآن وفي لفظ « بأحب اليه مما خرج منه » وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة ـ ان هذا كلام لم يخرج من ال ـ أي من رب ـ وقول ابن عباس رضي الله عنهما لما سمع قائلا يقول لميت لما وضع في لحده اللهم رب القرآن اغفر له فالتفت اليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال ـ مه القرآن كلام الله ليس بمربوب منه بدأ واليه يعود ـ وهذا الكلام معروف عن ابن عباس رضي الله عنهما • وقول السلف : القرآن كلام الله غير

---

(١) راجع التعليقة السابقة •

(٢) مخ « بافضل مما خرج » •

مخلوق منه بدأ واليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك كما هو منقول عنهم في الكتب المسطورة بالأسانيد المشهورة (قال) شيخ الاسلام في شرح « الأصفهانية » وهذه الروايات لا يدل شيء منها على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل الى غيره ، وانما تدل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع ، لا انه خلقه في غيره ، كما فسره بذلك الامام احمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة ، قال أبو بكر الخلال سئل الامام احمد عن قوله القرآن كلام الله منه خرج واليه يعود فقال الامام احمد : منه خرج هو المتكلم به ، واليه يعود يعني ما قدمنا . فان قيل هل كلام الباري جل وعلا صفة ذات أو صفة فعل؟ فالجواب مذهب سلف الامة ومحققي الأئمة انه صفة ذات وفعل معا ، فان صفة الكلام لله عز شأنه ثابتة باجماع الانبياء على ذلك فيتكلم اذا شاء ومتى شاء بلا كيف ، فان الكلام صفة كمال لا نقص فيه فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام اذ كل كمال لا نقص فيه يثبت للمخلوق فالخالق أولى به لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق ، ولأن كل كمال يثبت للمخلوق فانما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له فانه لو لم يجب له لكان اما ممتنعا وهو محال بخلاف الفرض ، واما ممكنا فيتوقف ثبوته له على غيره ، والرب تعالى لا يحتاج في ثبوت كماله الى غيره ، فان معطي الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطيا له الكمال ، وهذا محال ، بل هو جل شأنه بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال ، فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلما وان ذلك لم يزل ولا يزاله ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل يتكلم اذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكنا له ، وحينئذ فكلامه (قديم - ١) مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته (وقال ابن كلاب) ومن وافقه كلامه تعالى صفة ذات لازم لذاته كلزوم الحياة ليس هو متعلقا بمشيئته وقدرته بل هو قديم ، كقدم الحياة اذ لو قلنا انه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثا فيلزم أن يكون

الاختلاف في كلام الله تعالى

---

(١) ليس في مخ .

مخلوقا ، أو قائما بذات الرب فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث لأن القابل للشيء لايخلو عنه وعن ضده ، قالوا وتسلسل الحوادث ممتنع اذ التفريع على هذا الاصل • ثم ان هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فقالت طائفة القديم لا يكون حروفا ولا أصواتا لأن الصوت يستحيل بقاؤه كما يستحيل بقاء الحركة وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه بطريق الاولى والأحرى ، فيمتنع قدم شيء من الاصوات المعينة كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ، لأن تلك لا تكون كلاما الا اذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقا بغيره ، فلو كانت الميم من بسم الله قديمة مع كونها مسبوقة بغيرها لكان القديم مسبوقا بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ، ولا يجوز تعدده لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحا بلا مرجح ، وان كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها فى آن واحد ، قالوا وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحدا هو الامر والنهى والخبر وهو معنى التوراة والانجيل والزبور والفرقان • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وهذا أصل قول الكلابية والاشعرية ومن وافقهم •

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم انه حروف قديمة الاعيان لم تزل ولا تزال وهى مترتبة فى ذاتها لا فى وجودها كالحروف الموجودة (١) فى المصحف وليس بأصوات قديمة • ومنهم من قال بل هو أصوات أيضا قديمة • ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التى لاتوجد الا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التى توجد فى آن واحد ، كما يفرق بين الاصوات والمداد ، ويمنع أن يكون الصوت المعين قديما لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه ، والصوت لا يبقى • وأما الحروف المكتوبة فقد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد كالشكل المصنوع فى حجر أو ورق بازالة بعض أجزائه وقد يراد بالحروف نفس المداد • وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضا الاصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد بها حدود الاصوات وأطرافها كما يراد بالحرف فى الجسم حده

---

(١) مخ « المرتبة » •

ومنتهاه فيقال حرف الرغيف وحرف الجبل ومنه قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وقد يراد بالحروف الحروف الحالية وهو ما يتشكل فى باطن الانسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به . وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات فى الحى الناطق على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف هل تكون قديمة بدون أصوات أم لا بد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ، ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا فى المسموع من القارىء هل يسمع منه الصوت القديم ؟ فقيل المسموع منه هو الصوت القديم ،وقيل بل صوتان (١) أحدهما القديم والآخر المحدث فما لا بد منه فى وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث . وقيل بل الصوت القديم غير المسموع من العبد . وهذا كله كلام من لا يعول على كلامه من الفرق المائلة . والذين قالوا ان كلامه تعالى صفة فعل هم الذين يقولون أن القرآن مخلوق وبين الفريقين بون ، الأولون يقولون أن التكليم والنداء ليس الا مجرد خلق ادراك المخلوق بحيث يسمع مالم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعا لما كان موجودا قبل سمعه بمنزلة (٢) جعل الأعمى بصيرا لما كان موجودا قبل رؤيته من غير احداث شىء منفصل عن الأعمى ، فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا أنه حينئذ نودى ،ولهذا يقولون انه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس انه يكلم خلقه . وأما الآخرون وهم الخلقية الذين يقولون أن القرآن مخلوق خلقه الله تعالى فى جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية ولا يخفى أن قوله تعالى « منزل من ربك » مبطل لهذا ولقول من يقول أن القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق اما فى جبريل أو محمد أو الهواء أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربى أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربى أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره ، فهذا قول من يقول

(١) زاد فى مط « الا ان » وليست فى مخ .
(٢) زاد فى الاصلين « ما » وضرب عليها فى مخ .

أن القرآن العربي ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، وهذا قول الكلابية والأشعرية في نفس القرآن العربي الذى جاء به جبريل من رب العالمين فبلغه للنبي الامين وأخبرنا الله ورسوله أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين . وقالت طائفة بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقا في غيره ، والحق جل شأنه متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثا كان بعد أن لم يكن ، وهذا قول الكرامية ومن نحا نحوهم ، ثم من هؤلاء من يقول كلامه كله حادث لا محدث ومنهم من يقول هو حادث ومحدث

مـــــذهب السلف في الكلام

مذهب السلف في الكلام

وتحرير مذهب السلف أن الله تعالى متكلم كما مر ، وان كلامه قديم وأن القرآن كلام الله وانه قديم حروفه ومعانيه (١) وقد توعد الله جل شأنه من جعله قول البشر بقوله : (انه فكر وقدر فقتــل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واســتكبر فقال ان هــذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر) ومحمد صلى الله عليه عليه وسلم بشر فمن قال انه قول محمد فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول بشر أو جنى أو ملك فمن جعله قولا لأحد من هؤلاء فقد كفر . وأما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر) فالمراد أن الرسول بلغه عن مرسله لا أنه قوله من تلقاء نفسه وهو كلام الله الذى أرسله كما قال : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلامه ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في المواسم ويقول « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من قاله مبتدئا به لا كلام من قاله مبلغا مؤديا وموسى عليه السلام سمع كلام الله من الله بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم

---

(١) بهامش مخ « انكر شيخ الاسلام رحمه الله وصف القرآن بالقدم وقال ان هذا لم يقله السلف » وراجع التعليق على قول المتن «كلامه سبحانه قديم » ص ١٣٠ .

من بعض ، فسماع موسى مطلق بلا واسطة وسماع الناس مقيد بواسطة كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وكلم نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم سائر الانبياء بارسال رسول اليهم ، والناس يعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كماقال صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام الرسول بصوت نفسه ، واذا كان هذا معلوما فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ولهذا قال تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام البارى وجعل الصوت الذى يقرؤه به العبد صوت القارىء ، وأصوات العباد ليست هى الصوت الذى ينادى الله به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله فان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فليس علمه كمثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ولا كلامه مثل كلامهم ولا نداؤه مثل ندائهم ولا صوته مثل أصواتهم ، فمن قال عن القرآن الذى يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غيره ـ فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال ان أصوات العباد أو المداد الذى يكتب به القرآن قديم أزلى فهو ملحد مبتدع ضال ، بل هذا القرآن هو كلام الله وهو مثبت فى المصاحف وهو كلام الله مبلغا عنه مسموعا من القراء ليس هو مسموعا منه تعالى فكلام الله قديم (١) وصوت العبد مخلوق

والحاصل ان مذهب الحنابلة كسائر السلف ان الله تعالى يتكلم بحرف وصوت . قال الامام الموفق فى رسالته ـ البرهان فى حقيقة القرآن ـ قال تعالى (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ٭) وقال (لكن الله يشهد بما

---

(١) تقدم ما فيه .

أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا *) وهو هذا الكتاب العربى الذى هو مائة وأربع عشرة سورة أولها الفاتحة وآخرها قل أعوذ برب الناس ، مكتوب فى المصاحف متلو فى المحاريب مسموع بالآذان متلو بالألسن محفوظ فى الصدور ، له أول وآخر وأجزاء وأبعاض ، وهو كلام الله تعالى • وقولهم ان القديم لا يتجزأ ولا يتعدد غير صحيح فان أسماء الله تعالى متعددة قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وهى قديمة وقد نص الامام الشافعى ان أسماء الله غير مخلوقة ، وقال الامام احمد من قال أن أسماء الله تعالى مخلوقة فقد كفر • وكذا كتب الله التوراة والانجيل والزبور والفرقان متعددة وهى كلام الله تعالى ، وقد ورد السمع بأن القرآن ذو عدد ، وأقر المسلمون بأنه كلام الله تعالى • وقد عد الاشعرى صفات الله سبع عشرة صفة بين ان منها ما لا يعلم الا بالسمع ، فاذا جاز أن يوصف بصفات متعددة لم يلزم بدخول العدد فى الحروف شىء • قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق • ولا نرى القول بالحكاية والعبارة • وغلط من قال بهما وجهله فقال : من قال ان القرآن عبارة عن كلام الله فقد غلط وجهل • قال وقوله تعالى (تكليما) يبطل الحكاية ، منه بدأ واليه يعود • قال الامام موفق الدين ابن قدامة واما قولهم ان كلام الله يجب أن لا يكون حروفا يشبه كلام الآدميين فالجواب أن الاتفاق فى أصل الحقيقة ليس بتشبيه كما أن اتفاق البصر فى أنه ادراك المبصرات والسمع فى انه ادراك المسموعات والعلم فى أنه ادراك المعلومات ليس بتشبيه كذلك هذا • وأيضا يلزمهم ان نفوا هذه الصفة لكون هذا تشبيها أن ينفوا سائر الصفات من الوجود والحياة والسمع والبصر وغيرها ، وأما قولهم ان الحروف تحتاج الى مخارج وأدوات فالجواب ان احتياجها الى ذلك فى حقنا لا يوجب ذلك فى كلام ربنا تعالى عن ذلك • على أن بعض المخلوقات لم تحتج الى مخارج فى كلامها كالايدى والارجل والجلود التى تتكلم يوم القيامة والحجر الذى سلم على النبى صلى الله عليه وسلم والحصى الذى سبح فى كفه والذراع

المسمومة التى كلمته وقال ابن مسعود ـ كنا نسمع تسبيح الطعام وهويؤكل
واذا قالوا أن الله تعالى يحتاج كحاجتنا قياسا علينا فهـــو عين التشبيه الذى
يفرون منه • وقولهم ان التعاقب يدخل فى الحروف قلنا انما كان ذلك فى حق
من ينطق بالمخارج والادوات والله سبحانه لا يوصف بذلك • قال الحافظ
أبو نصر انما يتعين التعاقب فى من يتكلم بأداة بعجز عن أداء شىء الا بعد
الفراغ من غيره وأما المتكلم بلا جارحة فلا يلزم فى كلامه التعاقب ، وقد
اتفقت العلماء على ان الله سبحانه وتعالى يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة
فى حالة واحدة ، وعند كل واحد منهم أن المخاطب فى الحال هو وحده
وهذا خلاف التعاقب • قال الامام الموفق فى قوله تعالى « وكلم الله موسى
تكليما * وكلمه ربه » وقال تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن):وقال
تعالى (اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى):أجمعنا على أن موسى عليه الصلاة
والسلام سمع كلام الله تعالى من الله لا من شجرة ولا من حجر ولا من
غيره لأنه لو سمع من غير الله تعالى لكان بنو اسرائيل أفضل فى ذلك منه
لأنهم سمعوا من أفضل ممن سمع منه موسى لكونهم سمعوا من موسى عليه
السلام وهو على زعمهم انما سمع من الشجرة • ثم يقال لهم لم سمى موسى
كليم الله ؟ واذا ثبت أن موسى، عليه السلام ، انما سمع من الله عز وجل
لم يجز أن يكون الكلام الذى سمعه الا صوتا وحرفا فانه لو كان معنى فى
النفس وفكرة وروية لم يكن ذلك تكليما لموسى ولا هو شىء يسمع ،والفكر
لا يسمى مناداة فان قالوا نحن لا نسميه صوتا مع كونه مسموعا • قلنا هذا
مخالفة فى اللفظ مع الموافقة فى المعنى ، فانه لا يعنى بالصوت الا ما كان
مسموعا • ثم ان لفظ الصوت قد صحت به الاخبار ، قال الحافظ ابن حجر
فى شرح البخارى ومن نفى الصوت يلزمه أن الله تعالى لم يسمع أحدا من
ملائكته ولا رسله كلامه بل ألهمهم اياه الهاما • قال وحاصل الاحتجاج للنفى
الرجوع الى القياس على أصوات المخلوقين لأنها التى عهدت ذات مخارج
ولا يخفى ما فيه اذ الصوت قد يكون من غير مخارج كما أن الرؤية قد
تكون من غير اتصال أشعة ولئن سلم فليمنع القياس المذكور لأن صفة الخالق
لا تقاس على صفة المخلوقين ، وحيث ثبت ذكر الصوت بهذه الاحاديث

تكلم الله تعالى بصوت

الصحيحة وجب الايمان به ، ثم اما التفويض واما التأويل • وقال ابن حجر أيضا فى موضع آخر من شرح البخارى : قوله صلى الله عليه وسلم « ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » حمله بعض الأئمة على مجاز الحذف أى يأمر من ينادى فاستبعده بعض من أثبت الصوت بأن فى قوله يسمعه من بعد اشارة الى أنه ليس من المخلوقات لأنه لم يعهد مثل هذا فيهم ، وبأن الملائكة اذا سمعوه صعقوا واذا سمع بعضهم بعضا لم يصعقوا • قال فعلى هذا فصوته صفة من صفات ذاته لا يشبه صوت غيره ، اذ ليس يوجد شيء من صفاته فى صفات المخلوقين • قال وهكذا قرره المصنف يعنى الامام البخارى فى كتاب خلق أفعال العباد • انتهى

ومن الاحاديث فى اثبات الصوت ما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال خرجت الى الشام الى عبد الله بن أنيس الانصارى رضى الله عنه فقال عبد الله بن أنيس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد ـ أو قال ـ الناس ـ وأومأ بيده الى الشام ـ حفاة عراة غرلا بهما » قال قلت ما بهما ؟ قال ليس معهم شيء « فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة » قلنا كيف وانما نأتى الله حفاة عراة غرلا ؟ قال « بالحسنات والسيئات » أخرج أصله البخارى فى صحيحه تعليقا مستشهدا به الى قوله: أنا الملك أنا الديان • وأخرجه الامام احمد وأبو يعلى الموصلى والطبرانى ، وأخرجه الحافظ ضياء الدين المقدسى بسنده الى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال بلغنى أن للنبى صلى الله عليه وسلم حديثا فى القصاص وكان صاحب الحديث بمصر فاشتريت بعيرا فشددت عليه رحلا وسرت حتى وردت مصر فمضيت الى باب الرجل الذى بلغنى عنه الحديث فقرعت بابه فخرج الى مملوكه فنظر فى وجهى ولم يكلمنى ، فدخل الى سيده فقال اعرابى ، فقال سله من أنت ؟ فقال : جابر بن عبد الله الانصارى •فخرج الى مولاه فلما تراءينا اعتنق أحدنا صاحبه فقال يا جابر ما جئت تعرف ؟ فقلت

حديث بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القصاص ولا أظن أن أحدا ممن مضى وممن بقى أحفظ له منك • قال نعم ياجابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله تبارك وتعالى يبعثكم يوم القيامة من قبوركم حفاة عراة غرلا بهما ثم ينادى بصوت رفيع غير قطيع يسمعه من بعد كمن قرب : أنا الديان لا تظالم اليوم أما وعزتى لا يجاورنى اليوم ظالم ولو لطمة بكف أو يد على يد • ألا وان أشد ما أتخوف على أمتى من بعدى عمل قوم لوط فلترتقب أمتى العذاب اذا تكافأ النساء بالنساء والرجال بالرجال »• وقد رواه عبد الحق الاشبيلى من طريق الحارث بن أبى أسامة ومن مسنده نقله،وخرجه على بن معبد البغوى المالكى وغيره وفيه ـ فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت اليه فسرت شهرا حتى قدمت الشام فاذا عبد الله بن أنيس الانصارى فأتيت منزله فأرسلت اليه أن جابرا على الباب فرجع الرسول الى فقال جابر بن عبد الله ؟ قلت نعم ، فرجع اليه فخرج فاعتنقته فقلت : حديث بلغنى انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم أسمعه • قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد ـ أو قال الناس ـ الحديث • وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اذا تكلم بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام فاذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك ؟ قال يقول الحق : فينادون : الحق الحق » أخرجه أبو داود ورجاله ثقات ونحوه من حديث أبى هريرة رواه البخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وكذا رواه الامام احمد وابنه عبد الله وقال سألت أبى فقلت يا أبى الجهمية يزعمون أن الله لا يتكلم بصوت ، فقال كذبوا انما يدورون على التعطيل • ثم روى الامام احمد رضى الله عنه بسنده الى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « اذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء » قال السجزى وما فى رواة هذا الخبر الا امام مقبول• انتهى •وتتمة الخبر : « فيخرون سجدا حتى اذا فزع عن قلوبهم ـ أو قال سكن عن قلوبهم ـ قال أهل السماء ماذا قال ربكم قالوا الحق قال كذا

وكذا • قال القاضى أبو الحسين وغيره : ومثل هذا لا يقوله ابن مسعود رضى الله عنه الا توقيفا لانه اثبات صفة للذات • انتهى • وقد روى فى اثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثا بعضها صحاح وبعضها حسان ويحتج بها أخرجها الامام الحافظ ضياء الدين المقـــدسى وغيره • وأخرج سيدنا الامام احمد غالبها واحتج به ، وأخرج الحافظ ابن حجر غالبها أيضا فى شرح البخارى ، واحتج بها البخارى وغيره من أئمةالحديث على أن الحق جل شأنه يتكلم بحرف وصوت ، وقد صححوا هذا الاصل واعتقدوه واعتمدوا على ذلك منزهين الله تعالى عما لا يليق بجلاله من شبهات الحدوث وسمات النقص كما قالوا فى سائر الصفات ، فاذا رأينا أحدا من الناس مما لا يقدر عشر معشار هؤلاء يقول لم يصح عن النبى صلى اللهعليه وسلم حديث واحد أنه تكلم بحرف وصوت ورأيت هؤلاء الأئمة قد دونوا هذه الاخبار وعملوا بها ودانوا الله سبحانه وتعالى بها وصرحوا بأن الله تعالى تكلم بحرف وصوت لا يشبهان صوت مخلوق ولا حرفه بوجه البتة معتمدين على ما صح عندهم عن صاحب الشريعة المعصوم فى أقواله وأفعاله الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى مع اعتقادهم الجازم الذى لا يعتريه شك ولا وهم ولا خيال نفى التشبيه والتمثيل والتحريفوالتعطيل بل يقولون فى صفة الكلام كما يقولون فى سائر الصفات اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما عليه سلف الامة وفحول الأئمة فهو حق اليقين بلا محال وهل بعد الحق الا الضلال

(تنبيه) ممن ذهب الى مذهب السلف والحنابلة من قدم كلامه تعالى وانه بحرف وصوت من متأخرى محققى الاشاعرة صاحب المواقف وان رد عليه جمع منهم من متحذلق ومجازف وسيأتى لذلك تتمة عند ذكر القـــرآن الكريم والفرقان القديم وبالله التوفيق •(الصفة الثالثةوالرابعة)ماأشاراليهما بقوله ((و)) يجب له سبحانه وتعالى ((البصر)) وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمبصرات فيدرك بها ادراكا تماما لا على سبيل التخييل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة كما يأتى الكلام على ذلك مع السمعقريبا((سمع)) باسقاط حرف العطف أى ويجب له سبحانه وتعالى سمع قال العلامة ابن

هشام فى حذف حرف العطف : بابه الشعر كقول الحطيئة

ان امرءا رهطه فى الشام منزله   برمل يبرين جارشـد ما اغتربا

أى ومنزله • والسمع صفة قديمة تتعلق بالمسموعات • واثبات هاتين الصفتين أعنى السمع والبصر للدلائل السمعية وهما صفتان زائدتان على الذات عند أهل السنة كسائر الصفات لظواهر الآيات والاحاديث ،وليسا راجعين الى العلم بالمسموعات والمبصرات خلافا للفلاسفة ومن وافقهم وللامام أبى الحسن الاشعرى فى قوله انهما راجعان الى العلم بالمسموع والمبصر لكن المشهور من مذهب الاشاعرة كسائر أهل السنة ان كلا من السمع والبصر صفة مغايرة للعلم ، ونقل صاحب المواقف أن الجمهور خالفوا أبا الحسن الاشعرى فى قوله انهما راجعان الى العلم ، قال فانا اذا علمنا شيئا كاللون مثلا علما تاما ثم رأيناه فانا نجد بين الحالتين فرقا ضروريا ونعلم أن الحالة الثانية مخالفة للحالة الاولى بلا شبهة ولو كان الابصار علمابالمبصر لم يكن هناك فرق ، وهكذا نجد الفرق بين العلم بهذا الصوت وسماعه ، وبين العلم بهذا الطعم وذوقه ، وبين العلم بهذه الرائحة وشمها وظواهر الكتاب والسنة تدل على المغايرة بين العلم والسمع والبصر ففى البخارى فى (باب وكان الله سميعا بصيرا) عن عائشة رضى الله عنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات • وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فكنا اذا علونا كبرنا فقال « اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا بصيرا قريبا » الحديث • وقال الامام الحافظ البيهقى فى كتابه الاسماء والصفات: السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، والكل منهما فى حق البارى صفة قائمة بذاته تعالى ، وقد أفادت الآية والاحاديث الرد على من زعم انه سميع بصير بمعنى عليم • وأخرج أبو داود بسند قوى على شرط مسلم من حَديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ـ الى قوله ـ ان الله كان سميعابصيرا): ويضع أصبعيه ـ قال أبو يونس وضع أبو هريرة ابهامه علىأذنه والتى تليها

على عينه • قال البيهقى وأراد بهذه الاشارة تحقيق اثبات السمع والبصر لله لبيان محلهما من الانسان يريد أن له سمعا وبصرا لا أن المراد به العلم فانه لو كان كذلك لاشار الى القلب لانه محل العلم • ولم يرد بدلك الجارحة فان الله نعالى منزه عن مشابهة المخلوقين • ولا يلزم من قدم السمع والبصر قدم المسموعات والمبصرات كما لا يلزم من قدم العلم والقدرة قدم المعلومات والمقدورات لأنها صفات قديمة تحدث لها تعلقات بالحوادث

الصفة الخامسة الارادة

(الصفة الخامسة) ما أشار اليها بقوله ((ارادة)) باسقاط حرف العطف على ما مر أى ويجب له تعالى صفة الارادة ويرادفها المشيئة (١) وهمـــا عبارتان عن صفة فى الحى توجب تخصيص أحد المقدورين فى أحد الاوقات بالوقوع مع استواء نسبة القدرة الى الكل ، قال علماء الكلام نسبة الضدين الى القدرة سواء اذ كما يمكن أن يقع بقدرته تعالى أحد الضدين يمكن أن يقع به الضد الآخر ، ونسبة كل منهما الى الاوقات سواء اذ كما يمكن أن يقع فى وقته الذى وقع فيه يمكن أن يقع قبله أو بعده ، فلا بد من مخصص يرجح أحدهما على الآخر ويعين له وقتا دون سائر الاوقات ، وهذا المخصص هو الارادة وهى واحدة قديمة أزلية باقية اذ لو كانت حادثة لزم كونه محلا للحوادث ، وأيضا لا حاجة الى ارادة أخرى وهى شاملة لجميع الكائنات لأنه تعالى موجد لكل ما يوجد من الممكنات ولأنه تعالى فاعل بالاختيار فيكون مريدا لها لان الايجاد بالاختيار يستلزم ارادة الفاعل • ويأتى تتمة لكلام عند ذكر متعلق القدرة والارادة ان شاء الله تعالى :

الصفة السادسة العلم

(الصفة السادسة) ما أشار اليها بقوله ((و)) يجب له عز وجل ((علم)) أى يجب الجزم بأنه تعالى عالم بعلم واحد وجودى قديم باق ذاتى ينكشف به المعلومات عند تعلقه بها ، وانما قلنا بأن علمه ذاتى كسائر صفاته تعالى للرد على الحكماء القائلين بنفى الصفات واثبات غاياتها ، وللرد على المعتزلة

---

(١) فى تعليق عن الشيخ عبد الله بابطين ما نصه « هذا ليس على عمومه فان الارادة عند أهل السنة تنقسم الى قسمين ارادة كونية وهى التى ترادفها المشيئة وهى كالتى فى قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) الآية • والقسم الثانى ارادة شرعية وهذه يرادفها المحبة وهى كالتى فى قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) والله أعلم

القائلين بأنه يعلم بالذات لا بصفة زائدة عليها ، والدليل على أن صفاته زائدة على ذاته ورود النصوص بأنه تعالى عالم وحى وقادر ونحوها ، وكونه عالما يعلل بقيام العلم به فى الشاهد فكذلك فى الغائب وقس عليه سائر الصفات ، وأيضا فالعالم من قام به العلم والقادر من قامت به القدرة • فان قيل قياس الغائب على الشاهد فقهى ، فالجواب انه ليس كذلك بل هو قياس فى الجملة قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح العقيدة الاصفهانية عن الامام الرازى فى كتابه نهاية العقول قال نفاة الصفات ان ذات الله لو كانت موصوفة بصفات قائمة بها لكانت الحقيقة الالهية مركبة من تلك الذات ومن تلك الصفات ولو كانت كذلك لكانت ممكنة لأن كل حقيقة مركبة فهى محتاجة الى أجزائها وكل واحد من أجزائها غيرها فان كل حقيقة مركبة فهى محتاجة الى غيرها وذلك فى حق الله تعالى محال فاذن يستحيل اتصاف ذاته بالصفات • وقال الرازى فى الجواب عن هذا قوله يلزم من اثبات الصفات وقوع الكثرة فى الحقيقة الالهية فتكون تلك الحقيقة ممكنة ، قلنا ان عنيتم به احتياج تلك الحقيقة الى خارجى فلا يلزم لاحتمال استناد تلك الصفات الى الذات الواجبة لذاتها ، وان عنيتم توقف الصفات فى ثبوتها على الذات المخصوصة فذلك مما نلتزمه فأين المحال ؟ وأيضا فعندكم الاضافات صفات وجودية فى الخارج فيلزمكم ما ألزمتمونا • ثم قال الرازى ومما يبين فساد قول الفلاسفة فى قولهم الشىء الواحد لا يكون مؤثرا وقابلا انهم اتفقوا على أن الله عالم بالكليات • واتفقوا على أن العلم بالشيىء عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم فى العالم ، واتفقوا على أن صور المعلومات مودعة فى ذات البارى تعالى حتى ان ابن سينا قال ان تلك الصورة اذا كانت داخلة فى الذات بل كانت من لوازم الذات لم يلزم منها محال ، واذا كان كذلك فذاته مؤثرة فى تلك الصور وقابلة لها ومن كان ذلك مذهبا له كيف يمكنه انكار الصفات • قال وبالجملة فلا فرق بين الصفاتية وبين الفلاسفة الا أن الصفاتية يقولون الصفات قائمة بالذات والفلاسفة يقولون هذه الصور العقلية عوارض مقومة بالذات • فالذى يسميه الصفاتية صفة يسميه الفلسفى عارضا والذى يسميه الصفاتى قياما يسميه الفلسفى

قواما أو مقوما ، فلا فرق الا فى العبارة • وقد عارضه شيخ الاسلام فى بعض مقالته وغض من بعض أدلته فمما اعترض عليه ما ذكره من اتفاق الفلاسفة على أن الله تعالى عالم بالكليات قال هو اتفاق ابن سينا وأمثاله بخلاف ارسطو وأتباعه • وكذلك ما ذكره من قولهم باثبات صور المعلومات لذاته وانها عارضة لذاته وهو قول ابن سينا وموافقيه صرح بذلك فى الاشارات وهو مما اعترف الفلاسفة بتناقض ابن سينا وأمثاله بذلك فى مسئلة توحيدهم ونفى الصفات حيث قالوا بنفى الصفات الثبوتية مطلقا ثم قالوا باثبات صور وجودية علمية قائمة بذاته وهو تصريح باثبات الامور الوجودية القائمة بذاته • ثم ان شيخ الاسلام بعد ما أفسد كلام الفلاسفة وبرهن على افساده قال : ثم ان نظار المسلمين ردوا عليهم أما الصفاتية فانهم يلتزمون اثبات الصفات وأما المعتزلة وان نفوا الصفات فانهم يعترفون بما يستلزم اثباتها فانهم يثبتون كونه حيا عالما قادرا وهذا بعينه يستلزم اثبات الصفات • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : منشأ الضلال فى هذا الموضع ان مسمى واجب الوجود عبروا به عن عدة معان أحدها الذى يكون موجودا بنفسه لا يفتقر الى مبدع وهذ اهو الذى يدل عليه وجود الممكنات ، والثانى الذى لا يكون له تعلق بغيره ولا ملازمة بينه وبين غيره ونفى الصفات انما يكون على هذا التفسير لا على المعنى الاول • ثم بعد كلام كثير لابن تيمية روح الله روحه يرد به على الفلاسفة والمعتزلة وأضرابهم قال : ومن المعلوم لكل من عرف ما جاءت به الرسل فان التوحيد الذى أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه لم يتضمن نفى صفات الله بل الكتب الالهية مملوءة باثبات صفات الله تعالى : قال وكذلك العقل الصريح هو موافق لما جاءت به الكتب الالهية من اثبات صفات الكمال لله تعالى ، وقول هؤلاء بامتناع اثبات واجبين أو الهين قديمين لفظ فيه اجمال وابهام فان أريد بذلك نفى الهين واجبين أو الهين قديمين فهذا حق لا ينازع فيه مسلم ، وكذلك أن عنوا نفي موجودين قائمين بأنفسهما واجبين أو قديمين فهذا حق ، فهم وان كان هذا بعض مرادهم فلم يقتصروا عليه بل أرادوا نفى صفات الله الواجبة القديمة كعلمه وقدرته وحينئذ فنفى واجبين قديمين بهذا الاعتبار باطل ، وهم قد يقولون

لو كانت الصفة ثابتة لكانت مشاركة فى أخص صفاته فتكون الصفة الها ويدعون أن من أثبت الصفات فقد قال قول النصارى كما حكاه سيدنا الامام احمد وغيره من أئمة السنة عنهم وهو موجود فى كلامهم وهذا باطل،ومن المعلوم أن صفة الموصوف المحدث الممكن اذا وافقته فى كونها محدثة ممكنة لم يلزم أن تكون مماثلة له فليست صفة النبى نبيا ولا صفة الانسان انسانا فكيف يجب أن تكون صفة الاله الهابل هو سبحانه اله واحد مختص بما لا يماثله فيه غيره من صفات الكمال منزه عن صفات النقص مطلقا وعن أن يكون له كفء فى شيء من صفات الكمال • قال شيخ الاسلام ومعرفة هذا من أهم الامور فان نفاة الصفات أدخلوا ذلك فى مسمى التوحيد وجعلوا هذا من مسمى التوحيد فلبسوا بذلك على كثير من الناس اذ كان مسمى التوحيد فى غاية العظمة عند أهل الملل فاذا ظن من لم يعرف حقائق الامور ان ما ذكروه من النفى المستلزم للتعطيل هو من التوحيد الذى بعث الله به الرسول انقلب دين الاسلام فى نفسه فجعل ما هو داخل فى التعطيل الذى ذم الله به فرعون وغيره من الكافرين هو من التوحيد الذى بعث الله به المرسلين • ولهذا كان علماء الحديث يصنفون الكتب فى التوحيد يذكرون اثبات ما أثبته الله ورسوله من الاسماء والصفات مناقضة لهؤلاء النفاة فان منفى الصفات لم يكن الا معدوما فان اثبات ذات بلا صفات أو وجود مطلق لا يتعين انما يتحقق فى الاذهان لا فى الاعيان فمن لم يثبت لله الصفات لم يحقق عبادته له فلهذا وغيره كان الشرك بعبادة غير الله واقعا فى نفاة الصفات

أدلة عقلية على ثبوت العلم لله سبحانه

(تنبيه) ذكر شيخ الاسلام ابن تبمية وغيره من علماء الكلام أدلة عقلية على اثبات صفة العلم لله تعالى منها ايجاده سبحانه وتعالى الاشياء لاستحالة ايجاده الاشياء مع الجهل ، قال شيخ الاسلام هذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم والقرآن قد دل عليه كما فى قوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) قال والفلاسفة أيضا سلكوه ، وبيانه من وجوه (أحدها) ان ايجاده الأشياء هو بارادته والارادة تستلزم تصور المراد وهو العلم فكان الايجاد مستلزما للارادة والارادة مستلزمة للعلم فالايجاد

مستلزم للعلم (الثانى) ان المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان مايستلزم علم الفاعل بها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم • قال وبهذين الطريقين يتقرر ما ذكره - أى الاصفهانى فى عقيدته • قال شيخ الاسلام ولهم طرق أخرى منها أن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق اذ كل كمال فيه فهو منه فيجب أن يكون الخالق عالما • قال وهذا له طريقان احداهما أن يقال يعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وان الواجب أكمل من الممكن، ويعلم بالضرورة انا اذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الواجب عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع • الثانى أن يقال كل علم فى الممكنات التى هى المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به والله سبحانه له المثل الأعلى لا يستوى هو والمخلوق فى قياس شمول ولا فى قياس تمثيل بل كلما ثبت لمخلوق من كمال فالخالق تعالى أحق به ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى • وقال شيخ الاسلام فى موضع آخر : ولهذا كان المستعمل فى الكتاب والسنة وكلام السلف فى حقه تعالى هو القياس الاولى مثل أن يعلم أن ماثبت لغيره من كمال مطلق لا نقص فيه فهو أحق بأن يثبت له من ذلك الكمال ما هو أحق به مما سواه فاذا كان الحياة والعلم والقدرة كمالا لا نقص فيه وقد اتصف به المخلوق فالخالق تعالى أحق أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة • وما ينزه عنه غيره من العيوب فهو سبحانه أحق بتنزيهه عنه كما فى قوله تعالى (ولله المثل الاعلى) انتهى ملخصا • ودليل ثبوت صفة العلم لله تعالى سمعا من الكتاب والسنة كثير جدا كقوله تعالى « عالم الغيب والشهادة - لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون - اليه يرد علم الساعة - ولا يحيطون بشىء من علمه - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» ومالا يحصى من الآيات الا بكلفة ، وفى حديث أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: سبق علم الله فى خلقه فهم صائرون اليه • وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله • الى غير ذلك من الآيات

والاخبار والله ولى الاسرار

الصفة السابعة القدرة

(السابعة) ما أشار اليها بقوله ((واقتدر)) جل شأنه على ايجاد الموجودات وخلق الممكنات ((بقدرة)) وهى صفة أزلية تؤثر فى المقدورات عند تعلقها بها فانه جل شأنه قادر على جميع الممكنات باتفاق المتكلمين وكذا الحكماء لكن القدرة عند المتكلمين عبارة عن صحة الفعل والترك ، وعند الحكماء عبارة عن كونه ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل • ومقدمة الشرطية الاولى بالنسبة الى وجود العالم دائم الوقوع ومقدمة الشرطية الثانية بالنسبة الى وجود العالم دائم ان لا وقوع ، وصدق الشرطية لا يستلزم صدق طرفيها ، ولا ينافى كذبهما ، ودوام الفعل وامتناع الترك بسبب الغير لا ينافى الاختيار ، كما أن العاقل ما دام عاقلا يغمض عينه كلما قرب ابرة من عينه بقصد الغمز فيها من غير تخلف مع أنه يغمضها بالاختيار ، وامتناع ترك الاغماض بسبب كونه عالما بضرر الترك لا ينافى الاختيار ، فما ظنك بمن يكون علمه عين ذاته ، كل هذا على رأى الحكماء القائلين أن المقتضى لقدرته هو الذات والمصحح للمقدورية هو الامكان فاذا ثبتت قدرته على البعض ثبتت على الكل لأن العجز عن البعض نقص وهو على الله تعالى محال مع أن النصوص قاطعة بعموم القدرة كقوله تعالى (وهو على كل شىء قدير) قال الاصفهانى فى عقيدته : الدليل على قدرته ايجاده الاشياء وهو اما بالذات وهو محال والا لكان العالم وكل مخلوقاته قديما وهو باطل ، فتعين أن يكون فاعلا بالاختيار وهو المطلوب • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : قد يقال هذا انما أثبت به كونه فاعلا بالاختيار يثبت الارادة لا يثبت القدرة • ثم قال فى اثبات القدرة : وتقرير ذلك أن يقال : اما أن يكون المبدع للأشياء مجرد ذات عرية عن الصفات مستلزمة وجود المفعول كما يقوله المتفلسفة القائلون بقدم الافلاك وصدورها عن ذات مجردة، واما أن تكون ذاتا موصوفة بصفات لا يجب معها وجود المخلوقات كما عليه أهل الملل ، والاول باطل لأنه يستلزم أن لا يحدث فى العالم شىء لأن العلة التامة القديمة يجب أن تستلزم معلولها فلا يتأخر شىء من معلولها لأنها عن الازل وهو خلاف الحس والمشاهدة وهذا الوجه يبطل قولهم بالموجب

بالذات وتقدم شيء بعينه من أجزاء العالم ، وسواء فسروا الموجب بذات مجردة مستلزمة للموجب ، أو بذات موصوفة مستلزمة للموجب ، فان القول بكون المبدع ملزوما لموجبه ومقتضاه مع تأخر بعض ذلك عن الازل جمع بين النقيضين • الى أن قال : فالصفة التي يصلح بها الفعل هى القدرة، أو يقال : فاذا لم يكن موجبا بذاته بل بصفة تعين أن يكون مختارا فانه اما موجب بالذات واما فاعل مختار بالاختيار ، والمختار انما يفعل بالقدرة اذ القادر هو الذى ان شاء فعل وان شاء لم يفعل فأما من يستلزمه المفعول بدون ارادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم بمنزلة الذى تستلزمه الحركات الطبيعية الذى لا قدرة له على فعلها ولا تركها • وحقيقة الامر أن العلم بكون الفاعل قادرا علم ضرورى • الى أن قال : صفة الحي تسمى قدرة واذا كانت أكمل من غيرها سميت قوة قال تعالى (وقالوا من أشد منا قوة * أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وقد ذكر قوله (أشد منهم قوة) فى غير موضع وقال تعالى (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ثم قال : والذى دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الامة وأئمتها ان الله يخلق الأشياء بالأسباب ، فالقوى التى جعلها الله فى الحيوان والجماد هى من الاسباب التى بها يحدث الحوادث • قال : ومذهب السلف والائمة ان الله خالق كل شيء بمشيئته وقدرته ، وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، فقدرته ومشيئته تستلزم وجود المقدور ، ولفظ الاختيار فى القرآن والسنة وكلام السلف يتضمن تفضيل المختار على غيره قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) - ثم قال - (ماكان لهم الخيرة) فذكر الاختيار بعد المشيئة وقد صار لفظ الاختيار يعبر به عن الارادة بناء على أن العالم لا يريد الا ما هو خير من غيره أو بناء على أن الحى لا يريد الا ما يراه خيرا من غيره وان كان قد يغلط فى اعتقاده أنه خير من غيره ، والمقصود أن السلف والائمة وجمهور الامة يثبتون فى المخلوقات قوى وقدرة تصدر الحوادث عنها فاثبات القدرة لله تعالى وقدرته على الفعل من أبين الأشياء عندهم ، والعلم بذلك من أظهر المعارف وأجلاها ، فانه قد استقر فى فطرهم أن الفاعل لا يكون الا قادرا ، وأن القدرة صفة كمال ، فاذا كان المخلوق قويا قادرا

على ما يفعله فالخالق تعالى أولى أن يكون قادرا قويا على ما يفعله • ومن المستقر فى الفطر أيضا أنه ذا فرض الفاعل غير قادر على الفعل امتنع كونه فاعلا ولهذا كان من نفى أن يكون للعبد قدرة مؤثرة كجهم بن صفوان وأبى الحسن الأشعرى ومن اتبعهما لا يسمون العبد فاعلا بل يقولون هو كاسب ، وجهم نفسه كان يقول : ليس بقادر كما أنه ليس بفاعل • وعند الأشعرية انه ليس بفاعل حقيقة بل هو كاسب وانه ليس له قدرة مؤثرة فى المقدور ، ومذهب أئمة السلف وعلماء السنة أن الله تعالى خالق لأفعال العباد مع قولهم أن العبد فاعل قادر يفعل بمشيئته وأن الله تعالى خالق ذلك كله وانه تعالى اذا خلق للعبد قدرة تامة ومشيئة جازمة كان هذا مستلزما لخلق المراد المقدور • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : مذهب السلف وجمهور المسلمين الذى يثبتون القدر يقولون ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وأن العبد فاعل قادر مختار والله تعالى خالق فعله وقدرته ومشيئته كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فاذا حقق العبد هذا المقام زالت الاشكالات كلها ويظهر حينئذ انه لا منافاة بين (ذلك وبين -١) أن يكون الرب قادرا مختارا ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فهو موجب بمشيئته وقدرته ماشاءه من المقدورات فما شاءه وجب وجوده ومالم يشأ امتنع وجوده فهو موجب بذاته الموصوفة بالمشيئة والقدرة وكل ماشاءه فهو محدث كائن بعد أن لم يكن ليس معه شيء قديم يقدمه فاذا علم هذا وانضم الى ماقاله السلف وجمهور أئمة السنة أنه تعالى يخلق الأشياء بالأسباب وأنه يخلق بحكمة علم بأنه تعالى قادر مختار • ولكثرة فروع هذه المسئلة وما يتفرع عليها وكثرة لوازمها قال جلال الدين الدوانى فى شرح العقائد العضدية: الاولى فى اثبات هذا المطلب بل سائر المطالب التى يتوقف ارسال الرسول عليها أن يتمسك فيها بالدلائل السمعية فيستدل على شمول القدرة بقوله تعالى (ان الله على كل شيء قدير) وعلى شمول العلم بقوله تعالى (والله بكل شيء عليم) وأمثال ذلك

ولما فرغ من تعداد السبع صفات التى يثبتها المتكلمة الصفاتية وغيرهم شرع فى ذكر مالها من المتعلقات وتقدم أن الحياة لا تتعلق بشيء فقال

---

(١) من مخ

متعلق القدرة

((تعلقت)) قدرة الله تعالى الأزلية القديمة الذاتية ((ب)) كل ((ممكن)) وقد علمت أن الممكن ما ليس بواجب الوجود ولا مستحيل الوقوع ، ولم يوجد شيء ولن يوجد شيء الا بها وقد نص سيدنا الامام احمد رضى الله عنه أنه تعالى قادر بقدرة قديمة وقوة شديدة ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح العقيدة الاصفهانية : الممتنع لذاته ليس بشيء فى الخارج باتفاق العقــلاء لامتناع أن يكون له فى الخارج وجود أو ثبوت عند من يفرق بين الوجود والثبوت فهو سبحانه قادر على كل شيء وأحد الضدين على سبيل البدل وأما وجودهما معا فليس بشيء بل هو ممتنع لذاته ، وكذلك وجودالملزوم بدون لوازمه التى يمتنع وجوده بدونها هو من هذا الباب كوجود الولد قبل والده مع كونه قد ولده ووجود الصفات بدون ذات تقوم بهاونحوذلك . قال ومن فهم هذا الامر انحلت عنه الاشكالات التى تورد على قدرة الله تعالى وحكمته ومشيئته فى مسائل القدر وغيرها وتبين له أن خير الكلام كلام الله وانه سبحانه بين فيه الامور الالهية والمطالب العلية أحسن بيان وأكمله حيث يبين قدرته على أشياء لم يفعلها كقوله (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (ولو شاء الله ما اقتتلوا) ونحو ذلك مع أنه تعالى لم يفعل مقدوره وتبين أن خلاف المعلوم مقدور ممكن باعتبار نفسه لكنه لا يكون ، لعدم مشيئته له وهو لا يشاؤه لما فى ذلك من فوات حكمته التى يمتنـــع اجتماعها مع وجود هذا المفروض والله أعلم . وفهم من النظم أن القدرة لا تتعلق بواجب ولا مستحيل فليسا من متعلقاتها ، ولا عجب فى ذلك لانها لو تعلقت بهما لزم انقلابهما جائزين ولزم صحة تعلقها باعدام محلها ، قال بعض الاشاعرة والاولى الاستدلال بالنصوص الدالة على شمول قدرته تعالى اجمالا مثل (والله على كل شيء قدير) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وتفصيلا مثل (خلق الله السموات والارض وجعل الظلمات والنور) (خلق الموت والحياة)

تنبيهـــــان

قــول بعضهم للقدرة تعلقان

« الاول » صحح بعض متأخرى الاشعرية ان للقدرة الازليـــة تعلقين صلوحيا وهو التعلق الأزلى بمعنى انها فى الازل صالحة للايجاد والاعدام

على وفق تعلق الارادة الازلية بهما فيما لا يزال ، وتعلقا تنجيزيا وهو التعلق الحادث المقارن لتعلق الارادة بالحدوث الحالى . وظاهر كلام علمائنا بل وكلام الامام أحمد أن تعلق القدرة بالممكن تعلق واحد مغيا بغاية محدودة من الزمان يوجد فى ذلك الزمان المخصص بالارادة القديمة الازلية والله أعلم .

الطوائف المنكرة شمول القدرة

« الثانى » من طوائف الضلال القائلين بعدم شمول القدرة الازلية لجميع الممكنات المجوس قالوا انه تعالى لا يقدر على الشرور ولا خلق الاجسام المؤذية وانما القادر على ذلك فاعل آخر يسمى « أهرمن » ومنهم النظام وأتباعه من المعتزلة قالوا انه تعالى لا يقدر على خلق الجهل والكذب والظلم وسائر القبائح . ومنهم عباد الضمرى وأتباعه قالوا أنه تعالى لا يقدر على ما علم انه لا يقع ولا ما علم انه يقع لاستحالة الاول ووجوب الثانى . ومنهم الكعبى واتباعه قالوا انه لا يقدر على مثل مقدور العبد . ومنهم الجبائى وأتباعه قالوا انه تعالى لا يقدر على نفس مقدور العبد . قال العلامة الشيخ مرعى روح الله روحه فى كتابه (رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر) . مذهب أهل الحق ان الرب سبحانه متفرد بخلق المخلوقات فلا خالق سواه ولا مبدع غيره وكل حادث فانه محدثه ، وقالت المعتزلة ان جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأعمالهم لم يخلقها الله تعالى ، ثم اختلفوا فقالت طائفة خلقها الذين فعلوها دون الله تعالى ، وقال آخرون ليست مخلوقة ولكنها أفعال موجودة لا خالق لها ، وقال آخرون هى فعل الطبيعة ، فالذين زعموا ان العباد خلقوها قالوا ان وقوع الافعال من العبد على وفق قصده وداعيته اقداما واحجاما دليل على انه موجدها ومخترعها ، قالوا ولولا ذلك لكانت التكاليف كلها واقعة على خلاف الاستطاعة وتكليفا بالمحال وكان لا يحسن مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب وهو خلاف مقتضى العقل والشرع والعرف . ونقل عن الامامية هل أفعال العباد خلق لهم أو خلق لله ؟ على قولين ، ونقل أبو الحسن الاشعرى عن الزيدية انهم فرقتان فرقة تزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله خلقها وأبدعها ، وفرقة تزعم انها مخلوقة لله تعالى وانها كسب للعباد أحدثوها

متعلق الارادة

واخترعوها وفعلوها • وتأتى لهذا تتمة فى بحث القدر ان شاء الله تعالى •
ولما كانت الارادة تتعلق بما تعلقت به القدرة من جميـــع الممكنات قال ((كذا)) أى مثل القدرة فى التعلق بالممكنات ((ارادة)) وانها أيضا ارادة واحدة كما مر وان القدرة والارادة غير متناهيتى المتعلقات كما قاله المتكلمون الا أن تعلق القدرة بالممكنات تعلق ايجاد او اعدام ، وتعلق الارادة بهـا تعلق تخصيص كما تقدم • والاولى التعويل فى ثبوت عموم تعلق الارادة على الادلة السمعية مثل قوله تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) فان قيل يلزم من عموم تعلق الارادة نفيها للزوم المحال وهو أن نسبة الارادة الى الفعل والترك والى جميع الاوقات على السواء اذ لو لم يجز تعلقها بالطرف الآخر وفى الوقت الآخر لزوم نفى القدرة والاختيـار واذا كانت على السواء فتعلقها بالفعل مثلا دون الترك وفى هذا الوقت دون غيره مفتقر الى مرجح ومخصص لامتناع وقوع الممكن بلا مرجح على رأى المتكلمين • فالجواب أن الارادة تتعلق بالمراد لذاتها من غير افتقار الى مرجح آخر لانها صفة شأنها التخصيص والترجيح للمساوى والمرجوح • فان قيل فمع تعلق الارادة لا يبقى التمكن من الترك وينتفى الاختيار • فالجواب انه قد تقرر أن الوجوب بالاختيار محقق الاختيار ، ثم انا نقول قد تقدم ما يرد مثل هذه الشبه فى كلام شيخ الاسلام ، ومن المعلوم أن تعلق القـــدرة والارادة بالممكنات بالنسبة الى الذات ، وأما بعد التعلق والتخصيص فقد وقع ما وقع وامتنع ما امتنع • وقال بعض محققى الاشـــاعرة الارادة تخصص ما تعلقت به وترجحه وعند وقوع المراد يزول تعلقها الحادث مع بقائها يعنى القدرة بحالها وبقاء تعلقها الصلوحى بحاله أيضا ، قال وللارادة أيضـــا تعلقان أزلى صلوحى وحادث تنجيزى كما للقدرة سواء • وتقدم ما فيــه والله أعلم •

« تنبيهـــان »

التعلقات الثانية للقدرة والارادة

« الاول » التعلقات الثانية للقدرة والارادة يعنى التنجيزية مترتبة، فتعلق القدرة تابع لتعلق الارادة وتعلق الارادة تابع لتعلق العلم، فلا يوجد أويعدم سبحانه من الممكنات عندنا الا ما أراد ايجاده واعدامه منها ولا يريد الا ما

عدم فما علم منها انه يكون اراده ، وما علم انه لا يكون لم يرده • وقالت المعتزلة الارادة تابعة للامر لا للعلم فلا يريد عندهم الا ما أمر به من الايمان والطاعة سواء وقع ذلك أم لا • فعندنا ايمان أبي جهل مأمور به غير مراد له تعالى لعلمه سبحانه عدم وقوعه ، وكفر أبي لهب منهى عنه وهو واقع بارادة الله تعالى وقدرته ، وعند المعتزلة ايمانه مراد له مأمور به وكفره غير مراد له لنهيه عنه •

قدرة العبد على ما علم الله انه لا يكون

« الثاني » قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه الذي كتبه على حسن ارادة الله تعالى : وكذلك تنازعهم في العبد هل هو قادر على خلاف المعلوم؟ قال فان أريد بالقدرة القدرة الشرعية التي هي مناط الامر والنهى كالاستطاعة المذكورة في قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الاعتبار وان علم انه لا يطيعه ، وان أريد بالقدرة القدرة التي لا تكون الامقازنة للمفعول فمن علم الله أنه لا يفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له • قال ومن هذا الباب تنازع الناس في الامر والارادة هل الله تعالى يأمر بما لا يريد أولا يأمر الا بما يريد ؟ قال فان الارادة لفظ فيه اجمال يراد بالارادة الارادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكقوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) وقول نوح عليه السلام : (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) • فلا ريب أن الله تعالى يأمر العباد بما لا يريده بهذا التفسير والمعنى كما قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه تعالى أمر كل نفس بهداها • قال شيخ الاسلام : وأما الارادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضى فهي ملازمة للامر كقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) • وكقول (بعض - ١) المسلمين هذا يفعل شيئا لا يريده الله اذا كان يفعل بعض الفواحش أي الله لا يحبه ولا يرضاه بل ينهى عنه ويكرهه • ثم

---

(١) من مخ

قال اعلم أن التأثير اذا فسر بوجود شرط (الحادث أو بسبب - ١) يتوقف حدوث الحادث به (٢) على سبب آخر وانتفاء موانع وكل ذلك بخلق الله تعالى فهذا حق ، وتأثير قدرة العبد فى مقدورها ثابت بهذا الاعتبار ، وان فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالاثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شىء من المخلوقات مؤثرا بل الله وحده خالق كل شىء فلا شريك له ولا ندله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) الآية • ولماكان هذا المقام مشتملا على هذا الغموض والنزاع مما ذكرناه واضعاف اضعافه مما لم نذكره حسن قوله فى تتمة البيت ((فعى)) من وعاه يعيه حفظه وجمعه كاوعاه أى اجمع حواشى هذا الكلام واحفظ مضمون هذا النظام ((واستبن)) أى اطلب البيان من مظانه والايضاح من مكامنه فان قدرته تعالى القديمة وارادته الازلية الذاتية العظيمة كل منها انما يتعلق بالممكن الجائز كما فى التفصيل دون الواجب والمستحيل والله الموفق لسواء السبيل •

متعلق العلم والكلام

((والعلم)) أى علم الله تعالى ((والكلام)) أى كلامه سبحانه وتعالى أى كل واحد منهما قديم فعلمه تعالى واحد وجودى قديم باق ذاتى وكلامه تعالى قديم وجودى ذاتى ((قد تعلقا)) أى علم الله وكلامه أى كل واحد منهما قد تعلق ((بكل شىء)) من الاشياء من الجائزات والواجبات والمستحيلات فيجب شرعا أن يعلم أن علم الله غير متناه من حيث تعلقه اما بمعنى انه لا يقطع وهو واضح واما بمعنى انه لا يصير بحيث لا يتعلق بالمعلوم فانه يحيط بما هو غير متناه كالاعداد والاشكال ونعيم الجنة ، فهو شامل لجميع المتصورات سواء كانت واجبة كذاته وصفاته أو مستحيلة كشريك له تعالى أو ممكنة كالعالم بأسره الجزئيات من ذلك والكليات على ما هى عليه من جميع ذلك ، وانه واحد لا تعدد فيه ولا تكثر وان تعددت معلوماته

---

(١) ليس فى مخ (٢) زاد فى مخ « أو بسبب »

وتكثرت ، أما وجوب عموم تعلقه سمعا فمثل قوله تعالى : « والله بكل شيء عليم - عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض - يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور - يعلم ما يسرون وما يعلنون » الى غير ذلك من الآيات القرآنية • وأما وجوب ذلك عقلا فلأن المقتضى للعالمية هو الذات اما بواسطة المعنى الذى هو العلم على ما هو مذهب الصفاتية والسلف وهو الحق أو بدونها على ما هو رأى النفاة ، والمقتضى للمعلومية امكانها ، ونسبة الذات الى الكل على السواء ، فلو اختصت عالميته بالبعض دون البعض لكان ذلك بمخصص وهو محال لامتناع احتياج الواجب فى صفاته وسائر كمالاته الى التخصيص لمنافاته لوجوب الوجود والغنى المطلق • وأما وجوب وحدته فلأن الناس جملة وتفصيلا انحصروا فى فريقين أحدهما أثبت العلم القديم مع وحدته ، والآخر نفاه ، ولم يذهب الى تعدد علوم قديمة أحد يعتمد عليه الا أبو سهل الصعلوكى من الاشاعرة حيث قال ان لله علوما لا نهاية لها كما ان متعلقاتها كذلك • وهو محجوج بالاجماع السابق لمقالته • فان قيل كيف يستقيم القول بوحدة العلم مع كونه تعالى عالما بما كان وبما سيكون وبالكائن والعلم بذلك كذلك متغاير • فالجواب ان البارى جل شأنه فى أزله يتعلق علمه بوجود الشيء مضافا الى محله المعين فالمضى والحال والاستقبال من عوارض الاخبار عن تعلق علمه تعالى لا ظروف للعلم لانه ليس بزمانى حتى يوصف بالماضى والحاضر والمستقبل • ومنشأ الشبهة من حيث الاخبار عن ذلك التعلق المخصوص بالقول اللفظى فان تقدم زمن الاخبار عنه على زمن وجود ذلك الفعل سمى الاخبار مستقبلا وان تأخر سمى ماضيا وان قارن سمى حالا وهى مسميات تعرض باعتبار الاخبار عنه • أما تعلق العلم بوجوده فى الزمان المعين فشيء واحد • وبعض الاشاعرة جعل للعلم تعلقين أزلى وتنجيزى كالقدرة والارادة ، قال وتكون تلك الاخبارات راجعة للتعلق التنجيزى • قلت ومذهب السلف بمعزل عما يراد من هذا فان الله تعالى قديم وصفاته قديمة وأفعاله قديمة (١) ومايتخيل للعقل من أنواع التغيرات والتخالفات نسب واضافات بالنسبة لادراكاتنا والله تعالى الموفق •

---

(١) تقدم ما فيه فى التعليق على ص ١١٢

« تنبيهـــــات »

انكار الفلاسفة علم الله تعـالى بالجزئيات

« الاول » زعمت الفلاسفة انه تعالى لا يعلم الجزئيات من حيث كونهـا جزئيات زمانية يلحقها التغير قالوا لان تغير المعلوم يستلزم تغير العلم وذلك يستلزم تغير الذات وهو محال على الله تعالى ، بيان لزوم ذلك انه لو كان عالما بأن زيدا جالس فى المكان الفلانى فعند خروج زيد منه فاما أن يبقى ذلك العلم أو لا ، فان بقى لزم الجهل وان كان الثانى لزم التغير فى علمه وهو قائم به فيلزم قيام الحوادث به وهو محال • والجواب اختيار الثـــانى ومنع التغير فى نفس العلم فان المتغير تعلقه لا نفسه (١) وتغاير الاضافات والنسب جائز • وأجاب الفلاسفة عن هذا مشايخ السنة ومشايخ لمعتزلة بان علم البارى بأن الشىء سيوجد نفس العلم بأنه وجد فان من علم أن زيدا سيدخل البلد غدا فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم أنه دخـل البلد الآن وانما يحتاج أحدنا لعلم آخر لطريان الغفلة عن الاول والبارى منزه عن ذلك فلا يلزم من علمه بالجزئيات تغير أصلا فى علمه تعالى • وهذه احدى ما كفر أهل الاسلام الفلاسفة بها • ولهم من أمثالها الطامات المعضلات فلا يهولنك ما ينسب اليهم من المعارف ودقائق الافكار فما منهم الا المخالف أو على شفا جرف هار •

فرق المخالفين فى شمول العلم

« الثانى » خالف فى احاطة علمه تعالى بســـائر الاشياء فرق ســـوى الفلاسفة فقالت فرقة بأنه تعالى لا يعلم نفسه واحتجوا بأن العلم نســـبة عارضة للعالم بالنسبة الى المعلوم ، قالت والنسبة انما تتحقق بين المتغايرين فلا تتحقق عند عدم المغايرة • والجواب عنه بأنه صفة لا نسبة بل صفة ذات، وأيضا ينتقض ما زعموه بعلمنا فان كل واحد منا يعلم نفسه ضرورة مـع عدم المغايرة « الثانية » زعمت بأنه تعالى وتقدس لا يعلم شيئا قالوا لانه لو علم شيئا علم علمه به وهو انما يكون بعد علمه بذاته ضرورة ، قالوا وقـد علم امتناع علمه بذاته كما زعمت الفرقة الاولى ، وأيضا لو كان يعلم شيئا أمكن أن يعلم علمه به والا يلزم أن يكون واحدا عالما بالعلوم الهندسيات ولم يمكنه العلم بأنه عالم بها • وهذا يعلم فساده بنفس تصوره فلا يشتغل

---

(١) فى الاصلين « نفيه » كذا

برده لانه هذيان من قائليه « الثالثة » زعمت بانه لا يعلم غيره لان العلم بشيء غير العلم بآخر فلو كان عالما بالغير وغيره غير متناه يلزم قيام العلوم الغير المتناهية بذاته وهو يوجب الكثرة في الذات وهو محال • والجواب أن الكثرة في المعلومات والتعلقات دون العلم وهذا بين « الرابعة » زعمت انه تعالى لا يعلم الشيء الغير المتناهي لان كل معلوم متميز عند العالم عن غيره وتميز غير المتناهي عن الغير انما يكون بأن يحيط به حد وغاية يكون الغير خارجا عنه ومتميزا وغير المتناهي لا يكون له حد وغاية والا يكون متناهيا • والجواب أن المعقول (؟) كل واحد واحد من غير تناه وهو متميز وما هو غير متميز انما هو الكل من حيث هو غير متناه وهو لا يقدح في المطلوب لان المطلوب علمه بغير المتناهي وهو حاصل عند العلم بكل واحد واحد «الخامسة» زعمت انه تعالى لا يعلم الاشياء كلها وقالت والالزم من علمه بشيء علمه بالعلم بذلك الشيء وهلم جرا فيلزم التسلسل • والجواب ان هذا التسلسل في الاضافات والنسب وهو غير محال وبالله التوفيق •

معنى تعلق علمه تعالى بالمستحيل

« التنبيه الثالث » معنى تعلق علمه تعالى بالمستحيل علمه تعالى باستحالته وانه لو تصور متصور وقوعه لزمه من الفساد كذا على ما أشار اليه بعض السلف بقوله : علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن ان لو كان كيف كان يكون • وبهذا تميز عن علمنا بالمستحيل •

لا محو في علمه تعالى ولا تغيير وانما المحو في صحف الملائكة

« الرابع » قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ان علم الله السابق محيط بالاشياء على ما هي عليه ولا محو فيه ولا تغيير ولا زيادة ولا نقص فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون • قال وأما ماجرى به القلم في اللوح المحفوظ فهل يكون فيه محو واثبات ؟ على قولين للعلماء • قال وأما الصحف التي بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والاثبات • انتهى • ومثل العلم في تعلقه بالواجب والجائز والمستحيل صفة الكلام فانه يتعلق بكل شيء من الثلاثة يعني الواجب والممكن والمستحيل

معنى الخلة

((يا خليلي)) أي يا صديقي ومحبي مشتق من الخلة وهي توحيد المحبة فالخليل هو الذي يوحد حبه لمحبوبه وهي رتبة لا تقبل المشاركة ولهذا اختص بها الخليلان ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم • قال الامام

المحقق ابن القيم فى كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) : انما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى   وبذا سمى الخليل خليلا

متعلق السمع والبصر

قال والخليل الصديق والانثى خليلة والخلالة مثلثة الصداقة والمودة ((مطلقا)) عن التقييد بواحد من الثلاثة بل يعمها جميعها ((وسمعه سبحانه)) وتعالى ((كالبصر)) منه جل شأنه فسمعه تعالى يتعلق ((بكل)) **شىء** ((مسموع و)) بصره سبحانه وتعالى يتعلق بـ ((كل)) **شىء((مبصر))فهو** تعالى سميع بصير كما تقدم يسمع ويبصر بسمع وبصر قديمين ذاتيين وجوديين متعلقين بكل مسموع ومبصر كما ذكره علماؤنا وأسندوه الى نص الامام احمد رضى الله عنه يعنى أن هاتين الصفتين متحديا المتعلق (١) فتعلقان بالموجود واجبا كان أو ممكنا عينا كان أو معنى كليا كان أو جزئيا مجردا كان أو ذا مادة مركبا أو بسيطاولايلزم من اتحاد الصفة اتحاد المتعلق (١) فالبصر يتعلق بجميع المبصرات والسمع يتعلق بسائر الاصوات وتقدم الكلام عليهما والله أعلم .

« فصل فى مبحث القرآن العظيم والكلام المنزل القديم (٢) »

فصل فى مبحث القرآن

اعلم رحمك الله أن الناس اختلفوا فى هذا الكتاب المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم ما نزل قطر وهطل ، فمذهب السلف الصالح وأئمة أهل الاثر هو ما أشير اليه بقوله ((وان)) أى نجزم ونتحقق فهو معطوف على قوله بأنه واحد البيت وما بعده فالواجب اعتقاده والملزوم اعتماده بأن ((ما)) أى الوحى والكلام الذى ((جاء)) من الله ((مع جبريل)) الملك المكرم أمين الله على وحيه لأنبيائه ورسله وفيه لغات عديدة منها جبرائيل (وجبرئيل) كجبرعيل وكحزقيل كما فى النظم وجبرين بنون وغيرها((من محكم القرآن)) العظيم ((و)) محكم ((التنزيل)) الذى أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة أمينه الفضيل الملك المعظم جبريل فهو عطف مرادف ((كلامه سبحانه)) وتعالى ((قديم)) (١) قال الشيخ الامام

---

(١) تأمل (٢) تقدم ما فى هذا فى التعليق على المتن

أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخى الشافعى فى كتابه الذى سماه (الفصول في الاصول) سمعت الامام أبا منصور محمد بن احمد يقول سمعت الامام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفراينى يقول مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر (١) والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعا من الله تعالى ، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة رضى الله عنهم سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم. قال وهو الذى نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا ومقروءا وكل حرف منه كالباء والتاء كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين . انتهى كلامه بحروفه . وقد أخبر الله تعالى بتنزيله وشهد بانزاله على رسوله فقال تعالى : (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) وقال : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال جل شأنه: (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) والمنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم هو هذا الكتاب وقد أمر سبحانه بترتيله فقال : (ورتل القرآن ترتيلا) (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليه وحيه) وقال : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وامر سبحانه بقراءته والاستماع له والانصات اليه وأخبر انه يسمع ويتلى فقال (حتى يسمع كلام الله) وقال (فاقرأوا ما تيسر من القرآن) (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وكل هذا من صفات هذا الموجود عندنا لا من صفات ما فى النفس الذى لا يظهر لحس ولا يدرى ما هو . وأخبر سبحانه ان منه سورا وآيات وكلمات ، قال الامام الموفق فى كتابه « البرهان فى حقيقة القرآن » القرآن كتاب الله العربى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فهو كتاب الله الذى هو هذا الذى هو سور وآيات وحروف وكلمات بغير خلاف قال تعالى : (تلك آيات الكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا) (حم والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا)

---

٢١) مخ « فقد كفر »

والآيات فى هذا كثيرة جدا وكذا الاحاديث النبوية والاخبار الاثرية كقوله صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ـ الحديث وفيه ـ فاتلوه فان الله يؤجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، الا انى لا أقول : الم حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر » وقال صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات ومن قرأه فلحن فيه فله بكل حرف حسنة » حديث صحيح (؟) وأجمع المسلمون على أن القرآن أنزل على محمد وانه معجزة النبى صلى الله عليه وسلم المستمرة الـذى تحدى الله الخلق بالاتيان بمثله فعجزوا ، وأجمعوا على أنه يقرأ ويسمع ويحفظ ويكتب وكل هذه الصفات لا تعلق لها بالكلام النفسى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى قاعدته التى فى بيان ان القرآن كلام الله تعالى ليس شىء منه كلاما لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما قال فى قوله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الى قوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) بيان لنزول جبريل به من الله فان روح القدس هذا جبريل بدليل قوله (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو الروح الامين فى قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عـربى مبين) وفى قوله « الامين » دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيدفيه ولا ينقص منه فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة . وقال فى صـفته فى الآية الاخرى : (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكـين مطاع ثم أمين) وفى قوله : « قل نزله روح القدس ـ منزل من ربك » دلالة على أمور ، منها بطلان قول من يقول انه كلام مخلوق خلقـه فى جسم من الاجسام المخلوقة كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى فى الآخرة جهميا لأن بدعة نفى الاسماء والصفات أول ما ظهرت من جهم فانه بالغ فى نفى ذلك فله فى هذه البدعة مزية المبالغة وكثرة اظهار ذلك والدعوة اليه وان

كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك فانه أول من أحدث ذلك فى الاسلام فضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط يوم النحر فقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم فانه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ـ ثم نزل فذبحه • فالمعتزلة وان وافقوا جهما على بعض ذلك فهم يخالفونه فى مسائل غير ذلك كمسائل الايمان بالقدر وبعض مسائل الصفات ولا يبالغون فى النفى مبالغته فان جهما يقول ان الله لا يتكلم أو يتكلم بطريق المجاز ، وأما المعتزلة فيقولون يتكلم حقيقة لكن قولهم فى المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفى الاسماء كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة بخلاف المعتزلة فلا ينفون الاسماء ، وفى قوله تعالى : « منزل من ربك » دلالة على بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبى صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال أو غيره كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أعظم كفرا من الذى قبله • وفيها دلالة أيضا على بطلان قول من يقول ان القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق اما فى جبريل او محمد او فى جسم آخر كالهواء كما يقول ذلك الكلابية والاشعرية القائلين بأن القرآن العربى ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى اثبات خلق القرآن العربى • قلت ذكر جماعة من محققى الاشعرية كالسعد التفتازانى والجلال الدوانى وشرح جواهر العضد لتلميذه الكرمانى انه لا نزاع بين الاشاعرة وبين المعتزلة فى تسمية الله تعالى متكلما بمعنى انه يوجد الاصوات والحروف فى الغير وهو اللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى صلى الله عليه وسلم وانما النزاع أن المعتزلة لم يثبتوا غير هذه الاصوات والحروف الموجدة فى الغير معنى قائما بذات البارى ، قالوا ونحن ـ يعنى معاشر الاشاعرة ـ نثبته فانهم يقولون كلام الله تعالى معنى قائم بذات البارى تعالى معبر عنه بالعبارات والالفاظ وهو الطلب الذى يجد كل واحد منا عند الامر بالشىء قبل التلفظ بصيغة افعل ، قالوا فهو يغاير العبارات والعلم والارادة ، أما العبارات فلانها تختلف بحسب الازمنة

والاقوام دون المعنى القائم بذاته تعالى ، وأما العلم فلانه تعالى أمر أبا لهب بالايمان وكان عالما بأنه لا يؤمن لان معلومه تعالى واجب الوقوع فلو كان ايمان ابى لهب واقعا فى علمه تعالى لوقع ، ولم يقع ، وأما الارادة فلانه تعالى أمره به ولم يرده ولذلك لم يقع ، قالوا فما قالت المعتزلة على حدوث الكلام لا ينفى قولنا بقدمه ، لان ما قالوا فى حدوثه وجهان معقول ومنقول فالمعقول انه لو كان قديما يلزم تحقق الامر بلا مأمور وهو سفه وعبث وهذا انما يدل على حدوث لفظه لا على حدوث المعنى القائم بذاته لان معنى أمره فى الازل انه تعالى يطلب فى الازل المأمور به من المأمورين عند وجودهم فى اللايزال كطلب الوالد التعلم من ولد سيوجد ولا سفه فى ذلك ولا عبث ، قالوا والمنقول ان القرآن ذكر والذكر محدث • ونقلوا من جنس هذا الكلام ضروبا • والحاصل ان المعتزلة موافقة الاشعرية والاشعرية موافقة المعتزلة فى ان هذا القرآن الذى بين دفتى المصحف مخلوق محدث وانما الخلاف بين الطائفتين ان المعتزلة لم تثبت لله كلاما سوى هذا والاشعرية أثبتت الكلام النفسى القائم بذاته تعالى ، وان المعتزلة يقولون ان المخلوق كلام الله والاشعرية لا يقولون انه كلام الله نعم يسمونه كلام الله مجازا هذا قول جمهور متقدميهم • وقالت طائفة من متأخريهم لفظ الكلام يقال على هذا المنزل الذى نقرؤه ونكتبه فى مصاحفنا وعلى الكلام النفسى بالاشتراك اللفظى • قال شيخ الاسلام ابن تيمية لكن هذا ينقض أصلهم فى ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به وهم مع هذا لا يقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة كما يقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقة بل يجعلون القرآن العربى كلاما لغير الله وهو كلامه حقيقة • قال شيخ الاسلام وهذا شر من قول المعتزلة وهذا حقيقة قول الجهمية ، ومن هذا الوجه فقول المعتزلة أقرب • قال وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة لكن المعتزلة فى المعنى موافقون لهؤلاء وانما ينازعونهم فى اللفظ الثانى اذ هؤلاء يقولون لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية فى الظاهر ، لكن جمهور المحققين من علماء السلف يقولون ان أصحاب هذا القول عند التحقيق

موافقة الاشعرية للمعتزلة

لم يثبتوا كلاما له حقيقة غير المخلوق لانهم يقولون عن الكلام النفسى انه معنى واحد هو الامر والنهى والخبر ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرية كان توراة وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا، وجمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام فانا اذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معناهما معنى القرآن بل معانى هذا ليست معانى هذا وكذلك « قل هو الله أحد » ليس هو معنى « تبت يدا أبى لهب » ولا معنى آية الكرسى آية الدين ، وقالوا اذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحدا فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة ، فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الالزام ليس لهم عنه جواب عقلى ، ثم منهم من قال الناس فى الصفات اما مثبت لها واما ناف لها واما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع ، وممن اعترف بأن ليس له عنه جواب أبو حسن الآمدى وغيره من المحققين والمقصود ان النص القرآنى يبين فساد هذا القول فان قوله : « نزله روح القدس من ربك » يقتضى نزول القرآن من رب العالمين والقرآن اسم لهذا الكتاب العربى لفظه ومعناه بدليل قوله : « فاذا قرأت القرآن » فانه انما يقرأ القرآن العربى لا معانيه المجردة وأيضا فضمير المفعول فى قوله «نزله» عائد الى ما فى قوله تعالى : « والله أعلم بما ينزل » فالذى أنزله الله هو الذى أنزله روح القدس فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله من الله فلا يكون شيء منه نزله من عين من الاعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه وأيضا فانه قال تعالى عقب هذه الآية : (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه وأعجمى وهذا لسان عربى مبين) وهذا ظاهر الدلالة على بطلان زعمهم فقد اشتهر فى التفسير ان بعض الكفار كانوا يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من شخص كان بمكة أعجمى قيل انه كان مولى لابن الحضرمى فاذا كان الكفار جعلوا الذى يعلمه ما نزل به روح القدس بشرا والله جل وعز أبطل ذلك بان لسان ذلك أعجمى وهذا لسان عربى مبين علم ان روح القدس نزل باللسان العربى المبين وأن محمدا لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس

واذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعه منه تبارك وتعالى لم يؤلفه روح القدس وهذا بيان من الله تعالى ان القرآن الذى هو باللسان العربى المبين سمعه روح القدس من الله سبحانه وتعالى ونزل به منه وقد قال تعالى : (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) والكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم ومن وافقهم يفرقون بين كلام الله وكتاب الله ، فيقولون كلامه هو القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه المنظوم المؤلف من الحروف العربى وهو مخلوق ، والقرآن يراد به هذا تارة وهذ تارة • وقد سمى الله تعالى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى : (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) وقال (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) وقال (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الى قوله تعالى (يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) فبين ان الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) والمقصود ان قوله تعالى (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) يتناول نزول القرآن العربى على كل قول وقد أخبر تعالى (ان الذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل انهم يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون الا حقا مطابقا للمعلوم بخلاف القول والظن الذى ينقسم الى حق وباطل فعلم ان القرآن العربى منزل من الله تعالى لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا من محمد عليهما السلام ولا من غيرهما فمن لم يقر بذلك من هذه الامة كان أهل الكتاب خيرا منه من هذا الوجه • فان قلت قد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف فى تفسير قوله تعالى : (انا انزلناه فى ليلة القدر) أنزل الى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث وقد أخبر الله تعالى ان القرآن الكريم مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى : (انه

لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون) وقال تعالى : (كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة) وقوله تعالى : (وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) فالجواب أن كون القرآن العظيم مكتوبا فى اللوح المحفوظ وفى الصحف المطهرة بأيدى الملائكة الكرام لا ينافى أن يكون جبريل نزل به من الله تعالى سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك واذا كان قد أنزله مكتوبا الى بيت العزة جملة واحدة ليلةالقدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله • قاله شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقال والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهوتعالىقدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك فى الكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها فيقابل بينالكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينها تفاوت ، هكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف ، وهو حق فاذا كان ما يخلقه بائنا عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف يستبعد أن يكون كلامه الذى يرسل به ملائكته مكتوبا قبل أن يرسلهم به • ومن زعم ان جبريل أخذ القرآن من الكتاب ولم يسمعه من الله تعالى كان هذا باطلا من وجوه منها ان الله تعالى قد كتب التوراة لموسى عليه السلام بيده فبنو اسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذى كتبه الله سبحانه فيه فان كانمحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن الكتاب كان بنو اسرائيل أعلى من محمد صلى الله عليه وسلم بدرجة ، وهكذا من قال انه ألقى الى جبريل معانى القرآن وان جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقوله يستلزم أن يكون جبريل الهمه الهاما وهذا الالهام لآحاد المؤمنين كما قال تعالى : (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى) (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) وقد أوحى الى سائر النبيين فيكون هذا الوحى الذى يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم عن جبريل عليه السلام لان جبريل هو الذى علمه لمحمد بمنزلة الواحد من هؤلاء ، ولهذا زعم بعض الصوفية أن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء ، وزعم انه يأخذ من

المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول ، فجعل أخذه وأخذ الملك الذى جاء الى الرسول من معدن واحد ، وادعى ان أخذه عن الله أعلى من أخذ الرسول للقرآن • قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومعلوم ان هذا من أعظم الكفر قال وهذا القول من جنسه •

والآيات القرآنية تدل دلالة صريحة على أن القرآن منزل من الله لا من غيره كقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وكذا قوله : (بلغ ما أنزل اليك من ربك) وأيضا الكلابية يقولون انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله وان سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض عليهم قولهم فانهم يقولون انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل من موسى والملائكة سمع جميع كلام الله وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله تعالى أو أنزل عليه شيئا من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة ، وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك مناقض لقولهم • وأيضا فقول الله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا) (فلما أتاها نودى يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) الآيات دليل على تكليم يسمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ومن قال انه يسمع فهو مكابر ، ودل الدليل على انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا فلا يعقل فى لغة العرب لفظ النداء لغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا كما تقدم • وذكر الامام الموفق فى البرهان ن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام فناداه ربه يا موسى فأجاب سريعا استئناسا بالصوت لبيك لبيك، أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ قال : « ياموسى أنا فوقك وعن يمينك وعن شمالك وأمامك وعن ورائك » فعلم ان هذه الصفة لا تكون الا لله تعالى قال فكذلك أنت يا الهى أفكلامك أسمع أم كلام رسولك ؟

قال : بل كلامى يا موسى • كمافى الخبر • قال وجاء فى خبر آخر أن بنى اسرائيل قالوا يا موسى بم‌شبهت صوت ربك • قال انه لا شـــبه له • قال وروى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ثم سمع كلام الآدميين مقتهم لما وقر فى مسامعه من كلام الله تعالى • قال الامام الموفق وهـــذه الاخبار ونحوها لم تزل متداولة بين أهل العلم من الصحابة والتابعين يرويها بعضهم عن بعض لم ينكرها منكر فيكون اجماعا • كذا قال •

اعجاز القرآن

ولما بين الناظم أن القرآن العظيم الذى أنزله الله تعالى مع جبريل عليه السلام الى النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأثبت أنه كلام الله وأنه قديم أعقب ذلك ببعض نعوت هذا الكتاب المنزل على النبى المرسل فقال ((أعيا)) أى أعجز ((الورى)) أى جميع الخلق من الانس والجن قال فى القاموس الورى كفتى الخلق ((بالنص)) القرآنى والتنزيل الرحمانى ((ياعليم)) أى ياعالم (يعنى-١) المبالغ فى العلم فان العليم صفة مبالغة كماهو معروف قال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فتحدى الخلق بالاتيان بمثله وقال تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) فلما عجزوا عن الاتيان بمثله تحداهم بعشر سور فقال جل شأنه (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلما عجزوا تحداهم بالاتيان بسورة واحدة فقال تعالى (قل فأتوا بسورة من مثله) أى من مثل القرآن العظيم فعجزوا وفى قوله تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) غاية التحدى والتبكيت والرد عليهم والتنكيت أى ان كانوا صادقين فى زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم تقول القرآن العظيم فليأتوا بحديث مثله فانه اذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قادرا على أن يتقوله كما يقدر الانسان أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فيمكن الناس أن يأتوا بمثله ولمـــا تحداهم الله تعالى بسورة واحدة فى قوله (قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) بعد أن تحداهم بالاتيان بعشر

---

(١) من مخ

سورهم ومن استطاعوا قال جل شأنه (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) كما قال (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) أى هو سبحانه يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى ما كان لأن يفترى ، يقول ما كان ليفعل هذا فلم ينف مجرد فعله بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه فيكون المعنى لا يمكن ولا يحتمل ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله فان الذى يفتريه من دون الله مخلوق ((وليس فى طوق)) أى ليس فى وسع ((الورى)) من جميع الخلق وطاقتهم فالطوق الوسع والطاقة كما فى القاموس ، وفى حديث أبى قتادة رضى الله عنه ومراجعته النبى صلى الله عليه وسلم فى الصوم فقال النبى عليه الصلاة والسلام « وددت انى طوقت ذلك » أى ليته جعل داخلا فى طاقتى وقدرتى ، ولم يكن عاجزا عن ذلك غير قادر عليه لضعف فيه ولكن يحتمل أنه خاف العجز عنه للحقوق التى تلزمه لنسائه فان ادامة الصوم تخل بحظوظهن منه كما فى النهاية • ومنه حديث عامر بن فهيرة رضى الله عنه : كل امرىء مجاهد بطوقه • أى أقصى غايته وهو اسم لمقدار مايمكن أن يفعله بمشقة منه ، فالمعنى ليس فى قدرة الخلق ولا طاقتهم ولو بذلوا جهدهم بغاية ما يمكنهم ولو مع تمام المشقة الحاصلة لهم ((من أصله)) أى الورى يعنى الخلق أى من أولهم الى آخرهم • ويحتمل وهوالمراد انه ليس فى طوق الخلق من الاصل ((أن يستطيعوا)) الاتيان بأقصر((سورة)) من القرآن فليس فى طوق جميع الخلق من أصل خلقتهم وجبلتهموقدرتهم واستطاعتهم من غير أن يسلبهم الله تعالى ذلك الاتيان بأقصر سورة ((من مثله)) أى القرآن كما تحدى الديان أهل الفصاحة والبلاغة واللسنوذوى الرزانة والدراية والفطن فاعترفوا بالعجز عن الاتيان بمثل أقصر سورة فى القرآن • قال الامام الحافظ ابن الجوزى رحمه الله تعالى لما تحيروا عند سماع القرآن وأدهشهم أسلوبه نودى عليهم بالعجز عن مماثلتهبقوله (فاتوا بسورة من مثله) انتهى • هذا وهم مصاقيعالكلام وبلغاء النثر والنظام

فعدلوا عن مصاقعة اللسان الى مقارعة السنان • قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب ـ الجواب الصحيح ـ وهذا التحدى كان بمكة فان سورة يونس وهود والطور من المكى ثم أعاد التحدى فى المدينة بعد الهجرة فقال فى سورة البقرة وهى مدنية (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنافأتوابسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين) ثم قال (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجـــارة أعدت للكافرين) فذكر أمرين (أحدهما) قوله فان لم تفعلوا فاتقوا النار يقول اذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذى وعدته المكذبين ، وهذا دعاء الى سبيل ربه بالموعظة الحســنة بعد أن دعاهم بالحكمة وهو جدالهم بالتى هى أحسن (والثانى) قوله ولن تفعلوا ولن لنفى المستقبل فثبت أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله كما أخبر قبل ذلك وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول فى سورة « سبحان » وهى مكية افتتحها بذكر الاسراء وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزا لهم قاطعا بأنهم اذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك وهذا التحدى لجميع الخلق وقد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك انهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة من مثله ومن حين بعث صلى الله عليه وسلم والى اليوم الامر على ذلك مع ماعلم من أن الخلق كانوا كلهم كفارا قبل أن يبعث ولما بعث انما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على ابطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن ، تارة يذهبون الى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذى القرنين ، ويجتمعون فى مجمع بعد مجمع علىمايقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الامثال فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق فتارة يقولون مجنون وتارة ساحر وكاهن وشاعر الى أمثال ذلك من الاقوال التى يعلمون هم وغيرهم من كل عاقل يسمعها انها

افتراء عليه ، فاذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهى تبطل دعواهم فمعلوم انهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها فانه مع وجود هذا الداعى التام المؤكد اذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور . ثم هكذا القول فى سائر الارض فهذا يوجب علما بينا لكل أحد بعجز جميع أهل الارض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التى تكرر جنسها كاحياء الموتى فان هذا لم يأت أحد بنظيره فاقدامه صلى الله عليه وسلم فى أول الامر على هذا التحدى وهو بمكة واتباعه قليل على أن يقول خبرا يقطع به انه لو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله فى ذلك العصر وفى سائر الاعصار المتأخرة لا يكون الا مع جزمه بذلك وتيقنه له ، والا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه ، واذا كان جازما بذلك متيقنا له لم يكن ذلك الا عن اعلام الله تعالى له بذلك وليس فى العلوم المعتادة أن يعلم الانسان ان جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه الا اذا علم العالم انه خارج عن قدرة البشر والعلم بهذا يستلزم كونه معجزا . قال شيخ الاسلام رحمه الملك العلام : ونفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الاسلوب فانه ليس من جنس الشعر والرجز ولا الرسائل والخطابة ولا نظمه نظم شىء من كلام الناس عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته عجيب خارق للعادة وليس له نظير فى كلام جميع الخلق - يعنى من لدن آدم والى الآن وهذا نهاية الاعجاز وبالله التوفيق

فوائد

معنى التحدى

(الاولى) التحدى المعارضة والمتحدى هو الذى يتحدى الناس أى يدعوهم ويبعثهم الى أن يعارضوه فيقال فيه حدانى على هذا الامر أى بعثنى عليه ومنه سمى حادى العيس لانه بحدائه يبعثها على السير . قال شيخ الاسلام فى الجواب الصحيح وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة ولكن أصله الاول انتهى . . وفى القاموس : احدى تعمد شيئا كتحداه والحديا بالضم وفتح الدال المهملة المنازعة والمباراة

القول بالصرفة

(الثانية) ما قد أشرت اليه فى قولى وليس فى طوق الورى من أصله الخ
أى ليس فى وسع البشر ولا سائر الخلق ولا فى أصل خلقتهم وجبلتهم
القدرة على أن يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن العظيم والذكر الحكيم
فانه معجز فى نفسه فليس فى وسع الخلق ولا قدرتهم على مضاهاته • قال
الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه الوفاء : وكان المرتضى العلوى
يقول بالصرفة - يعنى أن الله تعالى صرف العرب عن الاتيان بمثله لا أنهم
عجزوا • قال الامام أبو الوفاء ابن عقيل : الصرف عن الاتيان بمثله دال
على أن لهم قدرة حاصلة ، قال وان كان فى الصرف نوع اعجاز الا أن كون
القرآن فى نفسه ممتنعا عن الاتيان بمثله لمعنى يعود عليه آكد فى الدلالة
وأعظم لفضيلة القرآن ، قال وما قول من قال بالصرفة الا بمثابة من قال
بأن عيون الناظرين الى عصا موسى عليه السلام خيل لهم انها حية وثعبان
لا انها فى نفسها انقلبت ، قال فالتحدى للمصروف عن الشىء لا يحسن
كما لا يتحدى العجم بالعربية • قال الحافظ ابن الجوزى وأنا أقول انما
يصرفون عن الشىء بتغير طباعهم عند نزوله أن يقدروا على مثله فهل وجد
لأحد منهم قبل الصرفة منذ وجدت العرب كلام يقاربه مع اعتمادهم على
الفصاحة ؟ فالقول بالصرفة ليس بشىء • وقال شيخ الاسلام فى (الجواب
الصحيح) : كل ما ذكره الناس من الوجوه فى اعجاز القرآن حجة على
اعجازه و لاتناقض فى ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له ، ثم قال ومن
أضعف الاقوال قول من يقول من أهل الكلام انه معجز بصرف الدواعى
مع قيام الموجب لها أو بسلب القدرة الجازمة وهو أن الله تعالى صرف قلوب
الامم عن معارضته مع قيام المقتضى التام أو سلبهم القدرة المعتادة فى مثله
سلبا عاما مثل قوله لزكريا (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) فان
هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل وهو انه اذا قدر أن هذا الكلام يقدر
الناس على الاتيان بمثله فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعى
العظيمة الى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادة بمنزلة من يقول انى
آخذ جميع أموال أهل هذا البلد العظيم وأضربهم جميعهم وأجوعهم وهم
قادرون على أن يشتكوا الى الله والى ولى الامر وليس فيهم مع ذلك من

يشتكى فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للمادة ،ولو قدر أن أحدا صنف كتابا يقدر أمثاله على تصنيف مثله أو قال شعرا يقدر أمثاله على أن يقولوا مثله وتحداهم كلهم فقال عارضونى وان لم تعارضونى فأنتم كفار مأواكم النار ودماؤكم حلال امتنع فى العادة أن لا يعارضه أحد فاذا لم يعارضوه كان هذا من العجائب الخارقة للعادة ، والذى جاء بالقرآن صلى الله عليه وسلم قال للخلق كلهم أنا رسول الله اليكم جميعا ومن آمن بى دخل الجنة ومن لم يؤمن بى دخل النار وقد أبيح لى قتل رجالهم وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم ووجب عليهم كلهم طاعتى ومن لم يطعنى كان من أشقى الخلق ومن آياتى هذا القرآن فانه لا يقدر أحد على أن يأتى بمثله وأنا أخبركم أن أحدا لا يأتى بمثله • فانه لا يخلو اما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين فان كانوا قادرين ولم يعارضوه بل صرف الله دواعى قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدى العظيم أو سلبهم القدرة التى كانت فيهم قبل تحديه فان سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل معجزتى انكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الاكل والشرب فان المنع من المعتاد كاحداث غير المعتاد فهذا من أبلغ الخوارق ، وان كانوا عاجزين ثبت أنه خارق للعادة فثبت كونه خارقا للعادة على تقدير النقيضين النفى والاثبات فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة فى نفس الأمر • قال شيخ الاسلام قدس الله سره فهذا غاية التنزل ، قال والا فالصواب المقطوع بهأن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك • قال بل ولا يقدر محمد نفسه صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر كما أخبر به تعالى فى قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) •

قلت وفى شفاء أبى الفضل القاضى عياض بعض ميل للقول بالصرفة فانه **قال** : وذهب الشيخ أبو الحسن - يعنى الاشعرى - الى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه • قال وقال به جماعة من أصحابه • قال وعلى

الطريقين فعجز العرب عنه واقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون فى مقدور البشر وتحداهم بأن يأتوا بمثله قاطع • قال وهو أبلغ فى التعجب وأحرى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرةالبشر لازم وهو ابهر آية وأقمع دلالة وعلى كل حال فما أتوا فى ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل وتجرعوا كاسات الصغار والذل وكانوا من شموخ الانف واباء الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ولا يرضـــونه الا اضطرارا والا فالمعارضة لو كانت من قدرهم لاسرعوا بالحجج وقطـع العذر وافحام الخصم لديهم هذا وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة بالمعرفة به لجميع الانام وما منهم الا من جهد جهده واستنفد ما عنده فى اخفاء ظهوره واطفاء نوره فما حلوا فى ذلك بحبة من بنات شفاههم ولا أتوا بنقطة من معين مياههم مع طول الامد وكثرة العدد وتظاهر الوالد وما ولد بل أبلسوا فما نبسوا ، ومنعوا فانقطعوا • انتهى كلامه • وذكر الامام الحافظ ابن الجوزى فى كتابه « الوفاء » عن الامام ابن عقيل انه قال حكى لى أبو محمد بن مسلم النحوى قال كنا نتذاكر اعجاز القرآن وكان ثم شيخ كثير الفضل فقال ما فيه ما يعجز الفضلاء عنه ، ثم ارتقى الى غرفةومعه صحيفة ومحبرةووعد أنه يبادئهم بعدثلاثة أيام بما يعمله مما يضاهى القرآن فلما انقضت الايام الثلاثة صعد واحد فوجده مستندا يابسا وقد جفت يده على القلم • قلت وبمثل هذه يحتج القائلون بالصرفة وليس بحجة لعدم حصر الهلاك فيها بل لما عجز أهلكه الله كمدا ولتجرئه على ما ليس فى وسعه وقدرته والله الموفق

القرآن معجزمن عدة أوجه

(الثالثة) كون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه أو اخباره بالغيب والمغيبـــات ولا من صرف الدواعى والمعارضات بل هو آية ومعجزة ظاهرة ودلالة باهرة وحجة قاهرة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة فى دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التى أمر بها ومعانيه التى أخبر بها عن‌الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى والغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة

ما بين فيه من الدلائل اليقينية والاقيسة العقلية التى هى الأمثال المضروبة كما فى قوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا) • و (فأبى أكثر الناس الا كفورا) (ولعلهم يتذكرون) (قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) فكل ما ذكره الناس من وجوه الاعجاز فى القرآن فهو حجة على اعجازه ولا تناقض فى ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له كما مر فى كلام شيخ الاسلام

القرآن المعجزة العظمى

(الرابعة) القرآن العظيم كلام الله القديم (١) ونوره المبين وحبله المتين وفيه الحجة والدعوة فله بذلك اختصاص على غيره كما ثبت عنه فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال « ما من نبى من الانبياء الا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة » قال الحافظ ابن حجر فى الفتح يعنى ان معجزتى التى تحديت بها الوحى الذى أنزل على وهو القرآن لما اشتمل عليه من الاعجاز الواضح ، قال وليس المراد حصر معجزاته فيه ولا انه لم يؤت من المعجزات ما أوتى من تقدمه بل المراد انه المعجزة العظمى والآية الكبرى التى اختص بها دون غيره صلى الله عليه وسلم من الانبياء عليهم السلام • انتهى • ولا يخفى أن كون دعوة النبى صلى الله عليه وسلم التى هى شريعته المنعوت بها فيها معجزته التى تحدى الخلق بها من أعظم الآيات وأبهر المعجزات وأظهر الدلالات ، ولهذا استمرت معجزته العظمى باستمرار شريعته الغراء وفيه اشارة وتنبيه وايماء وتنويه الى أن هذا النبى الامين خاتم الانبياء والمرسلين فشريعته دائمة ما دام الملوان ومعجزته باقية ما كر الجديدان وبالله التوفيق •

مناسبة المعجزة للعصر الذى وقعت فيه

(الخامسة) كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يأتون بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة لأقوامهم الكافرة وأممهم الفاجرة فكان كل نبى تقع معجزته مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيا عند فرعون فجاء موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا فبسوا وانصدعوا واحتاروا وانقمعوا وعلموا أن ما جاء به موسى هو الحق اليقين (فألقى

---

(١) مر ما فيه فى التعليق على المتن

السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) ولم يقع ذلك بعنه لغير موسى من الانبياء عليهم السلام • ولما كان الزمن الذى بعث فيه عيسى عليه السلام قد فشا فيه الاطباء والحكماء بين الأنام وكان أمرهم فى غاية الظهور والاعتناء بصناعتهم ظاهر مشهور جاء سيدنا المسيح باحياء الموتى وابراء الاكمه والأبرص من الداء العضال القبيح وخلق من الطين كهيئة الطير باذن الله فطاشت قلوب الحكماء وأذعنوا أنه من عند الله •ولما كانت العرب أرباب البلاغة وجراثيم الفصاحة ورأس البيانوأرومةالوضاحة وفرسان الكلام وأرباب النظام قد خصوا من البلاغة والحكم مالم يختص به غيرهم من سائر الامم وقد أوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت مثله انسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الالباب ، جعل الله تعالى لهم ذلك طبعا وسليقة وفيهم غريزة وحقيقة ، يأتون منه على البديهة بالعجب العجاب ويدلون به الى كل سبب من الأسباب ، فيخطبون بديهة فى المقامات الشديدة الخطب ويرتجزون به فى قساطل الحرب بين الطعن والضرب ، ويمدحـــون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويبتدون(١)ويتنصلون ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم ما هو أجمل من سمط اللآل فيخدعون الالباب ويذللون الصعاب ويذهبون الاحن ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجنان ويبسطون من يد الجعد البنان ، ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقـــول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والالفاظ الناصعة والكلمات الجامعة ، والطبع السهل والتصرف فى القول ، القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية ، وعلى كل حال لهم فى البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة ، لا يشك أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم ، فما راعهم الا والرسول الكريم قد أتى بهذا الكتاب العزيز العظيم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * قد أحكمت آياته وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر ايجازه واعجازه وتظاهرت

---

(١) لعله : ويعتذرون

حقيقته ومجازه ، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا وأوسع فى اللغة والغريب مقالا ، بلغتهم التى بها يتحاورون ومنازعهم التى عنها يتناضلون ، صارخا بهم فى كل حين ومقرعا لهم بضعا وعشرين من السنين وموبخا لهم على رؤوس ملائهم أجمعين (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله (١) وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وهم فى كل ذلك ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء ، فيقولون تارة هذا سحر مفترى وأخرى أساطير الاولين وطورا يقولون اذا سمعوا آيات الكتاب : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، ومنهم من استحمق وهذى فقال بضرب من الدعوى : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ومن تعاطى شيئا من سخفائهم بدعوى المعارضة افتضح وانكشف عواره وما نجح وظهر بواره ، ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى) قال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر • وذكر أبو عبيد أن اعرابيا سمع رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فسجد فقيل له فى ذلك فقال سجدت لفصاحته • وسمع آخر رجلا يتلو (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام • وذكر القاضى عياض فى الشفاء أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يوما نائما فى المسجد اذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها وانه سمع قوما من أسرى المسلمين يقرءون آية من كتابكم فتأملتها فاذا هى قد جمع فيها ماأنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام من أحوال الدنيا والآخرة وهى قوله تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) • وحكى

---

(١) منع« بعشر سور مثله مفتريات » وهى آية أخرى أنظر سورة يونس ٣٨ وسورة هود ١٣

الاصمعى انه سمع كلام جارية (١) فقال لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى (وأوحينا الى أم موسى أنأرضعيه) الآية فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين • فهذا من أنواع اعجاز القرآن العظيم والذكر الحكيم وفوق كل ذى علم عليم : وبالله التوفيق

هل فى بعض آية اعجاز ؟

(السادسة) قال علماؤنا وفى بعض آية من القرآن العظيم اعجاز وعلى التحقيق يتفاضل ثوابه ويتفاوت اعجازه كما فى مختصر التحرير وغيره من كتب لاصول•قال الامامالقاضى أبو يعلى ابن الفراء قدسالله‌روحه : فىبعض آية من القرآن اعجاز لقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) قال القاضى علاء الدين المرداوى فى شرح التحرير : والظاهر أن القاضى أبا يعلى أراد مافيه الاعجاز والا فلا يقول مثل قوله تعالى (ثم نظر) ونحوها ان فى بعضها اعجازا أو فيها أيضا وهو واضح • وقال الامام أبو الخطاب الكلوذانى أحد أعلام المذهب والحنفية لا اعجاز فى بعض آية بل فى آية • وهذا ليس على اطلاقه فان بعض الآيات الطوال فيها اعجاز كما ان الآية القصيرة كقوله تعالى (ثم نظر) لا يلزم أن يكون فيها اعجاز • وقال بعض المحققين القرآن كله معجز لكن منه مالو انفرد لكان معجزا بذاته ومنه ما اعجـــــازه مع الانضمام فان القرآن يتفاوت اعجازه ويتفاضل ثوابه فان الفرق يظهر بين آية الكرسى وآية الدين وبين سورة الاخلاص وسورة تبت فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن وهو أعلم بجمله‌وتفاصيله وبفضله وتفضيله : « ياسين قلب القرآن ، وفاتحة الكتاب أفضل سورة فى القرآن ، وآية الكرسى أعظم آية فى القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل‌ثلث القرآن » والاحاديث الواردة فى فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالتفضيل وكثرة الثواب فى تلاوتها كثيرة جدا • وذهب الامام

---

(١) بهامش مخ « روى أن الاصمعى قال رأيت فى البادية جارية صغيرة لم تبلغ الحلم وهى تقول أستغفر الله • فقلت لها مم تستغفرين فانه لم يجر عليك قلم تكليف فقالت : أستغفر الله لذنبى كله ، قتلت انسانا بغير حل، مثل غزال ناعم فى دله ، وانتصف الليل ولم اصله • فقلت لها ما أفصحك الخ •»

أبو الحسن الاشعرى والقاضى الباقلانى وغيرهما الى المنع ويروى هذا القول عن الامام مالك رضى الله عنه ولذلك كره أن تردد سورة دون غيرها • قال بعض العلماء والعجب ممن يذكر الخلاف فى ذلك بعد ورود النصوص عن صاحب الشريعة بالتفضيل • وقال العز بن عبد السلام كلام الله فى الله أى المتعلق بذاته وصفاته والثناء على نفسه ونحو ذلك أفضل من كلامه فى غيره فقل هو الله أحد أفضل من تبت يدا أبى لهب • وقال الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه ـ الاتقان فى علوم القرآن ـ اختلف القائلون بالتفضيل فقال بعضهم التفضيل راجع الى عظم الاجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف العلى الاعلى وقيل بل يرجع لذات اللفظ وان ما تضمنه قوله تعالى (والهكم اله واحد) الآية وآية الكرسى وآخر سورة الحشر وسورة الاخلاص من الدلالات على وحدانية الله تعالى وصفاته ليس موجودا مثلا فى (تبت يدا أبى لهب) وما كان مثلها فالتفضيل انما هو بالمعانى العجيبة وكرامتها وبالله التوفيق (١)

« فصـــل »

فصل فى الصفات التى ينفـــرد باثباتها السلفيون

فى ذكر الصفات التى يثبتها لله تعالى أئمة السلف وعلماء الأثر دون غيرهم من علماء الخلف وأهل الكلام فضلا عن فرق أهل الزيغ والفساد وأساطين الفلاسفة وأهل الالحاد ولما كان فى اثبات هذه الصفات ما يبدر للعقول الفلسفية والأقيسة الكلامية والاخيلة الخلفية ما يوهم التجسيـــم قدم امام المقصود ما ينفى ذلك بقوله :

قوله وليس ربنا بجوهر الخ وما أورد عليه

((وليس ربنا بجـــــوهر ولا عرض ولا جسم تعالى ذو العلى))
((سبحانه قد استوى كمـا ورد من غير كيف قد تعالى أن يحد))

((وليس ربنا)) تبارك وتعالى ((بجوهر)) يراد به ما قابل العرض ويراد به ما فى اصطلاح أهل الكلام يعنى العين الذى لا يقبل الانقسام لا فعلا ولا وهما ولا فرضا وهو الجزء الذى لا يتجزأ ، وعند الفلاسفة وبعض

---

(١) بهامش مخ « بلغ قراءة على شيخنا الشيخ الاحل المبجل الاواه الشيخ عبد الله حفظه الله ونفعنا بعلومه والمسلمين وذلك فى ب ٩ ـ ١٢٥٩

محققى النظار لا وجود للجوهر الفرد أعنى الجزء الذى لا يتجزأ واليه ميل شيخ الاسلام ابن تيمية • قال المثبتون للجوهر الفرد بأنه لا شكل له لان الشكل هيئة أحاطة الحد الواحد أو الحدود فلو كان له شكل لكان محاطا لحد أو حدود وحينئذ يلزم انقسامه لأن ما يلاقى منه بجزء من المحيط يغاير الملاقى بآخر وهو الانقسام لانا لا نعنى بالتقسيم الا مايفرض فيه شيء غير شيء فلا يكون ما فرضناه جوهرا فردا واذا لم يكن له شكل امتنع أن يكون مشاكلا لشيء لأن المشاكلة هى الاتحاد فى الشكل وليس للجوهر الفرد شكل كما علمت • ولسنا بصدد تقريره ولا ابطاله وانما نحن بصدد نفى كون البارى جل شأنه جوهرا ((ولا)) ربنا جل شأنه وتعالى سلطانه بـ ((عرض)) وهو ما لا يقوم بذاته بل بغيره بأن يكون تابعا لذلك الغير فى التحيز أو مختصا به اختصاص النعت بالمنعوت لا بمعنى أنه لايمكن تعقله بدون المحل كما قد يتوهم فان ذلك انما هو فى بعض الاعراض ((ولا)) هو سبحانه : ((جسم)) (١) وهو ما تركب من جزئين فصاعدا وعند بعض

وجوب التحرز عن اطلاقه مالم يطلقه الشرع

---

(١) بهامش مخ مالفظه :

« من له اطلاع على كلام الصحابة والتابعين وأئمة السلف علم انهم لم يتكلموا بلفظ الجسم والجوهر والعرض فى حق الرب سبحانه لا نفيا ولا اثباتا فيكون من الكلام المبتدع •

قال شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله فى رسالته التدمرية فى أثناء كلام له : ولما كان الرد على من وصف الله بالنقائص بهذه الطريق طريقا فاسدا لم يسلكه أحد من السلف والأئمة فلم ينطق أحد منهم فى حق الله بالجسم لا نفيا ولا اثباتا ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك لانها عبارات مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا فهذا من الكلام المبتدع الذى أنكره السلف والأيمة • وقال رحمه الله فى موضع آخر فى بعض كتبه : ولهذا كره السلف والأئمة كالامام احمد وغيره أن ترد البدعة بالبدعة فكان أحمد فى مناظرته للجهمية لما ناظروه على أن القرآن مخلوق وألزمه برغوث وكان من أحذقهم فى المناظرة انه اذا كان الكلام غير مخلوق يكون الله جسما ، وهذا منتف فلم يوافق أحمد لا على نفى ذلك ولا على اثباته بل قال أقول هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد • فبين أنى لاأقول جسم ولا ليس بجسم لأن كلا الامرين بدعة • انتهى •

وقال القرطبى فى المفهم فى شرح حديث أبغض الرجال الى الله الألد الخصم قال قد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا فى الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين فمن رغب عن طريقتهم فكفاه ضلالا » =

النظار لا بد من تركبه من ثلاثة أجزاء لتتحقق الابعاد الثلاثة أعنى الطول والعرض والعمق وعند البعض من ثمانية ليتحقق تقاطع الابعاد على زوايا قائمة ، قال السعد : وليس هذا نزاعا راجعا الى الاصطلاح حتى يدفع بأن

= وفى تنبيه ابن سحمان ص ٧ فما بعدها

« أعلم وفقنى الله واياك للعلم النافع والعمل الصالح ان لفظ الجوهر والعرض والجسم ألفاظ مبتدعة مخترعة لم يرد بنفيها ولا اثباتها كتاب ولا سنة ولا قول صاحب ولا أحد من أئمة التابعين ولا من بعدهم من الأئمة المهتدين الذين يعتد بقولهم فى هذا الباب فاذا تحققت ذلك فهذه الالفاظ التى لم يرد نفيها ولا اثباتها لا تطلق حتى ينظر فى مقصود قائلها فان كان معنى صحيحا قبل لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الالفاظ المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد مثل أن يكون الخطاب مع من لايتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ونحو ذلك ، فاذا تبين هذا فالواجب على من منحه الله العلم والمعرفة أن ينظر فى هذا الباب أعنى باب الصفات فما أثبته الله ورسوله أثبته وما نفاه الله ورسوله نفاه ، والالفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الاثبات والنفى ، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الالفاظ والمعانى وننفى ما نفته نصوصها من الالفاظ والمعانى وأما كون شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه وتلميذه ابن القيم مالا الى انه لا وجود للجوهر الفرد فحق ولكن المقصود بذلك الرد على من أثبت الجوهر الفرد وانه لا حقيقة لوجوده ولا يلزم من ذلك اذا رده ونفاه انه يرى ان اطلاق هذه الالفاظ على الله نفيا واثباتا جائز فقد ذكر رحمه الله فى بعض أجوبته ما نصه : فان ذكر لفظ الجسم فى أسماء الله تعالى وصفاته بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ولا قالها أحد من سلف الامة وأئمتها ولم يقل أحد منهم أن الله تعالى جسم ولا ان الله تعالى ليس بجسم ولا ان الله تعالى جوهر ولا ان الله تعالى ليس بجوهر • انتهى • وكما صرح بذلك فيما ذكرناه عنهما وفى بعض مواضع أخر خلافا لما ذكره الناظم وأقره الشارح

اذا تقرر هذا فلا بد من ذكر كلام أئمة أهل الاسلام على هذه الالفاظ المبتدعة المخترعة التى أدخلها بعض المنتسبين الى السنة من أهل الكلام وغيرهم فى العقائد ونسبها بعضهم الى مذهب السلف رضوان الله عليهم وذلك مثل لفظ الجوهر والجسم والأعراض والأغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث وغيرها قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : وكانت المعتزلة تقول ان اللهمنزه عن الاغـــراض والابعـــاض والحوادث والحدود • ومقصودهم نفى الصفات ونفى الافعال ونفى مباينته للخلق وعلوه على العرش وكانوا يعبرون عن منهب أهل الاثبات أهل السنة بالعبارات المجملة التى تشعر الناس بفساد المذهب فانهم اذا قالوا ان الله منزه عن الأعراض لم يكن فى ظاهر العبارة ما ينكر لأن الناس يفهمون من ذلك انه منزه عن الاستحالة والفساد كالاعراض التى تعـــرض لبنى آدم من الأمراض والاسقام ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ولكن مقصودهم انه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به ولا غير ذلك من الصفات

لكل واحد أن يصطلح على ماشاء بل هو نزاع فى أن المعنى الذى وضع لفظ الجسم بازائه هل يكفى فيه التركيب من جزئين أم لا ؟ احتج الاولون بأنه يقال لأحد الجسمين اذا زيد عليه جزء واحد انه أجسم من الآخر

التى يسمونها هم أعراضا . وكذلك اذا قالوا : ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات ، أوهموا الناس بأن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ومقصودهم به انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وأنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله ، وأن محمدا لم يعرج به اليه ولم ينزل منه شىء ، ولا يصعد اليه شىء ، ولا يتقرب اليه بشىء ، ولا ترفع الايدى اليه فى الدعاء ، ولا غيره ، ونحو ذلك من معانى الجهمية . واذا قالوا انه ليس بجسم أوهموا الناس انه ليس من جنس المخلوقات ولا مثل أبدان الخلق وهذا المعنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك أنه لا يرى ولا يتكلم بنفسه ولا تقوم به صفة ولا هو مباين للخلق وأمثال ذلك . واذا قالوالاتحله الحوادث. أوهموا الناس أن مرادهم انه لا يكون محلا للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الاحداث التى تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا المعنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك انه ليس له فعل اختيارى يقوم بنفسه ولا له كلام ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته وانه لا يقدر على استواء أو نزول أو اتيان أو مجىء ، وأن المخلوقات التى خلقها الله لم يكن منه عند خلقها فعل أصلا بل عين المخلوقات هى الفعل ليس هناك فعل ومفعول وخلق ومخلوق بل المخلوق عين الخلق والمفعول عين الفعل ونحو ذلك . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) : ويقولون نحن ننزه الله تعالى عن الاعراض والاغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث ، فيسمع الغر المخدوع هذه الالفاظ فيتوهم منها أنهم ينزهون الله عما يفهم من معانيها عند الاطلاق من العيوب، والنقائص والحاجة فلا يشك أنهم يمجدونه ويعظمونه ، ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الالفاظ فيرى تحتها الالحاد وتكذيب الرسل وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله — فتنزيههم عن الاعراض هو جحد صفاته كسمعه وبصره وحياته وعلمه وكلامه وارادته فان هذه أعراض له عندهم لا تقوم الا بجسم فلو كان متصفا بها لكان جسما وكانت أعراضا له وهو منزه عن الاعراض

وأما الاغراض فهى الغاية والحكمة التى لأجلها يخلق ويفعل ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب وهى الغايات المحمودة المطلوبة من أمره ونهيه وفعله فيسمونها أغراضا منه وعللا ينزهونه عنها

وأما الأبعاض فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس له وجه ولا يدان ولا يمسك السموات على أصبع والارض على أصبع والشجر على أصبع والماء على أصبع فان ذلك كله أبعاض والله منزه عن الابعاض .

وأما الحدود والجهات فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله ولا يشار اليه بالاصابع الى فوق كما أشار اليه أعلم الخلق به ولا ينزل منه شىء ولا يصعد اليه شىء ولا تعرج الملائكة والروح

فلولا ان مجرد التركيب كاف فى الجسمية لما صار بمجرد زيادة الجزء أزيد فى الجسمية • وفيه انه أفعل من الجسامة بمعنى الضخامة وعظم المقدار يقال جسم الشىء اذا عظم فهو جسيم والكلام فى الجسم الذى هو

اليه ولا رفع المسيح اليه ولا عرج برسوله محمد صلى الله عليه وسلم اليه اذ لو كان كذلك لزم اثبات الحدود والجهات هو منزه عن ذلك •

وأما حلول الحوادث فيريدون به أنه لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتي يوم القيمة ولا يجىء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبان ولا يقوم به فعل البتة ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن لم يكن مريدا له فلا يقول له كن حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب يوم القيامة غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولا ينادى عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن مناديا لهم ، ولا يقول للمصلى اذا قال (الحمد لله رب العالمين) حمدنى عبدى فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال أثنى على عبدى فاذا قال (مالك يوم الدين) قال مجدنى عبدى ، فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث •

الى أن قال : واعلم أن لفظ الجسم لم ينطق به الوحي اثباتا فيكون له الاثبات ولا نفيا فيكون له النفي فمن أطلقه نفيا أو اثباتا سئل عما أراد فان قال أردت بالجسم معناه فى لغة العرب وهو البدن الكثيف الذىلايسمى فى اللغة جسما سواه فلا يقال للهواء جسم لغة ولا للنار ولا للماء فهذه اللغة وكتبها بين أظهرنا فهذا المعنى منفى عن الله عقلا وسمعا وان أردتم به المركب من المادة والصورة والمركب من الجواهر الفردة فهذا منفى عن الله قطعا والصواب نفيه عن الممكنات أيضا فليس جسم المخلوق مركبا من هذا • ولا من هذا ، وان أردتم بالجسم ما يوصف بالصفات ويرى بالابصار ويتكلم ويكلم ويسمع ويبصر ويرضى ويغضب فهـــذه المعانى ثابتة لله تعالى وهو موصوف بها فلا ننفيها عنه بتسميتكم للموصوف بها جسما • ــ الى أن قال : وان أردتم بالجسم ما يشار اليه اشارة حسية فقد أشار أعرف الخلق به باصبعه رافعا بها الى السماء بمشهد الجمع الأعظم مستشهدا له لا للقبلة•وان أردتم بالجسم ما يقال له أين ؟ فقدسأل أعلم الخلق به عنه بأين منبها على علوه على عرشه وسمع السؤال بأين وأجاب عنه ولم يقل هذا السؤال انما يكون عن الجسم وانه ليس بجسم ، وان أردتم بالجسم ما يلحقه (من) و (الى) فقد نزل جبرائيل من عنده وعرج برسوله اليه ، واليه يصعد الكلم الطيب ،وعبده المسيح رفع اليه •وان أردتم بالجسم ما يتميز منه أمر غير أمر فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال جميعها من السمع والبصر والعلم والقدرةوالحياة وهذه صفات متميزةمتغايرة ومنقال انها صفة واحدة فهو بالمجانين أشبه منه بالعقلاء ، وقد قال أعلم الخلق به (أعوذ برضاك من سخطك) الحديث • قال وأما استعاذته صلى الله عليه وسلم به منه باعتبارين مختلفين فان الصفة المستعاذ بها والصفة المستعاذ منها صفتان لموصوف واحد ورب واحد فالمستعيذ باحدى الصفتين من الاخرى مستعيذ بالموصوف بهما منه • وان أردتم بالجسم ماله وجه

اسم لا صفه • انتهى • وقال الكرمانى فى شرح الجواهر : الجسم يطلق بالاشتراك على معنيين الاول الجسم الطبيعى المنسوب الى الطبيعة التى هى مبدأ الآثار وعرفه الحكماء بأنه جوهر يمكن أن يفرض فيه ابعاد ثلاثة

ويدان وسمع وبصر فنحن نؤمن بوجه ربنا الاعلى وبيديه وبسمعه وبصره وغير ذلك من صفاته التى أطلقها على نفسه ، وان أردتم بالجسم ما يكون فوق غيره ومستويا على غيره فهو سبحانه فوق عباده مستو على عرشه •

وكذلك ان أردتم بالتشبيه والتركيب هذه المعانى التى دل عليها الوحي والعقل فنفيكم لها بهذه الالقاب المنكرة خطأ فى اللفظ والمعنى وجناية على ألفاظ الوحى ، أما الخطأ اللفظى فتسميتكم الموصوف بذلك جسما مركبا مؤلفا مشبها بغيره وتسميتكم هذه الصفات تركيباوتجسيما وتشبيها فكذبتم على القرآن وعلى الرسول وعلى اللغة ووضعتم لصفاته ألفاظا منكم بدأت واليكم تعود ، وأما خطأكم فى المعنى فنفيكم وتعطيلكم لصفات كماله بواسطة هذه التسمية والالقاب فنفيتم المعنيالحقوسميتموهبالاسمالمنكر • الى أن قال : وكذلك اذا قال الفرعونى لو كان على السموات رب أو على العرش اله لكان مركبا ، قيل له : لفظ المركب فى اللغة هو الذى ركبه غيره فى محله كقوله تعالى (فى أى صورة ماشاء ركبك) وقولهم ركبت الخشبة والباب وما يركب من أخلاط أجزاء بحيث كانت أجزاؤه مفرقة فاجتمعت وركبت حتى صار شيئا واحدا كقولهم ركبت الدواء من كذا وكذا • وان أردتم بقولكم لو كان فوق العرش كان مركبا هذا التركيب المعهود وأنه كان متفرقا فاجتمع فهو كذب وفرية وبهت على الله وعلى الشرع وعلى العقل ، وان أردتم انه لو كان فوق العرش لكان عاليا على خلقه بائنا منهم مستويا على عرشه ليس فوقه شىء فهذا المعنى حق فكأنك قلت لو كان فوق العرش لكان فوق العرش فنفيت الشىء بتغيير العبارة وقلبها الى عبارة أخرى وهذا شأنكم فى أكثر مطالبكم •

وان أردتم بقولكم كان مركبا أنه يتميز منه شىء عن شىء فقد وصفته أنت بصفات يتميز بعضها من بعض فهل كان عندك هذا تركيبا ؟ فان قلت هذا لا يقال لى وانما يقال لمن أثبت شيئا من الصفات فأما أنا فلا أثبت له صفة واحدة فرارا من التركيب ، قيل لك : العقل لم يدل على نفى المعنى الذى سميته أنت مركبا وقد دل الوحى والعقل والفطرة على ثبوته أتنفيه بمجرد تسميتك الباطلة ؟ فان التركيب يطلق ويراد به خمسة معان

١ - تركيب الذات من الوجود والماهية عند من يجعل وجودها زائدا على ماهيتها فاذا نفيت هذا جعلته وجودا مطلقا انما هو فى الاذهان لا وجود له فى الاعيان •

٢ - تركيب الماهية من الذات والصفات فاذا نفيت هذا التركيب جعلته ذاتا مجردة عن كل وصف لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يقدر ولا يريد ولا حياة له ولا مشيئة ولا صفة أصلا فكل ذات فى المخلوقات (••••) من هذه الذات فاستفدت بهذا التركيب كفرك بالله وجحدك لذاته ولصفاته وأفعاله •

٣ - تركيب الماهية الجسمية من الهيولى والصورة كما يقوله الفلاسفة •

متقاطعة على زوايا قائمة ، فقوله يمكن مشعر بأن مناط الجسمية ليس فرض الابعاد بالفعل حتى يخرج الجسم عن الجسمية بأن لا يفرض فيه الابعـــاد بالفعل بل مجرد امكان الفرض وان لم تفرض أصلا كاف ، وتصوير فرض

---

٤ ـ التركيب من الجواهر الفردة كما يقوله كثير من أهل الكلام

٥ ـ تركيب الماهية من أجزاء كانت متفرقة فاجتمعت وتركبت فان أردت بقولك لو كان فوق العرش لكان مركبا كما يدعيه الفلاسفة والمتكلمون قيل لك : جمهور العقلاء عندهم ان الاجسام المحدثة المخلوقة ليست مركبـــه لا من هذا ولا من هذا فلو كان فوق العرش جسم مخلوق ومحدث لم يلزم أن يكون مركبا بهذا الاعتبار فكيف ذلك فى حق خالق الفرد والمركب الذى يجمع المتفرق ويفرق المجتمع ويؤلف بين الاشياء فيركبها كما يشاء ؟ والعقل انما يدل على اثبات اله واحد ورب واحد لا شريك له ولا شبيه له لم يلد ولم يولد ، ولم يدل على أن ذلك الرب الواحد لا اسم له ولا صفة ولا وجه ولا يدين ولا هو خلقه ولا يصعد اليه شيء ولا ينزل منه شيء ، فدعوى ذلك على العقل كذب صريح عليه كما هى كذب صريح على الوحى . وكذلك قولهم ننزهه عن الجهة ان أردتم انه منزه عن جهة وجودية تحيط به وتحويه احاطة الظرف بالمظروف فنعم هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى ، ولكن لا يلزم من كونه فوق عرشه هذا المعنى :

وان أردتم بالجهة أمرا يوجب مباينة الخالق للمخلوق وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه فنفيكم بهذا المعنى باطل وتسميته جهة وقلتم منزه عن الجهات وسميتم العرش حيزا وقلتم ليس بمتحيز وسميتم الصفات أعراضا وقلتم الرب منزه عن الأعراض ، وسميتم كلامه بمشيئته ونزوله الى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بمشيئته وارادته ونزوله لمرادها وادراكه المقارن لوجود المدرك وغضبه اذا عصى ورضاه اذا أطيع وفرحه اذا تاب اليه العباد ونداءه لموسى حين أتى الشجرة ونداءه للأبوين حين أكلا من الشجرة ونداءه لعباده يوم القيامة ومحبته لمن كان يبغضه حال كفره ثم صار يحبه بعد ايمانه وربوبيته التى هو كل يوم هو فى شأن « حوادث » وقلتم هو منزه عن حلول الحوادث وحقيقة هذا التنزيه أنه متنزه عن الوجود وعن الربوبية وعن الملك وعن كونه فعالا لما يريد بل عن الحياة والقيومية

فانظر ماذا تحت تنزيه المعطلة النفاة بقولهم ليس بجسم ولا جوهر ولا مركب ولا تقوم به الأعراض ولا يوصف بالابعاض ولا يفعل بالاغراض ولا تحله الحوادث ولا تحيط به الجهات ولا يقال فى حقه أين وليس بمتحيز كيف كسوا حقائق أسمائه وصفاته وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه وتكليمه لخلقه ورؤيتهم له بالأبصار فى دار كرامته هذه الألفاظ ثم توسلوا الى نفيها بواسطتها وكفروا وضللوا من أثبتها واستحلوا منه مالم يستحلوه من أعداء الله من اليهود والنصارى ، فالله الموعد واليه التحاكم ، وبين يديه التخاصم .

★ نحن واياهم نموت ولا ★ أفلح يوم الحساب من ندما ★

انتهى =

الابعاد فى الجسم بعد تأليف ما كان وهو الطول ، وبعد آخر مقاطع له على زوايا قائمة وهو العرض ، وبعد آخر مقاطع لهما كذلك وهو العمق ، فقوله على زوايا قائمة ليس للاحتراز بل بيان الواقع فان حقيقة الجسم لا يكون

— وقال شيخ الاسلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى فى رسالته الى عبد الله بن سحيم وقد طلب منه أن يذكر له شيئا من معنى كتاب المويس فقال رحمه الله فى الجواب بعد كلام له وذلك أن كتابه مشتمل على الكلام فى ثلاثة أنواع من العلوم (الأول) علم الاسماء والصفات الذى يسمى علم أصول الدين ويسمى أيضا العقائد (والثانى) الكلام على التوحيد والشرك (والثالث) الاقتداء بأهل العلم واتباع الأدلة وترك ذلك ٠

أما الأول فانه أنكر على أهل الوشم انكارهم على من قال ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وهذا الانكار جمع بين اثنتين احداهما انه لم يفهم كلام ابن عبدان وصاحبه «الثانية» انه لم يفهم صورة المسئلة وذلك أن مذهب الامام احمد وغيره من السلف انهم لا يتكلمون فى هذا النوع ٠ الا بما تكلم به الله ورسوله فما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله أثبتوه مثل الفوقية والاستواء والكلام والمجيء وغير ذلك وما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم نفوه مثل المثل والند والسمى وغير ذلك، وأما ما لا يوجد عن الله ورسوله اثباته ولا نفيه مثل الجوهر والعرض والجهة وغير ذلك لا يثبتونه فمن نفاه مثل صاحب الخطبة التى أنكرها ابن عبدان وصاحبه فهو عند احمد والسلف مبتدع ، ومن أثبته مثل هشام ابن الحكم وغيره فهو عندهم مبتدع ، والواجب عندهم السكوت عن هذا النوع اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ٠ الى أن قال : وأنا أذكر لك كلام الحنابلة فى هذه المسئلة ٠

قال الشيخ تقى الدين بعد كلام له على من قال انه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ككلام صاحب الخطبة قال رحمه الله تعالى : فهذه الالفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الالفاظ ولهذا لما سئل ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر والاعراض وانما بعث النبى صلى الله عليه وسلم بانكار ذلك ٠ وكلام السلف والأئمة فى ذم الكلام وأهله مبسوط فى غير هذا الموضع ٠ والمقصود أن الائمة كأحمد وغيره اذا ذكر لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز لم يوافقوهم لا على اطلاق الاثبات ولا على اطلاق النفى ٠ انتهى كلام الشيخ تقى الدين

اذا تدبرت هذا عرفت أن انكار ابن عبدان وصاحبه على الخطيب الكلام فى هذا هو عين الصواب وقد اتبعا فى ذلك امامهما احمد بن حنبل وغيره فى انكارهم ذلك على المبتدعة ففهم صاحبكم انهما يريدان اثبات ضد ذلك وان الله جسم وكذا وكذا تعالى الله عن ذلك ، وظن أيضا أن عقيدة أهل السنة هى نفى أنه لا جسم ولا جوهر ولا كذا ولا كذا وقد تبين لكم الصواب أن عقيدة أهل السنة هى السكوت من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالذى يقول ليس بجسم ولا ولاهم الجهمية والمعتزلة والذين يثبتون ذلك

الا كذلك • ولما نفى كون البارى جل وعز جوهرا أو عرضا أو جسما لاتصاف الاول بالامكان والحقارة والثانى لاحتياجه الى محل يقوم بهوالثالث لأنه مركب فيحتاج الى الجزء فلا يكون واجبا لذاته ولا مستغنيا عن غيره وفى ضمن ما نفاه رد على بعض فرق الضلال من المجسمة كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى صدر هذا الكتاب أعقب ذلك بقوله ((تعالى)) وتقدس ((ذو العلى)) فى ذاته العلية وصفاته القدسية عما يقول الظالمون علوا كبيرا•

ثم ذكر بعد هذا التمهيد المذهب السلفى والاعتقاد الاثرى فقال ((سبحانه)) وانما صدر بالتسبيح اشارة الى تنزيهه تعالى عن قول المعطلة

هو هشام وأصحابه والسلف بريئون من الجميع من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالموليس لم يفهم كلام الأحياء ولا كلام الاموات ، وجعل النفى الذى هو مذهب الجهمية والمعتزلة مذهب السلف وظهر أن من أنكر النفى انه يريد الاثبات كهشام واتباعه ولكن العجب من ذلك استدلاله على فهمه بكلام احمد المتقدم •

ومن كلام أبى الوفاء بن عقيل قال أنا أقطع ان أبا بكر وعمر ماتا وماعرفا الجوهر والعرض • فان رأيت أن طريقة أبى على الجبائى وأبى هاشم خير لك من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت • انتهى •

وصاحبكم يدعى أن الرجل لا يكون من أهل السنة حتى يتبع أبا على وأبا هاشم بنفى الجوهر والعرض فمن أنكر الكلام فيهما مثل أبى بكر وعمر فهو عنده على مذهب هشام الرافضى • فظهر بما قررناه أن الخطيب الذى يتكلم بنفى العرض والجوهر أخذه من مذهب الجهمية والمعتزلة وأن ابن عبدان وصاحبه أنكرا ذلك مثل ما أنكره احمد والعلماء كلهم على أهل البدع انتهى •

فتأمل رحمك الله ما تحت اطلاق هذه الألفاظ المبتدعة المخترعة التى خالف من وضعها سلف الامة وأيمتها واغتر بها من حسن ظنه بهؤلاء الذين قلدوا من ابتدعها من المتكلمين ، الذين ليس لهم قدم صدق فى العالمين حيث أرادوا بها التنزيه ، ووقعوا فى التعطيل والتشبيه ، فساروا على مناهجهم من غير دليل ولا برهان من الكتاب والسنة ، ولا كلام أحد من الأيمة فالله المستعان •

وتأمل ما ذكر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب حيث قال فمن نفاه ـ مثل صاحب الخطبة التى أنكرها ابن عبدان وصاحبه ـ فهو عند احمد والسلف مبتدع والواجب عندهم السكوت عن هذا النوع اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه • الى أن قال : وقد تبين لكم الصواب أن عقيدة أهل السنة هى السكوت من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالذى يقول ليس بجسم ولا ولاهم الجهمية والمعتزلة والذين يثبتون ذلك هو هشام وأصحابه والسلف بريئون من الجميع ،من أثبت بدعوه ومن نفى بدعوه الى آخر كلامه رحمه الله تعالى

الاستواء علـــى العرش والعلو

واعتقاد المثلة ((قد استوى)) على عرشه من فوق سبع سمواته استواء يليق بذاته ((كما ورد)) فى الآيات القرآنية والاحاديث النبويةوالنصوص السلفية مما لا يحصى ويتعذر أن يستقصى فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسول الله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم باحسان رحمهم الله تعالى ثم كلام سائر أئمة الدين ممن تلوى على كلامهم الخناصر ولا ينازع فيه الا كل معاند ومكابر بأن الله تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه • قال شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الامام المحقق ابن القيم فى كتابه الجيوش الاسلامية : هـــذا كتاب الله • وذكر مثل ما ذكرنا وقال ابن القيم فى قوله تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) تأمل ما فى هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلـــين والمشركين ، فقوله خلق السموات والارض فى ستة أيام يتضمن ابطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل وان الله تعالى لم يخلقه بقدرته ومشيئته ، بل من أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلا وأبدا كما يقول ابن سينا والنصير الطوسى وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل والكتب وشهدت به العقول والفطر ،وقوله : ثم استوى على العرش : يتضمن ابطال قول المعطلة الجهمية الذين يقولون ليس على العرش سوى العدم وان الله ليس مستويا على عرشه ولا ترفع اليه الايدى ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح اليه ولا عرج برسوله محمد صلى الله عليه وسلم اليه ولا تعرج الملائكة والروح اليه ولا ينزل من عنده جبريل بوحيه لمن يوحى اليه ـ الخ كلامه رحمه الله تعالى • وقال تعالى(هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقوله (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش

يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه) الآية • وقوله (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى) وقوله (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) وقوله (هو الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم احاطته وعموم رؤيته • وقال تعالى حاكيا عن فرعون (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب * أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا) قال فى الجيوش قال أبو الحسن الاشعرى وقد احتج بهذه الآية على الجهمية فأكذب فرعون موسى عليه السلام فى قوله ان الله فوق السموات • وأما الاحاديث فمنها قصة المعراج فهى متواترة وتجاوز النبى صلى الله عليه وسلم السموات سماء سماء حتى انتهى الى ربه تعالى فقربه وأدناه وفرض عليه خمسين صلاة فلم يزل يتردد بين موسى عليه السلام وبين الله تعالى ينزل من عند ربه الى موسى فيسأله كم فرض ربك عليك فيخبره فيقول ارجع الى ربك فاسأله التخفيف (عن أمتك فيرجع الى ربه فيسأله التخفيف -١) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى تغلب غضبى » وفى لفظ « كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتى تغلب غضبى » وفى لفظ «فهو مكتوب عنده فوق العرش » وكل هذه الالفاظ فى صحيح البخارى • وفى صحيح مسلم من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال « ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » • وذكر الامام البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه

---

(١) من مخ

حديث أنس بن مالك رضى الله عنه حديث الاسراء وفيه « ثم علا به - يعنى جبريل - فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله حتى جاوز سدرة المنتهى ودنا من الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه فيما أوحى خمسين صلاة كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان أمتك لا تستطيع فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار اليه جبريل أن نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تبارك وتعالى » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم فى حكومة سعد بن معاذ فى بنى قريظة « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة ارقعة - وفى لفظ - من فوق سبع سموات » وأصل القصة فى الصحيحين • وفى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه قال لطمت جارية لى فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك على فقلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال : « بلى ائتنى بها • قال فجئت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها أين الله ؟ فقالت : فى السماء • قال فمن أنا • قالت أنت رسول الله قال انها مؤمنة • وفى لفظ قال « أعتقها فانها مؤمنة » قال الامام الحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه (العرش) : رواه مسلم وأبو داود والنسائى وغير واحد من الأئمة فى تصانيفهم يدونونه كما جاء • وقال فى أول الحديث : من الاحاديث المتواترة الواردة فى العلو • وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات • وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث الاوعال « والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه » • رواه الامام احمد فى المسند وابن خزيمة فى كتاب التوحيد • وقول عبد لله بن رواحة الذى أنشده النبى صلى الله عليه وسلم

شهدت بأن وعـــد الله حق وان النار مثوى الكافرينـــــا
وان العرش فوق المـــاء طاف وفوق العرش رب العـــالمينا

وقول أمية بن أبى لصلت الثقفى الذى أنشد للنبى صلى الله عليه وسلم

فاستحسنه وقال آمن شعره وكفر قلبه :

مجدوا الله فهو للمجد أهـل ... ربنا فى السـماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذى سبق الخلـ ... ق وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله نظـر العيـ ... ن يرى دونه الملائك صـورا

وقد جاء فى الكتاب والسنة من ذلك ما يتعذر أو يتعسر احصاؤه ، فتارة يخبر أنه خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش كما مر وقد ذكر الله استواءه على العرش فى سبعة مواضع من كتابه ، وتارة يخبر بعروج الاشياء وصعودها وارتفاعها اليه ، وتارة يخبر بنزولها من عنده ، وتارة يخبر بأنه العلى الاعلى كقوله (سبح اسم ربك الاعلى) وقوله (وهو العلى العظيم) ، وتارة يخبر بأنه فى السماء ، وتارة يجعل بعض الخلق عنده دون بعض كقوله تعالى (وله من فى السموات ومن فى الارض ومن عنده) (ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) قال شيخ الاسلام ابن تيمية : فلو كان موجب العندية معنى عاما لدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك لكان كل مخلوق عنده ولم يكن أحد مستكبرا عن عبادته بل مسبحا له ساجدا مع أنه تعالى قال : (ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك ردا على الكفار المستكبرين عن عبادته . قال شيخ الاسلام : وأما الاحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يحصيها الا الله . قال : فلا يخلو اما أن يكون ما اشتركت فيه هذه النصوص من اثبات علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه هو الحق أو الحق نقيضـه اذ الحق لا يخرج عن النقيضين ، واما أن يكون هو جل شأنه نفسه فوق الخلق أو لا يكون فوق الخلق كما يقول الجهمية الذين يقولون هو سبحانه لا فوقهم ولا فيهم ولا داخل العالم ولا خارجه ولا مباين ولا محايث ، وتارة يقولون هو بذاته فى كل مكان ، وفى كلا المقالتين يدفعون أن يكون هو نفسـه فوق ، فاما أن يكون الحق اثبات ذلك أو نفيه فان كان نفى ذلك هو الحق فمعلوم ان القرآن لم يبين هذا قط لا نصا ولا ظاهرا ولا الرسول ولا أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين لا أئمة المذاهب الاربعة ولا غيرهـم

ولا يمكن أحدا أن ينقل عن واحد من هؤلاء انه نفى ذلك أو أخبر به ، وأما نقل الإثبات عن هؤلاء فأكثر من أن يحصى ، فان كان الحق هو النفى دون الاثبات والكتاب والسنة والاجماع انما دل على الاثبات ولم يذكر النفى أصلا لزم أن يكون الرسول والمؤمنون لم ينطقوا بالحق فى هذا الباب بل نطقوا بما يدل اما نصا واما ظاهرا على الضلال والخطأ المناقض للهدى والصواب ، ومعلوم ان من اعتقد هذا فى الرسول والمؤمنين فله أوفر حظ من قوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) فان القائل اذا قال : هذه النصوص أريد بها خلاف ما يفهم منها أو خلاف ما دلت عليه أو انه لم يرد اثبات علو الله نفسه على خلقه وانما اريد به علو المكانة ونحو ذلك ، فيقال له فكان يجب أن يبين للناس الحق الذى يجب التصديق به باطنا وظاهرا ، بل ويبين لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يرد به مفهومه ومقتضاه فانه غاية ما يقدر انه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة والباطن المخالف للظاهر ومعلوم باتفاق العقلاء ان المخاطب المبين اذا تكلم بمجاز فلابد أن يقرن بخطابه ما يدل على ارادة المعنى المجازى ، فاذا كان الرسول المبلغ المبين الذى بين للناس ما أنزل اليهم علم ان المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرد لا سيما اذا كان باطلا لا يجوز اعتقاده فى الله فانه عليه أن ينهاهم عن أن يعتقدوا فى الله ما لا يجوز اعتقاده اذا كان ذلك مخوفا عليهم ولو لم يخاطبهم بما يدل على ذلك فكيف اذا كان خطابه هو الذى يدلهم على ذلك الاعتقاد الذى يقول النفاة انه اعتقاد باطل ، فاذا لم يكن فى الكتاب ولا السنة ولا كلام أحد من السلف والائمة ما يوافق قول النفاة أصلا بل هم دائما لا يتكلمون الا بالاثبات امتنع حينئذ أن لا يكون مرادهم الاثبات وأن يكون النفى هو الذى يعتقدونه ويعتمدونه وهم لم يتكلموا به قط ولم يظهروه وانما أظهروا ما يخالفه وينافيه . وهذا كلام متين لا مخلص لأحد عنه . قال شيخ الاسلام روح الله روحه : لكن للجهمية المتكلمة هنا كلام وللجهمية المتفلسفة كلام أما المتفلسفة والقرامطة

فيقولون ان الرسل كلموا الخلق بخلاف ما هو الحق وأظهروا لهم خلاف ما يبطنون وربما يقولون انهم كذبوا لأجل مصلحة العامة فان مصلحة العامة لا تقوم الا باظهار الاثبات وان كان فى نفس الامر باطلا .. هذا مع ما فيه من الزندقة البينة والكفر الواضح قول متناقض فى نفسه فانه يقال لو كان الامر كما تقولون والرسل من جنس رؤسائكم لكان خواص الرسل يطلعون على ذلك ولكانوا يطلعون خواصهم على هدا الامر فكان يكون النفى مذهب خاصة الامة وأكملها عقلا وعلما ومعرفة ، والامر بالعكس فان من تأمل كلام السلف والائمة وجد أعلم الامة عند الامة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ بن جبل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وأبى بن كعب وأبى الدرداء وعبد الله بن عباس وعبدالله ابن عمر وعبد الله بن عمرو وأمثالهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين هم أعظم الخلق اثباتا ، وكذلك أفاضل التابعين مثل سعيد بن المسيب والحسن البصرى وعلى بن الحسين وأصحاب ابن مسعود وأصحاب ابن عباس وهم من أجل التابعين وأمثالهم ، بل المنقول عن هؤلاء فى الاثبات يجبن عن اظهاره كثير من الناس ، وعلى ذلك تأول يحيى بن عمار وصاحبه شيخ الاسلام أبو اسماعيل الانصارى ما يروى ان من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه الا أهل العلم بالله فاذا ذكروه لم ينكره الا أهل الغرة بالله .تأولوا ذلك على ما جاء من الاثبات لان ذلك ثابت عن الرسول والسابقين والتابعين لهم باحسان بخلاف النفى فانه لا يوجد عنهم ولا يمكن حمله عليه . وقد جمع علماء الحديث من المنقول عن السلف فى الاثبات ما لا يحصى عدده الا رب السموات ولم يقدر أحد أن يأتى عنهم فى النفى بحرف واحد الا أن يكون من الاكاذيب المختلقة التى ينقلها من هو أبعد الناس عن معرفة كلامهم . (قلت) وقد أكثر العلماء من التصنيف ، واجلبوا بخيلهم ورجلهم من التأليف ، فى ثبوت العلو والاستواء ونبهوا على ذلك بالآيات والحديث وما حوى ، فمنهم الراوى الاخبار بالاسانيد ، ومنهم الحاذف لها وأتى بكل لفظ مفيد ، ومنهم المطول المسهب ، ومنهم المختصر والمتوسط والمهذب ، فمن ذلك مسألة العلو لشيخ الاسلام ابن تيمية والعلو للامام

الموفق صاحب التصانيف السنية ، والجيوش الاسلامية للامام المحقق ابن قيم الجوزية (١) وكتاب العرش للحافظ شمس الدين الذهبى صاحب الانفاس العلية ، وما لا أحصي عدهم الا بكلفة والله تعالى الموفق •

قال العلامة الشيخ مرعى الكرمى الحنبلى فى كتابه (أقاويل الثقات • فى تأويل الاسماء والصفات) ومما احتج به أهل الاثبات بانه الذى طبع الله عليه أهل الفطرة العقلية السليمة من الاولين والآخرين الذين يقولون انه فوق العالم اذ العلم بذلك فطرى عقلى ضرورى لا يتوقف على سمع قالوا ولم يقل قائل يا الله الا وجد من قلبه ضرورة يطلب العلو بحيث لا يمكن رفع هذه الضرورة عن القلوب ولا يلتفت الداعى يمنة ولا يسرة • واما العلم بانه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والارض فى سته أيام فهذا سمعى علم بالوحى على الانبياء فاخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك • قال سيدنا الشيخ الكبير (الشيخ عبد القادر الجيلى) الحنبلى قدس الله سره فى كتاب (الغنية فى الفقه) قال : وهو تعالى بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالاشياء « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه » الآية ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال انه فى السماء على العرش استوى على العرش كماقال الله تعالى :(الرحمن على العرش استوى)•ثم قال : وينبغي اطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وانه استواء الذات على العرش• ثم قال : وكونه (مستويا ـ ٢) على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبى أرسل بلا كيف • وهذا نص كلامه قدس الله سره فى الغنية • وقال الامام القرطبى فى تفسيره فى سورة الاعراف : وقد كان السلف الاول رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله قال : ولم ينكر أحد من السلف الصالح الصالح انه تعالى استولى على عرشه حقيقة • انتهى • وقال أبو نعيم الحافظ فى كتابه (محجة الواثقين) وأجمعوا أن الله فوق سمواته

---

(١) بهامش مخ « هى مدرسة أقامها والده بالقرب من باب العنبرانية باب القبلة فى دمشق الشام »

(٢) من مخ وعليها «صح»

وانه عال على عرشه مستو عليه لا مستول كما تقول الجهمية • وقال ابن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف : وأما هذه الصفة-يعني القـول بالجهة فلم تزل أهل الشريعة يثبتونها حتى نفتها المعتزلة ومتأخرو الاشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقولهم • ثم قال : وقد ظهر ان اثبات الجهة واجب شرعا وعقلا ـ الخ كلامه •

الاشعرى يثبت العلو الذاتى

وقيل للامام عبد الله بن المبارك : كيف نعرف ربنا ؟ قال : بانه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه • على أن نفس الامام أبي الحسن الاشعري في كتابه (الابانة) قال : ان الله مستو على عرشه كمـا قال (الرحمن على العرش استوى) وقال : (اليه يصعد الكلم الطيب) وقال : (لعلي أطلع الى اله موسى وانه لاظنه من الكاذبين) كذاب موسى في قوله ان الله فوق السموات • وقال : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكـم الارض) فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات وكان كل ما علا فهو سماء قال (أأمنتم من في السماء) وانما أراد العرش الذى هو أعلى السموات • قال ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم اذا دعوا الى نحو السماء لان الله مستو على العرش الذى فوق السموات فلولا ان الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش • قال وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : ان معنى استوى استولى وملك وقهر وان الله في كل مكان ، وجحدوا ان يكون على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء الى القدرة ، فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش والارض السابعة ، لان الله تعالى قادر عـلى كل شيء والارض فالله قادر عليها وعلى الحشوش ، فلو كان مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال انه مستو على الاشياء كلها مع انه لم يجز عند أحـد المسلمين أن يقال ان الله تعالى مستو على الحشوش والاخلية فبطل أن يكـون الاستواء على العرش الاستيلاء • ثم بسط الادلة على هذه المسئلة من الكتاب والسنة والعقل بما يطول نقله •

وقال الاشعرى أيضا في كتابه (جمل المقالات) : قال أهل السـنة وأصحاب الحديث : الله ليس بجسم (١) ولا يشبه الاشياء وانه على العرش كما

---

(١) راجع التعليق على ص ١٨٢

قال عز وجل (الرحمن على العرش استوى) ولا تتقدم بين يدى الله فى القول بل نقول استوى بلا كيف وانه نور كما قال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) • الى أن قال : ولم يقولوا شيئا الا ما وجدوه من الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : وقالت المعتزلة ان الله استوى على عرشه بمعنى استولى • هذا نص كلامه • فالاشعرى انما حكى تأويل الاستواء بالاستيلاء عن المعتزلة والجهمية وصرح بخلافه وانه خلاف قول أهل السنة • وكذلك قال محيى السنة الحسين بن مسعود فى تفسيره تابعا لابى الحسن الاشعرى • وقال القاضى أبو بكر بن الباقلانى وهو من أفضل متكلمى الاشعرية : فان قال قائل فهل تقولون انه تعالى فى كل مكان ؟ قيل له معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر وقال : (اليه يصعد الكلم الطيب) • وساق الآيات المتقدمة • ثم قال : ولو كان فى كل مكان لكان فى بطن الانسان والحشوش ولصح أن يرغب اليه نحو الارض والى خلفنا ويميننا وشمالنا • قال وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله • وأطال فى الاستدلال فى كتابه (التمهيد فى أصول الدين) وهو من أشهر كتبه •

والباقلانى أيضا

قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وكثير من الناس صار منتسبا الى بعض طوائف المتكلمين متوهما انهم حققوا فى هذا الباب ما لم يحققه غيرهم فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشىء من كلامهم ، ثم هم مع هذا مخالفون لاسلافهم غير متبعين لهم ، قال : ومن كان لا يقبل الحق الا من طائفة معينة ولا يتبع ما جاءه من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم : (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم) فكذلك من يتعصب لطائفة بلا برهان من الله • انتهى •

نفى استلزام القول بالاستواء والعلو للتجسيم

اذا علمت هذا فاعلم ان كثيرا من الناس يظنون ان القائل بالجهة او الاستواء هو من المجسمة لانهم يتوهمون ان من لازم ذلك التجسيم وهذا وهم فاسد وظن كاذب وحدس حائد لانا نقول أولا لمن ارتكب هذا المركب لازم المذهب ليس بمذهب عند أئمة أهل التحقيق وذوى النباهة والمعرفة

والتصديق فكيف يحسن ان ينسب الى المرء شيء من لوازم كلامه ، وهو من أبعد الناس عنه بقصده ومرامه • فان أهل الاثبات المتبعين للمنصوص من الاخبار والآيات ، ينزهون الله تعالى عن التكييف والحد(١)ويعتقدون ان من وصفه تعالى بالجسم أو كيف فقد زاغ وألحد • ولهذا قال لما أثبت له صفة الاستواء كما ورد فى القرآن العظيم والذكر الحكيم نؤمن بانه عز وجل استوى على عرشه ((من غير كيف)) كما روى اللالكائى الحافظ فى كتابه (السنة) من طريق قرة بن خالد عن الحسن البصرى عن أمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها عن أم سلمة رضى الله عنها انها قالت فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة والبحث عنه كفر • وهذا له حكم المرفوع لان مثله لا يقال من قبل الرأى • وفى لفظ آخر قالت الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به من الايمان والجحود به كفر • وروى يحيى بن آدم عن أبيه وابن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن ـ المشهور بربيعة الرأى وهو شيخ الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ـ عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق • وروى نحو ذلك أيضا عن الامام مالك رضى الله عنه فقد ذكر الامام يوسف بن عبد البر فى كتابه (التمهيد) قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن قال حدثنا احمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا عبد الله بن احمد بن حنبل قال حدثنا أبى قال حدثنا سريج (١) بن النعمان قال حدثنا عبد الله بن نافع قال : قال الامام مالك بن أنس : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو منه مكان • قال وقيل لمالك : الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فقال مالك رحمه الله : استواؤه معلوم وكيفيته مجهولة وسؤالك عن هذا بدعة وأراك رجل سوء • ويروى عن الشعبى انه سئل عن الاستواء فقال : هذا من متشابه القرآن نؤمن به ولا

ما نقل عن بعض السلف فى الاستواء

(١) يأتى ما فيه فى التعليق على ص ٢٠١

(١) فى الاصلين « شريح » خطأ

تتعرض لمعناه • وروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه انه سئل عن الاستواء فقال : آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسى فى الادراك وامسكت عن الخوض غاية الامساك • وعن سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه انه لما سئل عن الاستواء أجاب بقوله استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر •

فمعنى قول أم سلمة رضى الله عنها فى الحديث ومن نحا نحوها من الائمة:الاستواءمعلوم أى وصفه تعالى بأنه تعالى على العرش (استوى) استواءمعلوم بطريق النقل الثابت بالتواتر (١) وأما الوقوف على حقيقة أمر يعود الى الكيفية فمجهول والجهالة فيه من جهة انه لا سبيل لنا الى معرفة الكيفية لانها تبع للماهية ، وقولهم « والسؤال عنه بدعة» لان الصحابة رضى الله عنهم لم يسألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعين لم يسألوا الصحابة ، ولان جوابه يتضمن الكيفية ، ولهذا قيل فى الجواب لمن دخلت عليهم الشبهة طالبين بسؤالهم التكييف : والكيف مجهول (٢) فالذى ثبت نفيه بالشرع والعقل واتباع السلف انما هو علم العباد بالكيفية فعندها تنقطع الاطماع وعن دركها تقصر العقول • والوقوف على درج سلم التسليم منتهى همم الائمة الفحول ، ولهذا قال فى تتمة نظمه ملوحا بالرد على الممثل والمعطل بقوله ((قد تعالى)) الله علا وجل،ولسنا فى اتباع المأثور مع التسليم للمولى الحكيم على وجل ، فانا نقتفى أثر المأثور ، ونشهر سيوف السنة لاعناق أهل البدع والنفى باتباع المشهور ، ونرد على كل من ألحد

---

(١) بهامش مخ ما نصه :

« يشير الشارح رحمه الله الى أن معنى قول مالك رحمه الله الاستواء معلوم أى ورود هذا اللفظ معلوم وقد قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى فى أثناء كلام له على الاستواء : ومنه قول مالك الاستواء معلوم ، وليس المراد أن هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قال بعض الناس استولى أم لا وانه يسأل عن الكيفية ومالك جعله معلوما والسؤال عن نزول لفظ الاستواء ليس بدعة والكلام فيه فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون وانما البدعة السؤال عن الكيفية • ثم قال : فقد أخبر مالك رضى الله عنه أن نفس الاستواءمعلوم وأن كيفية الاستواء مجهولة قال ولم يرد مالك رحمه الله أن الاستواء معلوم فى اللغة دون الآية لانه سئل عن الاستواء فى الآية •

(٢) مخ « والكيف غير معقول »

القول بالحد

بأن الله تعالى وتقدس وتنزه من ((أن يحد)) أو يقاس بما يحد (١)، وفيه اشارة الى رد زعم من زعم بأنه يلزم من كونه تعالى مستويا على عرشه أن

---

(٣) بهامش «مخ» مانصه :
قال شيخ الاسلام رحمه الله فى قاعدة له قال على بن الحسن بن شقيق قلت لعبد الله بن المبارك بماذا نعرف ربنا ؟ قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . قلت بحد ؟ قال : بحد لا يعلمه غيره . وهذا مشهور عن ابن المبارك ثابت عنه من غير وجه وهو نظر صحيح ثابت عن احمد بن حنبل واسحق بن راهويه وغير واحد من الأيمة . انتهى . وقال القاضي أبو يعلى فى كتاب ابطال التأويل : اذا ثبت استواؤه سبحانه وانه فى جهة وان ذلك من صفات الذات فهل يجوز اطلاق الحد عليه ؟ قد أطلق احمد القول بذلك فى رواية المروذى وذكر له قول ابن المبارك نعرف الله على العرش بحد ، فقال احمد : بلغنى ذلك وأعجبه . وقال الاثرم قلت لأحمد يحكى عن ابن المبارك : نعرف ربنا فى السماء السابعة على عرشه بحـــد . فقال أحمد : هكذا هو عندنا . ثم ذكر عن أبى داود قال جاء رجل الى أحمد بن حنبل فقال له : لله تبارك وتعالى حد ؟ قال نعم لا يعلمه الا هو قال الله تبارك وتعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش) يقول محدقين . فقد أطلق احمد القول باثبات الحد لله تعالى . وقد نفاه فى رواية حنبل فقال نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد فقد نفى الحد عنه على الصفة المذكورة وهو الحد الذى يعلمه خلقه
وفى تنبيه ابن سحمان ص ٤١ مالفظه :
« اعلم وفقك الله أن هذا الكلام الذى أورده الشارح فى هذا المقام من الالفاظ المجملة الموهمة المطلقة المحتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعانى وتنزيل ألفاظها عليها كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الالفاظ المبتدعة المخترعة التى لم ينطق بها سلف الامة وأئمتها: ويقولون نحن ننزه الله تعالى عن الاعراض والاغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث ، فيسمع الغر المخدوع هذه الالفاظ فيتوهم منها انهم ينزهون الله عما يفهم من معانيها عند الاطلاق من العيوب والنقائص والحاجة فلا يشك انهم يمجدونه ويعظمونه ويكشف النـــاقد البصير ما تحت هذه الالفاظ فيرى تحتها الالحاد وتكذيب الرسل وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله ــ الى آخر كلامه . وقد تقدم . وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه : وكذلك اذا قالوا ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات أوهموا الناس بأن مقصودهم بذلك انه لا تحصره المخلوقات ولا تحوزه المصنوعات وهذا المعنى صحيح ومقصودهم انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وأنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله وأن محمدا لم يعرج به اليه ولم ينزل منه شىء ولا يصعد اليه شىء ولا يتقرب اليه بشىء ولا ترفع الايدى اليه فى الدعاء ولا غيره ونحو ذلك من معانى الجهمية . انتهى . =

يحد . قال الامام القرطبي وابن أبي زيد والقاضي عبد الوهاب من المالكية وجماعة من شيوخ الحديث والفقه وابن عبدالبر والقاضي أبو بكر بن العربي وابن فورك وغيرهم ممن لا يحصى عددهم انه سبحانه مستو على العرش

= فاذا تبين لك هذا فاعلم أن قول الشارح على هذه اللفظة المحتملة الموهمة المطلقة حيث قال : تعالى الله أن يحد ، وفيه الرد على من زعم أنه يلزم من كونه مستويا على عرشه أن يحد ، تعالى الله عن ذلك اذ المحدود محدث والمحدث مفتقر للخالق - الى آخر كلامه هو من كلام أهل البدع من الجهمية وغيرهم ممن نحا نحوهم من المتكلمين فاذا كان هذا هو المفهوم من كلام الناظم والشارح قطعا ولا محيد عنه لاطلاقه ألفاظا لم ينطق بها الكتاب والسنة ولا نطق بها أئمة السلف رضوان الله عليهم بل المتكلم بها من هؤلاء المبتدعة يوهمون الناس أن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ، ولكن مقصودهم هو ماتقدم بيانه عنهم من كلام شيخ الاسلام آنفا واذا كان ذلك فنحن نسوق كلام أيمة السلف رضوان الله تعالى عليهم فى هذا المقام ليتبين لك خطأ الناظم والشارح

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى العقل والنقل بعد أن ذكر كلاما طويلا قال : وقال حنبل فى موضع آخر عن احمد قال (ليس كمثله شيء) فى ذاته كما وصف به نفسه قد أجمل تبارك وتعالى بالصفة لنفسه فحد لنفسه صفة ليس يشبهه شيء فنعبد الله بصفاته غير محدودة ولا معلومة الا بما وصف به نفسه . قال فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ولا يبلغ الواصفون صفته وصفاته منه وله ولا نتعدى القرآن والحديث ، فنقول كما قال ونصفه كما وصف نفسه ولا نتعدى ذلك ولا تبلغه صفة الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضعه كنفه عليه هذا يدل على أن الله تبارك وتعالى يرى فى الآخرة ، والتحديد فى هذا كله بدعة والتسليم لله بأمره بغير صفة ولا حد الا ما وصف به نفسه ، سميع بصير لم يزل متكلما عالما غفورا ، عالم الغيب والشهادة علام الغيوب ، فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد ، وهو على العرش بلا حد كما قال تعالى (ثم استوى على العرش) كيف شاء ، المشيئة اليه عز وجل والاستطاعة ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وكما وصف نفسه سميع بصير بلا حد ولا تقدير قال ابراهيم لأبيه (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) فنثبت أن الله سميع بصير صفاته منه لا نتعدى القرآن والحديث ، والخبر « يضحك الله » ولا نعلم كيف ذلك الا بتصديق الرسول وبتثبيت القرآن ، لا يصفه الواصفون ولا يحده أحد تعالى الله عما تقول الجهمية والمشبهة . (قلت) والمشبهة مايقولون ؟ قال من قال بصر كبصري ويد كيدي ، وقدم كقدمي فقد شبه الله بخلقه وهذا يحده - وهذا كلام سوء وهذا محدود والكلام فى هذا لا أحبه

وقال محمد بن مخلد قال احمد : نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله . =

بذاته وأطلقوا فى بعض الاماكن فوق عرشه • قال القاضى أبو بكر وهو الصحيح الذى أقول به من غير تحديد ولا تمكن فى مكان ولا مماسة • قال شيخ الاسلام ابن تيميه استوى على عرشه على الوجه الذى يستحقه

= وقال يوسف بن موسى ان أبا عبد الله قيل له ولا يشبه ربنا شيئا من خلقه ؟ قال نعم (ليس كمثله شىء) فقول احمد انه ينظر اليهم ويكلمهم كيف شاء واذا شاء وقوله وهو على العرش بلا حد كما قال (ثم استوى على العرش) كيف شاء المشيئة اليه والاستطاعة له ليس كمثله شىء • يبين ان نظره وتكليمه وعلوه على العرش واستواءه على العرش مما يتعلــق بمشيئته واستطاعته ، وقوله بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد • نفى به احاطة علم الخلق به وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه الا بما أخبر به عن نفسه ليتبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته كما قال الشافعى فى خطبة الرسالة : الحمد لله الذى هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه • ولهذا قال أحمد لا تدركه الابصار بحد ولا غاية فنفى أن يدرك له حد أو غاية • فهذا أصح القولين فى تفسير الادراك وقد بسط الكلام على شرح هذا الكلام فى غير هذا الموضع •

وما فى هذا الكلام من نفى تحديد الخلق وتقديرهم لربهم وبلوغهم صفته لا ينافى ما نص عليه أحمد وغيره من الأيمة كما ذكره الخلال أيضا قال حدثنا أبو بكر المروذى قال سمعت أبا عبد الله لما قيل له : روى على بن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك انه قيل له كيف نعرف الله عز وجل ؟ قال على العرش بحد • قال قد بلغنى ذلك عنه — وأعجبه • ثم قال أبو عبدالله : (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) ثم قال (وجاء ربك والملك صفا صفا) قال الخلال وأنبأنا محمد بن على الوراق حدثنا أبو بكر الاثرم حدثنى محمد بن ابراهيم القيسى قال قلت لاحمد بن حنبل يحكى عن ابن المبارك وقيل له (كيف) نعرف ربنا؟ قال: فى السماء السابعة على عرشه بحد • فقال احمد هكذا هو عندنا • وأخبرنى حرب بن اسماعيل قال قلت لاسحاق يعنى ابن راهويه هو على العرش بحد ؟ قال نعم بحد ، وذكر عن ابن المبارك قال هو على عرشه بائن من خلقه بحد ، قال : وأخبرنى المروذى قال : قال اسحاق بن ابراهيم بن راهويه قال الله تبارك وتعالى (الرحمن على العرش استوى) اجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شىء فى أسفل الارض السابعة وفى قعور البحار ورؤوس الاكام وبطون الأودية وفى كل موضع كما يعلم علم مافى السموات السبع ومافوق العرش ، أحاط بكل شىء علما فلا تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات البر والبحر الا وقد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شىء عن معرفة غيره • فهذا بينوا أن ماثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره ، كما قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، فتبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد فلم ينفوا ثبوت ذلك فى نفس الامر ولكن نفوا علم الخلق به ، وكذلك مثل هذا فى كلام عبد العزيز بن عبد الله ابن الماجشون وغير واحد من السلف والأيمة ينفون علم الخلق بقــدره وكيفيته ، وبنحو ذلك قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون

سبحانه من الصفات اللائقة به . قال فان قال قائل لو كان الله تعالى فوق العرش للزم اما ان يكون أكبر من العرش او أصغر أو مساويا وذلك كله

فى كلامه المعروف وقد ذكره ابن بطة فى الابانة وأبو عمر الطلمنكى فى كتابه الاصول ورواه أبو بكر الاثرم قال حدثنا عبد الله بن صالح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة أنه قال : أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتابعت فيه الجهمية ومن خالفها فى صفة الرب العظيم الذى فاتت عظمته الوصف والتقدير وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول عن معرفة قدره . الى أن قال فانه لا يعلم كيف هو الا هو ، وكيف يعرف قدر من لا يموت ولا يبلى ؟ وكيف يكون لصفة شىء منه حد أومنتهى يعرفه عارف ، أو يحد قدره واصف ، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته ، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه - ، الى أن قال : اعرف رحمك الله غناك عن تكلف صفة مالم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ، اذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم مالم يصف؟ هل تستدل بذلك على شىء من طاعته ، أو تنزجر عن شىء من معصيته ؟ وذكر كلاما طويلا الى أن قال : فأما الذى جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكلفا قد استهوته الشياطين فى الارض حيران فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال لا بد ان كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمى عن البين بالخفى يجحد ما سمى الرب من نفسه ويصف الرب بما لم يسم فلم يزل يملى له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) فقال لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد والله أفضل كرامة الله التى أكرم بها أولياءه يومَ القيامة من النظر فى وجهه (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) قد قضى انهم لا يموتون فهم بالنظر اليه ينظرون . وذكر كلاما طويلا كتب فى غير هذا الموضع . ثم ذكر بعد هذا كلام الامام عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه الذى سماه (رد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد ، فيما افتراه على الله فىالتوحيد) فقال : - « باب الحد والعرش » قال أبو سعيد وادعى المعارض أيضا أنه ليس لله حد ولا غاية ولا نهاية ، قال وهذا هو الاصل الذى بنى عليه جهم جميع ضلالاته ، واشتق منها جميع أغلوطاته وهى كلمة لم يبلغنا انه سبق جهما اليها أحد من العالمين فقال له قائل ممن يحاوره قد علمت مرادك أيها الاعجمى تعنى أن الله لا شىء لان الخلق كلهم قد علموا أنه ليس شىء يقع عليه اسم شىء الا وله حد وغاية وصفة ، وأن لا شىء ليس له حد ولا غاية ولا صفة ، فالشىء أبدا موصوف لا محالة ، ولا شىء يوصف بلا حد ولا غاية ،وقولك لا حد له تعنى أنه لا شىء ، قالأ بو سعيد والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية فى نفسه ، لكن نؤمن بالحد ونكل علمه . انتهى .

اذا فهمت هذا وتحققته تبين لك منافاة ماقاله الناظم والشارح لكلام أئمة السلف رضوان الله عليهم لأن مرادهم فى قولهم بلا حد كما قال احمد وهو على العرش بلا حد ، وقوله : وكما وصف نفسه سميع بصير بلا حد ، وقوله لا يصفه الواصفون ولا يحده أحد . فمرادهم بقول بلا حد معناه ما ذكره شيخ الاسلام قدس الله روحه بقوله بلا حد ولا صفة يبلغها

محال ونحو ذلك من الكلام ، والجواب أن يقال أن هذا لم يفهم من كون
الله على العرش الا ما يثبت للاجسام فهذا اللازم تابع لهذا المفهوم واما

واصف أو يحده أحد نفي به احاطة علم الخلق به وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه الا بما أخبر به عن نفسه ليتبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته كما قال الشافعي فى خطبة الرسالة : الحمد لله الذى هو كماوصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه . ولهذا قال احمد لا تدركه الابصار بحد ولا غاية فنفي أن يدرك له حد أو غاية وكذلك ما ذكره الامام عبدالعزيز ابن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون حيث قال وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى يعرفه عارف أو يحد قدره واصف - الى آخر كلامه .

فهذا ما ذكره أيمة السلف رضوان الله عليهم فى معنى قولهم بلا حد وهو خلاف ما فهمه الشارح فى معنى قولهم بلا حد فانه قال وفيه الرد على من زعم انه يلزم من كونه مستويا على عرشه أن يحد تعالى الله عن ذلك اذ المحدود محدث والمحدث مفتقر للخالق . وهذا يوافق ماقاله أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ممن أخذ بأقوال الجهمية المنكرين لعلوه على عرشه ومباينته لمخلوقاته كما ذكر ذلك عنهم الامام عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على بشر المريسى حيث قال : وادعى المعارض أيضا أنه ليس لله حد ولا غاية ولا نهاية . قال وهذا هو الاصل الذى بنى عليه جهم جميع ضلالاته واشتق منها جميع أغلوطاته وهى كلمة لم يبلغنا انه سبق جهما اليها أحد من العالمين ، فقال له قائل ممن يحاوره قد علمت مرادك أيها الاعجمى تعنى أن الله لا شيء لان الخلق كلهم قد علموا أنه ليس شيء يقع عليه اسم الشيء الا وله حد وغاية أو صفه وأن لا شيء ليس له حد ولا غاية ولا صفة فالشيء أبدا موصوف لا محالة ولا شيء يوصف بلا حد ولا غاية وقولك لا حد له تعنى أنه لا شيء . قال أبو سعيد والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية فى نفسه ولكن يؤمن بالحد ويكل علمه . انتهى .

فاذا كان ذلك كذلك تعين ما ذكره أيمة السلف حيث قالوا : كيف نعرف الله عز وجل ؟ قال : على العرش بحد ، كما رواه على بن الحسن ابن شقيق عن عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، وكما رواه الخلال باسناده الى الامام احمد أنه قيل له يحكى عن ابن المبارك وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : على عرشه بحد . قال أحمد : هكذا هو عندنا ، وذكر أيضا عن حرب بن اسماعيل قال : قلت لاسحاق يعنى ابن راهويه هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد . وذكر عن ابن المبارك قال : هو على عرشه بائن من خلقه بحد . ثم قال شيخ الاسلام بعد أن ذكر أقوال أئمة السلف: أنه بحد قال رحمه الله بينوا أن ما أثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره كما قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، فبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد فلم ينفوا ثبوت ذلك فى نفس الامر ، ولكن نفوا علم الخلق به .واعلم انى انما أعدت هذا الكلام وكررته ليتبين لك ما بين اللفظتين من قوله : بلا حد ، ومن قوله : بحد ، لتعلم الفرق بين هاتين اللفظتين كما بينه شيخ الاسلام فيما تقدم والله أعلم .

استواء يليق بجلال الله ويختص بعظمته فلا يلزم شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام وحال هذا القائل مثل قول من يقول اذا كان للعالم صانع فاما ان يكون جوهرا أو عرضا وكلاهما محال اذ لا يعقل موجود الا كذلك • قال والقول الفصل هو ما عليه الامة الوسط من ان الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ، فكما انه تعالى موصوف بالعلم والبصر والقدرة ولا يثبت لذلك خصائص الاعراض التي للمخلوقين فكذلك سبحانه هو فوق عرشه ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوقين على المخلوق تعالى الله عن ذلك • فلدفع هذا الوهم أشار في النظم لنفي التحديد ، المتحذلق به كل ملحد وعنيد • وقال الامام القرطبي أظهر الاقوال وان كنت لا أقول به ولا أختاره ما تظاهرت عليه الآى والاخبار والفضلاء الاخيار ان الله سبحانه على عرشه كما أخبر في كتابه بلا كيف بائن من جميع خلقه • هذا جملة مذهب السلف الصالح • انتهى • والعجب من القرطبي حيث يقول وان كنت لا أقول به ولا أختاره ولعله خشي من تحريف الحسدة فدفع وهمهم بذلك قاله العلامة الشيخ مرعي • وبهذا قال جماهير الحنابلة لكن قالوا استوى على الوجه الذي يستحقه لذاته مما لا يشاركه فيه المحدث ولا يشابهه ولا يماثله ولا يدل على اثبات كمية ولا صفة كيفية بل على الوجه الذي يستحقه الله لنفسه • قالوا والى هذا الاشارة في حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها في الحديث المار : الاستواء معلوم والكيف مجهول — الحديث ، ورضي الله تعالى عن الامام مالك حيث قال : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم لجدل هؤلاء ؟ وكل من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر فلم يبق الا الرجوع لما قاله الله ورسوله والتسليم لهما •

« تنبيهات »

خطأ الناس من جهة التأويل والقياس

« الاول » قال سيدنا الامام أحمد رضي الله عنه أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل • والقياس فالتأويل في الادلة السمعية والقياس في الادلة العقلية • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه وهو كما قال والتأويل الخطأ انما يكون في الالفاظ المتشابهة والقياس الخطأ انما يكون في

المعانى المتشابهة • قال شيخ الاسلام وقد وقع بنو آدم فى عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات حتى آل الامر بمن يدعى التحقيق والتوحيد والعرفان منهم الى أن اشتبه عليهم وجود الرب بوجود كل موجود وهذا غاية الضلال والهذيان • ثم قال شيخ الاسلام روح الله روحه ما أخبر به الرسول عن ربه فانه يجب الايمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرف لانه الصادق المصدوق ، فما جاء فى الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الايمان به وان لم يفهم معناه ، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الامة وأئمتها مع ان هذا الباب يوجد عامته منصوصا فى الكتاب والسنة متفقا عليه بين سلف الامة ، وما تنازع فيه المتأخرون نفيا واثباتا فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحدا على اثبات لفظ أو نفيه حتى يعرف مراده فان أراد حقا قبل وان أراد باطلا رد وان اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، قال كما تنازع الناس فى الجهة فلفظ الجهة قد يراد به شىء موجود غير الله فيكون مخلوقا كما اذا أريد بالجهة نفس العرش او نفس السموات وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى كما اذا أريد بالجهة ما فوق العالم ومعلوم انه ليس فى النص اثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج اليه ونحو ذلك وقد علم انه ماثم موجود الا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق سبحانه وتعالى ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته ، فيقال لمن نفى أتريد بالجهة انها شىء موجود مخلوق فالله ليس داخلا فى المخلوقات أم تريد بالجهة ما وراء العالم فلا ريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات، وكذلك يقال لمن قال الله فى جهة أتريد بذلك ان الله فوق العالم أو تريد به ان الله داخل فى شىء من المخلوقات فان أردت الاول فهو حق وان اردت الثانى فهو باطل ، وكذلك لفظ المتحيز ان أراد به ان الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر قد وسع كرسيه السموات والارض وقد قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه) وقد ثبت فى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال :

« يقبض الله الارض ويطوى السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الارض » وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن فى يد الرحمن الا كخردلة فى يد أحدكم ». وفى حديث آخر : « وانه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة » . قال وان أراد به انه منحاز عن المخلوقات أى مباين لها ومنفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه كما قال أئمة السنة فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . كما ذكره فى التدمرية . وقال شيخ الاسلام فى التدمرية أيضا : أما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل . وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع ، وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا مداخله ، فيظن المتوهم انه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام كقوله : (وسخر لكم من الفلك والانعام ما يركبون لتستووا على ظهوره) فيتخيل انه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والانعام فتعالى الله وتقدس فهذا خطأ فى مفهوم استوائه تعالى على العرش حيث ظن انه مثل استواء الانسان فانه ليس فى اللفظ ما يدل على ذلك لانه تعالى أضاف الاستواء الى نفسه الكريمة كما أضاف اليه سائر أفعاله وصفاته فذكر أنه خلق ثم استوى ، كما ذكر أنه قدر فهدى ، فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته ، وقد علم انه تعالى الغنى عن الخلق وانه الخالق للعرش ولغيره وان كل ما سواه مفتقر اليه وهو الغنى عن كل ما سواه ، فكيف يجوز أن يتوهم انه تعالى اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ أو جوزه على رب العالمين الغنى عن الخلق المجيد المتعال .

عبارة للدوانى فى شأن الجهة

(الثانى) قال الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية ما لفظه : ولابن تيمية أبى العباس أحمد وأصحابه ميل عظيم الى اثبات الجهة ومبالغة فى القدح فى نفيها ، قال ورأيت فى بعض تصانيفه انه لا فرق عند بديهة العقل

بين أن يقال هو معدوم وبين أن يقال طلبته فى جميع الامكنة فلم أجده ونسب النافين الى التعطيل ، قال هذا مع علو كعبه فى العلوم النقلية والعقلية كما يشهد به من تتبع تصانيفه • قال ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ان الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة الفوق كما خص الكعبة بكونها بيت الله ولذلك يتوجه اليها فى الدعاء • قال ولا يخفى انه ليس فى هذا القدر غائلة أصلا لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول وأنكر كون الفوق قبلة الدعاء بل قال قبلة الدعاء هو بعينه نفسه كما ان نفس الكعبة قبلة الصلاة وصرح بكونه جهة الله حقيقة من غير تجوز اه كلامه بحروفه • قلت ليس شيخ الاسلام بأول من نسب النافين للتعطيل فهذا أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وهو الذى تبع طريقته ابو الحسن الاشعرى وان خالفه فى بعض الاشياء الا انه على نهجه فى اثبات الصفات والفوقية وعلو الله على عرشه ، قال ابن كلاب فى كتبه أخرج من الاثر والنظر من قال انه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه • وحكى عنه أبو الحسن الاشعرى انه كان يقول ان الله مستو على عرشه كما قال وانه فوق كل شىء • هذا لفظ حكاية الاشعرى وحكى عنه أبوبكر ابن فورك فيما جمعه من مقالاته فى كتاب المجرد : أخرج من النظر والخبر قول من قال لا هو فى العالم ولا خارجا عنه فنفاه نفيا مستويا لانه لو قيل له صفه بالعدم ما قدر أن يقول أكثر من هذا • وقال ابن كلاب ان قالوا لا فوق ولا تحت أعدموه لان ما كان لا فوق ولا تحت عدم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : ولما رجع الاشعرى عن مذهب المعتزلة سلك طريق ابن كلاب ومال الى أهل السنة والحديث وانتسب الى الامام أحمد كما قد ذكر ذلك فى كتبه كلها كالابانة والموجز والمقالات وغيرها • وقال شيخ الاسلام فى رسالته التدمرية بعد أن ذكر ان الذين لا يصفونه الا بالسلوب لم يثبتوا فى الحقيقة الها محمودا بل ولا موجودا • قال وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك كالذين قالوا انه لا يتكلم ولا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش ويقولون ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا محايث له ، اذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها

المعدوم وليست هي مستلزمة صفة ثبوت ، ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك في الخالق ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم . انتهى .

عبارة لعماد الدين الواسطي في تقريب اثبات الجملة

(الثالث) ذكر الامام أبو العباس عماد الدين أحمد بن ابراهيم الواسطي الصوفي المحقق العارف تلميذ شيخ الاسلام بن تيمية قدس الله سرهما الذي قال فيه شيخ الاسلام انه جنيد زمانه في رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله في مسئلة العلو والفوقية والاستواء هو أن الله عز وجل كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء ولا فضاء ولا هواء ولا خلاء ولا ملأ وانه كان منفردا في قدمه وأزليته متوحدا في فردانيته لا يوصف بأنه فوق كذا اذ لا شيء غيره هو تعالى سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم وهو لا زمان له تعالى وهو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته فلما اقتضت الارادة المقدسة خلق الاكوان المحدثة المخلوقة المحدودة ذات الجهات اقتضت الارادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث فكون الاكوان وجعل جهتي العلو والسفل واقتضت الحكمة الالهية ان يكون الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته اذ لا فوق فيها ولا تحت والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وأزليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته ولا في صفاته ما لم يكن له في قدمه وأزليته فهو الآن كما كان ، لما أحدث المربوب المخلوق ذا الجهات والحدود والخلا والملا ذا الفوقية والتحتية كان مقتضى حكم العظمة الربوبية أن يكون فوق ملكه وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون فاذا أشير اليه بشيء يستحيل أن يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة بل لا يليق أن يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية . ثم الاشارة هي بحسب الكون وحدوثه واسفله فالاشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلى جزء من الكون فانها اشارة الى جسم وتلك

اشارة الى اثبات . اذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له سبحانه وتعالى فى قدمه لكن لم يظهر حكمها الا بعد خلق العرش ، كما أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها الا فى الآخرة ، وكذلك التجلى فى الآخرة لا يظهر حكمه الا فى محله ، قال فاذا علم ذلك فالامر الذى تهرب المتأولة منه حيث أولوا الفوقية بفوقية المرتبة والاستواء بالاستيلاء فنحن أشد الناس هربا من ذلك وتنزيها للبارى تعالى عن الحد الذى يحصره فلا يحد بحد يحصره بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته ، والاشارة الى الجهة انما هو بحسب الكون واسفله اذ لا تمكن الاشارة اليه الا هكذا وهو فى قدسه سبحانه منزه عن صفات الحدث وليس فى القدم فوقية ولا تحتية وانما من هو محصور فى التحت لا يمكنه معرفة بارئه الا من فوقه فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة وتنتهى الجهات عند العرش ويبقى ما وراءه لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم فتقع الاشارة عليه كما يليق به مجملا مثبتا لا مكيفا ممثلا . (قال) فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهه التأويل وعماوة التعطيل وحماقة التشبيه والتمثيل وأثبتنا علو ربنا وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح فى ذلك والصدر ينشرح له فان التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف فى ذلك جهل وغى مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه فى تعريفنا اياها ، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف فى ذلك . قال وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى والله أعلم .

العرش كرى أم لا وما يترتب على ذلك

وذكر شيخ الاسلام فى كتابه فى العرش ما حاصله : اختلف فى العرش هل هو كرى كالافلاك فيكون محيطا بها واما ان يكون فوقها وليس هو كريا فان كان الاول فمن المعلوم باتفاق من يعلم ان الافلاك مستديرة كرية الشكل ان الجهة العليا هى جهة المحيط وهو المحدد وان الجهة السفلى هى المركز وليس للافلاك الا جهتان العلو والسفل فقط . واما الجهات الست

فهى للحيوان وليس لها فى نفسها صفة لازمة بل هى بحسب الاضافة فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ويكون امام هذا ما يكون خلف هذا ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا لكن جهة العلو والسفل للافلاك لا تتغير فالمحيط هو العلو والمركز هو السفل مع ان وجه الارض التى وضعها الله للانام وارساها بالجبال هو الذى عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والانهار الجارية فاما الناحية الاخرى من الارض فالبحر محيط بها وليس هناك شىء من الآدميين وما يتبعهم ولو قدر أن هناك أحدا لكان على ظهر الارض ولم يكن من فى هذه الجهة تحت من فى هذه ولا من فى هذه تحت من فى هذه كما ان الافلاك محيطة بالمركز وليس احد جانبى الفلك تحت الآخر ولا القطب الشمالى تحت القطب الجنوبى ولا بالعكس وان كان الشمالى هو الظاهر لنا فوق الارض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثون درجة وهو الذى يسمى عرض البلد ، فاذا قدر ان العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقا فلا يتوجه اليه والى ما فوقه الانسان الا من العلو لا من جهاته الباقية أصلا ومن توجه الى الفلك التاسع او الثامن او غيره من غير جهة العلو كان جاهلا باتفاق العقلاء فكيف بالتوجه الى العرش او الى ما فوقه ؟ وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها احاطة تليق بجلاله فان السموات السبع والارض فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن الا كخردلة فى يد أحدكم . وهذا الاثر وأمثاله معروفة فى كتب الحديث . قال شيخ الاسلام : ومن المعلوم ان الواحد منا ولله المثل الاعلى اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها فاحاطت بها قبضته وان شاء لم يقبضها بل جعلها تحته فهو فى الحالين مباين لها والعرش سواء كان هذا الفلك التاسع الذى هو الفلك الاطلس عند الفلاسفة ويسمونه الفلك الاعظم وفلك الافلاك او كان جسما محيطا بالفلك التاسع او كان فوقه من جهة وجه الارض غير محيط به فتجب

على كل حال ان يعلم ان العالم العلوى والسفلى بالنسبة الى الخالق فى غاية الصغر كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وفى ذلك من الاحاديث ما سيأتى ذكر بعضها عند ذكر يديه تعالى • وسواء قدر أن العرش محيط بالمخلوقات كاحاطة الكرة بما فيها أو قيل انه فوقها وليس محيطا بها كوجه الارض الذى نحن عليه بالنسبة الى جوفها وكالقبة بالنسبة الى ما تحتها او غير ذلك فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه والعبد فى توجهه الى الله يقصد العلو دون التحت • ثم قال شيخ الاسلام فى آخر كتاب العرش : قد تبين انه سبحانه وتعالى أعظم وأكبر من ان تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك وانها أصغر عنده من الحمصة او الفلفلة ونحو ذلك فى يد أحدنا ، فاذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار أو الكرة التى يلعب بهاالصبيان ونحو ذلك فى يد انسان أو تحته أو نحو ذلك هل يتصور عاقل اذا استشعر علو الانسان على ذلك واحاطته به أن يكون الانسان كالفلك فالله تعالى وله المثل الأعلى أعظم من أن يظن ذلك به وانما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون وبالله التوفيق •

((فلا يحيط علمنا بذاته كذاك لا ينفك عن صفاته))
((فكل ما قد جاء فى الدليل فثابت من غير ما تمثيل))

علم الخلق قاصر عن الاحاطة بالله تعالى

ولما كان الله سبحانه وتعالى بهذه المثابة من العظمة والكبرياء والجلالة وكان الناظم مستشعرا بهذا قال ((فلا يحيط علمنا)) معشر الخلق من الملائكة والانس والجن ولو بذلنا جهدنا فى تحصيل معرفته وأنفذنا أعمارنا فى الدأب فى التدقيق والامعان فى النظر فيما يوصل الى ادراك حقيقته فلا يمكن أن يحيط علمنا ولا أن تدرك عقولنا العلم ((بذاته)) المقدسة وحقيقته المعظمة • قال شيخ الاسلام فى التدمرية : ومثل هذا ـ يعنى عدم العلم بحقائق الصفات والذات ـ يوجد كثيرا فى كلام السلف والائمة ينفون علم العباد بكيفية صفات الله تعالى وانه لا يعلم كيف الله الا الله •

قال فلا يعلم ما هو الا هو ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لاأحصى ثناءعليك أنت كما أثنيت على نفسك » وهذا فى صحيح مسلم وغيره ، وقال فى الحديث الآخر « اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابه أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » والحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم وقد أخبر فيه أن لله من الاسماء ما استأثر به فى علم الغيب عنده فمعانى هذه الاسماء التى استأثر بها فى علم الغيب عنده لا يعلمها غيره ، ونحن نعلم أن أسماء الله تعالى كلها اتفقت فى دلالتها على ذات الله مع تنوع معانيها ، فهى متفقة متواطئة من حيث الذات متباينة من جهة الصفات ، فهى مترادفة بحسب الذات متباينة بحسب الصفات . قال شيخ الاسلام ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم فى الشاهد ، وفي الغائب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فنحن اذا أخبرنا الله بالغيب الذى اختص به من الجنة والنار علمنا معنى ذلك وفهمنا ما أريد منا فهمه بذلك الخطاب وفسرنا ذلك ، وأما نفس الحقيقة المخبر عنها مثل التى لم تكن بعد وانما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لايعلمه الا الله . انتهى .

ولهذا قال بعض الناس ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة الا الاسم كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . قال ابن وهب قال عبد الرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا بالتفاح والرمان وليس هو مثله فى الطعم . وقد أخرج عبد الله ابن الامام احمد رحمهما الله تعالى من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهبط الله آدم من الجنة وعلمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أنها تغير وتلك لا تغير » فالله جل شأنه لا يعلم عباده الحقائق التى أخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر ولا يعلمون حقائق ما أراد بخلقه وأمره من الحكمة ولا حقائق ما صدرت عنه من المشيئة والقدرة فحقيقة ما دل عليه سبحانه وتعالى من حقائق الاسماء والصفات وماله من الجنود الذين يستعملهم فى أفعاله فلا يعلمه الا هو (وما يعلم جنود ربك الا هو) وهذ من تأويل المتشابه الذى لا يعلمه الا الله،

وبهذا يتبين أن التشابه يكون فى الالفاظ المتواطئة كما يكـــون فى الالفاظ المشتركة التى ليست بمتواطئة ، وان زال الاشتباه بما يميز أحـــد المعنيين من اضافة أو تعريف كما اذا قيل فيها أنهار من ماء فهنا قد خص هذا الماء بالجنة فظهر الفرق بينه وبين ماء الدنيا لكن حقيقة ما امتاز به ذلك الماء غير معلومة لنا ، وهو مع ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من التأويل الذى لا يعلمه الا الله ، وكذلك مدلول أسمائه وصفاته التى يختص بها التى هى حقيقتـــه لا يعلمها الا هو ، ولهذا كان الائمة الكبار كالامام احمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . فالحقيقة التى استأثر الله بعلمها لا يعلمها الا هو كما بسط عليه الكلام شيخ الاسلام فى التدمرية وغيرها . ثم قال : وقد افترق الناس فى هذا المقام ثلاث فرق، فالسلف والائمة وأتباعهم آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه وعن اليـــوم الآخر مع علمهم بالمباينة التى بين ما فى الدنيا وبين مافى الآخرة وان مباينة الله تعالى لخلقه أعظم (والفريق الثانى) الذين أثبتوا ما أخبـــر به فى الآخرة من الثواب والعقاب ونفوا كثيرا مما أخبر به من الصفات مثل طوائف من أهل الكلام . (والفريق الثالث) نفوا هذا وهذا كالقرامطة الباطنية والفلاسفة اتباع المشائين ونحوهم من الملاحدة الذين ينكرون حقائق ماأخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ، وهؤلاء الباطنية هم الملاحدة الذين أجمع المسلمون على أنهم أكفر من اليهود والنصارى . والله أعلم . ((كذاك)) أى كما أن علمنا لا يحيط بالذات المقدسة ((لاينفك)) أى لا يخلص ولا يزول ((عن صفاته)) الذاتية وأفعاله الاختيارية فذاته المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين ، وصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين ، فنسبة صفة المخلوق اليه كنسبة صفة الخالق اليه . وليس المنسوب كالمنسوب ولا المنسوب اليه كالمنسوب اليه ، وأراد الناظم بما ذكر الرد على المعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات فانهم يزعمون ان كل من أثبت لله صفة قديمة فهو مشبه ممثل فمن قال لله تعالى علم قديم أو قدرة قديمة كان عنـــدهم مشبها ممثلا لان القدم عند جمهورهم هو أخص وصف الاله فمن أثبت له

اثبات الصفات والرد على النفاة

صفة قديمة فقد أثبت له مثلا قديما فيسمونه ممثلا بهذا الاعتبار • ومثبتو الصفات لا يوافقونهم على هذا بل يقولون أخص وصفه ما لا يتصف به غيره مثل كونه رب العالمين وانه بكل شيء عليم وانه على كل شيء قدير وانه اله واحد ونحو ذلك والصفة لا توصف بشيء من ذلك ثم من هؤلاء الصفاتية من لا يقول في الصفات انها قديمة بل يقول الرب بصفاته قديم ومنهم من يقول هو قديم وصفته قديمة ولا يقول هو وصفته قديمان • ومنهم من يقول هو وصفاته قديمان ولكن يقول :ذلك لا يقتضى مشاركة الصفة له فى شيء من خصائصه فان القدم ليس من خصائص الذات المجردة بل هو من خصائص الذات الموصوفة بالصفات ، والا فالذات المجردة لا وجود لها عندهم فضلا عن أن تختص بالقدم • وقد يقولون الذات متصفة بالقدم والصفات متصفة بالقدم وليست الصفات الها ولا ربا كما أن النبى محدث وصفاته محدثة وليست الصفات نبيا • فهؤلاء المعتزلة اذا أطلقوا على الصفاتية اسم التشبيه والتمثيل كان هذا بحسب اعتقادهم الفاسد الباطل • وهب ان هذا المعنى قد يسمى فى اصطلاح بعض الناس تشبيها فهذا المعنى لم ينفه عقل ولا سمع وانما الواجب نفى ما نفته الادلة الشرعية والعقلية • والقرآن قد نفى مسمى المثل والكفء والند ونحو ذلك والصفة فى لغة العرب ليست مثل الموصوف ولا كفأه ولا نده فلا تدخل فى النص ، وأما العقل فلم ينف مسمى التشبيه فى اصطلاح المعتزلة • وكذلك زعمهم ان الصفات لا تقوم الا بجسم فلو قامت به الصفات للزم أن يكون مماثلا لسائر الاجسام وهذا هـو التشبيه ، وهذا باطل فان الله تعالى لا مثل له بل له المثل الاعلى فلا يجوز أن يشترك هو والمخلوق فى قياس تمثيل ولا فى قياس شمول تستوى أفراده ولكن يستعمل فى حقه تعالى المثل الاعلى وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق به أولى ، وكل ما ينزه عنه المخلوق فالخالق أنزه عنه وأعلى ، فالذى يعتمد عليه نفى النقص والعيب مما هو سبحانه مقدس عنه فهذه الطريق الصحيحة ، والمحجة الرجيحة ، فيثبت له من صفات الكمال ، ما يليق بعزة ذى الجلال ، وينفى مماثلة غيره له فيها فلا يشركه شيء من الاشياء فيما هو من خصائصه ، وكل صفة من صفات الكمال فهو

متصف بها على وجه لا يماثله فيه أحد • فمذهب السلف وأئمة الدين اثبات ما وصف الله به نفسه من الصفات ونفى مماثلته لشيء من لمخلوقات كما تقدم الكلام على الصفات بما لعل فيه كفاية لمن تبصر والله الموفق •

تنبيه

الصفات عين الذات أم غيرها؟

اختلف النظار فى صفات البارى عز وجل هل هى عين ذاته تعالى أو غير ذاته المقدسة ، وبهذه الشبهة نفت المعتزلة الصفات عن الذات لانهم قالوا اما أن تكون الصفات حادثة فيلزم قيام الحوادث بذاته وخلوه تعالى فى الازل عن العلم والقدرة والارادة والحياة وغيرها من الكمالات وصدورها عنه تعالى بالقصد والاختيار أو بشرائط حادثة والجميع باطل بالاتفاق ، واما أن تكون قديمة فيلزم تعدد القدماء ، وهو كفر باجماع المسلمين وقد كفر النصارى بثلاثة قدماء فكيف بالاكثر • والجواب انما المحظور فى تعدد القدماء المغايرة ونحن نمنع تغاير الذات مع الصفات والصفات بعضها مع بعض فينتفى التعدد والتكثر ولئن سلم ما زعموا من تعدد القدماء فالممتنع تعدد القدماء اذا كانت ذوات مستقلة لا تعدد ذات وصفات لها ، فهذا مباين لقول النصارى كما لا يخفى على ذى بصيرة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى شرح العقيدة الاصفهانية :واسم الغير فيه اصطلاحان أحدهما أن الغيرين ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ، والثانى ان الغيرين ماجاز مفارقة أحدهما للآخر ، وعرفا أيضا بأنهما الموجودان اللذان يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر بوجود أو مكان أو زمان ، فالغيرية كون الموجودين يتصور انفكاك أحدهما عن الآخر ، والعينية هى الاتحاد فى المفهوم بلا تفاوت أصلا • فلا يكونان نقيضين بل يتصور بينهما واسطة بأن يكون الشيء بحيث لا يكون مفهومه مفهوم الآخر ولا يوجد بدونه كالجزء مع الكل والصفة مع الذات العلية وبعض صفاتها مع بعض • قال شيخ الاسلام والاول - يعني ان حد الغيرين ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر - اصطلاح المعتزلة والكرامية ، والثانى وهوان حد الغيرين ماجاز مفارقة أحدهما للآخر كما تقدم اصطلاح طوائف من الكلابية والاشعرية ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب الأئمة الاربعة •

قال واما الأئمة كالامام احمد بن حنبل رضى الله عنه وغيره فان لفظ الغير عندهم يحتمل هذا وهذا ، ولهذا كان السلف لا يطلقون القول بأن صفات الله تعالى غيره ولا انها (١) ليست غيره ، فلا يقولون كلام الله غير الله ولا يقولون ليس غير الله ، بل يستفسرون القائل عن مراده فقد يريد الاول وقد يريد الثانى ، وهذه طريقة حذاق النظار فان أراد الاصطلاح الثانى فجزء الشيء اللازم وصفته اللازمة ليس بغير له فلا يكون ثبوته موجبا لافتقاره الى غيره ، وان تكلم بالاول فثبوت الغير بهذا التفسير لا بد منه فانه يمكن العلم بوجوده والعلم بأنه خالق والعلم بعلمه والعلم بارادته وهم يفسرون (٢) عن ذلك بالعقل والعناية وهذه المعانى أغيار على هذا الاصطلاح وثبوتها لازم لواجب الوجود ، واذا كان ثبوت هذه الاغيار لازما له لم يجز القول بنفيها لأن نفيها يستلزم نفى واجب الوجود • واعلم ان مثل هذا وان سمى تركيبا فليس منافيا لوجوب الوجود فاذا قيل واجب الوجود لا يفتقر الى غيره قيل لا يفتقر الى غير يجوز مفارقته له أم الى غير لازم لوجوده ؟ فالاول حق وأما الثانى اذا أريد بالافتقار انه مستلزم له فممنوع • وقال شيخ الاسلام أيضا قدس الله سره فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ما ملخصه : من الناس من يقول كل صفة للرب عز وجل غير الاخرى ، ويقول الغيران ماجاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر • ومنهم من يقول ليست هى غير الاخرى ولا هى هى لأن الغيرين ماجاز وجود أحدهما مع عدم الآخر أو ماجاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود • قال والذى عليه سلف الأمة وأئمتها اذا قيل لهم علم الله وكلام الله هل هو غير الله أم لا لم يطلقوا النفى ولا الاثبات فانه اذا قيل هو غيره اوهم انه مباين له واذا قيل ليس غيره أو هم انه هو بل يستفصل السائل فان أراد بقوله غيره انه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه وان كان مخلوقا فكيف بصفات الخالق ؟ وان أراد بالغير انها ليست هى هو فليست الصفة هى الموصوف فهى غيره بهذا الاعتبار ، واسم

---

(١) فى الاصلين « لانها » كذا
(٢) الظاهر « يعبرون »

الرب اذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال فاسم (الله) جل وعز يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى بل هي داخلة في المسمى ولكنها زائدة على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات • فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات ، وأما في نفس الامر فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى • انتهى • وهذا تحقيق لا مزيد عليه فاحفظه فانه مهم وبالله التوفيق •

ثم أخذ في ذكر الصفات التي يثبتها السلف فقال ((فكل ما)) أي وصف ((قد جاء)) مضمونه ((في الدليل)) الشرعي من الكتاب العظيم وسنة النبي الكريم ووصفه بعد السلف الصالح ((ف)) انه ((ثابت)) له سبحانه وتعالى وموصوف به ((من غير ما)) زائدة لمزيد النفي وتأكيده ((تمثيل)) بل نثبت له ما ورد ولا نتعرض له بتأويل ولا رد فمذهب السلف في آيات الصفات انها لا تؤول ولا تفسر بل يجب الايمان بها وتفويض معناها المراد منها الى الله تعالى فقد روى اللالكائي الحافظ عن محمد بن الحسن قال اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب على الايمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه• قال العلامة الشيخ مرعي وغيره من علمائنا وغيرهم مضت أئمة السلف على الايمان بظاهر ما جاء في الكتاب من آيات الصفات ، وكان الزهري ومالك والاوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والامام احمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وغيرهم رحمهم الله ورضي عنهم يقولون في آيات الصفات مروها كما جاءت وقال سفيان بن عيينة ـ وناهيك به علما وفهما وورعا وزهدا وامامة : وكل ما وصف الله نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم • الى غير ذلك مما ذكرناه أولا ومما لم نذكره مما هو أضعاف اضعافه

((من رحمة ونحوها كوجهه   ويده وكل ما من نهجه))

تعداد الصفات

((وعينه وصفـة النـزول   وخلقه فاحذر من النـزول))
((فسائر الصفات والافعـال   قديمة لله ذى الجـلال))
((لكن بلا كيف ولا تمثيل   رغما لأهل الزيغ والتعطيل))
((فمرها كما أتت فى الذكر   من غير تأويل وغير فكر)) (١)

---

(١) فى التعليقات المنقوله عن الشيخ عبد الله بابطين ما لفظه تقدم الكلام على قول المؤلف رحمه الله فى آيات الصفات أنها تمر كما جاءت عند قوله فكل ماجاء من الآيات . وأما قوله من غير تأويل وغير فكر فينبغى أن يعرف أن التأويل يقع على ثلاثة معان الاول ما اشتهر عند كثـير من المتأخرين وهو أنه صرف اللفظ عن ظاهره وهو صحيح ان كان بدليـل وباطل ان كان بغير دليل والمعنى الثانى انه ما يؤول اليه الامرومنه قوله تعالى هل ينظرون الا تأويله وقوله عن يوسف قال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل والمعنى الثالث التفسير ومنه ما يقوله ابن جرير رحمه الله فى مثل القول فى تأويل قوله تعالى أى فى تفسير قوله تعالى والمؤلف رحمه الله تعالى ان أراد بنفى التأويل المعنى الاول فصحيح فان أهل السنـة لا يصرفون نصوص الصفات عن معناها الظاهر منها بلا دليل وأما أن أراد المعنى الثالث فغير صحيح فان أهل السنة ما زالوا يفسرون أسماء الله تعالى ويبينوا أقسامها من غير تكييف ولا تمثيل وكم لهم من مصنف فى شرح أسماء الله الحسنى وبيان معانيها دون كيفيتها واما أن أرادالمعنىالثانى من التأويل وهو ما يئول اليه الشىء فهذا فيه تفصيل فان أراد نفى معرفة ما يئول اليه من الكيفية فصحيح فان أحدا لا يعلم كيفية صفات البارى وان أراد نفى (معرفة) ما تئول اليه من المعنى فغير صحيح فاننا نعرف معانى أسماء الله وصفاته وان كنا لا نحيط بذلك وأما قوله وغير فكر فانه قد صرح فى الشرح كما ترى بأن المراد وغير فكر فى معناها فان أراد بالمعنى الكيفية وهو بعيد - فصحيح فاننا لن نفكر فى الكيفية لان ذلك تفكير فيما لا سبيل الى الوصول اليه فان الشىء يستحيل معرفته الا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو خبر الصادق عنه وأما ان أراد بمعناها الوصف اللائق بالله فغير صحيح فاننا نفكر فى ذلك ونتأمله ونتعبد لله به انظر الى قوله تعالى (الحى) فاننا نفكر فى كل معنى جليل ووصف كامل يمكن أن يدل عليه اسم الحى مطابقة أو تضمنا أو التزاما فنثبته لله تعالى ثم اذا نظرنا مرة أخرى الى مثل قوله تعالى العليم الخبير أوجب لنا أن نفهم ونفهم معنى العلم فينتج من ذلك مراقبة الله سرا وعلنا والخوف منه وان نخشاه سرا وعلنا كما أشار الى ذلك قوله تعالى (قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فتأمل هذا التفريع وهو الاخبار المستلزم للمجازاة أو العفو اذا شاء الله وكان الذنب غير شرك حق تأمله تجده مفرعا على قوله عالم الغيب والشهادة يوجب لك أكبر المراقبة لله والحاصل أن التفكير فى معانى أسماء الله وصفاته من غير كيف هو ما يعتنقه أهل السنة كما هو معلوم طفحت به كتبهم صغارها وكبارها متونها وشروحها والله أعلم

الرحمة

اذا علمت ذلك فمما يثبته له تعالى السلف دون غيرهم صفة الرحمة وقد أشار اليها بقوله ((من رحمة)) وهى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضى التفضل والانعام كما تقدم فى أول الكتاب • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى شرح العقيدة الاصفهانية : الذى اتفق عليه سلف الامة وأئمتها أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فانه قد علم بالسمع مع العقل ان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله كما قال (هل تعلم له سميا) (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (ولم يكن له كفوا أحد) وقد علم بالعقل أن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، فلو كان المخلوق مثلا للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع والخالق يجب وجوده وقدمه والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه بل يجب حدوثه وامكانه ، فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما فى ذلك وهذا جمع بين النقيضين • قال اذا عرف هذا فنقول ان الله تعالى سمى نفسه فى القرآن العظيم بالرحمن الرحيم ووصف نفسه بالرحمة كما قال (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) (ورحمتى وسعت كل شىء) • قال ومن الناس من جعل رحمة الله تعالى عبارة عما يخلقه من النعمة ، ومنهم من جعل رحمته ارادته لانهم زعموا ان الرحمة لغة رقة القلب وانعطافه وذلك من الكيفيات التابعة للمزاج والله تعالى منزه عنها ، فالمراد بها فى حقه ارادة الخير والاحسان الى من يرحمه ، فان أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال ، دون المبادى التى هى انفعالات ، وقد مر فى أول الكتاب الكلام على الرحمة بما لعله يشفى ويكفى • قوله ((ونحوها)) أى نحو الرحمة من محبته تعالى ورضاه وغضبه ونحو ذلك قال تعالى «يحبهم ويحبونه ـ وألقيت عليك محبة منى ـ ان الله يحب المحسنين ـ و : يحب المتقين ـ و : يحب الصابرين ـ و : يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » قال شيخ الاسلام : ومن الناس من نفى أن تكون له صفة محبة أو رضا أو غضب غير الارادة ، قال علماء الخلف المحبة ميل القلب الى مايلائم الطبع والله

المحبة والرضا والغضب

منزه عن ذلك وحينئذ فمحبة الله تعالى للعبد ارادة اللطف به والاحسان اليه ، ومحبة العبد لله هى محبة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه ، فمعنى يحب الله أى يحب طاعته وخدمته أو يحب ثوابه واحسانه وهذا مذهب جمهور المتكلمين • قال الامام العلامة المحقق الاصولى الطوفى الحنبلى رحمه الله تعالى ذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء الى أن الله تعالى لا يحب وانما محبته محبة طاعته وعبادته • وقالوا أيضا هو لا يحب عباده المؤمنين وانما محبته ارادته الاحسان اليهم • قال والذى دل عليه الكتاب ولاسنة واتفق عليه سلف الامة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق ان الله تعالى يحب ويحب لذاته ، وأما حب ثوابه فدرجة نازلة • وهذا من كلام شيخ الاسلام فانه قال : للناس فى هذا الاصل العظيم ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى يحب ويحب كما قال تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه وهو سبحانه يحب ما أمر به ويحب عباده المؤمنين • قال شيخ الاسلام : وهذا قول سلف الامة وأئمتها وقول أئمة شيوخ المعرفة • (والقول الثانى) انه يستحق أن يحب لكنه لا يحب الا بمعنى أن يريد وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية • (والثالث) انه لا يحب ولا يحب وانما محبة العباد له ارادتهم طاعته ، وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخرى أهل الكلام كالرازى - فيقال لمن نفى رحمة الله ومحبته وغضبه ورضاه ونحوها وأثبت له الارادة : لم نفيت تلك وأثبت له الارادة ؟ فان قيل لأن اثبات هذه الصفات تشبيه لأن الرحمة رقة تلحق المخلوق ، والغضب غليان الدم لارادة الانتقام، ونحو ذلك، والرب منزه عن مثل صفات المخلوقين،قيل له : وكذلك يقول لكمنازعكفي الارادة انالارادة المعروفة ميلالانسان الى ما ينفعه ودفع ما يضره، والله تعالى منزه عنالاحتياج الى عباده وهم لا يبلغونضره ولا نفعه بل هو الغنى عن خلقه كلهم • فان قيل الارادة التى نثبتها لله تعالى ليستمثل ارادة المخلوقين كما انا قد اتفقنا وسائر المسلمين على أنه حى عليم قدير وليس هو مثل سائر الاحياء العلماء القادرين ، قال لك أهل الاثبات : وكذلك المحبة والرحمة ونحوهما التى نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمة المخلوق

ومحبته • فان قلت لا أعقل من الرحمـــة والمحبة الا هذا ، قال لك النفاة ونحن لا نعقل من الارادة الا هــذا ، ومعلوم عند كل عاقل ان ارادتنـــا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة الينا ، وارادته ومحبته ورحمته تعالى بالنسبة اليه ، فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فيثبت له احدى الصفتين وينفى الاخرى وليس في العقل ولا في السمع ما يوجب التفريق • قال شيخ الاسلام فى التدمرية : القول في بعض الصفات كالقول في بعض فان كان المخاطب ممن يقر بأن الله تعالى حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة سميع بسمع بصـــير ببصر متكلم بكلام مريد بارادة ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع فى محبته تعالى ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازا ويفسره اما بالارادة واما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات ، قيل له لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبتــه بل القول في أحدهما كالقول في الآخـــر ، فان قلت ان ارادته مثل ارادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل ، وان قلت لــه ارادة تليق به كما ان للمخلوق ارادة تليق به ، قيل لك وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به ، وله تعالى رضا وغضب يليق به وللمخلوق رضا وغضب يليق به ، فان قال الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، قيل له والارادة ميل النفس الى جلب منفعة أو دفع مضرة ، فان قلت هــذه ارادة المخلوق ، قيل لك وهذا غضب المخلوق ، وكذلك يلزم بالقول في علمه وسمعه وبصره وقدرته ونحو ذلك ، فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقـــال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته ، فان قال تلك الصفات أثبتها بالعقل لأن الفعل دل على القدرة،والتخصيص دل على الارادة، والاحكام دل على العلم وهذه الصفات مستلزمة للحياة والحى لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك ، قال له سائر أهل الاثبات لك جوابان (أحدهما) أن يقـال عدم الدليل المعين لا يســتلزم عدم المدلول المعين فهب ان ما سلكته من الدليل العقلى لا يثبت ذلك فانه لا ينفيه وليس لك أن تنفيه من غير دليل لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت ، والسمع قد دل عليه ولم يعارض ذلك معارض عقـلى ولا سمعى فيجب اثبات ما أثبته الدليـل

السالم عن المعارض المقاوم (الثانى) أن يقال يمكن اثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات فيقال نفع العباد بالاحسان اليهم وما يوجد في المخلوقات من المنافع للمحتاجين وكشف الضر عن المضرورين وأنواع الرزق والهدى والمسرات دليل على رحمة الخالق كدلالة التخصيص على الارادة والمشيئة ، والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته وحياته ، وتارة يدلهم بالنعم والآلاء على وجود بره واحسانه المستلزم رحمته ، وهذا كثير في القرآن وان لم يكن مثل الاول أو أكثر منه لم يكن أقل منه بكثير ، واكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم كما قد ثبت بالشاهد والخبر من اكرام أوليائه وعقاب أعدائه ، والغايات الموجودة في مفعولاته ومأموراته وهى ما تنتهى اليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة تدل على حكمته البالغة كما يدل التخصيص على الارادة وأولى لقوة العلة الغائية ، ولهذا كان ما في القرآن من بيان مخلوقاته من النعم والحكم أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة .

قال شيخ الاسلام طيب الله مضجعه : ومما يوضح ذلك أن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفاته تعالى ليس موقوفا على أن يقوم دليل عقلى على تلك الصفة بعينها فان مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ان الرسول اذا أخبرنا بشىء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم نعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته)[1] ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الأخبار بشأن الربوبية ولا فرق عنده بين ان يخبر الرسول بشىء من ذلك أو لم يخبر به فان ما أخبر به اذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه ومالم يخبر به ان علمه بعقله آمن به ، فلا فرق عند من سلك هذه السبيل

---

(١) مخ « رسالته » ومر نظيره ص ٢٠

بين وجود الرسول واخباره وبين عدم الرسول وعدم اخباره وكان ما يذكر من القرآن والحديث والاجماع عديم الاثر عنده • قال شيخ الاسلام فى شرح الاصفهانية : وقد صرح بهذا أئمة هذا الطريق• قال : ثم أهل الطريق الثبوتية فيهم من يحيل على القياس وفيهم من يحيل على الكشف وكل من الطريقين فيها من الاضطراب والاختلاف ما لا ينضبط وليست واحدة منهما تحصل المقصود بدون الطريق النبوية ، والطريق النبوية بها يحصل الايمان النافع في الآخرة ، ثم ان حصل قياس أو كشف يوافق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم كان حسنا مع أن القرآن قد نبه على الطريق الاعتبارية التى بها يستدل على مثل ما في القرآن كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فاخبر أنه يرى عباده من الآيات المشهودة التى هى أدلة عقلية ما يبين ان القرآن حق ، وليس لقائل أن يقول انما خصت هذه الصفات بالذكر لأن السمع موقوف عليها دون غيرها ، فان الأمر ليس كذلك لأن التصديق بالسمعيات ليس موقوفا على اثبات السمع والبصر ونحو ذلك ، ثم قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : والمقصود هنا التنبيه على أن ما يجب اثباته لله تعالى من الصفات ليس مقصورا على ما ذكره هؤلاء مع اثباتهم بعض صفاته بالعقل وبعضها بالسمع • فان من عرف حقائق أقوال الناس بطرقهم التى دعتهم الى تلك الاقوال حصل له العلم والرحمة فعلم الحق ورحم الخلق وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول صلى الله عليه وسلم فانهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله ، وأما أهل البدع فيبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها • انتهى وبالله التوفيق •

ذكر وجه الله تبارك وتعالى

ثم ذكر من صفات الله التى يثبتها السلف دون غيرهم عدة وبدأ بصفة الوجه له تعالى فقال ((كوجهه)) أى من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه اثبات وجود لا اثبات تكييف وتحديد وهذا الذى نقل الخطابى وغيره انه مذهب السلف والأئمة الأربعة وبه قال الحنفية والحنابلة وكثير من الشافعية وغيرهم وهو اجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفى

الكيفية والتشبيه عنهـــا محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لا اثبـات تكييف فكذلك اثبـات الصفات ، وقالوا انا لا نلتفت في ذلك الى تأويل لسنا منه على ثقة ويقين ، لاحتمال أن يكون المراد غيره لانه مأخوذ بالظن والتخمين ، لا بالقطـع واليقين ، فلا نبنى اعتقادنا عليه ، ولا نرجع عن النص الثابت اليه[1] • فان هذا عند السلف مذموم وناهج هذا المنهج معيب ملوم • قال بعض المحققين : صفات الرب تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت ، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد ، فالمؤمن مبصر بها من وجه أعمى من وجه ، مبصر من حبث الاثبات والوجود أعمى من حيث التكييف والتحديد ، قال الله تعالى في محكم كتـــابه « ويبقى وجه ربك ـ فأينما تولوا فثم وجه الله ـ انما نطعمكم لوجه الله ـ كل شيء هالك الا وجهه » وفي الحديث : من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ، وفي آخر : أعوذ بوجهك ، والاحاديث كثيرة شهيرة • قال أهل التأويل المراد بالوجه الذات المقدسة فأما كونه صفة الله فلا ، وهو قول المعتزلة وجمهور المتكلمين وزعموا انه يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : الوجه عبارة عنه عز وجل كما قال (ويبقى وجه ربك) • وقال ابن فورك : قد تذكر صـفة الشيء ويراد بها الموصـوف توسعا كما يقول القائل رأيت علم فلان ونظرت الى علمه والمراد نظرت الى العالم • وقال القرطبى قال الحذاق : الوجه راجع الى الوجود والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام اذ كان الوجه أظهر الاعضاء في المشاهدة • ومذهب السلف الاول والرعيل الذى عليه المعول ان الوجه صفة ثابتة لله تعالى ورد بها السمع فتتلقى بالقبول • ويبطل مذهب أهل التأويل ما قاله الامام الحافظ البيهقى والخطابى في قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) فأضـــاف الوجه الى الذات وأضاف النعت الى الوجه فقال (ذو الجلال) ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال ذى الجلال فلما قال ذو الجلال علمنا أنه نعت للوجه وان الوجه صفة للذات • وقال علماؤنا قد ثبت في الخطـاب العربى الذى أجمع عليه أهل اللغة ان تسمية الوجه في أى محل وقع من

---

(١) تأمل ما هنا وراجع التعليق على ص ٩٣ ـ ٩٩

الحقيقة والمجاز يزيد على قولنا ذات فأما الحيوان فذلك مشهور حقيقة لا يمكن دفعه ، وأما في مقامات المجاز فكذلك أيضا لانه يقال فلان وجه القوم لا يراد به ذات القوم اذ ذوات القوم غيره قطعا ، ويقال هذا وجه الثوب لما هو أجوده ، ويقال هذا وجه الرأى أى أصحه وأقومه ، ويقال أتيت بالخبر على وجهه أى على حقيقته - الى غير ذلك مما يقال فيه الوجه ، فاذا كان هذا هو المستقر في اللغة وجب أن يحمل الوجه في حق البارى على وجه يليق به وهو أن يكون صفة زائدة على تسمية قولنا ذات . فان قيل يلزم أن يكون عضوا وجارحة ذات كمية وكيفية وهو باطل ، فالجواب هذا لا يلزم لان ما توهمه المعترض انما هو بالاضافة الى ذات الحيوان المحدث لا من خصيصية صفة الوجه ولكن من جهة نسبة الوجه الى جملة الذات فيما ثبت لها من الماهية المركبة وذلك أمر مدرك بالحس فى جملة الذات فكانت الصفات الحادثة مساوية للذات المحدثة بطريق كونها منها ومنتسبة اليها نسبة الجزء من الكل ، فأما الوجه (المضاف-١) للبارى تعالى ينسب اليه نسبة الذات اليه وقد ثبت ان الذات فى حق البارى لا توصف بأنها جسم مركب تدخله الكمية وتتسلط عليها الكيفية ولا نعلم لها ماهية ، فصفته تعالى التى هى الوجه كذلك لا يوصل لها الى ماهية ولا يوقف لها على كيفية ولا تدخلها التجزئة المأخوذة من الكمية لان هذه انما هى صفات الجواهر المركبة أجساما والله تعالى منزه عن ذلك. ولو جاز هذا الاعتراض في الوجه لقيل بمثله في السمع والبصر والقدرة والعلم ونحوها فان العلم في حق المخلوق في الشاهد عرض قائم بقلب يثبت بطريق ضرورة أو اكتساب ولا كذلك في حق البارى جل وعلا لانه مخالف للشاهد في الداية وغير مشارك في اثبات ماهية أو كمية أو كيفية ، قال أبو الحسن الاشعرى : لله تعالى وجه بلا كيف كما قال (ويبقى وجه ربك) قال ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل . وقال القاضى أبو بكر (١) بن الباقلانى :فان قال قائل فما الدليل على أن لله تعالى وجها قيل له قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) . وقال الامام أبو حنيفة وله تعالى يد ووجه ونفس . فما ذكر

---

(١) من مع

الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف. وقد روى مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه حديث : ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه . قال الامام لنووى : معناه انه تعالى لا ينام وانه مستحيل في حقه النوم فان النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الاحساس والله تعالى منزه عن ذلك ، وسبحات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله بضم السين المهملة والباء الموحدة ، وقيل سبحات الوجه محاسنه لانه يقال سبحان الله عند رؤيتها ، وأصل الحجاب في اللغة المنع والستر والمراد به هنا المانع من رؤيته وسمي ذلك المانع نورا لانه يمنع في العادة من الادراك كشعاع الشمس . قال : والمراد بالوجه الذات والمراد بما انتهى اليه بصره جميع المخلوقات لان بصره تعالى محيط بجميع الكائنات الخ كلامه . وقوله المراد بالوجه الذات يعني على طريقة الخلف . وقالوا في قوله تعالى (فاينما تولوا فثم وجه الله) أي فثم رضاه وثوابه . وقالوا في قوله (انما نطعمكم لوجه الله) أي لرضاه وطلب ثوابه وقيل فثم الله والوجه صلة . وقيل المراد بالوجه في قوله تعالى فثم وجه الله الجهة التي وجهنا الله اليها أي القبلة . والحق الحقيق مذهب سلف الامة وما عليه الأئمة من اثبات الوجه ونحوه ولهذا قال ((و)) كـ ((يده)) تعالى الثابت بها النص القرآني والحديث النبوي العرفاني كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم ـ لما خلقت بيدي ـ بل يداه مبسوطتان ـ قل ان الفضل بيد الله » ، فقد أعلمنا في محكم تنزيله انه خلق أبانا آدم عليه السلام بيديه ، وكذب جل شأنه اليهود في قولهم يد الله مغلولة فقال (بل يداه مبسوطتان) وأعلمنا في محكم الذكر أن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه وقال (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) وقال « تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ـ أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما » وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : التقى آدم وموسى فقال موسى أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من

ذكر اليدين والأصابع

روحه : الحديث - وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحوه - فقال آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده. الحديث . وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الخلق - وفى رواية لما خلق الله آدم - كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى ، وفي حديث النزول من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه : فيبسط يديه فيقول ألا عبد يسألنى فأعطيه - الحديث ، وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أحدكم ليتصدق بالتمرة من طيب - ولا يقبل الله الا طيبا - فيجعلها الله في يده اليمين ثم يربيها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير مثل أحد . وفي رواية فيجعلها الله فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله حتى تعود في يده مثل الجبل . ومعنى تعود هنا تصير . وفي رواية من حديث أبى هريرة مرفوعا من تصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى السماء الا طيب - فتقع في كف الرحمن . وفي لفظ - الا هو يضعها في يد الرحمن أو في كف الرحمن - وفي رواية وان كانت مثل تمرة فتربو له في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله . وفي لفظ وان الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل الجبل . وفي حدبث أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله ، فحمد الله باذن الله فقال له ربه رحمك ربك يا آدم - الحديث ، وفيه فقال الله له ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، قال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة - الحديث ، وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء بالليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض ، فانه لم يغض ما فى يمينه ، وعرشه على الماء وبيمينه الاخرى القبض يرفع ويخفض . وفي حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال « ان الله يبسط

يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده - يعني بالنهار - ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » وفي القرآن العظيم (وما قـدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) الآية. وفي الصحيحين (من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : يقبض الله تبارك وتعالى الارض يوم القيامة ويطـوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض • وفي الصحيحين - ١) آيضا واللفظ لمسلم عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، ثم يطوى الارضين بيده الاخـرى ثم يقول أنا الملك أين الجبـارون أين المتكبرون • وفي لفظ في الصحيح عن عبيد الله[1] بن مقسم انه نظر الى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى صلى الله عليه وسلم قال : يأخـذ الله سمواته وأرضه بيده ويقول أنا الملك - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك حتى نظرت الى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى انى أقول أسـاقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم • وفي لفظ قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : يأخذ الجبار سمواته وأرضه - وقبض بيده وجعـل يقبضها ويبسطها - ويقول أنا الرحمن أنا الملك أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبار أنا المتكبر أنا الذى بدأت الدنيا ولم تك شيئا أنا الذى أعيدها أين الملوك أين الجبابرة - وفي لفظ أين الجبارون أين المتكبرون - ويتميل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه وعلى شماله حتى نظرت الى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى انى لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم • والحديث مروى في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضا • وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية قال : مطوية في كفه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة • وفي لفظ يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده فيجعلهما في كفه ثم يقول بهما هكذا

---

(١) من مخ •

(١) فى الاصلين « عبد الله » خطأ

كما يقول الصبيان بالكرة : أنا الله الواحد • وقال ابن عباس رضى الله عنهما يقبض عليهما فما يرى طرفاهما بيده ، وفي لفظ عنه : ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم • قال شيخ الاسلام في كتاب العرش : وهذه الآثار معروفة • وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال يا محمد ان الله يجعل السموات على أصبع والارضين على أصبع والجبال والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيهزهن فيقول أنا الملك أنا الملك • قال فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قال (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية• قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : ففى هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التى اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبين ان السموات والارض وما بينهما بالنسبة الى عظمة الله عز وجل أصغر من أن تكون مع قبضته لها الا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما يدحى بالكرة •

اذا استحضرت ما ذكرناه وفهمت معنى ما تلوناه فاعلم ان مذهب السلف الصالح وعلماء الحنابلة ومن وافقهم من أهل الاثر ان المراد باليدين اثبات صفتين ذاتيتين تسميان يدين تزيدان على النعمة والقدرة محتجين بما مر من الآيات القرآنية والاخبار النبوية فان الله تعالى أثبت لآدم عليه السلام من المزية والاختصاص مالم يثبت مثله لابليس بقوله (لما خلقت بيدى) والا فكان ابليس يقول وأنا خلقتنى بيديك فلا مزية لآدم ولا تشريف • فان قيل انما أضيف ذلك الى آدم ليوجب له تشريفا وتعظيما على ابليس ومجرد النسبة فى ذلك كاف في التشريف كناقة الله وبيت الله فهذا كاف في التشريف وان كانت النوق والبيوت كلها لله • فالجواب : التشريف بالنسبة اذا تجردت عن اضافة الى صفة اقتضى مجرد التشريف فأما النسبة اذا اقترنت بذكر صفة أوجب ذلك اثبات الصفة التى لولاها ما تمت النسبة فان قولنا خلق الله الخلق بقدرته لما نسب الفعل الى تعلقه بصفة الله اقتضى

ذلك اثبات الصفة ، وكذا أحاط بالخلق بعلمه يقتضى احاطته بصفةهى العلم، فكذلك هنا لما كان ذكر التخصيص مضافا الى صفة وجب اثبات تلك الصفة على وجه يليق بجلال الله وعظمته لا بمعنى العضو والجارحة والجسمية والبعضية والكمية والكيفية تعالى الله عن ذلك • قال الامام الحافظ البغوى في قوله تعالى (بيدى) في تحقيق الله تعالى التثنية فى اليد دليل على انهـا ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة وانهما صفتان من صفات ذاته • وقال البيهقى في كتاب « الأسماء والصفات » باب ما جاء في اثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة ـ فذكر الآيات ثم قال الحافظ البيهقى : قال بعض أهل النظر قد تكون اليد بمعنى القـوة كقوله (داود ذا الايد) أى ذا القـوة وبمعنى الملك والقدرة والنعمة وتكون صلة أى زائدة • ثم أبطل البيهقى ذلك كله وأثبت أن اليدين صفتان تعلقتا بخلق آدم تشريفا له دون خلق ابليس تعلق القدرة بالمقدور لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة وليس لذلك التخصيص وجه غير ما بينه الله تعالى في قوله (لما خلقت بيدى) انتهى • وقال أبو الحسن الأشعرى : اليد صفة ورد بها الشرع والذى يلوح من معنى هذه الصفة انها قريبة من معنى القدرة الا أنها أخص منهـا والقدرة أعم كالمحبة مع الارادة والمشيئة فان في اليد تشريفا لازما • وذهبت المعتزلة وطائفة من الاشعرية الى أن المراد باليدين معنى النعمتين، وطائفة من الاشعرية أيضا ان المراد باليدين القدرة لان اليد يعبر بها فى اللغـة عن القدرة كقول الشاعر :

★ فقمت ومالى في الامور يدان ★

وقالوا في قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) انما ثنى اليد مبالغة في الرد على اليهود ونفى البخل عنه واثباتا لغاية الجود ، قالوا فان غاية ما يبذل السخى من ماله أن يعطيه بيديه وتنبيها على منح الدنيا والآخرة • قالوا أو المراد بالتثنية باعتبار نعمة الدنيا ونعمة الآخرة أو باعتبار قوة الثواب وقوة العقاب، ولا يخفى ما في هذا من الاعراض والانصراف ، والعـدول عن الحق والانصاف ، بل الصواب اثبات ما أثبته الله لنفسه ووصفه به نبيه حسبما ورد ، من غير الحاد ولا رد ، فهو اثبات وجود بلا تكييف كما مر • قال

الحافظ البيهقى : المتقـــدمون من هذه الامة لم يفسروا ما ورد من الآى والاخبار في هذا الباب مع اعتقادهم بأجمعهم بأن الله واحد لا يجوز عليـه التبعيض[1] قال وذهب بعض أهل النظر الى أن اليمين يراد به اليد واليد لله صفة بلا جارحة فكل موضع ذكرت فيه من الكتاب أو السنة فالمراد بذكرها تعلقها بالمكان المذكور معها من الطى والاخذ والقبض والبسط والقبـــول والانفاق وغير ذلك تعلق الصفة الذاتية بمقتضاها من غير مباشرة ولا مماسة وليس في ذلك تشبيه بحال ، وهذا مذهب السلف والحنابلة ومن وافقهم • قال الخطابى وليس معنى اليد عندى الجارحة وانما هى صفة جاء بهـــا التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهى الى حيث انتهى بهـا الكتاب والاخبار الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة • انتهى •

وقال أهل التأويل كما في تفسير البيضاوى وغيره في الآية هو تنبيه على عظمته وكمال قدرته على الافعال العظام التى تتحير فيها الافهام ودلت على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين لا حقيقة ولا مجازا • وقال بعضهم هو لبيان تصوير عظمة الله وجلاله وقدرته وان الملكوتات كلها منقادة لارادته ومسخرات بأمره• وذهب بعضهم الى أن القبض قد يكون بمعنى الملك والقدرة كقولهم ما فلان الا في قبضتى أى قدرتى ويقولون الأشياء في قبضة الله أى في ملكه وقدرته قالوا وعلى هذا التأويل تخرج الآية والأحاديث كحديث مسلم وغيره «ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتـــا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » ورواه النســـائى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما ، قال النووى : هو من أحاديث الصفات اما نؤمن بها ولا نتكلم بتأويل ونعتقد أن ظاهرها غير مراد وأ نلها معنى يليق بالله أو تؤول على أن المراد بكونهم على اليمين على الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة ،وقوله وكلتا يديه يمين فيه تنبيه على أنه ليس المراد باليمين الجارحة وأن يديه تعالى بصفة الكمال لا نقص في واحدة منهما لأن الشمال تنقص عن اليمين • وقال بعضهم وقد تكون اليمـــين

---

(١) راجع التعليق على ص ١١٥ و١٨٢ ـ ١٨٩ وما يأتى فى التعليق على ص٢٥٨ ـ ٢٦١

بمعنى التبجيل والتعظيم يقال فلان عندنا باليمين أى بالمحل الجليل ومنه قول الشاعر :

أقول لناقتى اذ بلغتنى   لقد أصبحت عندى باليمين

أى بالمحل الرفيع وأحسن منه قول بعضهم :

ألم أك في يمنى يديك جعلتنى   فلا تجعلنى بعدها في شمالكا

قال العلامة الشيخ مرعى في كتابه ـ القول البديع في علم البديع ـ أراد ان يقول ألم أكن قريبا منك فلا تجعلنى بعيدا عنك فعدل عنه الى لفظ التمثيل لما فيه من زيادة المعنى لما تعطيه لفظتا اليمين والشمال من الاوصاف لأن اليمين أشد قوة فهى معدة للطعام والشراب والأخذ والاعطاء وكل ما شرف والشمال بالعكس واليمين مشتق من اليمن وهو البركة والشمال من الشؤم فكأنه قال ألم أكن مكرما عندك فلا تجعلنى مهانا وقد كنت منك بالمكان الشريف فلا تجعلنى في الوضيع •

وفي بعض ألفاظ الحديث ذكر الشمال لله تعالى ، قال الحافظ البيهقى وقد ورد ذكر الشمال لله تعالى من طريقين في أحدهما جعفر بن الزبير وفي الآخر يزيد الرقاشي وهما متروكان ، قال وكيف يصح ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه سمى كلتا يديه يمين(؟) وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له أو على عادة العرب من ذكر الشمال في مقابلة اليمين • وقال الخطابى ليس فيما يضاف الى الله سبحانه من صفة اليدين شمال لان الشمال محل النقص والضعف • وقال الامام الحافظ أبو بكر محمد بن خزيمة فى كتابه « السنة » مذهبنا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن ولا نلتفت الى جهل من يسميهم مشبهة اذ الجهمية المعطلة جاهلون بالتشبيه فنحن نقول : لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارى في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ونقول كلتا يدى ربنا عز وجل يمين على ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ونقول ان الله عز وجل يقبض الارض جميعا باحدى يديه ويطوى السماء بيده الاخرى وكلتا يديه يمينان لا شمال فيهما • ثم قال كيف يكون مشبها من يثبت لله تعالى أصابع على ما بينه النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم

للخالق البارى ؟ ونقول ان الله جل وعلا يضع السماء على اصبع والارضين على اصبع ـ الى تمام الحديث • ثم قال فكيف يكون مشبها من يثبت لربه عز رجل يدين على ما أثبته الله لنفسه وأثبته له نبيه صلى الله عليه فكيف يكون مشبها يدى ربه بيدى بنى آدم ؟ نقـــول لله يدان مبسوطتان ينفق كيف يشاء بهما خلق آدم عليــه السلام وكتب التوراة بيده ويداه قـديمتان لم تزالا باقيتين وأيدى المخلوقين مخلوقة محدثة غير قديمة فانية غير باقيـــة بالية تصير ميتة ثم رميما ثم ينشئ الله خلقا آخر تبارك الله أحسن الخالقين• ثم قال أى تشبيه يلزم أصحابنا أيها العقلاء اذا أثبتوا للخالق ما يثبته لنفسه وما يثبته له نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ ثم قال وقول هؤلاء المعطلة يوجب أن كل من يقرأ كتاب الله ويؤمن به اقرارا باللسان وتصديقا بالقلب فهو مشبه لان ما وصف الله تعالى به نفسه في محكم تنزيله تزعم هـــذه الفرقة ان من وصفه به فهو مشبه • ثم سبهم ولعنهم ووصفهم بالكفر والتعطيل وأطال من التبكيت والتنكيت على من أول النصوص وصرفهـــا عن حقيقتها وبالله التوفيق • وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمر وبن العاص رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء » ثم قال عليه الصلاة والسلام « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنـــا الى طاعتك » روى هذا الحديث من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم منهم النواس بن سمعان الكلابى قال رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول « ما من قلب الا وهو بين اصبعين من أصابع الله تعالى ان شاء أقامه وان شاء أزاغه » وكان يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » رواه الامام أحمد والحـــاكم في صحيحه • ومنهم أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت فقلت يا رسول الله وان القلوب لتتقلب ؟ قال « نعم ، ما من خلق من بنى آدم الا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله فان شاء أقامه وان شاء أزاغه » فنســـأل الله تعالى ان لا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا ونسأله ان يهب لنا من لدنه رحمة

انه هو الوهاب • ومنهم أبو ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الله فاذا شاء صرفه واذا شاء بصره واذا شاء نكسه ولم يعط الله أحدا من الناس شيئا هو خير من أن يسلك في قلبه اليقين وعند الله مفاتح القلوب فاذا أراد الله بعبد خيرا فتح له قفل قلبه واليقين والصدق وجعل قلبه وعاء واعيا لما سلك فيه وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا وخليقته مستقيمة وجعل اذنه سميعة وعينه بصيرة، ولم يؤت أحد من الناس شيئا - يعنى هو شر - من أن يسلك الله فى قلبه الريبة وجعل نفسه شرة شرهة متعطلة لا ينفعه المال وان أكثر له وغلق الله القفل على قلبه فجعله ضيقا حرجا كانما يصعد فى السماء » كما روى ذكره الامام الحافظ أبو بكر بن خزيمة فى كتابه السنة •

وأما قول الخطابى ذكر الاصابع لم يوجد في شيء من الكتاب والسنة المقطوع بصحتها فهو عجيب منه بل هو ثابت في صحيح السنة المقطوع بصحتها ، وقال النووى في شرح صحيح مسلم هذا من الاحاديث المتشابهات وفيها القولان الايمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة بل نؤمن بها وان ظاهرها غير مراد لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) ثانيهما يتأول بحسب ما يليق قال فعلى هذا فالمراد المجاز كما يقال فلان في قبضتى وفي كفى ، لا يراد انه حال في كفه بل المراد تحت قدرتى ، ويقال فلان في خنصرى وبين اصبعى أقلبه كيف شئت يعنى انه هين على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث انه سبحانه يتصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده كما لا يمتنع على الانسان ما كان بين اصبعيه ، (قال) خاطب العرب بما يفهمونه ومثله بالمعانى الحسية تأكيدا له في نفوسهم ، وأجابوا عن تثنية الاصابع مع كون القدرة واحدة بان ذلك مجاز واستعارة واقعة موقع التمثيل بحسب ما اعتادوه غير مقصود به التثنية والجمع • وفى - نهاية ابن الاثير - اطلاق الاصابع عليه تعالى مجاز كاطلاق اليد واليمين والعين وهو جار مجرى التمثيل والكناية عن سرعة تقلب القلوب وان ذلك أمر معقود بمشيئة الله تعالى • قال وتخصيص ذكر الاصابع كناية عن اجراء القدرة والبطش لان ذلك باليد والاصابع • وقال القرطبى

وغيره الاصبع قد تكون بمعنى القدرة على الشيء وسهولة تقلبه كما يقول من استسهل شيئا واستخفه مخاطبا لمن استثقله أنا أحمله على اصبعي وأرفعه بأصبعي وأمسكه بخنصري فهذا مما يراد به الاستظهار في القدرة على الشيء فلما كانت السموات والارض أعظم الموجودات وكان امساكها بالنسبة الى الله كالشيء الحقير الذى نجعله بين أصابعنا ونهزه بأيدينا ونتصرف فيه كيف شئنا دل ذلك على قوته القاهرة وعظمته الباهرة لا اله الا هو سبحانه •

وقال بعض المحققين هذا الحديث من جملة ما تنزه السلف عن تأويله كأحاديث السمع والبصر واليد فان ذلك يحمل على ظاهره ويجرى بلفظه الذى جاء به من غير أن يشبه بمشبهات الحس أو يحمل على معنى المجاز في الاتساع ، بل يعتقد انها صفات لله تعالى لا كيفية لها قال وانما تنزهوا عن تأويل هذا القسم لانه لا يلتئم معه ولا يحمل ذلك على وجه يرتضيه العقل الا ويمنع منه الكتاب والسنة من وجه آخر •

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في رسالته التدمرية اذا قال قائل ظاهر النصوص مراد أو ليس بمراد ؟ فانه يقال له لفظ الظاهر فيه اجمال واشتراك فان كان القائل يعتقد ان ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب ان هذا غير مراد ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه لا يظهر منه الا ما هو كفر واضلال - الى أن قال قوله صلى الله عليه وسلم « قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن » فقالوا قد علم ان ليس في قلوبنا أصابع الحق فيقال لهم لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم انها لم تدل الا على حق أما الواحد فقوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الاسود يمين الله في الارض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه » صريح في أن الحجر ليس هو صفة الله ولا هو نفس يمينه فانه قال فكانما صافح الله وقبل يمينه فالمشبه ليس هو المشبه به الى أن قال قوله صلى الله عليه وسلم « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فانه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالاصبع ولا مماس لها ولا انها في

جوفه ولا في قول القائل هذا بين يدى ما يقتضى مباشرته ليديه ، واذا قيل السحاب المسخر بين السماء والارض لم يقتض أن يكون مماسا للسماء والارض ، ونظائر هـــذا كثيرة ، فمذهب السلف فى هذا ونظائره من الأخبار المتشابهةالواردة فيصفاتالله عز وجل ما بلغنا ومالم يبلغنا مما صحعنه صلى الله عليه وسلم اعتقادنا فيه وفى الآى المتشابهة في القرآن ان نقبلها ولا نردها ولا نتأولها بتأويل المخالفين ولا نحملها على تشبيه المشبهين ولا نزيد عليها ولا تنقص منها (ولا نفسرها)[١] ولا نكيفها فنطلق ما أطلقه الله ونفسر ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والامانة رضوان الله عليهم أجمعين فهذا مذهب سلف الامة وسائر الائمة ، والعـــدول عنه وصمة والالتفات الى سواه نقمة وبالله التوفيق • وقوله ((وكل ما)) أى كل شيء وارد من صفات الله تعالى ((من نهجه)) أى نهج اليد والوجه ونحوهمـا والنهج الطريق الواضح أى كل ما ورد من الاوصاف من الرجل والقــدم والصورة[٢] ((و)) من ((عينه)) عز وجل فنهجه الواضح وسبيله المبين

الصورة والعين

(١) ليس فى مخ

(٢) فى تنبيه ابن سحمان ص ٥١ بعد حكاية نحو هذه العبارة : « اعلم ان ما ذكره الشارح من قوله والصورة ان أراد به ما أخبر به صلى اللـــه عليه وسلم في الحديث الصحيح كما فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله خلق آدم على صورته » ورواه الثـــورى عن حبيب بن أبى ثابت عن عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ولفظة « خلق آدم على صورة الرحمن » قال شيخ الاسلام : ورواه الاعمش مسندا ، وكما ورد في الحديث : « فيأتيهم على الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم » فما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فهو الحق الذى لا ريب فيه • ولكن لا نقول الا ما ورد به النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لاحد أن يطلق على الله أنه صورة لان ذلك لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة لا نفيا ولا اثباتا ، ولا سمى الله به نفسه • فاطلاق هذه الالفاظ على الله من أقوال أهل البدع التى تلقاها من خلف منهم عمن سلف •

قال ابن القيم رحمه الله فى المدارج بعد أن ذكر كلا ما سبق : ان الفعل أوسع من الاسم ، ولهذا أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث ، ولم يسم بالمريد والمشيء (؟) والمحدث كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن وغير ذلك من الاسماء التى أطلق أفعالها على نفسه فباب الافعال أوسع من باب الاسماء وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتق نه من كل فعل اسما وبلغ باسمائه زيادة على الالف فسماه الماكر والخادع

الاقرار بما ورد والايمان بما صح من غير تشبيه ولا تمثيل ولا الحاد ولا تعطيل ، بل نقر وندعن ونسلم ونؤمن بكل ذلك ونثبته اثبات وجود بلا تكييف ولا تحديد • فمن ذلك العين في قوله تعالى (ولتصنع على عينى) وقوله (فانك بأعيننا) وقوله (تجرى بأعيننا) فمذهب السلف اثبات ذلك صفة لله تعالى وفى الصحيحين وغيرهما لما ذكر الدجال عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « ان الله ليس بأعور » ففى حديث ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهرانى الناس فقال « ان الله تبارك وتعالى ليس بأعور الا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » هذا لفظ مسلم • ولفظ صحيح البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال ذكر الدجال عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ان الله لا يخفى عليكم ان الله ليس بأعور - وأشار بيده الى عينه - وان المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه في باب قوله تعالى (ولتصنع على عينى) وذكر البخارى في حجة الوداع من كتاب المغازى من صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا نتحدث بحجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فلا ندرى ما حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال « ما بعث الله من نبى الا أنذر أمته الدجال أنذره نوح والنبيون من بعده وانه يخرج فيكم

والفتن والكائد ونحو ذلك ، وكذلك باب الاخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به فانه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يسمى بذلك • انتهى

فاذا تبين لك هذا فاعلم ان من أدخل اسم الصورة فى أسماء الله قد أخطأ أقبح خطأ لان باب الافعال والاخبار عن الله أوسع من باب الاسماء ولفظ الصورة لم يذكره أحد من علماء أهل السنة والجماعة فى عقائدهم وانما ذكر ذلك بعض من ينسب الى أهل السنة فمن اشتق من أفعال الله سبحانه وتعالى أسماء وأوصافا لم يذكرها الله ولا رسوله الا على سبيل الاخبار فنقول فى ذلك ما قاله الله ورسوله وأخبر به فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تتجاوز القرآن والحديث والله أعلم •

وقد تقدم التنبيه على أن السلف رضوان الله عليهم قد فسروا آيات الصفات وأحاديثها وبينوا معانيها ونهوا عن تأويلات الجهمية وذكرنا ما ذكره شيخ الاسلام من أن مذهب أهل التفويض أشر المذاهب وأخبثها ونسبة ذلك الى السلف من الكذب عليهم والله أعلم •

فما خفى عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم ان ربكم ليس بأعور وانه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » والاحاديث كثيرة ، قال البيهقي والقرطبي وغيرهما : في هذا نفى نقص العور عن الله تعالى واثبات العين له صفة وعرفنا بقوله «ليس كمثله شيء» انها ليست بحدقة • وقال علماؤنا قد ورد السمع باثبات صفة له تعالى وهى العين فتجرى مجرى السمع والبصر وليس المراد اثبات عين هى حدقة ماهيتها شحمة لان هذه العين من جسم محدث والله يتعالى عن ذلك وأما العين التى وصف بها البارى جل وعلا فهى مناسبة لذاته فى كونها غير جسم ولا جوهر ولا عرض فلا يعرف لها ماهية ولا كيفية ، قالوا وقد امتنعت المعتزلة والاشعرية من أن يقال لله تعالى عين فأما المعتزلة فنفوا العين والبصر فهم على جادتهم وأما الاشعرية فنفوا صفة العين وأثبتوا صفة البصر فيضعف ذلك على قولهم لانهم يوافقون على انه يبصر ببصر وانما امتنعوا من تسمية عين لما استوحشوا من العين في الشاهد فقالوا بالتأويلات ، ومن المفاسد قياس الغائب على الشاهد • وقال أهل التأويل المراد من قوله تعالى (تجرى بأعيننا) أى بمرأى منا ونحن نراها ، قالوا أو المراد بأعيننا بحفظنا وكلاءتنا ، قالوا أو المراد به أعين الماء أى تجرى بأعين خلقناها وفجرناها فهى اضافة ملك وخلق لا اضافة صفة ذاتية ، أو المراد تجرى بأوليائنا وخيار خلقنا ، وقالوا في قوله تعالى « ولتصنع على عينى » أى تربى وتغذى على مرأى منى ، وكذا « فانك بأعيننا » أى بمرأى منا وفي حفظنا ، وقال بعضهم العين مؤولة بالبصر أو الادراك بل قيل انها حقيقة في ذلك خلافا لتوهم بعض الناس انها مجاز ، قال وانما المجاز في تسمية العضو بها • وذكر الشيخ ابراهيم الكورانى في شرح منظومة شيخه الشيخ (أحمد بن) محمد المقدسى القشاشي ما لفظه : ثم وقفت من كلام الشيخ الاشعرى في — الابانة — الذى هو آخر مصنفاته والمعتمد في المعتقد على ما يشد أركان ما قررناه من مذهبه وذلك انه قال : وان له تعالى عينين بلا كيف وان لله علما ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج • انتهى • قال الكورانى فصرح باثبات العينين بلا كيف والحمد لله رب العالمين • انتهى • وقال سيدنا الامام أحمد

رضى الله عنه أحاديث الصفات تمر كما جاءت من غير بحث عن معانيهـــا ونخالف ما خطر في الخاطر عند سماعها وننفى التشبيه عن الله تعـالى عند ذكرها مع تصديق النبى صلى الله عليه وسلم والايمان بها وكل ما يعقـل ويتصور فهو تكييف وتشبيه وهو محـال ـ كما نقله عنه الامام ابن حمدان فى نهاية المبتدئين • انتهى • وهذا مذهب السلف الاثرية فهو الحق وبالله التوفيق •

(فـــائدة)

لمعةعن الدجال

ذكر الامام شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح ما نصه لما كان حلول اللاهوت فى البشر واتحاده به مذهبا ضــل به طوائف كثيرون من بنى آدم النصارى وغيرهم وكان المسيح الدجال يأتى بخوارق عظيمة والنصارى احتجوا على الاهية المسيح بمثل ذلك ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أمورا ظاهرة لا يحتاج فيهـــا الى بيان موارد النزاع التى ضل فيها خلق كثير من الآدميين فان كثيرا من النـــاس بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في امكان دعواه واذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى الهية المسيح وصدقوا أيضا من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهــل الافك والفجور • قال شيخ الاسلام روح الله روحه وبهذا يظهر الجواب عما أورده بعض أهل الكلام كالرازى على هذا الحديث حيث قالوا دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة فكيف يحتج النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله : انه أعور وان ربكم ليس بأعور ؟ قال شيخ الاسلام وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من اضلال الادلة البينـــة التى تبين فساد الاقوال الباطلة والا فاذا كان بنو اسرائيل في عهـــد موسى عليه السلام ظنوا ان العجل هو اله موسى فقالوا هذا الهكم واله موسى وظنوا ان موسى نسيه والنصارى مع كثرتهم يقولون ان المســـيح هو الله وفى المنتسبين الى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ أو أهل البيت حتى ان كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة أو التصوف يجعلون هـــذا نهاية التحقيق والتوحيد وهو أن يكون الموحد هو الموحد فكيف يستبعد مع

اظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة ان يعتقد فيه انه الله ؟ وهو يقول : أنا الله • وقد اعتقد ذلك في من لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين وفي من لم يقل انا الله كالمسيح وسائر الانبياء والصالحين والله أعلم •

ذكر نزول الله تعالى الى السماء الدنيا

((و)) من ((صفة النزول)) أى ما يثبته السلف ولا يتأولونه صفة نزول البارى جل وعلا الى سماء الدنيا كما أخرجه الامام أحمد والترمذى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله ينزل ليلة النصف من شعبان الى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بنى كلب » ولحديث الامام أحمد ومسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله يمهل حتى اذا كان ثلث الليل الاخير نزل الى السماء الدنيا فنادى هل من مستغفر هل من تائب هل من سائل هل من داع - حتى ينفجر الفجر » ورواه البخارى ولفظه - ينزل ربنا عز وجل الى السماء الدنيا - وروى أيضا من حديث جابر بن عبد الله وحديث رفاعة بن عرابة الجهنى ومن حديث جبير بن مطعم ومن حديث عثمان بن أبى العاص ومن حديث أبى الدرداء ومن حديث القاسم بن محمد عن أبيه أو عمه عن جده وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين وذكر أحاديث هؤلاء الحافظ أبو بكر بن خزيمة في كتاب - السنة - له بأسانيده من أوجه متعددة • قال الحافظ ابن حجر في كتابه (فتح البارى في شرح صحيح البخارى) قد اختلف في معنى النزول على أقوال فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم ، ومنهم من أنكر صحة الاحاديث وهم الخوارج ، ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمنا به على طريق الاجمال منزها لله تعالى عن الكيفية والتشبيه وهم جمهور السلف ونقله البيهقى وغيره عن الائمة الاربعة والسفيانين والحمادين والاوزاعى والليث وغيرهم ، ومنهم من أول على وجه يليق مستعمل فى كلام العرب ، ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد يخرج الى نوع التحريف • قال الامام الحافظ البيهقى وأسلمها الايمان بلا كيف والسكوت عن المراد الا أن يرد ذلك عن الصادق فيصار اليه • قال ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب فحينئذ التفويض

أسلم . انتهى . وقال العلامة الطوفى فى (قواعد الاستقامة والاعتدال) المشهور عند أصحاب الامام أحمد رضى الله عنه انهم لا يتأولون الصفات التى من جنس الحركة كالمجيء والاتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلى كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح ، قال وكلام السلف في هـذا الباب يدل على اثبات المعنى المتنازع فيه ، قال الاوزاعى لما سئل عن حديث النزول : يفعل الله ما يشاء . وقال حماد بن زيد : يدنو من خلقه كيف يشاء . وهو الذى حكاه الاشعرى عن أهل السنة والحديث ، وقال الفضيل بن عياض اذا قال لك الجهمى أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل أنا أومن برب يفعل ما يشاء . وقال أبو الطيب حضرت عند أبى جعفر الترمذى وهو من كبار فقهاء الشافعية وأثنى عليه الدار قطنى وغيره فسأله سائل عن حديث «ان الله ينزل الى سماء الدنيا» وقال له فالنزول كيف يكون يبقى فوقه علو ؟ فقال أبو جعفر الترمذى النزول معقول والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ؟ فقد قال في النزول كما قال مالك في الاستواء ، وهكذا القول في سائر الصفات . وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطى حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر وحضر اسحاق بن راهويه فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد الامير يا أبا يعقوب أتزعم ان الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال وكيف ينزل ؟ قال له اسحاق اثبت الحديث حتى أصف لك النزول . فقال له الرجل أثبته . فقال اسحاق (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقال الامير عبد الله بن طاهر يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة . فقال اسحاق أعز الله الامير ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ ذكره أبو عبد الله الحاكم[1] . وروى باسناده

(١) بهامش مخ ما نصه : « قال الشيخ ابو عثمان الصابونى شيخ الاسلام فى رسالته بحر السنة سمعت ابا عبد الله الحاكم . يقول سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبرى يقول سمعت ابراهيم بن أبى طالب يقول سمعت أحمد بن سعيد أبا عبد الله الرباطى يقول حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر ذات يوم وحضر اسحاق بن ابراهيم يعنى ابن راهويه فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ فقال له اسحاق أثبته فوق . فقال الرجل أثبته فوق . فقال اسحاق قال الله عز وجل : (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقال الامير

أيضا عن اسحاق بن راهويه قال قال لى الامير عبد الله بن طاهر يا أبا يعقوب هذا الحديث الذى تروونه عن النبى صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا » كيف ينزل ؟ قال قلت أعز الله الامير لا يقال لأمر الرب كيف ينزل ، انما ينزل بلا كيف • وقال اسحاق لا يجوز الخوض فى أمر الله كما يجوز الخوض فى أمر المخلوقين لقوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ولا يجوز أن يتوهم على الله بصفاته وأفعاله يفهم ما يجوز التفكر والنظر فى أمر المخلوقين وذلك انه يمكن أن يكون الله موصوفا بالنزول كل ليلة اذا مضى ثلثها الى السماء الدنيا كما شاء ولا يسئل كيف نزوله لأن الخالق يصنع ما يشاء كما شاء • وذكر شيخ الاسلام فى (شرح الاصفهانية) عن الامام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه انه سأله سائل عن النزول ليلة النصف من شعبان فقال يا ضعيف ليلة النصف من شعبان وحدها ؟ ينزل فى كل ليلة • فقال الرجل كيف ينزل ؟ أليس يخلو ذلك المكان ؟ فقال عبد الله بن المبارك ينزل كيف شاء • وقال أبو عثمان النيسابورى : لما صح خبر النزول عن النبى صلى الله عليه وسلم أقربه أهل السنة وقبلوا الحديث وأثبتوا النزول على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعتقدوا تشبيها بنزول خلقه وعلموا وعرفوا واعتقدوا وتحققوا ان صفات الرب لا تشبه صفات الخلق كما ان ذاته لا تشبه ذوات الخلق سبحانه وتعالى عما يقول المشبهة والمعطلة علوا كبيرا • وروى البيهقى باسناده عن اسحاق بن راهويه قال جمعنى وهذا المبتدع ـ يعنى ابراهيم بن صالح ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر فسألنى الأمير عن أخبار النزول فثبتها فقال ابراهيم بن صالح كفرت برب ينزل من سماء الى سماء • فقلت آمنت برب يفعل ما يشاء • فرضى عبد الله كلامى وأنكر على ابراهيم • وقال شيخ الاسلام وقال أبو عثمان النيسابورى الملقب بشيخ الاسلام في رسالته المشهورة في السنة : ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في

عبد الله يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة • فقال اسحاق : أعز الله الامير ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم • انتهى

وذكره الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله بهذا اللفظ فى كلامه على حديث النزول وانما يحصل الزام الخصم اذا أثبت فوقية الرب مع الايمان بمجيئه يوم القيامة •

كل ليلة الى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون ما أثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتهون فيه اليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ويكلون علمه الى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والاتيان في ظلل من الغمام والملائكة وقوله عز وجل (وجاء ربك والملك صفا صفا) • وقال الامام عثمان بن سعيد الدارمى في كتابه المعروف (بنقض عثمان بن سعيد* على المريسى الجهمى العنيد* فيما افترى على الله فى التوحيد) ما لفظه : وادعى المعارض ان قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا حين يمضى من الليل الثلث (؟) فيقول هل من مستغفر هل من تائب هل من داع ، قال فادعى ان الله لا ينزل بنفسه انما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وكل مكان من غير زوال لانه الحى القيوم والقيوم بزعمه من لا يزول ، قال فيقال لهذا المعارض : وهذا أيضا من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان ولا لمذهبه برهان لان أمر الله ورحمته تنزل فى كل ساعة ووقت وأوان فما بال النبى صلى الله عليه وسلم يحد لنزوله الليل دون النهار ويوقت من الليل شطره أو الاسحار أفأمره ورحمته يدعوان العباد الى الاستغفار أو يقدر الامر والرحمة أن يتكلما دونه فيقولا : هل من داع فأجيب له هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فأعطيه ؟ فان قررت مذهبك لزمك أن تدعى ان الرحمة والامر هما اللذان يدعوان الى الاجابة والاستغفار بكلامهما دون الله ، وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء، قد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده الليل ثم يمكثان الى طلوع الفجر ثم يرفعان لأن رفاعة يرويه يقول في حديثه حتى ينفجر الفجر وقد علمتم ان شاء الله أن هذا التأويل أبطل باطل ولا يقبله الا كل جاهل ـ الى أن قال : ثم أجمل المعارض جميع ما أنكره الجهمية من صفات الله تعالى المسماة فى كتابه وآثار رسوله صلى الله عليه وسلم ـ فعد منها بضعة وعشرين صفة نفسا واحدا يتكلم عليها ويفسرها بما حكى بشر بن غياث المريسى وفسرها وتأولها حرفا حرفا خلاف ما عنى الله ورسوله (وخلاف ما تأولها الفقهاء والصالحون لا بعتمد في أكثرها

الا على المريسى ـ ١) فبدأ منها بالوجه ثم بالسمع والبصر والغضب والرضا والحب والبغض والفـــرح والكره والضحك والعجب والسخط والارادة والمشيئة والاصابع والكف والقدم واليد واليمين والعين والاتيان والمجىء والنفس والتكليم ـ قال عمد المخالف الى هذه الصفات فنسقها ونظم بعضها الى بعض ثم قررها أبوابا في كتابه وتلطف بردها بالتأويل كتلطف الجهمية معتمدا فيها على المريسى ويدلس عند الجهال بالتشنيع بها على قوم يؤمنون بالله ويصدقون الله ورسوله فيها بغير تكييف ولا تمثيل فزعم ان هؤلاء المؤمنين بها يكيفونها ويشبهونها بذوات أنفسهم وان العلماء قالوا بزعمه ليس شيء منها اجتهاد رأى ليدرك كيفية ذلك أو يشبه شيء منها بشيء مما هو في الخلق، قال وهذا خطأ كما أن الله ليس كمثله شيء فكذلك ليس كصفاته شيء • قال أبو سعيد عثمان بن سعيد فقلنا للمعارض المدلس، بالتشنيع ان قوله كيفية هذه الصفات وتشبيهها بما هو في الخلق خطأ فانا لا نقول كما قلت فنحن لا نكيفها ولا نشبهها ولا نكفر بها ولا نكذبها ولا نبطلها بتأويل الضلال كما أبطلها المريسى ، وأما ما ذكرت من اجتهاد الرأى في تكييف صفات الله فانا لا نجيز اجتهاد الرأى فى كثير من الفرائض والاحكام التى نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا فكيف في صفات الله تعالى التى لم ترها العيون وقصرت عنها الظنون غير أنا لا نقول فيها كما قال المريسى ان هذه الصفات كلها شيء واحد وليس السمع منه غير البصر وان الرحمن بزعمكم ليس يعلم لنفسه سمعا من بصر ولا بصرا من سمع ولا وجها من يدين ولا يدين من وجه وهو كله بزعمكم سمع وبصر ووجه ويد ونفس وعلم ،وقد قال تعالى (انني معكما أسمع وأرى) وقال (ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم) وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها) ولم يقل رأى وقال (اعملوا فسيرى الله عملكم) ولم يقل يسمع الله فلم يذكـر الرؤية فيما يسمع ولا السمع فيما يرى ـ الى آخر كلامه الذى رد به عـلى المريسية • وقال الامام الحافظ أبو بكر بن خزيمة : باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبى صلى الله

---

(١) من مخ

عليه وسلم في نزول الرب جل وعلا الى سماء الدنيا كل ليلة فنشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الاخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا الى سماء الدنيا وأعلمنا انه ينزل والله جل وعلا ولى نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين اليه الحاجة من أمر دينهم فنحن قائلون ومصدقون بما فى هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين للعقول بصفة الكيفية اذ النبى صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول • ثم ذكر الاخبار بأسانيده•

(تنبيهات)

الاول الذى يلزم من قال باثبات صفة النزول يلزم مثله من قال بصفة الحياة والسمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والارادة له تعالى لانه لا يعقل من هذه الصفات الا الاعراض التى لا تقوم الا بجوارحنا فكما نقول نحن واياهم حياته وسمعه وبصره ليست بأعراض بل هى صفات كما تليق به لا كما تليق بنا فنقول نحن أيضا بمثل ذلك بعينه نزوله وفوقيته واستواؤه ونحو ذلك فكل ذلك ثابت معلوم غير مكيف بكيفية ولا انتقال يليق بالمخلوق بل هو كما أخبر هو ورسوله سيد البشر مما يليق بجلال عظمته وباهر كبريائه لان ذاته وصفاته معلومة من حيث الجملة ثبوت وعلم وجود بلا كيفية ولا تحديد فكل ما ورد في الكتاب وصح عن رسول الملك الوهاب فسبيله واحد من النزول واليد والقدم والوجه والغضب والرضا وغيرها فاحفظه وبالله التوفيق • ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في رسالته الحموية : واعلم انه ليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا وقد علم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بهذه الامور بالاضطرار كما انه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوة ، ثم ان العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص وان كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله على أن الاساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له الى اليقين في عامة المطالب الالهية واذا كان هكذا

فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ، ومن المعلوم للمؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من غيره بذلك وأنصح للامة وأفصح من غيره عبارة وبيانا بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للامة وأفصحهم فقد اجتمع في حقه صلى الله عليه وسلم كمال العلم والقدرة والارادة ، ومن المعلوم ان المتكلم اذا كمل علمه وقدرته وارادته كمل كلامه وفعله وانما يدخل النقص اما من نقص علمه وأما من عجزه عن بيان علمه واما لعدم ارادة البيان والرسول صلى الله عليه وسلم هو الغاية في كمال العلم والغاية في ارادة كمال البلاغ المبين والغاية في قدرته على البلاغ ومع وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود المراد ،فعلم قطعا أن مابينه من الايمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان وان ما أراده من البيان هو المطابق لعلمه وعلمه بذلك هو أكمل العلوم فكل من ظن أن غير الرسول صلى الله عليه وسلم أعلم بهذا منه فهو من الملحدين لا من المؤمنين، والصحابة رضى الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم ومن سلك سبيل السلف هم في هذا الباب على الاستقامة دون سواهم • وتقدم في صدر الكتاب ما لعله يشفى ويكفى •

(الثانى) قال أهل التأويل ان العرب تنسب الفعل الى من أمر به كما تنسبه الى من فعله وباشره بنفسه ، قالوا والمعنى هنا ان الله تعالى يأمر ملكا بالنزول الى السماء الدنيا فينادى بأمره ، وقال بعضهم أن قوله وينزل راجع الى أفعاله لا الى ذاته المقدسة فان النزول كما يكون في الاجساد يكون في المعانى ، أو راجع الى الملك الذى ينزل بأمره ونهيه تعالى ، فان حمل النزول في الاحاديث على الجسم فتلك صفة الملك المبعوث بذلك ، وان حمل على المعنوى بمعنى انه لم يفعل ثم فعل سمى ذلك نزولا عن مرتبة الى مرتبة فهى عربية صحيحة ، والحاصل ان تأويله على وجهين أما بان المراد ينزل أمره أو الملك بأمره واما انه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والاجابة لهم ونحو ذلك كما يقال نزل البائع في سلعته اذا قارب المشترى بعد ما باعده وأمكنه منها بعد منعه ، والمعنى هنا ان العبد فى هذا الوقت أقرب الى رحمة الله منه في غيره من الاوقات وانه تعالى يقبل عليهم بالتحنن والعطف في هذا

الوقت بما يلقيه في قلوبهم من التنبيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة • وقد حكى ابن فورك ان بعض المشايخ ضبط رواية البخارى بضم أوله على حذف المفعول أى ينزل ملكا قالوا ويقويه ما روى النسائى وغيره عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله عز وجل يمهل حتى يمضى شطر الليل الاول ثم يأمر مناديا يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى » قال القرطبى صححه عبدالحق • قالوا وهذا يرفع الاشكال ويزيل كل احتمال والسنة يفسر بعضها بعضا وكذا الآيات • قالوا ولا سبيل الى حمله على صفات الذات المقدسة فان الحديث فيه التصريح بتجدد النزول واختصاصه ببعض الاوقات والساعات وصفات الرب جل شأنه يجب اتصافها بالقدم وتنزيهها عن التجدد والحدوث • قالوا وكل ما لم يكن فكان أو لم يثبت فثبت من أوصافه تعالى فهو من قبيل صفة الافعال قالوا فالنزول والاستواء من صفات الافعال[1] والله أعلم •

بهامش مخ ما لفظه :

« عجبا للمصنف رحمه لله كيف أورد شبه المعطلة ولم يجب عنها فأما الحديث الذى احتجوا به : ثم يأمر مناديا الخ فقال أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى عبد الله ابن منده : هو حديث موضوع • وقال الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله : نزول الرب تبارك وتعالى الى سماء الدنيا فى كل ليلة استفاضت به السنة عن النبى صلى الله عليه وسلم واتفق سلف الامة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول والنبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك علانية وبلغه الامة تبليغا عاما لم يخص به أحدا دون أحد وكانت الصحابة والتابعون تذكره وتأثره وتبلغه وترويه فى المجالس الخاصة والعامة وهو فى جميع كتب أهل الاسلام كصحيحى البخارى ومسلم وموطا مالك ومسند الامام أحمد وسنن أبى داود والنسائى وأمثال ذلك من كتب المسلمين - الى أن قال فان قلت الذى ينزل ملك ، قيل هذا باطل من وجوه منها ان الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار الى الارض - وذكر أحاديث متضمنة ذلك ، ثم قال الوجه الثانى انه قال من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له وهذه العبارة لا يجوز أن يقولها ملك غير الله فالملك اذا نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول ان الله أمر بكذا أو قال كذا ٠٠ الى أن قال ولا يمكن ملكا من الملائكة أن يقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فاغفر له، ولا يقول لا يسأل عن عبادى غيرى كما رواه النسائى وابن ماجه وغيرهما وسنده صحيح انه يقول لا يسأل عن عبادى غيرى - وهذا أيضا مما يبطل حجة بعض الناس فانه احتج بما رواه النسائى فى بعض طرق الحديث انه

(الثالث) قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين نقول بحديث النزول مما سنده صحيح ولفظه صريح قال التميمى فى اعتقاد سيدنا الامام احمد النزول حق نقول به من غير انتقال ولا حلول فى الامكنة • وقال ابن البنا فى اعتقاد الامام أحمد لا يقال بحركة ولا انتقال • وقال القاضى قد وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بالنزول الى السماء الدنيا لا على جهة الانتقال والحركة كما جازت رؤيته تعالى وتجلى للجبل لا على وجه الحركة والانتقال • وقال لا نثبت نزولا عن علو وزوال بل نزولا لا يعقل معناه ولا يعقل ذلك في الشاهد • وقال ابن عقيل ليس بنزول ولا انتقال ولا كنزولنا • وقال القاضى أيضا اجماع الامة أنه بائن من خلقه وهو على مايثبته لنفسه في ذاته وصفاته ومن شبهه بخلقه كفر • وخطأ ابن عقيل وغيره من الأئمة من قال نزوله بحركة وانتقال[1] وقال القاضى النزول صفة ذات والحق انه صفة فعل • قال الشيخ عماد الدين الواسطى نزوله ثابت معلوم غير مكيف بحركة وانتقال يليق بالمخلوق بل نزول كما يليق بعظمته وجلاله فصفاته تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت غير معقولة من حيث التكييف والتحديد فيكون المؤمن مبصرا بها من وجه أعمى من وجه مبصرا من حيث الاثبات والوجود أعمى من حيث التكييف والتحديد وبالله التوفيق

يأمر مناديا فينادى فان هذا ان كان ثابتا عن النبى صلى الله عليه وسلم فان الرب يقول ذلك ويأمر مناديا بذلك لا أن المنادى يقول من يدعونى فاستجيب له ومن روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان المنادى يقول ذلك فقد علمنا انه يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه مع انه خلاف اللفظ المستفيض المتواتر الذى نقلته الامة خلفا عن سلف فاسد فى المعقول يعلم انه من كذب بعض المبتدعين كما روى بعضهم ينزل بالضم ، وكما قرأ بعضهم وكلم الله موسى تكليما ونحو ذلك من تحريفهم اللفظ والمعنى » • وفوق هذه الحاشية بخط آخر ما لفظه : « هذا خط شيخنا الشيخ عبد الله حفظه الله فلله دره ما أصوب فهمه وأوفر حفظه جزاه الله عن المسلمين خيرا »

(١) بهامش مخ بخط الشيخ عبد الله ابابطين فيما يظهر ما لفظه : « سمع الامام أحمد شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير • قال فانكر عليه أحمد ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان نمير على ربه منك » وسيأتى زيادة فى هذا المعنى •

صـفة الخلق أى التكوين

((و)) مما اختلف فيه فأثبته السلف والماتريدية دون غيرهم من المعتزلة والكلابية والأشعرية صفة ((خلقه)) لكن الاشعرية ونحوهم يثبتون له تعالى الصفات السبع المتقدمة ، وأما المعتزلة فتنفى قيام الصـفات والافعال به وتسمى الصفات اعراضا والافعال حوادث ويقولون لا تقوم به تعالى الاعراض ولا الحوادث فيتوهم من لم يعرف حقيقة قولهم انهم ينزهون الله تعالى عن النقائص والعيوب والآفات ولا ريب أن الله تعالى يحب تنزيهه عن كل عيب ونقص وآفة فانه القدوس السلام الصمد الكامل فى كل نعت من نعوت الكمال كمالا لا يدرك الخلق حقيقته منزها عن كل نقص تنزيها لا يدرك الخلق كمـاله وكل كمال يثبت لموجـود من غـير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق (به وأكمل فيه منه ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق-١) بتنزيهه عنه وأولى ببراءته منه . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله سره فى مسألة حسن ارادة الله تعالى لخلق الخلق وانشاء الانام : روينا من طريق غير واحد كعثمان بن سعيد الدارمى وأبى جعفر الطبرى والبيهقى وغيرهم فى تفسير على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الصمد) قال : السيد الذى كمل فى كل سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحكيم الذى قد كمل فى حكمته والغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار الذى قد كمل فى جبروته والعالم الذى قد كمل فى علمه والحليم الذى قد كمل فى حلمه وهو الذى كمل فى أنواع الشرف والسؤدد وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغى الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء سبحان الله الواحد القهار . قال وهذا التفسير ثابت عن عبد الله ابن صالح (عن معاوية بن صالح-١) عن على بن أبى طلحة الوالبى لكن يقال انه لم يسمع التفسير من ابن عباس لكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف، وقد روى عن سعيد بن جبير أيضا أنه قال : الصمد الكامل فى صفاته وأفعاله، وثبت عن أبى وائل شقيق بن سلمة انه قال الصمد السيد الذى انتهى سؤدده . وهذه الاقوال وما أشبهها لا تنافى ما قاله كثير من السلف كسـعيد بن

---

(١) من مخ

المسيب وابن جبير ومجاهد والحسن والسدى والضحاك وغيرهم من أن الصمد هو الذى لا جوف له ، وهذا منقول عن ابن مسعود رضى الله عنه وعن عبد الله بن بريدة عن أبيهموقوفا أو مرفوعا فان كلا القولين حق .
قال ولفظ الاعراض في اللغة قد يفهم منه ما يعرض للانسان من الامراض ونحوها ، وكذلك لفظ الحوادث والمحدثات قد يفهم منه ما يحدثه الناس من الافعال المذمومة والبدع التى ليست مشروعة أو ما يحدث بالانسان من نحو الامراض والله تعالى يجب تنزيهه عما هو فوق ذلك مما فيه نوع نقص ، ولكن لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم : منزه عن الاعراض والحوادث الا نفى صفاته الذاتية وأفعاله الاختيارية فعندهم لا يقوم به علم ولا قدرة ولا مشيئة ولا رحمة ولا حب ولا رضا ولا فرح ولا خلق ولا احسان ولا عدل ولا اتيان ولا مجيء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله ، وجماهير المسلمين يخالفونهم في ذلك، ومن الطوائف من ينازعهم في الصفات دون الافعال ومنهم من ينازعهم في بعض الصفات دون بعض ، ومن الناس من ينازعهم فى الفعل القديم فيقول ان فعله تعالى قديم وان كان المفعول محدثا . انتهى

وقال الوزنني من الحنفية في كتابه الذى سماه (مرقاة المبتدئين * في أصول الدين) وهو شرح المنظومة المعروفة بالجواهر ما ملخصه : التخليق صفة الله تعالى وهو فعل الله لاقتضاء المفعول فعلا لاستحالة مفعول بلا فعل ففعله تعالى صفة له فاستحال دخوله تحت قدرته وارادته . ثم قال واعلم أن الائمة الاربعة ونظائرهم من أئمة أهل السنة وأكثر رجال الصوفية الذين كانت كراماتهم ظاهرة مثل مالك بن دينار وابراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وذى النون المصرى والسرى السقطى ومعروف الكرخى وسهل بن عبد الله التسترى ومن نشر علم الاشارة الجنيد البغدادى وأبو بكر الشبلى وغيرهم كانوا يصفون الله بالفعل والكلام والرؤية والسمع كما يصفونه بالحياة والعلم والقدرة . ثم حط على الاشعرى وانه أتى بخلاف مذهب أهل السنة . انتهى

وقال النسفى فى عقائده المشهورة : والتكوين صفة لله أزلية وهو

تكوينه للعالم ولكل جزء من أجزائه وهو غير المكون عندنا • قال شارحها المحقق التفتازانى التكوين هو المعنى المعبر عنه بالفعل والخلق والتخليق والايجاد والاحداث والاختراع ونحو ذلك ، ويفسر باخراج المعدوم من العدم الى الوجود صفة لله تعالى لاطباق العقل والنقل على أنه خالق للعالم مكون له وامتناع اطلاق الاسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفا قائما به أزلية لوجوه (الاول) انه يمتنع قيام الحوادث بذاته تعالى (الثانى) انه وصف ذاته فى كلامه الازلى بأنه الخالق فلو لم يكن في الازل خالقا للزم الكذب أو العدول الى المجاز - أى الخالق في ما يستقبل أو القادر على الخلق - من غير تعذر الحقيقة ، على أنه لو جاز اطلاق الخالق عليه بمعنى القادر لجاز اطلاق كل ما يقدر عليه من الاعراض (الثالث) انه لو كان حادثا فاما بتكوين آخر فيلزم التسلسل وهو محال ويلزم منه استحالة تكون (العالم) مع أنه مشاهد ، واما بدونه فيستغنى الحادث عن المحدث والاحداث وفيه تعطيل الصانع (الرابع) انه لو حدث لحدث اما فى ذاته تعالى فيصير محلا للحوادث أو فى غيره كما ذهب اليه أبو الهذيل من أن تكوين كل جسم قائم به فيكون كل جسم خالقا ومكونا لنفسه ولا خفاء فى استحالته • ومبنى هذه الادلة على أن التكوين صفة حقيقية كالعلم والقدرة • قال والمحققون من المتكلمين على أنه من الاضافات والاعتبارات العقلية مثل كون الصانع تعالى وتقدس قبل كل شيء ومعه وبعده ومذكورا بألسنتنا ومعبودا لنا ومميتا ومحييا ونحو ذلك • قال والحاصل في الازل هو مبدأ التخليق والترزيق والاماتة والاحياء وغير ذلك ولا دليل على كونه صفة أخرى سوى القدرة والارادة (فان القدرة - ١) وان كانت نسبتها الى وجود المكون وعدمه على السواء لكن مع انضمام الارادة بتخصيص أحد الجانبين ، قال ولما استدل القائلون بحدوث التكوين بأنه لا يتصور بدون المكون كالضرب بدون المضروب فلو كان قديما لزم قدم المكونات وهو محال أشار النسفى الى الجواب بقوله وهو أى التكوين تكوينه للعالم ولكل جزء من أجزائه لا فى الازل بل لوقت وجوده على حسب علمه وارادته فالتكوين باق ازلا

(١) من شرح العقائد وكذا ما يأتي بين قوسين من المنقول عنه •

وأبدا والمكون حادث بحدوث التعلق كما فى العلم والقدرة وغيرهما من الصفات القديمة التى لا يلزم من قدمها قدم متعلقاتها لكون تعلقاتها حادثة ، وهذا تحقيق ما يقال أن وجود العالم ان لم يتعلق بذات الله تعالى أو صفة من صفاته لزم تعطيل الصانع واستغناء الحوادث عن الموجد وهو محال ، وأن تعلق فاما أن يستلزم ذلك قدم ما يتعلق وجوده به فيلزم قدم العالم وهو باطل ، أولا فليكن التكوين أيضا قديما مع حدوث المكون المتعلق به ، وما يقال من ان القول بتعلق وجود المكون بالتكوين قول بحدوثه اذ القديم مالا يتعلق وجوده بالغير والحادث ما يتعلق به فمنظور فيه لان هذا معنى القديم والحادث بالذات على ما يقول به الفلاسفة وأما عند المتكلمين فالحادث ما لوجوده بداية أى يكون مسبوقا بالعدم والقديم بخلافه ومجرد تعلق وجوده بالغير لا يستلزم حدوثه بهذا المعنى لجواز أن يكون محتاجا الى الغير صادرا عنه دائما بدوامه كما ذهب اليه الفلاسفة فيما ادعوا قدمه من الممكنات كالهيولى مثلا ، نعم اذا أثبتنا صدور العالم من الصانع بالاختيار دون الايجاب بدليل لا يتوقف على حدوث العالم كان القول بتعلق وجوده بتكوين الله تعالى قولا بحدوثه ، ومن هنا يقال ان التنصيص على كل جزء من أجزاء العالم اشارة الى الرد على زعم قدم بعض الاجزاء كالهيولى والا فهم انما يقولون بقدمها بمعنى عدم المسبوقية بالعدم لا بمعنى عدم تكونه بالغير، والحاصل انا لا نسلم انه لا يتصور التكوين بدون (وجود) المكون وان وزانه معه وزان الضرب مع المضروب فان الضرب صفة اضافية لا يتصور بدون المتضايفين أعنى الضارب والمضروب وقد بينا أن التكوين صفة حقيقية هى مبدأ الاضافة التى هى اخراج المعدوم من العدم الى الوجود لا عينها حتى لو كانت عينها على ما وقع فى عبارة بعض المشايخ لكان القول بتحققها بدون المكون مكابرة وانكارا للضرورة فلا يندفع بما يقال من أن الضرب مستحيل البقاء فلا بد لتعلقه بالمفعول ووصول الالم اليه من وجود المفعول معه اذ لو تأخر لانعدم كذا قيل وهذا بالنسبة لفعل المخلوق وهو بخلاف فعل البارى فانه أزلى (واجب) الدوام يبقى الى وقت وجود المفعول فالتكوين غير المكون عندنا لان الفعل يغاير المفعول بالضرورة كالضرب مع المضروب

والأكل مع المأكول ، ولأنه لو كان نفس المكون لزم ان يكون المكون مكونا مخلوقا بنفسه ضرورة انه مكون بالتكوين الذى هو عينه فيكون قديما مستغنيا عن الصانع وهو محال ، وأن لا يكون للخالق تعلق بالعالم سوى أنه أقدم منه وقادر عليه من غير صنع وتأثير فيه ضرورة تكونه بنفسه وهذا لا يوجب كونه خالقا والعالم مخلوقا فلا يصح القول بأنه خالق العالم وصانعه ، هذا خلف ، وأن لا يكون الله مكونا للأشياء ضرورة انه لا معنى للمكون الا من قام به التكوين والتكوين اذا كان عين المكون لا يكون قائما بذات الله تعالى ، وأن يصح القول بأن خالق سواد هذا الحجر أسود وهذا الحجر خالق السواد اذ لا معنى للخالق والاسود الا من قام به الخلق والسواد وهما واحد فمحلهما واحد ، هذا كله تنبيه على كون الحكم بتغاير الفعل والمفعول ضروريا

ثم قال السعد التفتازانى وهذا ـ يعنى ابطال القول بأن الفعل هو المفعول ـ لا يتم الا باثبات أن تكون الاشياء وصدورها عن البارى تعالى يتوقف على صفة حقيقية قائمة بالذات مغايرة للقدرة والارادة ، قال والتحقيق أن تعلق القدرة على وفق الارادة بوجود المقدور لوقت وجوده اذا نسب الى القدرة يسمى ايجابها له واذا نسب الى القادر يسمى الخلق والتكوين ونحو ذلك ، فحقيقته كون الذات بحيث تعلقت قدرته بوجود المقدور لوقته ثم يتحقق بحسب خصوصيات المقدورات خصوصيات الافعال كالترزيق والتصوير والاحياء والاماتة وغير ذلك الى ما لا يكاد يتناهى[1] • قال وأما كون كل من ذلك صفة حقيقية أزلية فمما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر وفيه تكثير للقدماء جدا وان لم تكن متغايرة • قال والاقرب ما ذهب اليه المحققون منهم وهو أن مرجع الكل الى التكوين فانه ان تعلق بالحياة سمى احياء وبالموت اماتة وبالصورة تصويرا وبالرزق ترزيقا الى غير ذلك فالكل تكوين وانما الخصوص بخصوصية التعلقات • انتهى • ومراده بقوله مما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر يعنى علماء الكلام والا فهو مذهب السلف الذى لا يعدل عنه الا الى آراء متهافتة وتخيلات متفاوتة ونحاتة

---

(١) مخ « الى ما لا نهاية له »

أذهان قد انحرفت عن جادة المأثور وزبالات أنظار قد انفتلت عن المنهج المشهور الى التهافتات الفلسفية والتخيلات الكلامية ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى شرح (العقائد الاصفهانية) الصواب أن الخلق غير المخلوق • قال والذين يقولون الخلق هو المخلوق قولهم فاسد وبين وجه فساده وذكر من الآيات القرآنية والاخبار النبوية الدالة على هذا الاصل شيئا كثيرا مثل (كل يوم هو فى شأن) (واتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) وقوله (ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم) فأخبر أن طاعته سبب لمحبته ورضاه ومعصيته سبب لسخطه وغضبه ، وقال تعالى (فاذكرونى أذكركم) وجواب الشرط مع الشرط كالمسبب مع سببه • وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » وفى الصحيحين وغيرهما « لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن ممن أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فنام تحت شجرة ينتظر الموت فلما استيقظ اذا هو بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته » وفى الصحيح « يضحك الله الى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » وفى الصحاح والسنن والمسانيد من هذا شىء كثير يتعذر أو يتعسر احصاؤه وقد ذكر من ذلك شيئا كثيرا • ثم قال وبهذا الاصل العظيم الذى دلت عليه الكتب المنزلة من الله تعالى القرآن والتوراة والانجيل وكان عليه سلف الامة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف حتى من الفلاسفة يظهر بطلان مذهب القائلين بالقدماء الخمسة •

قال شيخ الاسلام وهذا المذهب منسوب الى ديمقراطيس وهى العلة والنفس والهيولى ـ وهى فى لغتهم بمعنى المحل ـ والخلاء والدهر فزعم هؤلاء ومن وافقهم بأن هذه الخمسة قديمة أزلية وأن سبب حدوث العالم أن النفس التفتت الى الهيولى وامتنع على الرب تخليصها أو رأى أنه لا يخلصها (حتى تذوق)

مرارة تعلقها بالهيولى ثم يخلصها أو لتستفيد بذلك كمالات ثم يخلصها بعد ذلك،قال ولهذا يقول محمد بن زكريا الرازى من فلاسفة الاسلام لا لذة الا عدم الألم وغاية سعادة النفس خلاصها من الالم الحاصل بتعلقها بالهيولى • وأبو عبد الله بن الخطيب الرازى ـ يعنى الفخر ـ وبعض من يأتم به يرجحون هذا القول وبه يجيب هؤلاء عن الحجة المشهورة للفلاسفة ويسمونه ـ الجواب الباهر ـ قال في محصله ـ وذكر ما هو شبيه بالخرافة وهو بمعزل عن كلام أهل الشرائع والدين والنبوات ومناهج المرسلين • قال شيخ الاسلام روح الله روحه وهذا المذهب من أفسد مذاهب العالم ، قال وهو يشبه من بعض الوجوه مذهب المجوس القائلين بالاصلين القديمين النور والظلمة ، قال والرسل عليهم السلام وأتباعهم أهل الملل متفقون على أن الله تعالى خالق لكل ما سواه فليس معه شيء قديم بقدمه لا نفس ولا عقل ولا غير ذلك من الاعيان سواء سمى خلاء أو دهرا أو غير ذلك وبالله التوفيق •

ولما كان أهل الملة مختلفة فمنهم من نفى الصفات من أصلها وأثبت الاسماء وهم المعتزلة ، ومنهم من نفى الصفات الخبرية والافعال الاختيارية أن تقوم بذاته تعالى وأثبت السبع الصفات كالاشعرية ومن وافقهم ، وكان مذهب السلف وسائر الائمة وجمهور الامة اثبات الصفات الذاتية والاسماء الحسنى والصفات الخبرية وصفات الافعال الاختيارية لله تعالى حثك على الاتباع لسلف الامة وحذرك من الابتداع ومخالفة السنة وأعيان الائمة فقال ((فاحذر من النزول)) من ذروة الايمان وسام الدين والايقان وأوج الرفعة والعرفان الى حضيض الابتداع وقاذورات الاختراع فان السلامة كل السلامة فى اتباع الرعيل الاول والسرب الذى عليه المعول لاما ابتدعته فروخ الجهمية وانتحلته أساطين الفلاسفة من فرق المشائية والاشراقية (١) ((فسائر الصفات)) الذاتية من الحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والعلم والكلام وغيرها وسائر الصفات الخبرية من الوجه واليدين والقدم والعينين ونحوها ((و)) سائر صفات ((الافعال))من الاستواء

(١) بهامش مخ بالفظه « بلغ قراءة امرار على شيخنا المحقق الفقيه والمدقق النبيه ذى الدين المتين والورع واليقين الشيخ عبد الله أبا بطين الحنبلى السلفى أمتعنا الله بحياته وذلك فى ٢٩ ش سنة ١٢٥٩

قوله ان صفات الله تعالى قديمة وما أورد عليه

والنزول والاتيان والمجيء والتكوين ونحوها ((قديمة لله)) أى هى صفات قديمة عند سلف الامة وأئمة الاسلام لله ((ذى الجلال))والاكرام ليس منها شيء محدث، والا لكان محلا للحوادث وما حل به الحادث فهو حادث تعالى الله عن ذلك[1] . ولما كان ربما توهم متوهم أن ذلك

---

(١) فى تنبيه أبى سحمان ص ٥٣ بعد حكاية نحو هذه العبارة ما لفظه :
« أعلم أنا قد قدمنا فيما قبل من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وكلام تلميذه ابن القيم الذين هم سادات الحنابلة وأئمتهم ما فيه الكفاية ولكن لا بد من التنبيه على بعض ذلك ليتبين لك أن نسبة ذلك الى سلف الامة وأئمتها من الكذب عليهم وانما هو كلام سلف أئمة أهل البدع والضلال الذين ينتسبون الى مذهب أهل السنة والجماعة . فمن ذلك أن شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ذكرا أن مذهب السلف وأئمتها أن أفعال الله سبحانه وتعالى قديمة النوع حادثة الآحاد وأن الله سبحانه لم يزل متكلما اذا شاء ولم يزل فاعلا اذا شاء أو لم تزل الارادات والكلمات تقوم بذاته شيئا بعد شيء ونحو ذلك .
فاذا عرفت هذا تبين لك أن قول الشارح فى أفعال الله الاختيارية : ليس منها شيء محدث والا كان محلا للحوادث وما حلت به الحوادث فهو حادث تعالى الله عن ذلك ـ ليس هو من كلام السلف وأئمتها بل هو من كلام أهل البدع المخالفين للسلف كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وأما حلول الحوادث فيريدون به أن لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتى يوم القيمة ولا يجيء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبانا ولا يقوم به فعل ألبته ولا أمر مجدد بعد ان لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن يكن مريدا له فلا يقول له كن حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب يوم القيامة غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولا ينادى عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن مناديا ولا يقول للمصلى اذا قال (الحمد لله رب العالمين) حمدنى عبدى فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال (أثنى على عبدى) فاذا قال (مالك يوم الدين) قال « مجدنى عبدى » فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث . انتهى .
وقد تقدم كلام شيخ الاسلام وفيه الكفاية ، ثم ان من المعلوم عند من له المام بالمعارف والعلوم أن نزول الله سبحانه وتعالى الى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر وكذلك مجيئه لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة لم يكن قديما قبل أن يخلق السموات والارض فى الازل بل ذلك فيما لم يزل الى يوم القيمة بمشيئته وقدرته وارادته كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يجيء ويأتى على ما يليق بعظمته وجلاله ، ومن تأمل كلام شمس الدين ابن القيم حق التأمل تبين له ما قاله أئمة السلف وتبين له أيضا ما يقوله أئمة أهل البدع وما تحت ألفاظهم المجملة التى لم ينطق بها كتاب ولا سنة ولم يتكلم بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعون ولا من بعدهم من الأئمة المهتدين والله أعلم . وكذلك ما قاله الشارح بعد هذا : قال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه فى

سلم للتشبيه والتمثيل المنفى فى محكم النص استدرك ذلك فقال ((لكن)) باسكان النون ((بلا كيف ولا تمثيل)) واثبات ذلك والاعتراف به والاقرار والاذعان بموجبه لما دلت عليه النصوص القرآنية والاحاديث الثابتـــة

كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله صلى ألله عليه وسلم • فأقول قد تقدم الكلام على ذلك وانما مقصود السلف بذلك تأويله وصرفه عن ظاهره • وأما قوله : وسمع الامام أحمد رحمه الله شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ، ولا تغير حال ، فأنكر الامام أحمد عليه ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان أغير على ربه منك • فأقول نعم قد كان أحمـــد ينكر هذه الالفاظ التى لم يأت بها كتاب ولا سنة ولا نطق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم من التابعين وكان يحب السكوت عن ذلك كما قدمنا ذلك عنه فى الحد •

ولأئمة السلف ومنهم أحمد كلام فى الحركة والانتقال فنذكر من ذلك ما يتبين به صحة مذهب السلف وبطلان ما خالفهم من كلام أهل البدع ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى العقل والنقل بعد كلام طويل قال فيه : والفعل صفة كمال لا صفة نقص كالكلام والقدرة وعـــدم الفعل صفة نقص كعدم الكلام وعدم القدرة فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع وهو المطلوب ، وكان الناس قبل أبى محمد بن كلاب صنفين فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والافعال التى يشاؤها ويقدر عليها والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا فأثبت ابن كلاب قيام الصــفات اللازمة به ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشــيئته وقدرته من الافعال وغيرها ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسى وأبو الحسن الاشعرى وغيرهما وأما الحارث المحاسبى فكان ينتسب الى قول ابن كلاب ولهذا أمر أحمد بهجره وكان أحمد يحذر عن ابن كلاب وأتباعه ثم قيل عن الحارث انه رجع عن قوله وقد ذكر الحارث فى كتاب فهم القرآن عن أهل السنة فى هذه المسألة قولين ورجح قول ابن كلاب وذكر ذلك فى قوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأمثال ذلك •

وأئمة السنة والحديث على اثبات النوعين وهو الذى ذكره عنهم من نقل مذهبهم كحرب الكرمانى وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهمـــا بل صرح هؤلاء بلفظ الحركة وان ذلك هو مذهب أئمة السنة والحديث من المتقدمين والمتأخرين ، وذكر حرب الكرمانى قول من لقيه من أئمة السنة كأحمد بن حنبل واسحاق بن راهوية وعبـــد الله بن الزبير الحميــــدى وسعيد بن منصور ، وقال عثمان بن سعيد وغيره : ان الحركة من لوازم الحياة فكل حى متحرك وجعلوا نفى هذا من أقوال الجهمية نفاة الصـــفات الذين اتفق السلف والائمة على تضليلهم وتبـــديعهم ، وطائفة أخـــرى من السلفيين كنعيم بن حماد الخزاعى والبخارى صاحب الصحيح وأبى بكر بن خزيمة وغيرهم كأبى عمر بن عبد البر وأمثاله يثبتون المعنى الذى يثبته هؤلاء ويسمون ذلك فعلا ونحوه لكن يمنعون عن اطلاق لفظ الحركة لكونه غير

النبوية فاعتقدنا ذلك واعتمدناه متابعة للسلف وارتضيناه ((رغمال)) أى لأجل رغم أنوف ((أهل الزيغ)) أى الميل والانحراف عن نهج أهل الحق ، والشك والجور عن سبيل أهل الصدق يقال زاغ اذا مال وأزاغ غيره

مأثور ، وأصحاب أحمد منهم من يوافق هؤلاء كأبى بكر عبد العزيز وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما ومنهم من يوافق الاولين كأبى عبد الله ابن حامد وأمثاله - ثم ذكر كلاما طويلا - الى أن قال : وقال أبو محمد حرب بن اسماعيل الكرمانى فى مسائله المعروفة التى نقلها عن أحمد واسحاق وغيرهما وذكر معهما من الآثار عن النبى صلى عليه وسلم والصحابة وغيرهم ما ذكر الى أن قال : وأدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج من الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق وهو مذهب أحمد واسحاق بن ابراهيم بن مخلد وعبدالله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم . وذكر الكلام فى الايمان والقدر والوعيد والامامة وما أخبر به الرسول من أشراط الساعة وأمر البرزخ والقيامة وغير ذلك الى أن قال : وهو سبحانه بائن من خلفه لا يخلو من علمه مكان ولله عرش وللعرش حملة يحملونه ، وله حد الله أعلم بحده والله على عرشه عز ذكره وتعالى جده ولا اله غيره والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل ، حليم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان لا يسهو ، رقيب لا يغفل ، يتكلم ويتحرك ويسمع ويبصر وينظر ويقبض ويبسط ويحب ويكره ويبغض ويرضى ويسخط ويغضب ويرحم ويعفو ويغفر ويعطى ويمنع وينزل كل ليلة الى سماء الدنيا كيف شاء وكما شاء (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . الى أن قال : ولم يزل متكلما عالما (فتبارك الله أحسن الخالقين) اهـ .

والمقصود أنه ذكر عن أئمة السلف في أفعال الله الاختيارية التي تتعلق بمشيئته وقدرته وارادته الحركة فليس لنا أن نعدل عن قولهم ونأخذ بمذاهب أهل البدع وآرائهم .

وقال شيخ الاسلام أيضا فى العقل والنقل : وقال عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه المعروف (بنقض عثمان بن سعيد ، على المريسى الجهمى العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) قال : وادعى المعارض أيضا ان قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله ينزل الى سماء الدنيا حين يمضى ثلث الليل فيقول هل من مستغفر هل من تائب هل من داع » قال : وادعى ان الله لا ينزل بنفسه انما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وبكل مكان من غير زوال لانه الحى القيوم والقيوم بزعمه من لا يزول (قال) فيقال لهذا المعارض وهذا أيضا من حجج النساء والصبيان ، ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان ، لأن أمر الله ورحمته ينزل فى كل ساعة ووقت وأوان ، فما بال النبى صلى الله عليه وسلم يحد لنزوله الليل دون النهار ويوقت من الليل شطره والاسحار ، أفأمره ورحمته يدعوان العباد الى الاستغفار ، أو يقدر الامر والرحمة أن يتكلما دونه فيقولا « هل من

اذا أماله ((و)) رغما لأنوف أهل ((التعطيل)) من الطوائف الضالة والفرق المائلة فمذهب السلف حق بين باطلين وسنة بين بدعتين فان من الناس من حمل النصوص على التشبيه والتمثيل فضل وأضل ومنهم من حملها على التحريف والتعطيل فألحد وانفصل عن الحق وختل وأهل الحق أثبتوا النصوص واعتقدوها بلا تكييف فهم يقولون اثبات وجود لا اثبات تكييف وتحديد ولهذا قال ((فمرها)) أى آيات الصفات وأخبارها ولا تتعرض لمعانيها وأسرارها بل تفسيرها أن نمرها ((كما أتت فى الذكر)) القرآنى والحديث الصحيح عن المعصوم العدنانى ((من غير تأويل)) لها ((وغير فكر)) فى معانيها فان ذلك ليس فى طوق البشر أن يكلفوه ولا فى وسعهم أن يعرفوه وعلى ذلك مضت أئمة السلف والحق من سلف فكان الزهرى والامام مالك والاوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد وابن المبارك والامام احمد واسحاق بن راهويه وغيرهم رضى الله عنهم يقولون فى مثل هذه الآيات يعنى التى فيها مجيء الله ووجهه واتيانه والاخبار كخبر النزول « مروها كما جاءت » وقال سفيان بن عيينة كل ماوصف الله نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله . وسمع الامام احمد رضى الله عنه شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير حال

داع فأجيبه ؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ » فان أقررت مذهبك لزمك أن تدعى أن الرحمة والامر هما اللذان يدعوان العباد الى الاجابة والاستغفار بكلامهما دون الله وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء ؟ قد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال رحمته وأمره ينزلان من عنده شطر الليل ثم يمكثان الى طلوع الفجر ثم يرفعان لأن رفاعة راوية يقول فى حديثه « حتى ينفجر الفجر » قد علمتم ان شاء الله تعالى أن هذا التأويل باطل ، ولا يقبله الا جاهل ، وأما دعواك أن تفسير القيوم الذى لا يزول عن مكانه ولا يتحرك فلا يقبل منكم هذا التفسير الا بأثر صحيح مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن بعض أصحابه أو التابعين لان الحى القيوم يفعل ما شاء ويتحرك اذا شاء ويهبط ويرتفع اذا شاء ، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس اذا شاء ، لان امارة ما بين الحى والميت التحرك . كل حى متحرك لا محالة وكل ميت غير متحرك لا محالة ومن يلتفت الى تفسيرك وتفسير صاحبك مع تفسير نبى الرحمة ،ورسول رب العزة ؟ اذ فسر نزوله مشروحا منصوصا ،ووقت لنزوله وقتا مخصوصا، لم يدع لك ولا صحابك فيه لعبا ولا عويصا . انتهى . والله أعلم .

فأنكر الامام احمد عليه ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان أغير على ربه منك • وقال أبو حنيفة رضى الله عنه فى كتاب الفقه الاكبر : ما ذكر الله تعالى فى القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال ان يده قدرته ونعمته لان فيه أبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف • وقال العلامة ابن الهمام ان الاصبع واليد صفة له تعالى لا بمعنى الجارحة بل على وجه يليق به هو سبحانه أعلم • وقال أبو حامد الغزالى فى كتابه « الجام العوام » فى الباب الاول منه : اعلم ان الحق الصحيح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين • ثم قال : حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الاخبار من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الكف ثم الامساك ثم التسليم لاهل المعرفة (فالتقديس) تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها (١) (والتصديق)الايمان بقوله صلى الله عليه وسلم وان كل ما ذكر حق وهو فيما قاله صادق وانه حق على الوجه الذى قاله وأراده (والاعتراف بالعجز) أن يقر أن معرفة مراده ليس على قدر طاقته وان ذلك ليس من شأنه وحرفته (والسكوت) بأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه مخاطرا بدينه وانه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر • وأما (الامساك) فان لا يتصرف فى تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيها والنقصان منها والجمع والتفريق بل لا ينطق لا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة (واما الكف) فبان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه (واما التسليم) لاهل المعرفة فان لا يعتقد ان ذلك ان خفى عليه لعجزه فقد خفى على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء أو على الصديقين والاولياء • انتهى • وقد مر أنه لا يعلم حقيقة ما هو تعالى غيره فعليه المعول والله تعالى أعلم ***

---

(١) راجع التعليق على ص ١١٥ و١٨٢ - ١٨٩ و٢٥٨ - ٢٦١

ولما فرغ من ذكر مايجب له تعالى من الاسماء والصفات الذاتية والاخبارية والفعلية أخذ فى ذكر مايستحيل فى حقه تعالى فقال :

الأوصاف المستحيلة فى حق الله تعالى

((ويستحيل الجهل والعجز كما قد استحال الموت حقا والعمى))
((فكل نقص قد تعالى الله عنه فيابشرى لمن والاه))

((ويستحيل)) فى حق الله تعالى اضداد الصفات التى اتصف بها البارى جل شأنه ، والمستحيل هو كما مر ما لا يتصور فى العقل ثبوته فمما يستحيل فى حق مولانا عز وجل ((الجهل)) الذى هو ضدالعلم((والعجز)) الذى هو ضد القدرة ((كما)) أنه قد ((استحال)) فى حقه تعالى ((الموت)) الذى هو ضد الحياة حق ذاك ((حقا)) فهو مصدر ((و)) يستحيل فى حقه تعالى ((العمى)) الذى هو ضد البصر وكذا الصمم الذى هو ضد السمع والبكم الذى هو ضد الكلام والفناء الذى هو ضد البقاء والعدم الذى هو ضد الوجود والفقر الذى هو ضد الغنى والمماثلة للحوادث المنفى فى قوله تعالى ليس كمثله شىء وتقدم انه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض (١) فهى من المستحيلة فى حقه تعالى وما نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه فى محكم الذكر كقوله « ليس كمثله شىء ـ هل تعلم له سميا ـ فلا تضربوا لله الامثال ـ فلا تجعلوا لله أندادا ـ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ ولم يتخذ ولدا ـ ولم يكن له شريك فى الملك » ونحو ذلك ، والنفى انما يدل على عدم المنفى والعدم المحض ليس بشىء أصلا فضلا عن أن يكون كمالا وانما يكون كمالا اذا استلزم أمرا وجوديا فلهذا لم يصف الرب تعالى نفسه بشىء من النفى الا اذا تضمن ثبوتا كقوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) فقوله لا تأخذه سنة ولا نوم يتضمن كمال حياته وقيوميته فان النوم أخو الموت ومن تأخذه السنة والنوم لايكون قيوما قائما بنفسه مقيما لغيره فان السنة والنوم يناقض ذلك ثم قال تعالى (له مافى السموات ومافى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) فنفى شفاعة أحد عنده الا باذنه يتضمن كمال كونه له مافى السموات ومافى الارض ليس له فى ذلك شريك ولا ظهير فان الشافع اذا شفع عند

---

(١) راجع التعليق على ص ١٨٢ ـ ١٨٩

غيره بغير اذنه كان شريكا له فيما يشفع فيه وكان متصرفا فيه اذ جعله مماثلا بعد ان لم يكن فكان فى نفى هذه الشفاعة قد بين انه لا شريك له بوجه من الوجوه ، والصمد الذى يحتاج اليه كل شىء ولا يحتاج الى شىء ولا يؤثر فيه غيره ، والحاصل ان كل ما كان ضدا لما ذكر من أوصافه أو نقيضا أو خلافا فهو تعالى منزه عنه مطلقا ولهذا قال ((فكل نقص)) من هذه الاوصاف المذكورة ونحوها ((قد تعالى)) وتنزه ((الله عنه)) لأن له الكمال المطلق فكل كمال لا يؤدى الى نقص ما فالله أولى به وكل نقص فالله منزه عنه ((فيابشرى)) نادى البشرى بشارة ((ا)) لكل ((من)) اى شخص من أهل السنة والجماعة قد ((والاه)) الله أو قد والى هو الله أى اتخذه وليا معتمدا عليه ومفوضا جميع أموره اليه مع اقتفائه المأثور واتباعه للرسول فكأنه يقول لنفسه ولسائر أهل السنة هذا أوان حصول البشرى لكم أو يا بشرى أقبلى وتعالى فهذا أوانك • وانما نوه بالبشرى لمن والاه الله تعالى لعظم ذلك وخطره ودخوله فى حصن ولايته ومحل نظره، وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » الحديث ، وروى ابن أبى الدنيا من حديث أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل انه قال « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى » ورواه الامام احمد بمعناه• وفى رواية يقول الله عز وجل « من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » وأخرج ابن ماجه من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ان يسير الرئاء شرك وان من عادى لى وليا فقد بارز الله بالمحاربة وان الله يحب الابرار الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفقدوا وان حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وقد قال الله تعالى فى محكم الذكر (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوزالعظيم) فالناظم اقتبس من الآية البشارة لاهل الولاية ، وقد روى الامام احمد

فى كتاب الزهد باسناده عن وهب بن منبه قال : ان الله عز وجل قال لموسى عليه السلام حين كلمه اعلم أن من أهان لى وليا وأخافه فقد بارزنى بالمحاربة وبادانى وعرض نفسه ودعانى اليها وأنا أسرع شىء الى نصرة أوليائى أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى أو يظن الذى يعاجزنى أن يعجزنى أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة فلا أكل نصرتهم الى غيرى • واعلم أن كل من عصى الله فقد حاربه لكن كلما كان الذنب أقبح كان أشد محاربة لله تعالى ولهذا سمى الله تعالى أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله ولرسوله لعظم ظلمهم لعباده وسعيهم بالفساد فى بلاده ، وكذلك معاداة أوليائه فانه سبحانه يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه فاذا كان من والى الله تعالى بهذه المثابة من الحفظ والاعزاز والنصرة له من قبل العزيز القهار وتوعد من عاداه وآذاه بمعاداة القوى الجبار فله البشارة العظمى والمسرة والمنزلة العليا والمبرة • وقد قدمنا غير مرة أن الحق عز وجل موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص وهـــو العزيز المتعال

« تنبيـــــه »

المـــذاهب فى الصفات

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه جماع الامر ان الاقسام الممكنة فى آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة قسمان يقولان تجرى على ظاهرها ، وقسمان يقولان هى على خـــلاف ظواهرها ، وقسمان يسكتان ، فأما الاولان فأحدهما من يجريها عـــلى ظاهرها من جنس صفات المخلوقين فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل أنكره السلف وعليهم توجه الرد بالحق ، الثانى من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى وعظمته كما يجرى اسم العليم والقدير والرب والاله والموجـــود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى فان ظواهر هذه الصفات فى حق المخلوقين اما جوهر محدث واما عرض قائم فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك فى حق العبد اعراض والوجه واليدان والعين فى حقه أجسام فاذا كان الله

عز وجل موصوفا عند عامة أهل الاثبات بأن له علما وقدرة وكلاما ومشيئة ولم تكن فى حقه تعالى اعراضا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين فكذلك الوجه واليد والعين ونحوها صفات له تعالى لا كصفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذى حكاه الخطابى وغيره عن السلف وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقين لا يخالفه وهو أمر واضح فان الصفات كالذات فكما ان ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين فكذلك صفاته ثابتة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين ، وتقدم نظير هذا ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذى ليس كمثله شيء الا ما يناسب المخلوق فقد ضل فى عقله ودينه وقد مر أنه لا يعلم ماهو الا هو وان صفاته لا يعلم كنهها وحقيقتها الا هو تعالى وانما تعلم الذات المقدسة والصفات من حيث الجملة على الوجه الذى يليق بعظمته وجلاله ، وقد تنازع الناس فى حقيقة الروح واختلفوا فيها اختلافا كثيرا مع القطع باتصالها بالبدن وانها تخرج منه وتعرج الى السماء وقد تخبط فيها الفلاسفة ومن وافقهم تخبط الذى به مس من الشيطان لكونهم رأوها من غير جنس البدن وعالمه وصفاته فعدم مماثلتها للبدن لا ينفى أن تكون الصفات الثابتة لها من الصعود والنزول والاتصال والانفصال حقا . قال شيخ الاسلام : وأما القسمان اللذان يقولان هى على خلاف ظواهرها فقسم يتأولونها ويعينون المراد منها مثل قولهم استوى بمعنى استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر ، وقسم يقولون الله أعلم بمراده منها لكنا نعلم انه لم يرد اثبات صفة خارجة عما علمناه . قال : وأما القسمان الواقفان فقسم يقول بجواز أن يكون المراد ظاهرها اللائق بالله تعالى ويجوز أن لا تكون صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات ، قال فهذه الاقسام الستة لا يمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها ، قال والصواب فى كثير من الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية . انتهى كلامه . والله تعالى الموفق

فصل فى ايمان المقلد

((فصـــل))

فى ذكر الخلاف فى صحة ايمان المقلد فى العقائد وعدمها وفى جوازه وعدمه وقد أشار الناظم الى هذا المقام الذى هو مزلة أقدام فقال :

((وكل ما يطلب فيه الجـــزم   فمنـــع تقليـــد بذاك حتـــم))
((لأنه لا يـــكتفى بالظــــن   لذى الحجى فى قول أهل الفن))
((وقيل يكفى الجزم اجمـاعا بما   يطلب فيه عند بعض العلمـــا))
((فالجازمون من عـــوام البشر   فمسلمون عند أهــــل الأثر))

((وكل ما)) أى حكم ومطلوب مما عنه الذكر الحكمى وهو المعنى الذى يعبر عنه بالكلام الخبرى وهو ما أنبأ عن أمر فى نفسك من اثبات او نفى والمراد هنا كل اعتقاد ((يطلب فيه)) أى ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى وما يجب له ويستحيل عليه ويجوز ((الجزم)) بأن يجزم به جزما لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره فى نفسه فان طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح والا ففاسد فما كان من هذا الباب ((فمنع تقليد)) وهو لغة وضع الشىء فى العنق حال كونه محيطا به وذلك الشىء يسمى قلادة وجمعها قلائد وعرفا أخذ مذهب الغير يعنى اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا دليل فان أخذه بالدليل فليس بمقلد له فيه ولو وافقه فالرجوع الىقوله صلى الله عليه وسلم ليس بتقليد • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى المسودة : التقليد قبول القول بغير دليل فليس المصير الى الاجماع بتقليد لأن الاجماع دليل ولذلك يقبل قول النبى صلى الله عليه وسـلم ولا يقال تقليد وقد قال الامام احمد رضى الله عنه فى رواية أبى الحارث من قلد الخبر رجوت أن يسلم ان شاء الله تعالى فأطلق اسم التقليد على من صار الى الخبر وان كان حجة بنفسه • انتهى ملخصا ((بذاك)) أى بما يطلب فيه الجزم ولا يكتفى فيه بالظن ((حتم)) بفتح الحاء المهملة وسكون التاء المثناة فوق أى لازم واجب ، قال علماؤنا وغيرهم يحرم التقليد فى معرفة الله تعالى وفى التوحيد والرسالة وكذا فى أركان الاسلام الخمس ونحوها مما تواتر واشتهر ، عند الامام احمد رضى الله عنه والاكثر وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء وذكر غيره انه قول الجمهور قاله

فى شرح التحرير ، قال وأطلق الحلوانى من أصحابنا وغيره منع التقليد فى أصول الدين ، واستدلوا لتحريم التقليد بأمره سبحانه وتعالى بالتدبر والتفكر والنظر ، وفى صحيح ابن حبان لما نزل فى آل عمران (ان فى خلق السموات والارض) الآيات قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن ويل له ويل له » والاجماع على وجوب معرفة الله تعالى ولا تحصل بتقليد لجواز كذب المخبر واستحالة حصولها كمن قلد فى حدوث العالم وكمن قلد فى قدمه ، ولأن التقليد لو أفاد علمـــا فاما بالضرورة وهو باطل واما بالنظر فيستلزم الدليل والاصل عدمه والعلم يحصل بالنظر واحتمال الخطأ لعدم مراعاة القانون الصحيح ، ولأن الله تعالى ذم التقليد بقوله تعالى (انا وجدنا آباءنا على أمة) ولقوله تعالى (فاعـلم انه لا اله الا الله) فألزم الشارع بالعلم ويلزمنا نحن أيضا لقوله (فاتبعوه لعلكم تهتدون) فتعين طلب اليقين فى الوحدانية ويقاس عليهـــا غيرها والتقليد لا يفيد الا الظن ولهذا قال معللا للمنع عنه بقوله ((لانه)) أى الشأن والامر والقصة ((لا يكتفى)) فى أصول الدين ومعرفة الله رب العالمين ((بالظن)) الذى هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر فالراجح هو الظن والمرجوح الوهم فلا يكتفى به فى أصول الدين ((لذى)) أى لصاحب ((الحجى)) كالى أى العقل والفطنة ((فى قول أهل الفن)) من الأئمة وعلماء المنقول والمعقول من الاصوليين والمتكلمة وغيرهم قال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : كل ما يطلب فيه الجزم يمتنع التقليـــد فيه والاخذ فيه بالظن لانه لا يفيده وانما يفيده دليل قطعى . قال فى شرح مختصر التحرير وأجازه يعنى فى التقليد فى أصول الدين جمع ، قال بعضهم ولو بطريق فاسد ، قال العلامة ابن مفلح : وأجازه بعض الشافعية لاجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلهما هل نظرت ؟ وسمعه الامام ابن عقيل عن أبى القاسم ابن التبان المعتزلى قال وانه يكتفى بطريق فاسد ، وقال هذا المعتزلى اذا عرف الله وصدق رسوله وسكن قلبه الى ذلك واطمأن به فلا علينا من الطريق تقليـــدا كان أو نظرا أو استدلالا والى هذا الاشارة بقوله ((وقيل يكفى)) فى أصول الدين((الجزم))

ولو تقليدا ((اجماعيا)) ((بـ)) كل ((ما)) أى حكم ((يطلب)) بضم أوله مبنيا لما لم يسم فاعله ونائب الفاعل مضمر يعود على الجزم ((فيه)) أى فى ذلك المطلوب من أصول الدين ((عند بعض العلما)) من علماء مذهبنا والشافعية والمعتزلة وغيرهم ، قال العنبرى وغيره يجوز التقليد فى أصول الدين ولا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم لانه صلى الله عليه وسلم كان يكتفى فى الايمان من الاعراب وليسوا أهلا للنظر بالتلفظ بكلمتى الشهادة المنبىء عن العقد الجازم ويقاس غير الايمان من أصول الدين عليه • وقال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : وقيل يكفى الجزم يعنى بالظن اجماعا بما يطلب فيه الجزم ((فالجازمون)) حينئذ بعقدهم ولو تقليدا ((من عوام البشر)) الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال بما لا يتم الاسلام بدونه ((فـ)) على الصواب هم ((مسلمون عند أهل الاثر)) وأكثر النظار والمحققين وان عجزوا عن بيان ما لا يتم الاسلام الا به •وقال ابن حامد من علمائنا : لا يشترط أن يجـــزم عن دليل - يعنى بل يكفى الجزم ولو عن تقليد وقيل الناس كلهم مؤمنون حكما فى النكاح والارث وغيرهما ولا يدرى ما هم عند الله • انتهى • وقال العلامة المحقق ابن قاضى الجبل من علمائنا فى أصوله قال ابن عقيل : القياس النقلى حجة يجب العمل به ويجب النظر والاستدلال به بعد ورود الشرع ، قال ولا يجوز التقليد • والحق الذى لا محيد عنه ولا انفكاك لأحد منه صحة ايمان المقلد تقليدا جازما صحيحا وان النظر والاستدلال ليسا بواجبين وان التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة ، نعم يجب النظر على من لا يحصل له التصديق الجازم أول ما تبلغه الدعوة • قال بعض علماء الشافعية اعلم ان وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا يشترط فيه أن يكون عن نظر واستدلال بل يكفى اعتقاد جازم بذلك اذ المختار الذى عليه السلف وأئمة الفتوى من الخلف وعامة الفقهاء صحة ايمان المقلد • قال وأما ما نقل عن الامام الشيخ أبى الحسن الاشعرى من عدم صحة ايمان المقلد فكذب عليه كما قاله الاستاذ ابو القاسم القشـــيرى • ثم قال ومما يرد على زاعمى بطلان ايمان المقلد أن الصحابة رضوان الله

عليهم أجمعين فتحوا أكثر العجم وقبلوا ايمان عوامهم كاجلاف العرب وان كان تحت السيف أو تبعا لكبير منهم أسلم ولم يأمروا أحدا منهم بترديد نظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجأوا أمره حتى ينظر، والعقل يجزم في نحو هذا بعدم وقوع الاستدلال منهم لاستحالته حينئذ فكان ما أطبقوا عليه دليلا أى دليل على ايمان المقلد ، وقال ان التقليد أن يسمع من نشأ بقلة جبل الناس يقولون للخلق رب خلقهم وخلق كل شيء من غير شريك له ويستحق العبادة عليهم فيجزم بذلك اجلالا لهم عن الخطأ وتحسينا للظن بهم فاذا تم جزمه بأن لم يجوز نقيض ما أخبروا به فقد حصل واجب الايمان وان فاته الاستدلال لانه غير مقصود لذاته بل للتوصل به للجزم وقد حصل. وقال الامام النووى : الآتى بالشهادتين مؤمن حقا وان كان مقلدا على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف لانه صلى الله عليه وسلم اكتفى بالتصديق بما جاء به ولم يشترط المعرفة بالدليل وقد تظاهرت بهذا الاحاديث الصحاح يحصل بمجموعها التواتر والعلم القطعى . انتهى . وبما تقرر تعلم أن النظر ليس بشرط فى حصول المعرفة مطلقا والا لما وجدت بدونه لوجوب انتفاء المشروط بانتفاء الشرط لكنها قد توجد فظهر أن النظر لا يتعين على كل أحد وانما يتعين على من لا طريق له سواه بأن بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحصل له العقد الجازم ابتداء تقليدا فيجب عليه النظر حتى يظهر له حقيقة الاسلام اذ الاعراض غير جائز فمثل هذا الشخص النظر عليه واجب اجماعا وأما المقلد الذى يؤمن بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم اول ما بلغته دعوته وصدق به تصديقا جازما بلا تردد فمع صحة ايمانه بالاتفاق لا يأثم بترك النظر وان كان ظاهر ما تقدم الاثم مع حصول الايمان لان المقصود الذى لأجله طلب النظر من المكلف وهو التصديق الجازم قد حصل بدون النظر فلا حاجة اليه ، نعم فى رتبته انحطاط وربما كان متزلزل الايمان فالحق أنه يأثم بترك النظر وان حصل له الايمان ، ومن ثم نقل بعضهم الاجماع على تأثيمه لان جزمه حينئذ لا ثقة به اذ لو عرضت له شبهة عكرت عليه وصار مترددا بخلاف الجزم الناشيء عن الاستدلال فانه لا يفوت بذلك والله تعالى الموفق

(تنبيهـــــات)

الاول فى مسئلة التقليد ثلاثة أقوال (أولها) النظر واجب وقد نقلناه عمن مر النقل عنهم ورجحه الامام الرازى وأبو الحسن الآمدى (الثانى) ليس بواجب والتقليــد جائز وقد قدمنا كلام العنــبرى وغيره فى ذلك (الثالث) التقليد حرام ويأثم بترك النظر والاستدلال ومع اثمه بتــرك النظر فايمانه صحيح وقد فهم كل هذا مما قررناه سابقا • وثم قول (رابع) وهو أن النظر حرام لأنه مظنة الوقوع فى الشبه والضلال لاختلاف الاذهان بخلاف التقليد فيجب بأن يجزم المكلف عقده بما يأتى به الشرع من العقائد الدينية ولكن قد علم مما مر أن الرجوع الى الكتاب والسنة ليس بتقليد وان سمى تقليدا فمجاز ، ومنه قول الامام أحمد رضى الله عنه : ومن قلد الخبر رجوت أن يسلم ان شاء الله تعالى • وقد قال أبو حامد الغزالى فى كتابه (فيصل التفرقة • بين الاسلام والزندقة) من ظن أن مدرك الايمان الكلام والادلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد ، لا بل الايمان نور يقذفه الله فى قلوب عباده عطية وهدية من عنده تارة بتنبيه فى الباطن لا يمكن التعبير عنه وتارة بسبب رؤيا فى المنام وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته وتارة بقرينة حال فقد جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم جاحدا له منكرا فلما وقع بصره على طلعته البهية وغرته الفريدة فرآها يتلألأ منها نور النبوة قال والله ماهذا وجه كذاب ، وسأل أن يعرض عليه الاسلام فأسلم • وجاء آخر اليه فقال أنشدك الله ، آلله بعثك نبيا ؟ فقال « بلى والله الله بعثنى نبيا » فصدقه بيمينه وأسلم • وأمثالهما أكثر من أن تحصى ولم يشــتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الادلة بل كان يبدو نور الايمان أولا بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا يزال يزداد وضوحا واشراقا بمشاهدة تلك الاحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب_ الى أن قال : والحق الصريح ان كل من اعتقد أن كل ما جاء به الرسول واشتمل عليه القرآن حق اعتقادا جازما فهو مؤمن وان لم يعرف أدلته • قال فالايمان المستفاد من الادلة الكلامية ضعيف جدا مشرف على التزلزل بكل شبهة • انتهى

فان قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم كانوا يعلمون أن العوام واجلاف العرب يعلمون الادلة اجمالا كما أجاب به الاعرابى الاصمعى عن دليل سؤاله : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الاقدام يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير • فلذلك لم يلزموهم بالنظر ولا سألوهم عنه ولا أرجأوا أمرهم فلما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الاقرار دليلا على عدم وجوب النظر على الاعيان ولا على أن تاركه غير آثم • فالجواب : ما ذكروه دعوى بلا دليل وحكاية الاعرابى لا تدل على أن جميع الاجلاف والعوام كانوا عالمين بالادلة اجمالا فان المثال الجزئى لا يصحح القواعد الكلية ، والعقول مختلفة لأمزجة متفاوتة أشد تفاوت فوجود فرد من الاعراب قوى العقل نافذ البصيرة لا يدل على ان كل الاعراب والاجلاف كذلك بلا خفاء ، ويوضحه ان من الذين أسلموا فى عهدهم كانوا يكونون عجما ونساء وقبلوا منهم الاسلام ولم يأمروهم بالنظر ولم يرجئوهم ، وأيضا كان أهل الشرك من قريش يجادلون ويناضلون عن آلهتهم و (اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) وقالوا (اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب) ويقول أبو سفيان وهو من رؤسائهم وصناديدهم يوم أحد : اعل هبل اعل هبل • فمثل هذا المصمم على الشرك المتعجب معه من التوحيد وقد أسلم تحت ظل السيف كيف كان صلى الله عليه وسلم (يرى) ان مثل هذا كان يعلم دليلا اجماليا على التوحيد ، والنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يسمعوا ولم يعلموا منه قبل ذلك الا الشرك المصمم والكفر الصراح والاعتقاد الفاسد • هذا مما لا يدل عليه عقل ولا نقل •

(الثانى) قد قدمنا أن التقليد الصحيح محصل للعلم بمعنى أن المقلد تقليدا صحيحا لا يصدق بما ألقى اليه من العقائد الخفية الا بعد انكشاف صدقها عنده من غير أن يكون له دليل عليها ، وقد جاء فى محكم الذكر (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن

المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الاسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم وليس هو محمد بن على قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قال كيف يشرح صدره للاسلام يا رسول الله ؟ قال « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من امارات يعرف بها ؟ قال «الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » قال الحافظ السيوطى فى هذاالحديث: مرسل له شواهد كثيرة متصلة ومرسلة يرتقى بها الى درجة الصحة أو الحسن • وكما كان قذف النـــور فى القلب موجبا لانشراح الصـــدر وانفساح القلب كان قذفه مستلزما لجعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيهـــا مصفاة عمـــا يمنعه وينافيه سواء كان ثم استدلال أولا وكلمـــا تصفت من كدوراتها واتصفت بالصفات المذكورة كان قبولها للعقائد الخفية أشد واذعانها لها أحرى لكون ذلك النور المقذوف فى القلب كاشفا لعين البصيرة عن صدق ما أخبر به من العقائد كشفا يحمله على الاذعان والانقياد والتصديق به وحسن الاعتقاد[1] بحيث يصير ضروريا حتى لو رام الانفكاك عنه لم يجد له اليه سبيلا وان لم يكن ثم نظر ولا استدلال

(الثالث) قد نقل عن أبى الحسن الاشعرى انه لا بد من انبناء الاعتقاد فى كل مسئلة من الاصول على دليل عقلى لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه وعلى مجادلة الخصوم ودفع الشبه،قال السعد التفتازانى في (شرح المقاصد) هذا هو المشهور عن الاشعرى حتى حكى عنه ان[2] من لم يكن كذلك لم يكن مؤمنا • انتهى • قال في جمع الجوامع : وعن الاشـعرى لا يصح ايمان المقلد • قال شارحه : وشنع عليه أقـوام بأنه يلزمه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين ، وقال القشيرى : مكذوب عليه • قال التاج السبكى : والتحقيق انه ان كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم بأن لا يجزم به فلا يكفى ايمان المقلد قطعا لانه لا ايمان مع أدنى تردد فيه ، وان كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة لكن جزما فيكفى ايمان المقلد عند الاشعرى وغيره خلافا لأبى هاشـــم

---

(١) فى مخ « الانقياد » • (٢) مخ «حكى عنه انه قال »

المعتزلى فى قوله : لا يكفى بل لا بد لصحة الايمان من النظر • وقد وافق النقل عن الاشعرى جماعة منهم القاضى وأمام الحرمين وغيرهما ، قالوا قال الجمهور بعدم صحة الاكتفاء بالتقليد في العقائد الدينية حتى زعم بعضهم انه مجمع عليه ، وعزاه ابن القصار للامام مالك رضى الله عنه •والمشهور نقل بعضهم عن الجمهور عدم جواز التقليد فى العقائد الدينية وانهم اختلفوا فى المقلد ، منهم من قال انه مؤمن الا أنه عاص بترك المعرفة التى ينتجها النظر الصحيح ، ومنهم من فصل فقال هو مؤمن عاص ان كان فيه أهلية لفهم النظر الصحيح وغير عاص ان لم يكن فيه أهلية ذلك ، ومنهم من نقل عن طائفة ان من قلد القرآن والسنة القطعية صح ايمانه لاتباعه القطعى ، ومن قلد غير ذلك لم يصح ايمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم ، ومنهم من جعل النظر والاستدلال شرطا للكمال ، ومنهم من حرم النظر كما مر ذلك • قال الجلال المحلى فى شرح (جمع الجوامع) وقد اتفقت الطرق الثلاث - يعنى الموجبة للنظر والمجوزة له والمحرمة - على صحة ايمان المقلد • انتهى • وعبارة الآمدى فى (الابكار) اتفق الاصحاب على انتفاء كفر المقلد وانه ليس للجمهور الا القول بعصيانه بترك النظر ان قدر عليه مع اتفاقهم على صحة ايمانه وانه لا يعرف القول بعدم صحة ايمان المقلد الا لأبى هاشم بن أبى على الجبائى من المعتزلة محتجا بأن من لم يعرف الله سبحانه بالدليل فهو كافر • قال الامدى : وأصحابنا مجمعون على خلافه • وقال الامام أبو منصور الماتريدى رئيس الطائفة الماتريدية : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم وانهم حشو الجنة كما جاءت به الاخبار وانعقد عليه الاجماع لكن منهم من قال لا بد من نظر عقلى فى العقائد وقد حصل لهم منه القدر الكافى فان فطرهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه وحدوث ما سواه من الموجودات وان عجزوا عن التعبير باصطلاح المتكلمين • هذا حاصل ماأجيب به عن الاشعرى حتى قال بعض الاشاعرة عن الاشعرى لا يكاد يكون فى العوام مقلد • وعبارة (شرح المقاصد) ذهب كثير من العلماء وجميع الفقهاء الى صحة ايمان المقلد وترتيب الاحكام عليه فى الدنيا والآخرة ، ومنعه الشيخ

ابو الحسن والمعتزلة وكثير من المتكلمين ، احتج القائلون بالصحة بأن حقيقة الايمان التصديق وقد وجدت من غير اقترانه بموجب من موجبات الكفر ، فان قيل : لا يتصور التصديق بدون العلم لانه اما ذاتى للتصديق او شرط له ولا علم للمقلد لانه اعتقاد جازم مطابق مستند الى سبب من ضرورة أو استدلال ، فأجاب بأن المعتبر فى التصديق هو اليقين أعنى الاعتقاد الجازم المطابق بل ربما يكتفى بالمطابقة ويجعل الظن الغالب الذى لا يخطر معه النقيض بالبال فى حكم اليقين • انتهى

(الرابع) قال السعد : اعلم بأن القائلين بعدم صحة ايمان المقلد أو ليس بنافع اختلفوا ، فمنهم من قال لا يشترط ابتناء الاعتقاد (على استدلال عقلى) في كل مسئلة بل يكفى ابتناؤه على قول من عرفت رسالته بالمعجزة مشاهدة أو تواترا، أو على الاجماع ، ومنهم من قال لا بد من ابتناء الاعتقاد في كل مسئلة من الاصول على دليل عقلى لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه ولا على مجادلة الخصوم ، وتقدم الصحيح المعتمد من هذا قريبا ، ومنهم من قال لا بد مع ابتناء الاعتقاد على الدليل العقلى من الاقتدار على مجادلة الخصوم وحل ما يورد عليه من الاشكالات - قال واليه ذهب المعتزلة فلم يحكموا بايمان من عجز عن شيء من ذلك بل يحكم أبو هاشم بكفره • وقد تقدم عن العنبرى وغيره من شيوخ المعتزلة جواز التقليد فى أصول الدين وانه لا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم • فعليه المعول • واتضح أن المرجح صحة ايمان المقلد عند محققى كل طائفة بشرط الجزم وعدم التزلزل والشك على أنا نقول : المختار أن الراجع الى أخبار الرسول والكتاب المنزل والاجماع ليس بمقلد فمن شهد لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ونهج سبيل المسلمين (١) من فعل المأمور وترك المحظور ولم يأت بمكفر فهو مؤمن وبالله التوفيق • ويؤيد هذا ما أخرجه الامام الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه (تبيين كذب المفترى ، فيما نسب الى الامام أبى الحسن الاشعرى) بسنده المتصل الى أبى حازم عمر بن

---

(١) مخ « المؤمنين »

أحمد العبدوى[1] الحافظ أنه قال سمعت أبا على طاهر بن أحمد السرخسى يقول : لما قرب حضور أجل أبى الحسن الاشعرى رحمه الله تعالى فى دارى ببغداد دعانى فأتيته فقال : اشهد على انى لا أكفر أحدا من أهل القبلة لان الكل يشيرون الى معبود واحد وانما هذا كله اختلاف عبارات • انتهى بلفظه • فنسأل الله التوفيق وحسن الخاتمة .

الباب الثانى فى الأفعال المخلوقة

((الباب الثانى فى الافعال المخلوقة))

((وسائر الاشياء غير الذات وغير ما الاسماء والصفات))
((مخلوقة لربنا من العدم وضل من أثنى عليها بالقدم))
((وربنا يخلق باختيار من غير حاجة ولا اضطرار))
((لكنه لا يخلق الخلق سدى كما أتى فى النص فاتبع الهدى))

كل شىء غير ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه مخلوق

((وسائر)) أى بقية ((الاشياء)) جمع شىء ((غير الذات))المقدسة ((وغير ما)) زائدة لتأكيد النفى ((الاسماء)) أى غير أسمائه تعالى فانها قديمة كالذات ((و)) غير ((الصفات)) الذاتية والخبرية التى ثبتت فى الكتاب والسنة والفعلية فكل شىء غير الذات العلية وأسمائها وصفاتها ((مخلوقة لربنا)) تبارك وتعالى ((من العدم)) مسبوقة به وتبين لك حكمة تعبير الناظم بسائر لانها بمعنى البقية قال فى القاموس والسائر الباقى لا الجميع كما توهم جماعات أو قد يستعمل له ومنه قول الاحوص :

فجلتها لنا لبابة لما وقذ النوم سائر الحراس

قال وضاف اعرابى قوما فأمروا الجارية بتطييبه فقال :

بطنى عطرى وسائرى ذرى

فكل ما سواه سبحانه بأسمائه وصفاته محدث مسبوق بالعدم ، وهذا المتفق عليه عند سلف الأمة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شىء وربه ومليكه وأنه خالق كل شىء بقدرته ومشيئته وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن فهوسبحانه وتعالى خالق الممكنات المحدثات من الاجسام والاعراض القائمة بالحيوان والجماد والمعادن والنبات وغيرها • وهذا الذى دلت عليه الكتب المنزلة وأخبرت به الرسل المرسلة وعليه سلف الامة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم

---

(١) فى الاصلين « العبدى » خطأ .

من جميع الطوائف خلافا لبعض الفلاسفة كارسطو القائل بقدم العالم وخلافا لديمقراطيس القائل بقدم العلة والنفس والهيولى والخلاء والدهر • قال شيخ الاسلام بن تيمية في (جواب المسائل الاسكندرية) : قد نقلوا عن أساطين الفلاسفة المتقدمين أنهم كانوا يقرون بحدوث صورة الفلك ولكنهم مضطربون في المادة ومتنازعون فيها نعم أرسطو وأتباعه قائلون بقدم صورته • قال وليس لهم دليل صحيح على قدم شيء من العالم[1] ألبتة ولهذا قال ((وضل)) عن الصراط المستقيم والنهج البين القويم ((من)) أى أى شخص وكل (انسان من كل - ٢) طائفة من طوائف العالم ((اثنى عليها)) أى على سائر الاشياء سوى الذات المقدسة وصفاتها القديمة فسائر ما عدا ذلك كل من أثنى على شيء منها ((بالقدم)) فقد ضل وأضل وقد أخبر الله في محكم الذكر بأنه خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » أى مقادير الخلائق التي خلقها في ستة أيام الى أن يدخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال وما أكتب ؟ قال ما هو كائن الى يوم القيامة » فقد بين أن القلم الذى هو أول المخلوقات من هذا العالم انما كتب ما هو كائن الى يوم القيامة ، وهذا هو التقدير المذكور في قوله قدر مقادير الخلائق • وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم • وقد جاء عن الصحابة والتابعين من الآثار والاخبار من هذا النهج شيء كثير • وفي التوراة ما يوافق الكتاب والسنة من ذكر الماء الذى كان مخلوقا قبل أن يخلق السموات والارض وأن الله خلق السماء من بخار ذلك الماء • وذلك البخار هو الدخان المذكور في قوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) والعرش أيضا خلق

---

(١) مخ « على قدم صورته » • (٢) ليس في مخ •

قبل ذلك كما دل عليه الكتاب والسنة ، قال شيخ الاسلام في الاجـوبة الاسكندرية : قد أخبرت الكتب الالهية أن الله خلق السموات والارض في ستة أيام فتلك الايام ليست مقدرة بحركة الشمس والقمر فانه فيها خلق الشمس والقمر والافلاك وسواء كانت بقدر هذه الايام أو كان كل يوم بقدر ألف سنة فعلى القولين ليس مقدار هذه حركات ما خلق فيها •
والحاصل أن الكتب الالهية والسنة النبوية واجماع المسلمين على أن الله خالق كل شيء فان كل ما سوى الله مخلوق • قال شيخ الاسلام : وصفاته تعالى ليست خارجة عن مسمى اسمه • وتقدم • قال شيخ الاسلام : وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون ، وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه انه قال « خلقت الملائكة من نور وخلق ابليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » وقال الامام المحقق شمس الدين ابن القيم في كتابه (اغاثة اللهفان) وشيخه شيخ الاسلام في (شرح الاصبهانية) : أول من عرف عنه القول بقدم العالم أرسطو وكان ضالا مشركا يعبد الاصنام - يعنى المصورات في هياكلهم على صور الكواكب السيارة • قال : وله في الهيئات كلام كله خطأ قد تعقبه في الرد عليه طوائف المسلمين حتى الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة وفلاسفة الاسلام أنكروه عليه • قال ابن القيم قد جاء في كلامه بما يسخر منه العقلاء فانكر أن يكون الله تعالى يعلم شيئا من الموجودات وقرر ذلك بأنه لو علم شيئا لكمل بمعلوماته ولم يكن كاملا في نفسه وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات • قال المحقق ابن القيم - يسخر به ويهزأ منه : فهذا غاية عقد هذا المعلم والاستاذ وقد حكى عنه ذلك أبو البركات البغدادى فيلسوف الاسلام وبالغ في ابطال هذه الحجج وردها • قال ابن القيم : فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لاتباعه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودرج على أثره اتباعه من الملاحدة ممن يتستر باتباع الرسل وهو منحل من كل ما جاءوا به • قال واتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الانبياء عليهم السلام ويرون عرض ما جاءت به الانبياء على كلامه فما وافقه منها قبلوه وما خالفه لم يعبأوا به

شيئا ويسمونه المعلم الاول لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية ، والمعلم الثانى من الفلاسفة أبو نصر الفارابى الا أنه من فلاسفة الاسلام وهو الذى وضع لهم التعاليم الصوتية ووسع لهم في صناعة المنطق وبسطها وشرح فلسفة أرسطو وهذبها وبالغ في ذلك وكان على طريقة سلفه ، والمعلم الثالث أبو على ابن سينا فانه بالغ في تهذيب الفلسفة وقربها من شريعة الرسل ودين الاسلام بجهده وغاية ما أمكنه . قال الامام ابن القيم : وحسبك جهلا بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله من يقول أنه سبحانه لو علم الموجودات لحقه الكلال والتعب واستكمل بغيره ، وحسبك خذلانا وضلالا وعمى السير خلف هؤلاء واحسان الظن بهم ، وانهم ذوو العقول ، وحسبك عجبا من جهلهم وضلالهم ما قالوه في سلسلة الموجودات وصدور العالم عن العقول العشرة والنفوس التسعة الى أن أنهوا صدور ذلك الى واحد من كل جهة لا علم له بما صدر عنه ولا قدرة له عليه ولا ارادة وأنه لم يصدر عنه الا واحد . قال ابن القيم وصرح أفلاطون بحدوث العالم كما كان عليه الاساطين وحكى عنه ذلك تلميذه أرسطو وخالفه فيه فزعم أنه قديم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين الى الملل وغيرهم . قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : ليس لأرسطو ولا لأتباعه ولا غيرهم حجة واحدة تدل على قدم شيء من العالم[1] أصلا وقد قدمنا قول شيخ الاسلام وغيره ان أول من قال بقدم العالم من الفلاسفة هو أرسطو ، قال شيخ الاسلام : وأما الاساطين قبله فلم يكونوا يقولون بقدم صورة الفلك وان كان لهم في المادة أقوال أخر . والحاصل أن الحق الذى لا ريب فيه ولا شك يعتريه أن الله تعالى خالق لكل ما سواه فليس معه شيء قديم بقدمه لا نفس ولا عقل ولا غيرهما . قال فى (اغاثة اللهفان) والفلاسفة فرق شتى لا يحصيهم الا الله وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم انتى عشرة فرقة مختلفة اختلافا كثيرا منهم أصحاب الرواق وأصحاب الظلة والمشاؤون وهم شيعة أرسطو وفلسفتهم هى الدائرة اليوم بين الناس وهى التى يحكيها ابن سينا والفارابى وابن الخطيب وغيرهم ، ومنهم الفيثاغورية والافلاطونية ، قال ولا نجد منهم اثنين متفقين على رأى

---

(١) مخ « من المخلوقات » .

واحد باء قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة ، قال وبالجملة فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض فانهم عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفات كماله وعطلوا العالم عن الحق الذى خلق له وبه فعطلوه عن مبدئه ومعاده عن فاعله في غايته ثم سرى هـذا الداء منهم في الامم وفي فرق المعطلة أولا وآخرا • ولهذا قال (وضل من أثنى عليها بالقدم) فهؤلاء هم الضلال ومن نحا نحوهم من الفرق الضالة والله على كل شيء قدير •

ربنا يخلق باختيار

((وربنا)) تبارك وتعالى ((يخلق)) ما شاء ان يخلقه من سائر مخلوقاته ((باختيار)) منه فمذهب سلف الامة وأئمتها أن الله تعالى لم يزل فاعـلا لما يشاء وأنه تقوم بذاته الامور الاختيارية وأنه تعالى لم يزل متصفا بصفاته الذاتية والفعلية فلم يحدث له اسما من أسمائه ولا صفة من صفاته فيخلق سبحانه المخلوقات ويحدث الحوادث بعد أن لم تكن ، سواء كان ذلك على مثال سابق أولا ، والابداع احداث الشيء بعد أن لم يكن على غير مثـال سابق ((من غير حاجة)) منه تعالى اليه أى يخلق الخلق لا لحاجة اليـــه

الكلام في الحكمة والتعليل

((ولا اضطرار)) عليـــه فالحاجة المصلحة والمنفعة والاضطرار الالجـاء والاحواج والالزام والاكراه ، فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للخلق ولا مكره له عليه بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصرف الارادة ، وهذا قول جمهور من يثبت القدر وينتسب الى السنة من أهـل الكلام والفقه وغيرهم ، وقال به طوائف من الحنبلية والمالكية والشافعيـــة وغيرهم ، وهو قول أبى الحسن الاشعرى وأصحابه ، وهو قول كثير من نفاة القياس فى الفقه من الظاهرية كابن حزم وأمثاله ، وحجة هذا أنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصا بدونها مستكملا بها فانه اما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء أو يكون وجودها أولى به فان كان الاول امتنع أن يفعل لأجلها وان كان الثانى ثبت أن وجودها أولى به فيكون مستكملا بها فيكون قبلها ناقصا ، وأيضا فالعلة ان كانت قديمة وجب قدم المعلول لان العلة الغائية وان كانت متقدمة على المعلول في العلم والقصـد فهى متأخرة في الوجود عن المعلول كما يقال ـ أول الفكرة آخر العمل •

وأول البغية آخر المدرك ـ ويقال ان العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا فمن فعل فعلا لمطلوب يطلبه بذلك الفعل كان حصول المطلوب بعد الفعل،فاذا قدر أن ذلك المطلوب الذى هو العلة قديما (؟) كان الفعل قديما بطريق الاولى ، فلو قيل انه يفعل لعلة قديمة لزم أن لا يحدث شيء من الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وان قيل انه فعل لعلة حادثة لزم محذوران (أحدهما) أن يكون محلا للحوادث فان العلة ان كانت منفصلة عنه فان لم يعد اليه منها حكم امتنع أن يكون وجودها أولى به من عدمها وان قدر أنه عاد اليه منها حكم كان ذلك حادث(؟) فتقوم به الحوادث . والمحذور الثانى أن ذلك يستلزم التسلسل من وجهين ، أحدهما أن تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل هى أيضا مما يحدثه الله تعالى بقدرته ومشيئته فان كانت لغير علة لزم العبث كما تقدم وان كان لعلة عاد التقسيم فيها فاذا كان كل ما يحدثه أحدثه لعلة والعلة ما أحدثه لزم تسلسل الحوادث (الثانى) ان تلك العلة اما أن تكون مرادة لنفسها أو لعلة أخرى فان كان الاول امتنع حدوثها لان ما أراده الله تعالى لذاته وهو قادر عليه لا يؤخر احداثه وان كان الثانى فالقول فى ذلك الغير كالقول فيها ويلزم التسلسل . فهذه الحجج من حجج من ينفى تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه .

التقدير الثانى قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل العلة الفاعلية قديمة كما يقوله الفلاسفة القائلون بقدم العالم وأصل قول هؤلاء أن المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها فلا يجوز أن يتأخر عنها معلولها ، وأعظم حججهم قولهم ان جميع الامور المعتبرة في كونه فاعلا ان كانت موجودة في الازل لزم وجود المفعول في الازل لان العلة التامة لا يتأخر عنها معلولها فانه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وجدت في الازل فانا لا نعنى بالعلة التامة الا ما تستلزم المعلول فاذا قدر أنه تخلف عنها المعلول لم تكن تامة ،وان لم تكن العلة التامة التى هى جميع الامور المعتبرة في الفعل وهى المقتضى التام لوجود الفعل وهى جميع شروط الفعل التى يلزم من وجودها وجود الفعل ـ وان لم تكن جميعها فى الازل فلا بد اذا وجد المفعول بعد ذلك من تجدد سبب حادث والا لزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح ، واذا

كان هناك سبب حادث فالقول في حدوثه كالقول في الحادث الاول ويلزم التسلسل ، قالوا فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب اما التسلسل واما الترجيح بلا مرجح • ثم أكثر هؤلاء يثبتون علة غائية للفعل وهى بعينها الفاعلة لكنهم متناقضون فانهم يثبتون له العلة الغائية ويثبتون لفعله العلة الغائية ويقولون مع هذا ليس له ارادة بل هو موجب بالذات لا فاعل بالاختيار • وقولهم باطل من وجوه كثيرة مذكورة في محالها منها ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه (حسن الارادة) : هذا القول يستلزم أن لا يحدث شيء وان كل ما حدث حدث بغير احداث محدث ومعلوم أن بطلان هذا بين ـ وأطال في رد ذلك ، ومما ذكر أن يقال لهم حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية اما أن يكون ممكنا في العقل أو ممتنعا فان كان ممتنعا لزم أن الحوادث جميعها لها أول كما يقوله أهل الحق وبطل قولهم بقدم حركات الافلاك ، وان كان ممكنا أمكن أن يكون حدوث ما احدثه الله تعالى كالسموات والارض موقوف (؟) على حوادث قبل ذلك كما تقولون أنتم فيما يحدث في هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطر والسحاب وغير ذلك فيلزم فساد حجتكم على التقديرين ، ثم يقال اما أن تثبتوا لمبدع العالم حكمة وغاية مطلوبة أولا ، فان لم تثبتوا بطل قولكم باثبات العلة الغائية وبطل ما تذكرونه من حكمة البارى تعالى في خلق الحيوان وغير ذلك من المخلوقات ، وأيضا فالوجود يبطل هذا القول فان الحكمة الموجودة في الوجود أمر يفوت العد والاحصاء كاحداثه سبحانه لما يحدث من نعمته ورحمته وقت حاجة الخلق اليه كاحداث المطر وقت الشتاء بقدر الحاجة واحداثه للانسان الآلات التى يحتاج اليها بقدر حاجته وأمثال ذلك مما هو كثير جدا ، وان أثبتم له تعالى حكمة مطلوبة وهى باصطلاحكم العلة الغائية لزم أن تثبتوا له المشيئة والارادة بالضرورة فان القول بأن الفاعل فعل كذا لحكمة كذا بدون كونه مريدا لتلك الحكمة المطلوبة جمع بين النقيضين • وهؤلاء المتفلسفة من أكثر الناس تناقضا ولهذا يجعلون العلم هو العالم والعلم هو الارادة والارادة هى القدرة وأمثال ذلك •

التقدير الثالث وهو انه سبحانه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة

محمودة قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هذا قول أكثر الناس من المسلمين وغيرهم وقول طوائف من أصحاب أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد رضى الله عنهم وقول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والكرامية والمرجئة وغيرهم وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير وأكثر قدماء الفلاسفة وكثير من متأخريهم كأبى البركات وأمثاله لكن هؤلاء على أقوال ، منهم من قال ان الحكمة المطلوبة مخلوقة ومنفصلة عنه تعالى وهم المعتزلة والشيعة ومن وافقهم ، قالوا الحكمة فى ذلك احسانه للخلق والحكمة في الامر تعريض المكلفين للثواب قالوا فعل الاحسان الى الغير حسن محمود فى العقل فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود اليه من ذلك حكم ولا قام به نعت ولا فعل • فقال لهم الناس أنتم تتناقضون في هذا القول لأن الاحسان الى الغير محمود لكونه يعود منه الى فاعله حكم يحمد لأجله اما لتكميل نفسه بذلك واما لقصده الحمد والثواب بذلك واما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بالاحسان ذلك الالم واما لالتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذى يحصل منها الى غيرها فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الامور ، أما اذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يقل[1] أن مثل هذا الفعل يحسن منه بل مثل هذا يعد عبثا في عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عبثا ولم يكن محمودا على هذا ، وأنتم عللتم أفعاله تعالى فرارا من العبث فوقعتم فيه فان العبث هو الفعل الذى لا مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله ولا أحد من العقلاء أحدا بالاحسان الى غيره ونفعه ونحو ذلك الا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة فأمر الفاعل بفعل لا يعود عليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الآمر • ومن ثم قال ((لكنه)) تعالى وتقدس هذا استدراك من مفهوم قوله انه يخلق الخلق بالاختيار أى لا بالذات خلافا للمعتزلة ومن وافقهم

---

(١) مخ « لم يعلم » •

من غير حاجة اليه ولا اضطرار عليه غير أنه جل وعلا ((لا يخلق الخلق سدى)) أي هملا بلا أمر ولا نهي ولا حكمة ومعنى السدى المهمل وابل سدى اذا كانت ترعى حيث شاءت بلا راع ((كما أتى في النص)) القرآني والسنة النبوية والآثار مما هو كثير جدا أن الله تبارك وتعالى لا يفعل الا لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا بحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر ((فاتبع الهدى)) باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح ولا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته فهو الحكيم القدير •

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة التحسين والتقبيح العقلي فأثبت ذلك المعتزلة والكرامية وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم رضي الله عنهم وحكوا ذلك عن الامام أبي حنيفة نفسه رضي الله عنه ونفى ذلك الاشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح اذا فسر بكون الفعل نافعا للفاعل ملائما له وكونه ضارا للفاعل منافرا له انه تمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع ، وظن من ظن من هؤلاء وهؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا ، وليس كذلك ، بل جميع الافعال التي أوجبها الله تعالى وندب اليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، وجميع الافعال التي نهى الله عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم ، والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل مفسدة له • والمعتزلة أثبتت الحسن في أفعال الله تعالى لا بمعنى حكم يعود اليه من أفعاله تعالى •

قال الشيخ : ومنازعوهم لما اعتقدوا أن لا حسن ولا قبح في الفعل الا ما عاد الى الفاعل منه حكم نفوا ذلك وقالوا : القبيح في حق الله تعالى هو الممتنع لذاته وكل ما يقدر ممكنا من الافعال فهو حسن اذ لا فرق بالنسبة اليه عندهم بين مفعول ومفعول ، وأولئك يعني المعتزلة أثبتوا حسنا وقبحا لا يعود الى الفاعل منه حكم يقوم بذاته وعندهم لا يقوم بذاته لا وصف ولا فعل ولا غير ذلك وان كانوا قد يتناقضون ، ثم أخذوا يقيسون ذلك على ما يحسن

من العبد ويقبح فجعلوا يوجبون على الله سبحانه من جنس مايوجبون على العبد ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد ويسمون ذلك العدل والحكمة مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته فلا يثبتون له مشيئة عامة ولا قدرة تامة فلا يجعلونه على كل شيء قدير ولا يقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقرون بأنه خالق كل شيء ، ويثبتون له من الظلم ما نزه نفسه عنه فانه سبحانه قال (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) أي، لا يخاف ان يظلم فيحمل عليه سيآت غيره ولا يهضم من حسناته وقال تعالى (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وفي حديث البطاقة عند الترمذى وغيره « لا ظلم عليك اليوم » .

★ ★ ★

والحاصل ان فعل الله تعالى وتقدس وأمره لا يكون لعلة في قول مرجوح اختاره كثير من علمائنا وبعض المالكية والشافعية وقاله الظاهرية والاشعرية والجهمية . والقول الثانى انهما لعلة وحكمة اختاره الطوفى وهو مختار شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وابن قاضى الجبل وحكاه عن اجماع السلف وهو مذهب الشيعة والمعتزلة لكن المعتزلة تقول بوجوب الصلاح ولهم في الاصلح قولان كما يأتى في النظم والمخالفون لهم يقولون بالتعليل لا على منهج المعتزلة . قال شيخ الاسلام : لأهل السنة في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه قولان والاكثرون على التعليل والحكمة ، وهل هى منفصلة عن الرب لا تقوم به أو قائمة مع ثبوت الحكم المنفصل ؟ لهم فيه أيضا قولان، وهل تتسلسل الحكم أو لا تتسلسل أو تتسلسل في المستقبل دون الماضى ؟ فيه أقوال ، قال : احتج المثبتون للحكمة والعلة بقوله تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل) وقوله (كيلا يكون دولة) وقوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم) ونظائرها ولانه تعالى حكيم شرع الاحكام لحكمة ومصلحة لقوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) والاجماع واقع على اشتمال الافعال على الحكم والمصالح جوازا عند أهل السنة ووجوبا عند المعتزلة فيفعل ما يريد بحكمته . وتقدم ان النافين للحكمة والعلة احتجوا مما احتجوا به انه يلزم من قدم العلة قدم المعلول وهو محال ، ومن حدوثها

افتقارها الى علة أخرى وانه يلزم التسلسل ، قال الامام الرازى : وهو مراد المشايخ بقولهم كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وما أجاب به من قال بالحكمة وانها قديمة لا يلزم من قدم العلة قدم معلولها كالارادة فانها قديمة ومتعلقها حادث وتقدمت الاشارة في أول البحث الى محصل هذا كله .

والحاصل ان شيخ الاسلام وجمعا من تلامذته أثبتوا الحكمة والعلة فى أفعال البارى جل وعلا وأقاموا على ذلك من البراهين ما لعله لا يبقى في مخيلة الفطين السالم من ربقة تقليد الاساطين أدنى اختلاج وأقل تخمين . وأما الامام المحقق شمس الدين ابن القيم فقد أجلب وأجنب وأتى بما يقضى منه العجب في كتابيه (شرح منازل السائرين) و (مفتاح دار السعادة) وغيرهما فمما احتج به في مفتاح دار السعادة قوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فدل على ان هذا حكم بشيء قبيح يتنزه الله عنه فأنكره من جهة قبحه في نفسه لا من جهة كونه انه لا يكون . ومن هذا انكاره تعالى على من جوز أن يترك عباده سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم وان هذا الحسبان باطل والله متعال عنه لمنافاته لحكمته فقال تعالى (أيحسب الانسان ان يترك سدى) فأنكر سبحانه على من زعم انه يترك سدى انكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه وانه لا يليق ان ينسب ذلك الى أحكم الحاكمين ومثله قوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون* فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان وانه متعال عنه فلا يليق به لقبحه ومنافاته الحكمة وهذا يدل على اثبات المعاد بالعقل كما يدل على اثباته بالسمع . ثم ان ابن القيم بسط القول ووسع العبارة في أزيد من عشرة كراريس ثم قال : الكلام هنا في مقامين أحدهما في التلازم بين الحسن والقبح العقليين وبين الايجاب والتحريم شاهدا وغائبا ، والثانى في انتفاء اللازم وثبوته ، فأما المقام الاول فلمثبتى الحسن والقبح فيه طريقان ، أحدهما ثبوت التلازم والقول باللازم، وهذا القول هو المعروف عن المعتزلة وعليه يناظرون وهو القول الذى نصب خصومهم

الخلاف معهم فيه ، والقول الثانى اثبات الحسن والقبح وأربابه يقـــولون باثباته ويصرحون بنفى الايجاب قبل الشرع على العبد وينفى ايجاب شيء على الله البتة كما صرح به كثير من الحنفية والحنابلة كأبى الخطاب وغيره والشافعية كسعد بن على الزنجانى الامام المشهور وغيره ، ولهؤلاء في نفى الايجاب العقلى في المعرفة بالله وثبوته خلاف • قال : فالاقوال أربعة لا مزيد عليها (أحدها) نفى الحسن والقبح ونفى الايجاب العقلى في العمليات دون العلميات كالمعرفة وهذا اختيار أبى الخطاب وغيره فعرف انه لا تلازم بين الحسن والقبح وبين الايجاب والتحريم العقليين فهذا أحد المقامين •

(وأما المقام الثانى) وهو انتفاء اللازم وثبوته فللناس فيـــه ههنا ثلاث طرق ، أحدها التزام ذلك والقول بالوجوب والتحريم العقليين شاهدا وغائبا وهذا قول المعتزلة ، وهؤلاء يقولون : يترتب الوجوب شاهدا ويترتب المدح والذم عليه • وأما الصفات فلهم فيها اختلاف وتفصيل فمن أثبتـــــه منهم يقولون ان العذاب الثابت بعد الايجاب الشرعى نوع آخر غير العذاب الثابت على الايجاب العقلى وبذلك يجيبون عن النصوص النافية للعذاب قبل البعثة وأما الايجاب والتحريم العقليان غائبا فهم مصرحون بهما ويفسرون ذلك باللزوم الذى أوجبته حكمته وانه يستحيل عليه خلافه كما يستحيل عليه الحاجة والنوم والتعب واللغوب فهذا معنى الوجوب والامتناع في حق الله تعالى عندهم فهو وجوب اقتضته ذاته وحكمته وامتناع مستحيل عليه الاتصاف به لمنافاته كماله وغناه ، قالوا وهذا في الافعال نظير ما يقول أهل السنة في الصفات انه يجب له كذا ويمتنع عليه كذا فكما ان ذاك وجوب وامتناع ذاتى يستحيل عليـــه خلافه فهكذا ما تقتضيه حكمته وتأباه يستحيل عليه الاخلال به وان كان مقدورا له لكنه لا يخل به لكمال حكمته وعلمه وغناه •

(الفرقة الثانية) منعت ذلك جملة وأحالت القول به وجوزت على الرب تعالى كل شيء ممكن وردت الاحالة والامتناع في أفعاله تعالى الى غير الممكن من المحالات كالجمع بين النقيضين وبابه فقابلوا المعتزلة أشد مقابلة واقتسما طرفي الافراط والتفريط ورد هؤلاء الوجوب والتحـــريم الذى جاءت به النصوص الى مجرد صدق الخبر فما أخبر أنه يكون فهو واجب لتصديق

خبره وما أخبر أنه لا يكون فهو ممتنع لتصديق خبره ، والتحريم عندهم راجع الى مطابقة العلم لمعلومه والمخبر لخبره ، وقد يفسرون التحـــريم بالامتناع عقلا كتحريم الظلم على نفســـه فانهم يفسرونه بالمستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين ، وليس عندهم في المقدور شيء هو ظلم يتنزه الله عنه مع قدرته عليه وحكمته وعدله فهذا قول الاشعرية ومن وافقهم •

(الفرقة الثالثة) هم الوسط بين هاتين الفرقتين فان الفرقة الاولى أوجبت على الله شريعة بعقولها حرمت عليه وأوجبت مالم يحرمه على نفســـه ولم يوجبه على نفسه ، والفرقة الثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتنزه عنه لمنـافاته حكمته وكماله ، والفرقة الوسط أثبتت له ما أثبته لنفسه من الايجـــاب والتحريم الذى هو مقتضى أسمائه وصفاته الذى لا يليق به نسبته الى ضده لانه موجب كماله وحكمته وعدله ولم تدخله تحت شريعة وضعتها بعقولها كما فعلت الفرقة الاولى ولم تجوز عليه ما نزه نفسه عنه كما فعلت الفرقة الثانية ، قالت الفرقة الوسط قد أخبر الله تعالى انه حرم الظلم على نفسه كما قال على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « يا عبادى انى حرمت الظلم عـلى نفسى » وقال (ولا يظلم ربك أحدا) وقال (وما ربك بظلام للعبيد) وقال (ولا تظلمون فتيلا) فاخبر بتحريمه على نفسه ونفىعن نفسه فعله وارادته، وللناس في تفسير هذا الظلم الذى حرمه على نفسه تعالى وتنزه عن فعـــله وارادته ثلاثة أقوال بحسب أصولهم وقواعدهم (أحدها) انه نظير الظـلم من الآدميين بعضهم لبعض فشبهوه في الافعال ما يحسن منها وما لا يحسن بعباده فضربوا له من قبل أنفسهم الامثال فصاروا بذلك مشبهة ممثلة فى الافعال وامتنعوا من اثبات المثل الا على الذى أثبته لنفســـه ثم ضربوا له الامثال ومثلوه في أفعاله بخلقه كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من اثبات المثل الاعلى الذى أثبته لنفسه ثمضربوا له الامثال ومثلوه فيصفاته بالجمادات الناقصة بل بالمعدومات ، وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا وأثبتوا ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ونعوت الجـلال ونزهوه فيها عن الشبيه والمثـال فأثبتوا له المثل الاعلى ولم يضربوا له الامثال فكانوا أسعد الناس بمعرفتـــه وأحقهم بولايته ومحبته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء • ثم التزم أصحاب

هذا التفسير عنه من اللوازم الباطلة ما لا قبل لهم به فقالوا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مقدوره تعالى من وجوه الاعانة فقد ظلمه ، والتزموا انه لا يقدر أن يهدى ضالا كما زعموا أنه لا يقدر أن يضل مهتديا ، وقالوا انه اذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما باعانته على فعل المأمور كان ظالما ، وأنه اذا اشترك اثنان في ذنب يوجب العقاب فعاقب به أحدهما وعفا عن الآخر كان ظالما ، الى غير ذلك من اللوازم الباطلة التى جعلوا لأجلها ترك تسويته بين عباده في فضله واحسانه ظلما • فعارضهم أصحاب التفسير الثانى وقالوا : الظلم المنزه عنه من الامور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقـدورا له تعالى ولا انه تركه بمشيئته واختياره ، وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديمـــا ونحو ذلك ، والا فكل ما يقدره الذهن وكان وجوده ممكنا والرب قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله ، وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم وفسروا الحديث به وأسندوا ذلك وقووه بآيات وآثار زعمـــوا أنها تدل عليه كقوله تعالى (ان تعذبهم فانهم عبادك) يعنى لم تتصرف في غير ملكك بل انما عذبت من تملك وعلى هذا فجوزوا تعذيب كل عبد له ولو كان محسنا ولم يروا ذلك ظلما ، وبقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» وبما روى عن اياس بن معاوية قال : ما ناظرت بعقلى كله أحدا الا القدرية قلت لهم ما الظلم ؟ قالوا : ان تأخذ ما ليس لك وأن تتصرف فيمـا ليس لك • قلت : فلله كل شيء • والتزم هؤلاء عن هذا القول لوازم باطلة كقولهم ان الله تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه وأهل طاعته ويخلدهم في العـــذاب الاليم ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ويخصهم بجنته وكرامتــه وكلاهما عدل وجائز عليه وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره فصار ممتنعا لاخباره أنه لا يفعله لا لمنافاة حكمته ولا فرق بين الامرين بالنسبة اليه ولكن أراد هذا وأخبر به وأراد الآخر وأخبر به فوجب هذا لارادته وخبره وامتنع ضده لعدم ارادته واخباره بأنه لا يكون • والتزموا أيضا أنه يجوز

أن يعذب الاطفال الذين لا ذنب لهم أصلا ويخلدهم فى الجحيم وربما قالوا بوقوع ذلك • فأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير الثالث وقالوا : الصواب الذى دلت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزه عنه فعلا وارادة هو ما فسره به سلف الامة وأئمتها انه لا يحمل عليه سيئات غيره ولا يعذب بما لا تكتسب يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازى بها أو ببعضها اذا قارنها أو طرأ عليها ما يقتضى ابطالها أو اقتصاص المظلومين منها • وهذا الظلم الذى نفى الله تعالى خوفه عن العبد بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال السلف والمفسرون لا يخاف أن يحمل عليه سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ، فهذا هو المعقول من الظلم ومن عدم خوفه ، وأما الجمع بين النقيضين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما فمما يتنزه كلام آحاد العقلاء عن تسميته ظلما وعن نفى خوفه عن العبد فكيف بكلام رب العالمين • قالوا وأما استدلالكم بتلك النصوص الدالة على أنه سبحانه ان عذبهم فانهم عباده وانه غير ظالم وانه لا يسأل عما يفعل وان قضاءه فيهم عدل وبمناظرة اياس للقدرية فهذه النصوص وأمثالها كلها حق يجب القول بموجبها ولا تحرف معانيها والكل من عند الله ، ولكن أى دليل فيها يدل على انه يجوز عليه تعالى ان يعذب أهل طاعته وينعم أهل معصيته ويعذب بغير جرم ويحرم المحسن جزاء عمله ونحو ذلك بل كلها متفقة متطابقة دالة على كمال القدرة وكمال العدل والحكمة فالنصوص التى ذكرناها تقتضى كمال عدله وحكمته وغناه ووضعه العقوبة والثواب مواضعهما وانه لم يعدل بهما عن مسببهما والنصوص التى ذكرتموها تقتضى كمال قدرته وانفراده بالربوبية والحكم وانه ليس فوقه آمر ولا ناه يتعقب أفعاله بسؤال ، وانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لكان ذلك تعذيبا لحقه عليهم وكانوا اذ ذاك مستحقين للعذاب لان أعمالهم لا تفى بنجاتهم كما قال صلى الله عليه وسلم « لن ينجى أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » فرحمته لهم ليست فى مقابلة أعمالهم ولا هى ثمنا لها فانها خير منها كما قال في الحديث نفسه « ولو رحمهم لكانت

رحمته لهم خيرا من أعمالهم » فجمع بين الامرين في الحديث انه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالما لهم وانه لو رحمهم لكان ذلك مجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم اذ رحمته خير لهم من أعمالهم فطاعات العبد[1] كلها لا تكون في مقابلة نعم الله عليهم ولا مساوية لها بل ولا للقليل منها فكيف يستحقون بها على الله النجاة وطاعة المطيع لا نسبة لها الى نعمة من نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تتقاضاه شكرا والعبد لا يقوم بمقدوره الذى يجب لله عليه فجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله فما نجا منهم أحد الا بعفوه ومغفرته ولا فاز بالجنة الا بفضله ورحمته واذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم لا من حيث كونه قادرا عليهم وهم ملك له بل لاستحقاقهم ولو رحمهم لكان ذلك بفضله لا بأعمالهم. ويأتى لهذا مزيد تحرير والله أعلم :

أفعال العباد خلق لله وكسب لهم

((أفعالنــــا مخــلوقة لله　　　لـكنها كسب لنــا يالاهى))

((وكل ما يفعــله العبــاد　　　من طاعــة أو ضدها مراد))

((لربنــا من غير ما اضطرار　　　منه لنــا فافهم ولا تمــار))

((أفعالنا)) معشر الخلق جميعها خيرها وشرها كبيرها وصغيرها ((مخلوقة)) ومصنوعة ((لله)) تعالى خلقها وأوجدها كما قال تعالى « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ـ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * والله خلقكم وما تعملون » وكقوله تعالى « لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ـ و ـ هل من خالق غير الله » قال العلماء اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والاهواء على أن الخالق هو الله لا سواه وان الحوادث كلها حادثة بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العبد وبين ما لا يتعلق بها فهى مقدورة بقدرة الله اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر واليه الاشارة بقوله ((لكنها)) أى أفعالنا التى تصدر عنا في بادى الرأى ((كسب لنا)) معشر الخلق والكسب في اصطلاح المتكلمين ما وقع من الفاعل مقارنا لقدرة محدثة واختيار ، وقيل هو ما وجد بقدرة محدثة في المكتسب ، وقال العلامة ابن حمدان من علمائنا الكسب هو ما خلقه الله في محل قدرة المكتسب على وفق ارادته في كسبه ،

---

(١) الظاهر « العباد » .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في (شرح الاصفهانية) فسروا الكسب بما قارن القدرة المحدثة في محلها ، ومجرد المقارنة لا يميز القدرة عن غيرها فان الفعل يقارن العلم والارادة وغير ذلك . قالوا والقدرة هى التمكن من التصرف وقيل سلامة البنية . وقال القاضى الامام من علمائنا خلق الشىء بقوله « كن » وهو قائم بالله غير بائن منه ومراده . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فيما كتبه على حسن ارادة الله تعالى : الكسب عند القائل به عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ، وقالوا أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه . وقوله ((يالاهى)) تكملة للبيت بالاتيان بالقافية واشارة الى الحث على المبادرة الى الدأب في الطاعة وعدم الخلود الى الراحة وقلب القلب عن اللهو واللعب يقال لها لهوا لعب كالتهى وألهاه ذلك والملاهى آلاته ، قال النسفى في عقائده كغيره من علماء السنة : وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ان كانت طاعة ويعاقبون عليها ان كانت معصية لا كما زعمت الجبرية انه لا فعل للعبد أصلا وان حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة عليها ولا قصد ولا اختيار ،وهذا باطل لأنا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة الارتعاش ونعلم ان الاول باختياره دون الثانى ، ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلا لما صح تكليف ولا يترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ولا اسناد الافعال التى تقتضى سابقة القصد والاختيار اليه على سبيل الحقيقة مثل صلى وصام وكتب بخلاف مثل طال واسود لونه ، والنصوص القطعية تنفى ذلك كقوله تعالى «جزاء بما كانوا يعملون * فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» الى غير ذلك. قال المحقق السعد التفتازانى : فان قيل بعد تعميم علم الله تعالى وارادته : الجبر لازم قطعا لانهما اما أن يتعلقا بوجود الفعل فيجب أو بعدمه فيمتنع . قلنا يعلم ويريد أن العبد يفعله أو يتركه باختياره فلا اشكال . فان قيل : فيكون فعله الاختيارى واجبا أو ممتنعا وهذا ينافى الاختيار . قلنا ممنوع فان الوجوب بالاختيار محقق للاختيار لا مناف ، وأيضا منقوض بأفعال البارى تعالى . فان قيل : لا معنى لكون العبد فاعلا بالاختيار الا كونه موجدا

لأفعاله بالقصد والارادة وقد سبق ان الله تعالى مستقل بخلق الافعال وايجادها ، ومعلوم ان المقدور الواحد لا يدخل تحت قدرتين مستقلتين .
قال التفتازاني : قلنا لا كلام في قوة هذا الكلام ومتانته الا أنه لما ثبت بالبرهان ان الخالق هو الله تعالى وبالضرورة ان لقدرة العبد وارادته مدخلا في بعض الافعال كحركة البطش دون البعض كحركة الارتعاش احتجنا في التفصى عن هذا المضيق الى القول بأن الله تعالى خالق والعبد كاسب وايجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين لكن بجهتين مختلفتين فان الفعل مقدور الله بجهة الايجاد ومقدور العبد بجهة الكسب وهذا القدر من المعنى الضرورى وان لم نقدر على أزيد من ذلك فى تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون العبد (كاسبا ـ ١) بخلق الله تعالى وايجاده مع ما للعبد من القدرة والاختيار(٢) .

ومن جملة ما لهم في الفرق بين الكسب والخلق ان الكسب وقع بآلة والخلق لا بآلة ، والكسب لا يصح انفراد القادر به والخلق يصح . فان قيل : قد أثبتم ما نسبتم الى المعتزلة من اثبات الشركة، قلنا الشركة ان يجتمع اثنان على شيء وينفرد كل منهما بما هو له دون الآخر كشركاء القرية والمحلة كما اذا جعل العبد خالقا لأفعاله والصانع خالقا لسائر الاعراض والاجسام بخلاف ما اذا أضيف أمر الى شيئين بجهتين مختلفتين كالارض تكون ملكا لله تعالى بجهة التخليق وللعباد بجهة ثبوت التصرف وكفعل العبد ينسب الى الله تعالى بجهة الخلق والى العبد بجهة الكسب . فان قيل فكيف كان كسب القبيح قبيحا سفها موجبا لاستحقاق الذم بخلاف خلقه ؟ قلنا لأنه قد ثبت ان الخالق حكيم لا يخلق شيئا الا وله عاقبة حميدة وان لم نطلع عليها فجزمنا بأن ما نستقبحه من الافعال قد يكون له فيها حكم ومصالح كما في خلق الاجسام الخبيثة الضارة المؤلمة بخلاف الكاسب فانه قد يفعل الحسن وقد

---

(١) من مخ . (٢) نقل من خط العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله على هامش نسخة ما لفظه « لا يحتاج الى ما ذكره التفتازانى . فان المخلص من هذه الشبه يعرف ببداهة العقل والشرع فانه من المعلوم أن الله تعالى خالق للعباد ولجميع صفاتهم التى من جملتها القدرة والارادة اللذين بهما يوجد العبد جميع أفعاله وخالق السبب التام . خالق لمسببه فان الله الخالق للقوى التى فى العبد ، والعبد هو الفاعل حقيقة لأفعاله بالقوة التى أعطاه اياها خالقه . ا هـ .

يفعل القبيح فجعلنا كسبه للقبيح مع ورود النهى عنه قبيحا سفها موجبا لاستحقاق الذم والعقاب ((وكل ما)) أى فعل أو الذى ((يفعله العباد من طاعة)) وهى ما تكون متعلق المدح في العاجل والثواب في الأجل ((أو)) أى وكل ما يفعلونه من ((ضدها)) أى ضد الطاعة وهى المعصية يعنى ما فيه ذم في العاجل والعقاب أو اللوم في الآجل ((مراد لربنا)) تعالى أى داخل تحت ارادته ومشيئته[1] فالله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٦٠ فى الكلام على هذا الموضع ما لفظه :

« اعلم وفقك الله ان الشارح والناظم أطلقا لفظ الارادة من غير تفصيل ولا بيان وهو كلام مجمل موهم من جنس ما تقدم من الالفاظ التى نبهنا عليها من كلام أهل البدع فان الظاهر من هذا اللفظ الذى أطلقه الشارح والناظم انما يراد به الارادة الكونية القدرية وفى المسألة تفصيل قد ذكره المحققون من أهل العلم لان الارادة ارادتان ارادة كونية قدرية وارادة دينية شرعية .

وبيان ذلك بما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى منهاج السنة حيث قال (الوجه الثالث) طريقة الائمة الفقهاء وأهل الحديث وكثير من أهل النظر وغيرهم ان الارادة فى كتاب الله نوعان : ارادة تتعلق بالامر وارادة تتعلق بالخلق ، فالارادة المتعلقة بالامر أن يريد من العبد فعل ما أمر به ، وأما ارادة الخلق فان يريد ما يفعله هو ، فارادة الامر هى المتضمنة للمحبة والرضا وهى الارادة الدينية ، والارادة المتعلقة بالخلق هى المشيئة وهى الارادة الكونية القدرية ، فالاولى كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (يريد الله ليبين لكم) الى قوله (يريد أن يخفف عنكم) وقوله (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) الآية وقوله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) الآية والثانية كقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) وقوله (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) ومن هذا النوع قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومن الاول كقولهم لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريده الله منه فاذا كان كذلك فالكفر والفسوق والعصيان ليس مرادا للرب عز وجل بالاعتبار الاول والطاعة موافقة لتلك الارادة وموافقة للامر المستلزم لتلك الارادة فأما موافقة مجرد النوع الثانى فلا يكون به مطيعا وحينئذ فالنبى يقول له ان الله يبغض الكفر ولا يحبه ولا يرضاه لك أن تفعله ولا يريده بهذا الاعتبار والنبى صلى الله عليه وسلم يأمره بالايمان الذى يحبه الله ويرضاه له ويريده بهذا الاعتبار . ثم ذكر كلاما طويلا فى منهاج السنة فى الجزء الثانى من المجلد الاول فى صفحة اثنين وعشرين فمن أراد الوقوف عليه فليراجعه فى محله .

وقال أيضا رحمه الله تعالى فى موضع آخر وقد قسم الارادة أربعة أقسام فقال رحمه الله : (الاول) ما تعلقت به الارادتان وهو ما وقع فى

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قـدير وهو تعالى يحب المحسنين والمتقين ويرضى عن السابقين الاولين من المهاجرين والانصـــار والذين اتبعوهم باحسان ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ومع كونه تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه فرق بين المخلوقات وميز بين أعيانهـــا وأفعالها كما قال « أفنجعل المسلمين كالمجرمين * أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار » وقال تعالى (وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحيـــاء ولا الاموات) الى غير ذلك من الآيات مما يبين الفرق بين المخلوقات وانقسام الخلق الى شقى وسعيد كما قال تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافـــر

الوجود من الاعمال الصالحة فان الله تعالى أرادها ارادة دين وشرع فأمر به وأحبه ورضـيه وأراده ارادة كون فوقع ولولا ذلك لمـا كان (الثـانى) ما تعلقت به الارادة الدينية فقط وهو ما أمر الله به من الاعمال الصالحة فعصى ذلك الامر الكفار والفجار فتلك كلها ارادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولم تقع (الثالث) ما تعلقت به الارادة الكونية فقط وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها كالمباحات والمعاصى فانه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها اذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لما كانت ولما وجدت فان ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن (الرابع) من أقسام الارادة الذى لم تتعلق به هذه الارادة ولا هذه فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصى . انتهى .

اذا تبين لك هذا فاعلم ان قول الناظم والشارح يوافق ما قالته القدرية الجبرية حين ردوا ما قالته القدرية النفاة لما أنكروا القدر وزعموا أن الامر أنف فقابلهم أولئك بالقول بالجبر وانهم لا يخرجون عن قدره وقضـــائه نظرا منهم الى أن الامر كائن بمشيئة الله وقدره وان ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وانه تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه ولا يكون فى ملكه شيء الا بقدرته وخلقه ومشيئته كما قال تعالى « أنا كل شيء خلقنا بقدر ـ وما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ـ ولو شاء ربك ما فعلوه ـ وما تشاءون الا أن يشاء الله » ونحو ذلك من الآيات ولا ريب أن هذا أصل عظيم من أصول الايمان لا بد منه فى حصول الايمان ، وبانكاره ضلت القـــدرية النفاة وخالفوا جميع الصحابة وائمة الاسلام لكن لا بد معه من الايمان بالارادة الشرعية الدينية التى نزلت بها الكتب الايمانية ودلت عليها النصـــوص النبوية ، وائمة المسلمين قد أثبتوا هذه وهذه وذكروا الجمع بينهما وآمنوا بكل من الاصلين فتفطن فهذا الموضع يزيل عنك اشـــكالات كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومنكم مؤمن) وقال تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ونظائر هذا في القرآن كثير ((من غير ما)) زائدة لتأكيد النفى ((اضطرار)) افتعال من الضر وأصله مضترر[1] فأدغمت الراء وقلبت التاء طاء لاجل الضاد أى من غير الجاء وجبر واكراه فالحق سبحانه خلق الانسان من صلصال كالفخار وصرفه في ما شاء من توبة وأصرار وحوبة واستغفار وثنى عنانه الى مراداته بقوة واقتدار من غير اكراه ولا اجبار ولا اضطهاد ولا اضطرار بل خلق له قدرة ونوع اختيار فيفعل الفعل ويوقعه باذن القادر الجبار ، وقوله ((منه)) أى من غير اضطرار من الله تعالى ((لنا)) معشر العباد بل خلق فينا قدرة وأقدرنا على ايقاع أفعالنا بالاذن منه والتمكين لنا من التوصل الى امتثال الاوامر والانكفاف عن مواقع الزواجر فلقدرة العبد تأثير في ايجاد فعله لا بالاستقلال والاستبداد بل بالاعانة والاذن والتمكن[2] من الفاعل المختار الجواد ((فافهم)) فهم اذعان وتحقيق وتحرير وتدقيق يقال فهم الشيء اذا علمه وعرفه بقلبه ((ولا تمارى ـ ٣)) في علمك ولا تجارى[3] في فهمك بل كن مع الحق حيث كان ولا تغتر بنحاتة الافهام وزبالة الاذهان فما ثم الا النص الصريح والنقل الصحيح دون المحال وما بعد الحق الا الضلال فلا تكون امعة في هذا الباب وتخلد الى الدعة فيحيق بك العذاب ، والمراء الجدال والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال للمناظرة مماراة لان كل واحد يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمترى الحالب اللبن من الضرع وروى أبو داود وابن حبان في صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المراء في القرآن كفر» ورواه الطبراني وغيره من حديث زيد بن ثابت رضىالله عنه • قال فى النهاية قيل أراد المراء والجدال في الآيات التى فيها ذكر القدر ونحوه من المعانى على مذهب أهل الكلام وأصحاب الاهواء والآراء دون ما تضمنته من الاحكام وأبواب الحلال والحرام فان ذلك قد جرى بين الصحابة فمن بعدهم

---

(١) هذا أصل كلمة مضطر • فأما اضطرار فأصلها اضترار •
(٢) الظاهر « والتمكين » •
(٣) هكذا أثبت الياء فى الاصلين وهو صحيح على أن تكون الواو حالية ولا نافية •

من العلماء وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة[1] وروى أبو داود والترمذى واللفظ له وابن ماجه والبيهقىوحسنه الترمذى من حديث أبى امامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له في وسطها ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها » ورواه الطبرانى في الاوسط من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ولفظه قال قال رسول اللهصلىالله عليه وسلم « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وهو مازح وبيت في أعلى الجنة لمن حسنت سريرته » وربض الجنة بفتح الراء والباء الموحدة وبالضاد المعجمة ما حولها .

* * *

وهذا المقام زلت فيه أقدام وضلت فيه طوائف من أهل الكلام والتصوف وصاروا الى ما هو شر من قول المعتزلة ونحوهم . وحاصل ذلك ان الناس انقسموا الى طرفي تفريط وافراط ووسط ، أما المفرطون فالقدرية يعظمون الامر والنهى والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكن ضلوا في القدر واعتقدوا أنهم اذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة تامة وخلقا متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الرب تعالى وحكمته ، وغلطوا في ذلك ، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة وعندهم ان الله تعالى ما أحدث هذا ولا هذا بل أمر بالطاعة ونهى عن المعصية وليس عندهم لله نعمة على عباده المؤمنين في الدين الا وقد أنعم بمثلها على الكفار فعندهم ان على بن أبى طالب رضى الله عنه وأبا لهب مستويان في نعمة الله الدينية اذ كل منهما أرسل اليه الرسول وأقدر على الفعل لكن هذا فعل الايمان بنفسه من غير أن يخصه بنعمة آمن بها وهذا فعل الكفر بنفسه من غير أن يفضل الله عليه ذلك المؤمن ولا خصه بنعمة آمن لأجلها ، وعندهم ان الله تعالى حبب الايمان الى الكفار كأبى لهب وأمثاله كما حببه للمؤمنين كعلى رضى الله عنه وأمثاله

---

(١) قال مصحح مط : ان مذكرات الصحابة ومراجعاتهم فى الفهم لم تكن مراء وكانوا يطلقون لفظ المراء على الجدل لتأييد الرأى واتباع الهوى :

وزينه في قلوب الطائفتين وكره الـكفر والفسوق والعصيان اليهما بالسواء لكن هؤلاء كرهوا ما كرهه الله اليهم بغير نعمة خصهم بها وهؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله اليهم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : من توهم منهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم فان هذا لم يقله أحد من علماء القدرية ولا يمكن أن يقولوه فان أصل قولهم ان فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية كلتاهما فعله بقدرة تحصل له من غير أن يخصه الله تعالى بارادة خلقها فيه تختص بأحدهما ولا قوة جعلها فيه تختص بأحدهما فمن احتج منهم بقوله تعالي «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » على مذهبهم كان جاهلا بمذهبه وكانت الآية الكريمة حجة عليهم لالهم لانه تعالى قال «قل كل من عند الله» وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله بل كلاهما من العبد ، والله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية الكريمة ردا على من يقول الحسنة من الله والسيئة من العبد قال ولم يقل أحد من الناس ان الحسنة المفعولة من الله والسيئة المفعولة من العبد • قال شيخ الاســـلام في شرح الاصفهانية : وأثبتت القدرية من المعتزلة ونحوهم ما في الحيوان من القدرة والاختيار والافعال دون سائر القوى والطبائع والافعال التى فيه أو في غيره من الاجسام وغلوا في أفعال الحيوان حتى جعلوها تحدث بلا سبب محدث لها كما زعمه الفلاسفة في الحركة الفلكية وجعل أكثرهم ما يحدث بسبب منه ومن غيره فعلا يسمونها الافعال المتولدة كالشبع عن الاكل والرى عن الشرب وخروج السهم عن النزع وحصول الموت عن الضرب ونحو ذلك ، وهؤلاء القدرية تارة يثبتون حادثا بلا محدث وممكنا يرجح وجوده على عدمه بلا مرجح كحدوث فعل الحيوان وتارة يضيفون الحادث الى بعض أسبابه دون سائر أسبابه كاضافة المتولدات الى فعل الانسان دون غيره وتارة ينكرون الاسباب كانكارهم ما في الاجسام من القوة الطبيعيـــة غير الارادية والاسباب ثابتة وهى حادثة بأحداث الله تعالى وهى مفتقرة الى أسباب أخر ولها موانع ، وهؤلاء ينفون بعضها ويجعلون بعضها حادثا بغير أحداث الله تعالى ويجعلون ذلك المحدث مستقلا لا يفتقر الى مشارك ، قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه : وقول هؤلاء القدرية شر من قول الجبرية من بعض الوجوه فان قول الجبرية كما يأتي يتضمن ترجيح أحد المتماثلين بلا مرجح وحدوث الحوادث بلا سبب أصلا وقول القدرية يتضمن ذلك ويزيد عليه بأنه يتضمن حدوث جميع الحوادث بلا محدث أصلا ويتضمن اضافتهم الحوادث الى ما لا يعلم ثبوته بل يعلم انتفاؤه من الاسباب ويتضمن انهم يجعلون السبب مستقلا بالاحداث مع افتقاره الى شريك يعاونه ومانع يعارضه وافتقاره الى محدث يحدثه فلا يثبتون لا محدثه ولا شريكه ولا مانعه بل يضيفون الى السبب المحدث الذى له شركاء وموانع وحصول الاثر به موقوف على فعل الله تعالى فيضيفون اليه مع هذا ما هو مخلوق للرب الذى لا شريك له ولا ضد له ولا رب سواه ولهذا كان الحاد هؤلاء ظاهرا عند أهل الملة بخلاف الاولين فانهم معدودون من أهل البدع • قال وهذا المقام من أعظم المقامات التي اضطرب فيها مبتدعة المتكلمين وملاحدة الفلاسفة حتى ان الرجل الواحد يصنف الكتب المتعددة فينصر قول هؤلاء في كتاب كما يقع في كتب الرازى والآمدى وأبى حامد وغيرهم •

(تنبيهـــات)

أول من تكلم في القدر

(الأول) أول من تكلم في القدر معبد الجهنى وكان أولا يجلس الى الحسن البصرى ثم سلك أهل البصرة بعده مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله ، وقيل بل أول من تكلم فيه معبد بن عبد الله بن عويمر قاله السمعانى وبعض علماء الاشاعرة وغيرهم ، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه شرح الايمان : أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى • وقال العلامة الطوفى في شرح تائية شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : كان أول من تكلم في القدر بالبصرة سوسن رجل من أبناء المجوس ثم معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد ، ويقال أول ما حدث في الحجاز لما احترقت الكعبة فقال رجل احترقت بقدر الله تعالى فقال آخر لم يقدر الله هذا • ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رد عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله

ابن عباس وواثلة بن الاسقع رضى الله عنهم وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية ، ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون الامر مستقبل وان الله لم يقدر الكتابة والاعمال • والمرجئة يقولون : القول يجزى عن العمل • والجهمية يقولون المعرفة تجزى عن القول والعمل ، قال وكيع : هو كله كفر • قال شيخ الاسلام ولكن لما اشتهر الكلام في القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبادة صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم وانما ينكرون عموم المشيئة والخلق وعن عمرو بن عبيد في انكار الكتاب المتقدم والسعادة روايتان •

القدرية فرقتان غلاة ودونهم

(الثانى) القدرية فرقتان (الاولى) تنكر ما ذكرنا من سبق العلم بالاشياء قبل وجودها وتزعم ان الله لم يقدر الامور ازلا ولم يتقدم علمه بها وانما يأتنفها علما حال وقوعها وكانوا يقولون ان الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد ما فعلوه ، ولهذا قالوا الامر أنف أى مستأنف يقال روض أنف اذا كانت وافية لم ترع قبل ذلك يعنى انه يستأنف العمل السعيد والشقى ويبتدىء ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب فلا يكون العمل على ما قدر فيحتذى به حذو القدر بل هو أمر مستأنف مبتدأ والواحد من الناس اذا أراد أن يعمل عملا قدر في نفسه ما يريد عمله ثم يوقعه كما قدر فى نفسه وربما أظهر ما قدره في الخارج بصورته ويسمى هذا التقدير الذى في النفس خلقا ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ　　ـض الناس يخلق ثم لايفرى

يقول اذا قدرت أمرا أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك فانه عاجز عن امضاء ما يقدره والرب تعالى أولى قال الله تعالى (انا كل شىء خلقناه بقدر) وهو سبحانه يعلم قبل ان يخلق الاشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وارادته تعالى قائمة بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) وقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم لهم الغالبون) وقال (ولقد

آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ الآية وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يقدره فيه كما قال تعالى (ألم تر ان الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعـــالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك في هذه الآية وفي الآية الاخرى (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا فى أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير) قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم عليه الامام مالك والامام الشافعى والامام أحمد وغيرهم من الائمة رضى الله عنهم وهم الذين قال فيهم الشافعى ان سلم القدرية العلم خصموا • يعنى يقال لهم أيجوز ان يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم ؟ فان منعوا وافقوا أهل السنة وان أجازوا لزمهم نســـبة الجهل الى الله تعالى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا • وقد قال الامام أحمـد رضى الله عنه في قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) هذه حجة على القدرية • قال الامام المحقق ابن القيم في (البدائع) أراد القدرية المنكرة للعلم بالاشياء قبل كونها وهم غلاتها الذين كفرهم السلف والا فلا تعرض فيها لمسألة خلق الافعال • انتهى • قال القرطبى قد انقرض هذا المذهب فلا نعرف أحدا ينسب اليه من المتأخرين (الثانية) من فرقتى القدرية المقرون بالعلم ، قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى :القدريةاليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وانما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهه الاستقلال وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من المذهب الاول ، قال : والمتأخرون منهـــم أنكروا تعلق الارادة بأفعال العباد فرارا من تعلق القديم بالمحدث • قـــال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : وأما هؤلاء ـ يعنى الفرقة الثانية ـ فانهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ، قال وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم لكن من كان داعية لم يخرجوا له وهذا مذهب فقهاء الحديث كالامام أحمد وغيره ومن كان داعية الى بدعة فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس

وان كان في الباطن مجتهدا فأقل عقوبته أن يهجر فلا يكون له مرتبة في الدين فلا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ولا تقبل شهادته ونحوذلك،ولهذا لم يخرج أصحاب الصحيح لمن كان داعية ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأى القدرية والمرجئة والخــوارج والشيعة ، وقال الامام احمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية برد الله مضجعه : هــذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وارادة الكائنات مسألة مشكلة ولهذا القدرية من المعـتزلة وغيرهم أخطأوا فيها وقد أخطأ أيضا كثير ممن رد عليهم لأنهم سلكوا في ردهم عليهم مسلك جهم بن صفوان وأتباعه فنفوا حكمة الله في خلقه وأمره ونفوا رحمته بعباده ونفوا ما جعله سبحانه من الاسباب خلقـا وأمرا وغير ذلك • وهؤلاء القدرية فرطوا غاية التفريط بحيث انهم نفواأن يكون الله تعالى خالقا لأفعال عباده فأثبتوا خالقا غيره مستقلا بالخلق والامر دونه تعالى الله عن ذلك وبالله التوفيق •

(الثالث) في بعض ما ورد في ذم القدرية من الآثار والاخبار وما رده عليهم من الصحابة الاخيار والائمة الابرار ، روى مسلم والنسائى وأبوداود والترمذى عن يحيى بن يعمر قال كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبىأحدنا عنيمينه والآخرعنشماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام الى فقلت أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتفقدون [1] العلم ــوذكر من شأنهمــ وانهم يزعمون أن لا قدر وان الامر أنف ، فقال اذا لقيت أولئك فأخبرهم انى برىء منهــم وانهم براء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ــ ثم ساق حديث جبريل عليه السلام وفيه «وتؤمن بالقدر خيره وشره ــ زاد فى رواية ــ وحلوه

---

(١) كذا والمحفوظ « يتقفرون » •

ومره » الحديث ،وفى رواية أبى داود عن يحيى بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن قالا لقينا ابن عمر فذكرنا له القدر وما يقولون فيه فذكرا نحوه ، وزاد قال وسأله رجل من مزينة أو جهينة فقال يا رسول الله فيم نعمل ؟ في شيء خلا ومضى أو شيء مستأنف ؟ قال « في شيء خلا ومضى . فقال الرجل أو بعض القوم : ففيم العمل ؟ قال « ان أهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وان أهل النار ميسرون لعمل أهل النار » وعند أبى داود أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأصله في الصحيحين وفيه قال يا محمد أخبرنى عن الايمان قال « أن تؤمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين وتؤمن بالقدر » قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم» قال صدقت . وأخرج الترمذى من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا اله الا الله وانى محمد رسول الله بعثنى بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر » وفي صحيح مسلم عن أبى الاسود الدؤلى قال قال لى عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ويثبت الحجة عليهم ؟ فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم . قال فقال فلا يكون ظلما ؟ قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت : كل شيء خلق الله وملك الله فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون . فقال رحمك الله انى لم أرد بما سألتك الا لأحزر عقلك ، ان رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال « لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم .وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) . وفي أوسط الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر فقد استمسك بالعروة الوثقى » وأخرج أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « القدر سر الله » وفي الجامع الكبير عن الحارث قال جاء

رجل الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : طريق مظلم لا تسلكه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : بحر عميق لا تلجه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : سر الله خفى عليك فلا تفشه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر - وساق الكلام في جواب السائل الى أن قال أيها السائل تقول لا حول ولا قوة الا بمن ؟ قال : الا بالله العلى العظيم ، قال أفتعلم مافى تفسيرها ؟ قال تعلمنى مما علمك الله يا أمير المؤمنين ، قال ان تفسيرها لا يقدر على طاعة الله ولا تكون له قوة في معصية الله في الامرين جميعا الا بالله ، أيها السائل ألك مع الله مشيئة أو فوق الله مشيئة أو دون الله مشيئة ؟ فان قلت ان لك دون الله مشيئة اكتفيت بها عن مشيئة الله ، وان زعمت ان لك فوق الله مشيئة فقد ادعيت ان قوتك ومشيئتك غالبتان على قوة الله ومشيئته ، وان زعمت أن لك مع الله مشيئة فقد ادعيت مع الله شركا في مشيئته - الاثر المروى بطوله • والاخبار والآثار في هذا الباب كثيرة جدا •

وأما ذم القدرية فقد أخرج أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القدرية مجوس هذه الامة » ورواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم ، قال الحافظ ابن حجر ورجاله من رجال الصحيحين لكن ذكر الحافظ المنذرى ان فى سنده انقطاعا وقد أجاب عنه بأن أباالحسن ابن القطان الفاسى[1] الحافظ صحح سنده وقال ان أبا حازم عاصر ابن عمر وكان معه بالمدينة ومسلم يكتفى في الاتصال بالمعاصرة فهو صحيح على شرط مسلم • قلت وقد أخرج الحديث الامام الحافظ ابن الجوزى في كتابه الموضوعات من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان لكل أمة مجوسا ومجوس هذه الامة القدرية فلا تعودوهم اذا مرضوا ولا تصلوا عليهم اذا ماتوا » رواه ابن عدى • وحكم عليه بالوضع وتعقبه الجلال السيوطى بأن جعفر بن الحارث الذى أعله به قد وثقه ابن عدى فقال لم أر فى أحاديثه حديثا منكرا أرجو أنه لا بأس

---

(١) فى الاصلين « القابسى » كذا •

به وقال البخارى حفظه سيىء يكتب حديثه • والحديث ورد بهذا اللفظ من حديث حذيفة أخرجه أبو داود ، وجابر بن عبد الله أخـــرجه ابن ماجه ، وعبد الله بن عمر آخرجه الامام أحمد والبخارى في تاريخــــه والطبرانى في الاوسط واللالكائى في السنة بأسانيد بعضها على شرط الصحيح، وسهل بن عبد الله أخرجه الطبرانى في الأوسط واللالكائى أيضا وأنس أخرجه الطبرانى ، وابن عباس أخرجه اللالكائى ، وورد عن عمر موقوفا أخرجه اللالكائى • وأقول قد روى الطــبرانى في الكبير وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد قال الحافظ المنذرى ولا أعرف له علة عن أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ستة لعنتهم ولعنهم كل نبى مجاب ، الزائد في كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتى بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك للسنة » وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « تكون قـــدرية ثم تكون زنادقة ثم تكون[1] مجوس[2] وان لكل أمة مجوسا وان مجوس أمتى المكذبة بالقدر فان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم ولا تتبعوا لهم جنازة » قال الخطابى انما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالاصلين وهما النور والظلمة يزعمون ان الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القــدرية يضيفون الخير الى الله والشر الى غيره والله تعالى خالق الامرين معا • وكذا قال ابن الاثير في جامع الاصول : القدرية في اجماع أهل السنة والجماعـة هم الذين يقولون ان الخير من الله والشر من الانسان وان الله لا يريد افعال العصاة وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجـد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ونفوا ان تكون الاشياء بقدر الله وقضائه ، قال وهؤلاء مع ضلالتهم يضيفون الاسم الى مخالفهم من أهل الهـدى فيقولون أنتم القدرية حين تجعلون الاشياء جارية بقدر من الله وانكم أولى بهـذا

---

(١) فى مط « تكونون » فى المواضع الثلاثة وكذا كان فى مخ فأصلح فيها « تكون » •

(٢) فى الاصلين « مجوسا » •

الاسم منا لأنكم تثبتون القدر ونحن ننفيه ومثبته أحق بالنسبة اليه من نافيه فأنتم الداخلون تحت وعيد الحديث دوننا • فأجابهم المثبتون بأنكم أولى بذلك لانكم تثبتون القدر لأنفسكم ونحن ننفيه عن أنفسنا ومثبت الشيء لنفسه أولى بالنسبة اليه ممن نفاه عن نفسه ، وأيضا هذا الحديث يبطل ما قالوه فانه قال صلى الله عليه وسلم « القدرية مجوس هذه الامة » ومعنى ذلك انهم لمشابهتهم المجوس في مذهبهم وقولهم بالاصلين وهما النور والظلمة • وتقدم كلام شيخ الاسلام فلا يهمل وبالله التوفيق •

* * *

الجبرية

وأما المفرطون فالجبرية وهم الذين يزعمون انه لا فعل للعبد أصلا وان حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة له عليها ولا قصد ولا اختيار ، فاثبتوا ان الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه وهذا جيد لكن نفوا تأثير الاسباب والحكم في الجماد والحيوان وأنكروا أن يكون للحيوان من الانسان أو غيره فعل يفعله بقدرته ،وحقيقة قول هؤلاء ترجيح أحد المتماثلين بلا مرجح وحدوث الحوادث بلا سبب أصلا،قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : قابل القدرية قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهذا حسن ، لكنهم قصروا في الامر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى غلا بهم الامر الى الالحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال فأولئك القدرية وان كانوا يشبهون المجوس من حيث انهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شرا غير الله سبحانه فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فالمشركون شر من المجوس لأن المجوس يقرون بالجزية باتفاق المسلمين حتى ذهب بعض العلماء الى حل نسائهم وطعامهم وأما المشركون فاتفقت الامة على تحريم نكاح نسائهم ، ومذهب الامام احمد في المشهور عنه والشافعي وغيرهما أنهم لا يقرون بالجزية فجمهور العلماء على ان مشركي العرب لا يقرون بالجزية ، والمقصود أن من أثبت القدر واحتج به على ابطال الامر والنهي

فهو شر ممن أثبت الامر والنهى ولم يثبت القدر ، قال شيخ الاسلام : وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل بين جميع الخلق فان من احتج بالقدر وشهد الربوبية العامة لجميع المخلوقات ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمن والكافر وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل ولا شيء من الكتب وكان عنده آدم وابليس سواء ونوح وقومه سواء وموسى وفرعون سواء والسابقون الاولون وكفار مكة سواء ، وهذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف والزهد والعبادة ولا سيما اذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير اثبات المحبة والبغض والرضا والسخط الذين يقولون : التوحيد هو توحيد الربوبية وأما الالهية فهى عندهم القدرة على الاختراع ، وعندهم مجرد الاقرار بأن الله رب كل شيء كاف لا (؟) يدعون التحقيق والفناء في التوحيد ويقولون ان هذا نهاية المعرفة وان صاحب هذا المقام لا يستحسن حسنه ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة ، وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله ، وغاية توحيد هؤلاء توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الاصنام الذين قال الله تعالى فيهم (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون) الآيات ونحوها فان هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والارض وبيده ملكوت كل شيء وكانوا مقرين بالقدر وهو معروف عنهم في النظم والنثر ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرا من اليهود والنصارى ، فمن كان غاية توحيده ومنتهى تحقيقه هذا التوحيد كان توحيده من توحيد المشركين • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وهذا المقام مقام وأى مقام زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين الاسلام والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الاصنام على من يدعى نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام ، ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله ان المعتزلة والشيعة والقدرية المثبتين للامر والنهى والوعد والوعيد خير ممن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والنبى الصادق والمتنبى الكاذب وأولياء الله وأعدائه ، بل هم

أحق من المعتزلة بالذم كما قال الامام أبو محمد الخلال في كتاب السنة عن المروذى قال قلت لأبى عبد الله - يعنى الامام أحمد رضى الله عنه - رجل يقول ان الله أجبر العباد على المعاصى فقال هكذا لا نقول وأنكر ذلك وقال يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء • وأنكر سفيان الثورى أيضا على من قال جبر وقال ان الله جبل العباد • وقال المروذى أراد قول النبى صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس يعنى قوله « ان فيك لخلقين يحبهما الله تعالى الحلم والاناة » فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليها ؟ فقال بل خلقين جبلت عليهما ، فقال «الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما » وذكر عن أبى اسحاق الفزارى قال قال لى الاوزاعى أتانى رجلان فسألانى عن القدر فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما قلت رحمك الله أنت أولى بالجواب قال فأتانى الاوزاعى ومعه الرجلان فقال تكلما فقالا قدم علينا أناس من أهل القدر فنازعونا في القدر ونازعناهم حتى بلغ بنا وبهم الجواب الى أن قلنا ان الله تعالى جبرنا على ما نهانا عنه وحال بيننا وبين ما أمرنا به ورزقنا ما حرم علينا • فقلت يا هؤلاء ان الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثا وانى أراكم قد خرجتم من البدعة الى مثل ما خرجوا اليه • فقال يعنى الاوزاعى أصبت وأحسنت يا أبا اسحاق • وذكر الخلال عن بقية بن الوليد قال سألت الزبيدى والاوزاعى عن الجبر فقال الزبيدى : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضى ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب • وقال الاوزاعى ما أعرف للجبر أصلا من القرآن ولا السنة فأهاب أن أقول ذلك ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل فهذا يعرف في القرآن والحديث • قال شيخ الاسلام أدخل الخلال وغيره من علماء الاسلام القائلين بالجبر في مسمى القدرية وان كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصى فكيف بمن يحتج به على المعاصى ويدخل فى ذم أهل العلم من يحتج بالقدر على اسقاط الأمر والنهى أعظم مما يدخل فيه المنكر له فان ضلال هذا أعظم • قال شيخ الاسلام : ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف وروى في ذلك حديث مرفوع • قلت وهو ما روى من حديث أبى سعيد

الخدرى رضى الله عنه مرفوعا « ان الله لعن أربعة على لسان سبعين نبيا - قلنا من هم يا رسول الله ؟ قال «القدرية والجهمية والمرجئة والروافض» • الحديث وفيه قلنا يارسول الله ما المرجئة قال الذين يقولون الايمان قول بلا عمل • ذكره ابن الجوزى في الموضوعات • ومن حديث أنس رضى الله عنه مرفوعا : « المرجئة والقدرية والروافض والخوارج يسلب منهم ربع التوحيد فسيلقون الله كفارا خالدين مخلدين في النار » أخرجه ابن حبان وقال فيه محمد بن يحيى بن رزين دجال يضع الحديث - وذكره ابن الجوزى في الموضوعات • لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الامر والنهى والوعد والوعيد فالارجاء يضعف الايمان بالوعيد ويهون أمر الفرائض والمحارم ، والقدرى يعنى الجبرى ان احتج بالقدر كان عونا للمرجىء وان كذب به أى بالقدر كان هو والمرجىء متقابلين هذا يبالغ في التشديد حتى يجعل العبد لا يستعين بالله على فعل ما أمره به وترك ما نهى عنه ، وهؤلاء القدرية حقيقة ، وهذا يعنى المرجىء يبالغ في الناحية الأخرى ، ومن المعلوم ان الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لتصدق الرسل فيما أخبرت وتطاع فيما أمرت كما قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) وقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) والايمان بالقدر من تمام ذلك ، فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضا للامر فقد أذهب الاصل • قال شيخ الاسلام : ومعلوم انه من أسقط الامر والنهى الذى بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمون واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض ، لا يمكن أحدا منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل أحد والا فليس هو حجة لأحد ، فاذا ظلم الانسان ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله وأفسد عياله فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر ، قال ومن أدعى ان العارف اذا شهد الارادة سقط عنه الامر كان هذا من الكفر الذى لا يرضاه أحد بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع • وقال تلميذه المحقق ابن القيم في كتابه (شرح منازل السائرين) مشهد أصحاب الجبر وهم الذين يشهدون أنهم مجبرون على أفعالهم وانها واقعة بغير قدرتهم

واختيارهم بل لا يشهدون انها أفعالهم البتة ويقولون ان أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر وان الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه وانه آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات الاشجار ، وهؤلاء اذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها لموافقتها المشيئة والقدر ، ويقولون كما ان موافقة الامر طاعة فموافقة المشيئة طاعة كما حكى الله تعالى عن المشركين اخوانهم انهم جعلوا مشيئة الله لأفعالهم دليلا على أمره بها ورضاه بها ، قال : وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله ومناقضة لكتبه ورسله ودينه حتى ان من هؤلاء من يعتذر عن ابليس لعنه الله ويتوجع له ويقيم عذره بجهده وينسب ربه الى ظلمه بلسان الحال والقال ويقول ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وارادته منه ثم كيف يمكنه السجود وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه وهل كان فى ترك سجوده لغيرك الا محسنا ولكن

اذا كان المحب قليل حظ فما حسناته الا ذنوب

قال ابن القيم رحمه الله وهؤلاء أعداء الله حقا وأولياء ابليس وأحبابه واخوانه واذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين أمرا عجبا ورأيت من تظلم الاقدار واتهام الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه قال فهؤلاء الذين قال فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية في تائيته :

وتدعى خصوم الله يوم معادهم الى النار طرا فرقة القدرية

يعنى الجبرية وتقدم ان شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه قال ان بدعة القدرية النفاة كانت فى أواخر عصر الصحابة رضى الله عنهم ،قال وأما بدعة هؤلاء المحتجين بالقدر فلم يعرف لها امام ولم تعرف به طائفة من طوائف المسلمين معروفة ، قال وانما كثر ذلك في المتأخرين وسموا هذا حقيقة وجعلوا الحقيقة تعارض الشريعة ولم يميزوا بين الحقيقة الشرعية التى تتضمن تحقيق أحوال القلوب كالاخلاص والصبر وبين الحقيقة

الكونية القدرية التى نؤمن بها ولا نحتج بها على المعاصى ، وفيهم من يقول ان العارف اذا فنى في شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنة ولم يستقبح سيئة ، ويقول بعضهم من شهد الارادة سقط عنه الامر والنهى ، ويقول بعضهم ان الخضر عليه السلام انما سقط عنه التكليف لانه شهد الارادة - الى غير ذلك من كلامهم • والحاصل ان هذه المقالة من أشنع المقالات وأفظع البدع المحدثات ، والمحتج بقدر الله على معاصى الله تعالى زنديق وخارج عن سواء السبيل وعادم التحقيق ومارق من الدين ومباين التوفيق ، والبارى جل شأنه قد أرسل الرسل قاطبة بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وفي الاحتجاج على المعاصى بالقدر انعكاس ما جاءت به الرسل من تعظيم النهى والامر • وبالله التوفيق •

★ ★ ★

قول أهل السنة في القدر

وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة ولم يفرطوا افراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصى الله ، وهؤلاء على مذهبين ، مذهب الاشعرى ومن وافقه من الخلف ، ومذهب سلف الامة وأئمة السنة ، فمذهب أهل السنة كافة أن جميع أنواع الطاعات والمعاصى والكفر والفساد واقعة بقضاء الله وقدره لا خالق سواه فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها ، والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها ، هذا القدر باتفاق أهل السنة ثم ان الاشعرى ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسبا ومعناه انه قادر على فعله وان كانت قدرته لا تأثير لها في ذلك كما مر ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : هذا قول الاشعرى ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة من أصحاب مالك والشافعى وأحمد حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبائع ، ويقولون ان الله تعالى فعل عندها لا بها ، ويقولون ان قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل ، ويقول الاشعرى : ان الله فاعل فعل العبد وان عمل العبد ليس فعلا للعبد بل كسبا له • قال شيخ الاسلام : وهذا قول من ينكر الاسباب والقوى التى في الاجسام وينكر تأثير القدرة التى للعبد التى يكون بها الفعل ويقول انه لا أثر لقدرة العبد أصلا في فعله لكن الاشعرى يثبت

للعبد قدرة محدثة واختيارا ويقول ان الفعل كسب للعبد لكن يقول لا تأثير لقدرة العبد في ايجاد المقدور ، وهو مقام دقيق حتى قال بعضهم ان هذا الكسب الذى أثبته الاشعرى غير معقول ، قال : حتى قال جمهور العقلاء ثلاثة أشياء لا حقيقة لها طفرة النظام وأحوال أبى هاشم وكسب الاشعرى ، وذلك أنه يلزم أن لا يكون فرق بين القادر والعاجز اذ مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة فان فعل العبد يقارن حياته وعلمه وارادته وغير ذلك من صفاته فاذا لم يكن للقدرة تأثير الا مجرد الاقتران فلا فرق بين (هذه ـ ١) القدرة وغيرها • ومن هذه الطائفة من يقول ان قدرة العبد مؤثرة في صفة الفعل لا في أصله كما يقوله القاضى أبو بكر الباقلانى من أئمة متكلمة الاشعرية ومن وافقه فانه أثبت تأثيرا بدون خلق الرب فلزم أن يكون بعض الحوادث لم يخلقه الله وان جعل ذلك معلقا بخلق الرب فلا فرق بين الاصل والصفة • قيل ومذهب الاشعرى يقرب في هذه المسألة من مذهب الجبرية الجهمية فانه يحكى عن الجهم بن صفوان وغلاة أتباعه أنهم سلبوا العبد قدرته واختياره حتى قال بعضهم ان حركته حركة الاشجار بالرياح كما تقدم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية ان الجهم كان يقول لا أثر لحركة العبد أصلا في فعله وكان يثبت مشيئة الله تعالى وينكر أن يكون له حكمة ورحمة وينكر أن يكون للعبد فعل أو قدرة مؤثرة • قال وقد حكى عنه انه كان يخرج الى الجذمى ويقول أرحم الراحمين يفعل هذا ؟انكارا لان يكون له تعالى رحمة يتصف بها سبحانه زعما منه أنه ليس الا مشيئة محضة لا اختصاص لها بحكمة بل يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح •

ومذهب سلف الامة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون ان العبد فاعل لفعله حقيقة وان له قدرة حقيقة واستطاعة حقيقة ولا ينكرون تأثير الاسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون بأن لها أثرا لفظا ومعنى لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الاسباب في

---

(١) من مخ •

مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب ومع انه خالق السبب فلا بد للسبب من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره الا مع خلق الله له بأن يخلق الله السبب الآخر ويزيل الموانع ،وقال شيخ الاسلام في موضع آخر : الاعمال والاقوال والطاعات والمعاصى هى من العبد بمعنى انها قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها والمتحرك بها الذى يعود حكمها عليه وهى من الله بمعنى انه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملا له وكسبا كما يخلق المسببات بأسبابها فهى من الله مخلوقة له ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه كما اذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة وهذا الزرع من الارض بمعنى انه حدث منها ـ ومن الله بمعنى انه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض .• قال : فالحوادث تضاف الى خالقها باعتبار والى أسبابها باعتبار كما قال تعالى (هذا من عمل الشيطان) وقال (وما انسانيه الا الشيطان) مع قوله (كل من عند الله) وأخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون • وقال في موضع آخر : ان أئمة أهل السنة يقولون ان الله خالق أفعال العباد كما ان الله خالق كل شيء وانه تعالى خالق الاشياء بالاسباب وانه تعالى خلق للعبد قدرة بها يكون فعله وان العبد فاعل لفعله حقيقة فقولهم في خلق فعل العبد بارادته وقدرته كقولهم في خلق سائر الحوادث بأسبابها وقد دلت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله خالقه وفعل العبد من جملة الحوادث، وكل ممكن يقبل الوجود والعدم فان شاء الله كان وان لم يشأ لم يكن ، وفعل العبد من جملة الممكنات • قال : وجمهور المسلمين وجمهور طوائفهم على هذا القول الوسط الذى ليس هو قول المعتزلة ولا قول جهم بن صفوان وأتباعه الجبرية فمن قال ان شيئا من الحوادث أفعال الملائكة والجن والانس لم يخلقها الله تعالى فقد خالف الكتاب والسنة واجماع السلف والادلة العقلية ، ولهذا قال بعض السلف : من قال ان كلام الآدميين وأفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من يقول ان سماء الله وأرضه غير مخلوقة • والحاصل ان مذهب السلف ومحققى أهل السنة ان الله تعالى خلق قدرة العبد وارادته وفعله ، وان العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله والله

سبحانه جعله فاعلا له محدثا له قال تعالى (وما تشاءون الا أن يشاء الله) فأثبت مشيئة العبد وأخبر انها لا تكون الا بمشيئة الله تعالى ، وهذا صريح قول أهل السنة في اثبات مشيئة العبد وانها لا تكون الا بمشيئة الرب • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وهذا قول جمهور أهل السنة من جميع الطوائف وهو قول كثير من أصحاب الاشعرى كأبى اسحاق الاسفرايني وامام الحرمين وغيرهما فيقولون العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة واختيار وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والاسباب كما دل على ذلك الشرع والعقل قال تعالى (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقال (فأحيا به الارض بعد موتها) وقال (يهدى به كثيرا) وهذا كثير في الكتاب والسنة يخبر تعالى انه يحدث الحوادث بالاسباب ، وكذلك دل الكتاب والسنة على اثبات القوى والطبائع للحيوان وغيره كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال (هو أشد منهم قوة) وقال في الجمادات (وأخرجت الارض أثقالها) وقال (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وقال (تدمر كل شيء بأمر ربها) وقال (وأرسلنا الرياح لواقح) (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى) وقال تعالى (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وهذا في القرآن كثير جدا • وقال السعد التفتازانى في شرح المقاصد بعد ما نقل الخلاف ملخصا ما نصه : ثم المشهور فيما بين القوم المذكور في كتبهم ان مذهب امام الحرمين ان فعل العبد واقع بقدرته وارادته ايجابا كما هو رأى الحكماء مع قول الامام فى الارشاد : اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والاهواء على ان الخالق هو الله ولا خالق سواه ، وان الحوادث كلها حدثت بقدرة الله من غير فرق بين ما تعلق قدرة العبد به وبين ما لا يتعلق • قال العلامة ابراهيم الكورانى في شرح منظومة شيخه الشيخ محمد المقدسى القشاشى ما نصه : مذهب الشيخ امام الحرمين الذي تفرد به فيما قيل عن الاصحاب يعنى الاشعرية من أن أصل فعل العبد واقع منه بتأثير قدرته باذن الله قال

وهو مذكور في غير الارشاد وهو آخر قوليه كما نقله عنه البقى فلا يقدح مخالفة ما في الارشاد وبقية كتبه التى وصلت الى التفتازانى وغيره لما هو المنقول عنه في غير الارشاد وبقية كتبه في هذا الفن المرجوع عنها في هذه المسئلة • قال الكورانى : وهذا الكتاب الذى ذكر فيه آخر قوليه هو كتابه المترجم بالنظامية فيما وقفت على كلامه منقولا عنه بلفظه في كتاب (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) للعلامة شمس الدين ابن القيم في الباب السابع عشر منه ولفظه : اضطربت آراء اتباع الاشعرى في الكسب اضطرابا عظيما واختلفت عباراتهم فيه اختلافا كثيرا وقد ذكر ذلك كله أبو القاسم سلمان بن ناصر الانصارى في شرح الارشاد ، ثم ساق عن تلميذ امام الحرمين شارح الارشاد هذا الانصارى كلاما فيه ان امام الحرمين ذكر لنفسه مذهبا ذكره في الكتاب المترجم بالنظامية وانفرد به عن الاصحاب ، ثم قال صاحب كتاب شفاء العليل فى آخر كلام شارح كتاب الارشاد المذكور : قلت الذى قاله الامام في النظامية أقرب الى الحق مما قاله الاشعرى وابن الباقلانى ومن تابعهما ونحن نذكر كلامه بلفظه ، قال ـ يعنى امام الحرمين : قد تقرر عند كل حاظ بعقله مترق عن مراتب التقليد فى قواعد التوحيد أن الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم وداعيهم اليها ومثيبهم ومعاقبهم عليها ، وتبين بالنصوص التى لا تتعرض بالتأويلات انه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم ومكنهم من التوصل الى امتثال الامر والانكفاف عن مواقع الزجر ، ولو ذهبت أتلو الآى المتضمنة لهذه المعانى لطال المرام ، ولا حاجة الى ذلك مع قطع اللبيب المنصف به ، ومن نظر فى كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث والزواجر عن المعاصى الموبقات وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات ثم تلفت على الوعد والوعيد وما يجب عقده من تصديق المرسلين فى الانبياء وقول الله لهم لم تعديتم وعصيتم وأبيتم وقد أرخيت لكم الطول وفسحت لكم المهل وأرسلت الرسل وأوضحت المحجة لئلا يكون للناس على الله حجة ، وأحاط بذلك كله ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب ايثارهم واختيارهم واقتدارهم فهو مصاب فى عقله أو مستقر على تقليده

مذهب امام الحرمين

مصمم على جهله ففى المصير الى أنه لا أثر لقدرة العبد فى فعله قطع طلبات الشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون ، فان زعم من لم يوفق لمنهج الرشاد انه لا أثر لقدرة العبد فى مقدوره أصلا واذا طولب بمتعلق طلب الله بفعل العبد تحريما وفرضا ذهب فى الجواب طولا وعرضا وقال : لله أن يفعل مايشاء ، ولا يتعرض المتعرضون (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) قيل له : ليس لما جئت به حاصل كلمة حق أريد بها باطل نعم يفعل الله مايشاء ويحكم ما يريد ولكن يتقدس عن الخلف ونقيض الصدق ، وقد فهمنا بضرورات المعقول من الشرع المنقول انه عزت قدرته طالب عباده بما أخبر انهم ممكنون من الوفاء به فلم يكلفهم الا مبلغ الطاقة والوسع فى موارد الشرع ، ومن زعم انه لا أثر للقدرة الحادثة فى مقدورها كما لا أثر للعلم فى معلومه فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يثبت فى نفسه ألوانا وادراكات وهذا خروج عن حد الاعتدال الى التزام الباطل والمحال ، وفيه ابطال الشرائع ورد ماجاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام ، فاذا لزم المصير الى القول بأن العبد خالق أعماله فانه فيه الخروج عما درج عليه السلف الائمة واقتحام ورطات الضلال ولا سبيل الى الوقوع فى أن فعل العبد بقدرته الحادثة والقدرة القديمة فان الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادرين اذ الواحد لا ينقسم فان وقع بقدرة الله استقل بها ويسقط أثر القدرة الحادثة ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله فان الفعل الواحد لا بعض له وهذه مهواة لا يسلم من غوائلها الا مرشد موفق اذ المرء بين أن يدعى الاستبداد وبين أن يخرج نفسه عن كونه مطالبا بالشرائع وفيه ابطال دعوة المرسلين ، وبين أن يثبت نفسه شريكا لله فى ايجاد الفعل الواحد وهذه الاقسام بجملتها باطلة ولا ينجى من هذا الملتطم ذكر اسم محض ولقب مجرد من غير تحصيل معنى وذلك أن قائلا لو قال ان العبد يكتسب وأثر قدرته الاكتساب والرب تعالى مخترع خالق لما العبد مكتسب له . قيل له فما الكسب ؟ وما معناه ؟ وأديرت الاقسام المذكورة على هذا القائل فلا يجد عنه مهربا . ثم قال -يعنى امام الحرمين- فنقول : قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع والفعل المقدور

بالقدرة الحادثة واقع بها قطعا لكنه يضاف الى الله سبحانه تقديرا وخلقا فانه وقع بفعل الله وهو القدرة وليست القدرة فعلا للعبد وانما هى صفة له وهى ملك له تعالى وخلق له فاذا كان موقع الفعل خلقا لله فالواقع به مضاف خلقا الى الله تعالى وتقديرا وقد ملك الله العبد اختيارا يصرف به القدرة فاذا أوقع بالقدرة شيئا آل الواقع الى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله • ولو اهتدت الى هذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف ولكنهم أدعوا استبدادا بالاختراع وانفرادا بالخلق والابتداع فضلوا وأضلوا (قال) ونبين تميزنا عنهم بتفريع المذهبين فانا لما أضفنا فعل العبد الى تقدير الاله قلنا أحدث الله القدرة فى العبد على أقدار أحاط بها علمه وهيأ أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد أن يفعل فأحدث فيه دواعى مستحسنة وخيرة وارادة وعلم أن الافعال ستقع على قدر معلوم بالقدرة التى اخترعها للعبد على ما علم وأراد فاختيارهم واتصافهم بالاقدار والقدرة خلق الله ابتداء ومقدورها مضاف اليه مشيئة وعلما وقضاء وخلقا وفعلا من حيث انه نتيجة ما انفرد بخلقه وهو القدرة ولو لم يرد وقوع مقدورها لما أقدره عليه ولما هيأ أسباب وقوعه ومن هدى لهذا استمر له الحق المبين فالعبد فاعل مختار مطالب مأمور منهى وفعله تقدير لله مراد له خلق مقضى (قال) ونحن نضرب فى ذلك مثلا شرعيا يستروح اليه الناظر فى ذلك فنقول : العبد لا يملك أن يتصرف فى مال سيده ولو استبد بالتصرف فيه لم ينفذ تصرفه فان أذن له فى بيع ماله فباعه نفذ والبيع فى التحقيق معزو الى السيـــــد من حيث أن ســـــببه اذنه ولولا اذنه لم ينفذ التصرف ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى ويوبخ على المخالفة ويعاقب فهذا والله الحق الذى لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن رعاه حقّ رعايته (وأما الفرقة الضالة) فانهم اعتقدوا انفراد العبد بالخلق ثم صاروا اذ أنه (١) عصى فقد انفرد بخلقه فعله والرب كاره • فكان العبد على هذا الرأى الفاسد مزاحما لربه فى التدبير موقعا ما أراد ايقاعه شاء الرب أو كره ؟• الى هنا كلام امام الحرمين فى النظامية بلفظه فيما نقله عنه كذلك الامام المحقق

---

(١) كذا ، والظاهر « صاروا الى أنه اذا » •

ابن القيم فى شفاء العليل ونقله العلامه ابراهيم الكورانى الأشعرى فى شرح منظومة شيخه القشاشى • ولا يخفى على من نظر فى كلامه تصريحه فى غير موضع بأن العبد له تأثير فى فعله بالاختيار ومراده ان العبد ليس مستقلا فى ايقاع أفعاله بمجرد مشيئته وان لم توافق مشيئة الحق بل انما تؤثر قدرته اذا شاء الله ذلك ومكنه منه وهو المعبر عنه بالاذن • قال الكورانى : اختار هذا شيخنا وألف فيه سابقا رسالة سماها الانتصار لامام الحرمين فيما شنع فيه عليه بعض النظار • ثم اختصرها وزاد فيها نقولا وقف عليها فيما بعد وسماه اختصار الانتصار • ثم وقفنا على كتاب شفاء العليل لابن القيم المنقول فيه كلام امام الحرمين فى النظامية فأعجبه ذلك وأمر بالحاقه بآخر اختصار الانتصار ليعلم الواقف عليه أن النقل عنه بالتأثير بالاذن صحيح خلافا لمن أنكر ثبوته عنه من المتأخرين • قال الكورانى : وقال شيخنا فى شرح المواهب اللدنية على قوله تعالى (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) من غزوة بدر واعتقاد جماعة أن المراد بالآية سلب فعل النبى صلى الله عليه وسلم عنه واضافته الى الله وجعلهم ذلك أصلا فى الجبر وابطال نسبة الافعال الى العباد ـ فبسط الكلام فى اثبات الكسب على طريقة امام الحرمين وتأييده بدلائل الكتاب والسنة الى أن نقل عنه كلامه المذكور فى النظامية ثم قال وفى شفاء العليل قال الأشعرى رحمه الله وابن الباقلانى بالقدرة الحادثة هو كون الفعل كسبا دون كونه موجودا أو محدثا فكونه كسبا وصف للوجود بمثابة كونه معلوما ـ انتهى ـ وفهموا من ذلك أن لا تأثير لقدرة العبد ـ يعنى عند الاشعرى ـ فى مقدوره كما لا تأثير للعلم فى معلومه فقالوا فى قدرة العبد انها مصاحبة غير مؤثرة قصدا الى التوسط • قال وتفسير كلام الاشعرى بهذا ميل عن التوسط الذى هو الحق وانما التوسط المحصل للكسب النافى لطرفى الافراط والتفريط من الاستقلال والجبر هو القول بأن لقدرة العبد تأثيرا (فى مقدوره ـ ١) ولكن باذن الله لاعلى الاستقلال فاللائق أن يفسر كلام الاشعرى بما يتنزل على هذا التوسط ، وكلامه قابل للتأويل لانه ليس

---

(١) من مخ

نصا فى عدم التأثير فان أوله يدل على أن الكسب واقع بالقدرة الحادثة والوقوع فرع التأثير ، نعم آخر كلامه يعطى أن لا تأثير لها حيث شبهه بتعلق العلم بالمعلوم ، على أن الاشعرى نص فى عامة كتبه على مايدل على التأثير على ما نقله عنه صاحب شفاء العليل ، ثم حط القشاشى كلامه على أن الكسب عند الاشعرى تحصيل العبد بقدرته المؤثرة باذن الله ما تعلقت به مشيئته الموافقة لمشيئة الله وتقرير كلامه على هذا الوجه موافق لما قال امام الحرمين من التوسط الذى يتحصل به مؤدى الامر والنهى من المكلف بلا تكلف . قال الكورانى : ثم رأيت من نصوص الشيخ الاشعــــرى رحمه الله فى كتابه الابانة الذى هو آخر تصانيفه كما ذكره الامام شيخ الاسلام ابن تيمية وهو أى كتاب الابانة المعول عليه فى المعتقد من بين كتبه كما دل عليه كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أنه أى الاشعرى انما نفى الاستقلال لا أصل التأثير باذن الله وتمكينه . وحينئذ يكون امامالحرمين موافقا للأشعرى فى التحقيق المعتمد عنده فى الابانة . ثم قال الكورانى : وهذا قول أبى اسحاق الاسفراينى قال وهو الموافق لظاهر الكتاب والسنة قال وقول أبى اسحاق الاسفراينى وامام الحرمين هو الدى اختاره حجه الاسلام الغزالى فانه قال فى كتاب الشكر من الاحياء : ولا قادر الا الملك الجبار . وقال فى جواهر القرآن فى باب المحبة : لا قدر ولا قدرة ولا علم الا للواحد الحق وانما لغيره القدرة التى أعطاه الخ . وقال فى الاحياء : وما هو قادر عليه ــ يعنى الانسان ــ من نفسه أو غيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وأسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه . قال الكورانى فهو قائل ان للعبد قدرة مؤثرة بتمكين الله لا مستقلا ، وهذا التمكين هو المعبر عنه بالاذن فى قوله تعالى (وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله) انتهى ملخصا . وانما ذكرت لك أقاويل هؤلاء مع أن عمدة المعتقد عندنا الغير المنتقد فى **عقدنا مذهب السلف المقرر على الوجه المرضى المحرر لتعلم أن محققى الاشاعرة لهم موافقة على حقيقة مذهب السلف والاغضاء عما ينمقه الخلف وبالله التوفيق**

ثم اشار فى النظم الى مسئلة عظيمة مبنية على أن أفعال البارى لا تعلل فقال :

لله تعالى تعذيب جميع خلقه - والكلام فى ذلك

((وجاز للمولى يعذب الورى من غير ماذنب ولاجرم جرى(١)))
((فكل ما منه تعالى يجمل لانه عن فعله لا يسئل))

(١) فى تعليق على مخ كأنه من كلام الشيخ عبد الله بابطين رحمه الله ما لفظه : « قول الناظم : وجاز للمولى تعذيب الورى من غير ما ذنب ولا جرم جرى . اذ كل ما منه يجمل . لو ترك ذلك لكان أولى لأن ذلك مخالف لما عليه محققو اهل السنه ولما دلت عنيه ظواهر الكتاب والسنة موافق لما عليه الاشعرية من أن لله سبحانه أن يعذب المطيع ويثيب العاصى وان ذلك بالنسبه اليه سواء قال شيخ الاسلام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله لما انجر كلامه على حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى انى حرمت الظلم على نفسى : أما قوله انى حرمت الظلم على نفسى ففيه مسئلتان كبيرتان كل منهما ذات شعب وفروع احداهما فى الظلم الذى حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله : (وما ظلمناهم) وقوله : (ولا يظلم ربك أحدا) وقوله : (وما أنا بظلام للعبيد) وقوله : (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) وقوله : (ولا يظلمون فتيلا) ونفى ارادته بقوله : (وما الله يريد ظلما للعباد) وقوله : (وما الله يريد ظلما للعالمين) ونفى خوف العباد له بقوله : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) فان الناس تنازعوا فى معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخير الامور أوسطها فذهب المكذبون بالقدر القائلون ان الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون الا ما أمر بأن يكون من المعتزلة وغيرهم الى ان الظلم منه تعالى هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه فى الافعال بأفعال عباده حتى كانوا هم ممثلة الافعال وضربوا له الامثال فأوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وقالوا عن هذا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الاعانة كان ظالما له فالتزموا أنه لا يقدر أن يهدى ضالا كما قالوا انه لا يقدر ان يضل مهتديا - الى أن قال : وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه افهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر وقالوا ليس الظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الامور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا أن يقال انه تارك له باختياره ومشيئته وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد فى مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما والا فمهما قدر فى الذهن وكان وجوده ممكنا والله قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله . فتلقى هذا القول عن هؤلاء من أهل الاثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ، وفسروا الحديث بما ينبنى على هذا القول - الى أن قال : وبالجملة فقوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره

((فان يثب فانه من فضـــــله   وان يعذب فبمحض عـــدله))
((فلم يجب عليه فعل الاصلــح   ولا الصلاح ويح من لم يفلــح))
((فكل من شاء هداه يهتـــدى   وأن يرد ضلال عبد يعتـــد))

ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا لا يظلم شيئا ممتنعا غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنــــع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فان هذا اذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا انه غير مقدور عليه ولو أراده كخلق المثل فكيف يعقل وجوده فضلا عن أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ، ثم أى فائدة في نفى خوف هذا ؟ وقد علم من سياق الكلام ان المقصود بيان ان هذا العامل المحسن يجزى على حسـناته بلا ظلم ولا هضم فعلم أن الظلم المنفى يتعلق بالجزاء كما ذكره أهــــل التفسير – الى أن قال : فهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل فى الجزاء وانه لا يبخس عمله ، وكذلك قوله فيمن عاقبهم : (وما ظلمناهم ولــكن ظلموا أنفسهم) وقوله : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) بين أن عقاب المجرمين كان عدلا لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب ،وهذا يبين أن من الظلم عقوبة من لم يذنب ، والحديث الذى فى السنن : لـــو عذب الله أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ، يبين ان التعذيب لو وقع لــكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وكذلك قوله تعالى : (وما الله يريد ظلما للعباد) يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وان الله لا يريد الظلم ، والامر الذى لا تمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم ارادته وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادرا عليهــا فعلم ان الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وانه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « انى حرمت الظلم على نفسى » فان التحريم هو المنع ، وهـــذا لا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يقال حرمت المحالات وأكثر ما يقال فى تأويل ذلك ما يكون معناه انى أخبرت عن نفسى بأن ما لا يكون مقدورا لا يكون منى وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وانه يجب تنزيه الله ورسوله عن ارادة مثل هذا المعنى الذى لا يليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وايضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا ما يستفيده المستمع فعلم ان الذى حرمه على نفسه أمر مقدور عليه لكنه لا يفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنــــه . انتهى ملخصا . وذكر ابن القيم رحمه الله نحو كلام شيخه الى أن قال : فعلم انه سبحانه منزه عن فعل السوء مقدس عنه كما انه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم وذلك كقوله سبحانه : (أفحسبتم انمــا خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) فانه سبحانه نزه نفسه عن خلــق الخلق عبثا وأنكر على من حسب ذلك وهذا فعل ، وقـــوله : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) وقوله : (أم نجعـــل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) وهذا انكار منه سبحانه على من جوز عليه ان يسوى بين هذا أو هذا ، وكذلك قوله : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهـــم كالذين

((وجازللمولى)) جل وعلا قال فى النهاية المولى اسم يقع على جماعة كثيرة فهو الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع

آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساءما يحكمون) انكار منه سبحانه على من حسب أن يفعل هذا وأخبار بأن هذا الحكم سيىء قبيح وهو مما ينزه الرب عنه ، والحديث الذى روى فى السنن : لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل رأضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . فهذا يدل على قدر نعم الله على عباده وعدم قيامهم بحقوق نعمه عليهم اما عجزا واما جهلا واما تفريطا واما تقصيرا فى المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه فلو وضع سبحانه عدله على أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالما لهم فلا يسع الخلائق الا رحمته وعفوه ولا يبلغ عمل أحدهم ان ينجو به من النار أو يدخل به الجنة كما قال أطوع الناس لربه وأعظمهم عملا وأشدهم تعظيما لربه واجلالا له : « لن ينجى أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمة منهوفضل» فان لم يتسع ذهنك لهذا فانظر الى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن بين شكرها وكفرها فحينئذ تعلم ان الله سبحانه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » .

وفى تعليق آخر : « قوله وجاز للمولى الخ هذا القول مبنى على نفى الحكمة فى أفعال الله وشرعه ولسنا بصدد التعرض لرد هذا القول لظهور فساده عقلا وشرعا وفطرة وقد تكاثرت النصوص وتنوعت فى ابطاله ولله الحمد ولكننا نشير اشارة موجزة الى رد هذا الفرع الذى تفرع منه وهو القول بجواز تعذيب الخلق بلا ذنب فنقول وبالله الثقة استدل ارباب هذا القول بقوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وبقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . والجواب عن الآية انها سيقت فى بيان الرد على من اتخذ مع الله شريكا وانهم كيف يتخذون آلهة مربوبة مسئولة مع البارى الرب الفعال لما يريد الذى لا يسأل عن فعله لان له التصرف المطلق فوق كل تصرف ولا أحد يعترض عليه أو يناقشه فالآية فيها ذكر ما يفعله وانه لا يسأل عنه ونحن نقول ان الله لا يفعل تعذيب أحد بلا ذنب لا عجزا منه جل وعلا بل عدلا وحكمة ورحمة كما شهدت بذلك نصوص الكتاب والسنة الدالة على كرامة الطائعين وهو وعد صادق كريم قادر غنى . وأما الحديث فلا دليل فيه لما قاله رحمه الله أيضا فان للحديث معنيين لا يحتمل سواهما ، الاول ان الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لم يكن ذلك منه على وجه الظلم أبدا وانما يكون ذلك حيث استحقوا التعذيب فعملوا أسباب العذاب وحينئذ يكون تعذيبهم غير ظلم فيكون مطابقا للادلة الدالة على أن الله لا يعذب من يعذب الا بذنب وليس على الله بواجب أن يمنع أحدا من تعاطى اسباب العذاب فانما ذلك تفضل منه من اقتضت حكمته أن يهديه من عليه تفضلا بالهداية ومن لم يقدر له الهداية فليس الله بظالم له فان الهداية فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وأما المعنى الثانى فهو ان أعمالهم الصالحة لا تفى بانقاذهم من العذاب فان من نوقش

والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتق والمنعم عليه وأكثرها قد جاءت في الحديث فيضاف كل واحد الى مايقتضيه الحديث الوارد فيه والمراد به ها رب العالمين وانما اختير هنا المولى دون غيره من

الحساب عذب وفى الحديث لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ، ولذلك كان فى آخر الحديث المشار اليه ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم فان أعمالهم اذا قوبلت بالنعم تلاشت وذهبت بل هى فى الحقيقة نعم تحتاج الى شكر كما قيل :

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة   على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله ، وان طالت الايام واتصل العمر .

لا يحتمل الحديث على وجه يصح ويطابق النصوص الاخرى الا هذين المعنيين وأما ما يحتمله من سواهما فتبطله النصوص المتوافرة على أن الله لا يظلم من عمل صالحا بنقص شيء من حسناته كقوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » ثم قال : « وما ربك بظلام للعبيد » . « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلايخاف ظلما ولا هضما » أى لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئا غيره ولا يهضم فينقص مما عمله وأمثال ذلك من الآيات كثيرة ولو لم يكن من ذلك الا وعد الله الذى لا يخلف لمن عمل صالحا أن يوفيه أجره كاملا ومن أصدق من الله قيلا ، ومن المستحيل أيضا على حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يجعل من كان دائبا فى مرضاته مسارعا فى طاعته لا يجد سبيلا يوصل اليه الا سلكه ولا بابا يدخل اليه منه الا ولجه لا يليق بحكمة الله ورحمته أن يجعله كمن هجر طاعته ودأب فى معصيته يسارع فيها مسارعة الماء الى منحدره ويلازمها ملازمة الظل للجسم كل واحد منهما فى النار خالدا فيها مخلدا هذا لا يليق أبدا وأدلة القرآن الصريحة تبطله قال تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » الآية . وقال جل ذكره : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساءما كانوا يحكمون » . « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » الى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الله تعالى لم يسو ولن يسوى بين أوليائه وأعدائه أبدا ، ولا شك أن القول بجواز تعذيب من لم يذنب يلزم عليه من اللوازم الباطلة ما ينزه الله عنه كما هو ظاهر معلوم ، ولعل أصحاب هذا القول يرون أن تعذيب من لم يذنب جائز عقلا وان كان ممتنعا سمعا فان الله قد أخبر فى آيات كثيرة بعدم تعذيب الطائعين بل باثابتهم والله أعلم » .

وفى تنبيه ابن سحمان ص ٦٣ فى الكلام على هذا الموضع : « اعلم وفقك الله أن هذا الكلام الذى قاله الناظم ، والشارح يخالف ما قاله المحققون من أهل العلم ، بل هو من كلام أهل البدع الذين قابلوا باطلا بباطل المخالفين لائمة السلف رضوان الله تعالى عليهم . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه بعد كلام له سبق : وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل فى الجزاء وانه لا يبخس عاملا عمله ، وكذلك قوله فيمن

سائر الاسماء لمناسبة المقام ((يعذب الورى)) كفتى الخلق والمراد به هنا ذوو العقول(أو) الحيوان من كل جسم نامٍمتحرك بالارادةأو على عمومه وارادة الاول أولى بدليل قوله ((من غير ما)) زائدة لمزيد تأكيد النفى

عاقبهم : « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » . بين ان عقاب المجرمين عدل لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذى فى السنن : « لو عذب الله أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم » يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين ان من الظلم المنفى عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله : « وقال الذى آمن يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما بل لاستحقاقهم ذلك وان الله لا يريد الظلم . والامر الذى لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم ارادته ، وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادرا عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « انى حرمت الظلم على نفسى » وان التحريم هو المنع . وهذا لا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يصلح أن يقال حرمت على نفسى أو منعت نفسى من خلق مثلى أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات وأكثر ما يقال فى تأويل ذلك ما يكون معناه انى أخبرت عن نفسى بأن ما لا يكون مقدورا لا يكون منى ، وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وانه يجب تنزيه الله ورسوله عن ارادة مثل هذا المعنى الذى لا يليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وايضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا ما يستفيده المستمع فعلم ان الذى حرمه على نفسه هو أمر مقدور عليه لكنه لا يفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنه ويبين أن ما قاله الناس فى حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم : الظلم وضع الشىء فى غير موضعه . كقولهم : من أشبه أباه فما ظلم ، أى فما وضع الشبه غير موضعه . ومعلوم أن الله سبحانه حكم عدل لا يضع الاشياء الا مواضعها ، ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعا لذاته بل هو ممكن لكنه لا يفعله لانه لا يريده بل يكرهه ويبغضه اذ قد حرمه على نفسه .

وكذلك من قال : الظلم اضرار غير مستحق ، فان الله لا يعاقب أحدا بغير حق . وكذلك من قال : هو نقص الحق ، وذكر أن أصله النقص كقوله : « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » واما من قال : هو التصرف فى ملك الغير ، فهذا ليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الانسان فى ملك غيره بحق ولا يكون ظالما ، وقد يتصرف فى ملكه بغير حق فيكون ظالما . وظلم العبد نفسه كثير فى القرآن . وكذلك من قال : فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك. أتسلم صحة مثل هذا الكلام ؟ فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل

أى من غير ((ذنب)) أى اثم ((ولاجرم)) وهو بمعنى ماقبله قال فى النهاية الجرم الذنب وقد جرم واجترم وتجرم انتهى • وفى القاموس الجرم بالضم الذنب كالجريمة والجمع اجرام وجروم وانما حسن عطفه عليه

خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم • وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الامور التى نبهنا عليها فيه ، وانما نشير الى النكت •

وبهذا يتبين القول المتوسط وهو : ان الظلم الذى حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ويعاقب البرىء على مالم يفعل من السيئات ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الافعال التى ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها ، وانما استحق الحمد والثناء لانه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه • وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب ، وعلى قول الفريق الثانى ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا ، والكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها يدل على خلاف ذلك ــ الى آخر كلامه رحمه الله تعالى فمن أراد لوقوف عليه فهو فى المجلد الاول من الفتاوى فى صفحة اثنتين وأربعين وثلاث مئة • اذا تحققت هذا وتبين لك من شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من عباده بغير ذنب لانه نزه نفسه عن ذلك فلا يريده بل يكرهه ويبغضه لانه حرمه على نفسه وان كان قادرا عليه فتبين بهذا خطأ الناظم والشارح حيث توهما أن ذلك جائز بغير ذنب ولا جرم استحق به العقاب والعذاب فان هذا هو حقيقة قول الفريق الثانى الذين قابلوا باطلا بباطل حيث قالوا ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا •

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى شفاء العليل فى مناظرة جرت بين سنى وجبرى ، قال السنى فى جواب الجبرى ، وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب من لم يعصه طرفة عين فان حكمته ورحمته لا تمنع ذلك بل هو جائز عليه ولولا خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه ، وقلت ان تكليفه عباده بما كلفهم به بمنزلة تكليف الاعمى للكتابة والزمن للطيران ، فبغضب الرب الى من دعوته الى هذا الاعتقاد ونفرته عنه وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها • وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر لا خفاء به فان مبنى الشرائع على الامر والنهى أمر الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور ونهيه عن فعله لا فعل المنهى عبث ظاهر فان متعلق الامر والنهى فعل العبد وطاعته ومعصيته فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعته أو معصيته واذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيمة من النعيم والعذاب أحكاما جارية عليهم لمحض المشيئة والقدرة لا انها باسباب طاعتهم ومعاصيهم • بل ها هنا أمر آخر وهو ان الجبر مناف للخلق كما هو مناف للامر فان الله سبحانه له الخلق والامر وما قامت السموات الا بعدله فالخلق قام بعدله وبعدله ظهر كما أن الامر بعدله وبعدله وجد ، فالعدل سبب وجود الخلق والامر وغايته فهو

فى هذا المحل لقصد البيان والايضاح والتعريف لشبهه بالخطابة ((جرى)) من العد ولا صدر عنه ولا تمادى عليه فيجوز عليه تعالى عقلا أن يثيب العاصى وأن يعاقب الطائع لولا ما أخبر به من اثابة المطيع فلا يجب عليه واحد من الامرين ((فكل ما)) أى شىء ((منه تعالى)) من اثابة وعقوبة وخلق خير وشر ((يجمل)) أى يحسن قال فى القاموس : الجمال الحسن فى الخلق والخلق يقال جمل ككرم فهو جميل كامير وغراب

علية الفاعلية الغائبة والجبر لا يجامع العدل ولا يجامع الشرع والتوحيد انتهى .

والمقصود من هذا انه نفى تجويز عذاب الله عباده على ما لم يفعلوه من الذنوب والجرائم وقد نزه الله نفسه عن ذلك لانه لا يريده بل يكرهه ويبغضه والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال أيضا رحمه الله في عدة الصابرين على قوله سبحانه : « ما يفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب ان شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى اضاعة سعيهم باطلا فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسىء وفى هذا رد لقول من زعم انه يكلف عبده ما لا يطيقه ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله وذلك من لوازم هذه الصفة فهو منزه عن خلاف ذلك كما تنزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافى كماله وغناه وحمده . انتهى .

وأما قول الشارح واستدل بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « ان تعذبهم فانهم عبادك » فأقول هذه الآية لا تدل على ما توهمه الشارح من أنه جائز لله أن يعذب عباده من غير ما ذنب ولا جرم استحقوا به بل الآية تدل على خلافه كما تقدم بيانه مبينا مفصلا .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى مدارج السالكين على هذه الآية فى صفحة مائتين واحدى عشر : وهذا من أبلغ الادب مع الله فى مثل هذا المقام أى شأن السيد رحمة عبيده والاحسان اليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فاذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا انهم عبيد سوء من أنجس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم يعذبهم لان قربة العبودية تستدعى احسان السيد الى عبده ورحمته له فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الاجودين وأعظم المحسنين احسانا عبيده لولا فرط عتوهم وابائهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب . وقد تقدم قوله : « انك أنت علام الغيوب » أى هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فاذا عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه ، فليس فى هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض الى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدريةوانما هو اقرار واعتراف وثناء عليهبحكمته وعدلهوكمال علمهبحالهم واستحقاقهم للعذاب - الى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

ورمان • وفى النهاية الجمال يقع على الصور والمعانى ومنه ان الله تعالى جميل يحب الجمال أي حسن الافعال كامل الاوصاف فكل مايصدر عن البارى جل شأنه من الامر والخلق بالنسبة اليه حسن جميل حتى اثابة العاصى وعقوبة المطيع ((لأنه)) تعالى ((عن فعله)) الذى يصدر عنه ((لايسئل)) كما قال تعالى (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) ((فان يثب)) عباده المطيعين وخلقه المتقين والثواب الجزاء ومنه حديث ابن التيهان «اثيبوا أخاكم » أى جازوه على صنيعه يقال اثابه يثيبه اثابة والاسم الثواب ويكون فى الخير والشر الا أنه فى الخير أخص وأكثر استعمالا وهو المراد هنا ((فانه)) أى اثابته بالخير والجزاء الحسن ((من فضله)) تعالى الزائد وكرمه الجزيل لان اتقى الناس واعبدهم لا تعادل عبادته وتقواه نعمة ايجاده من العدم الى الوجود فضلا عن سائر نعمه تعالى على عبده من البصر والسمع وغيرهما ، والفضل العطاء عن اختيار لا عن ايجاب كما تزعمه الحكماء ولا عن وجوب كما تقوله المعتزلة ((وأن يعذب)) عباده ولو المطيعين منهم ((فبمحض)) أى خالص ((عدله)) تعالى والمحض بالحاء المهملة والضاد المعجمة فى اللغة اللبن الخالص غير مشوب بشىء ومنه الحديث «بارك لهم فى محضها ومخضها» أى الخالص والمخوض - يعنى انه لو عذبهم لعذبهم بعدله الخالص من شائبة الظلم لانه تعالى تصرف فى ملكه والعدل وضع الشىء فى محله من غير اعتراض على الفاعل عكس الظلم الذى هو وضع الشىء فى غير محله مع الاعتراض على الفاعل فطاعات العبد وان كثرت لا تفى بشكر بعض ما أنعم الله به عليه ولا بنعمة الاقدار على الطاعة والتوفيق لها فكيف يتصور استحقاقه عوضا عليها واستدل لهذا بقوله (ان تعذبهم فانهم عبادك) يعنى لم تتصرف فى غير ملكك بل ان عذبت عذبت من تملك وبقوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم : ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم • وبقوله صلى الله عليه وسلم فى دعاء الهم والحزن : اللهم انى عبدك ابن عبدك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك • وبما روى عن اياس بن معاوية قال : ما ناظرت بعقلى كله

احدا الا القدرية ، قلت لهم ما الظلم ؟ قالوا أن تأخذ ماليس لك وان تتصرف فيما ليس لك . قلت فلله كل شيء . وتقدم هـــذا فى شرح قوله * لكنه لا يخلق الخلق سدى * فليراجع فان الامام المحقق ابن القيم كشيخ الاسلام وجمع لم يرتضوا بهذا ونقبوا عليه وبرهنوا وأثبتوا الحكمة والعلة فى أفعاله تعالى على الوجه الذى شرحناه فيما تقـــدم . ومذهب الاشاعرة ان أفعال البارى تعالى ليست معللة بالاغراض والمصالح .والغرض ما لأجله يصدو الفعل عن الفاعل ويقولون أن الله تعالى يفعل هذهالحوادث عند الاسباب المقارنة لها وان ذلك عادة محضة ويجعلون اللام فى أفعاله لام العاقبة لا لام التعليل كما هو مقرر محرر . ومذهب الماتريدية امتناع خلق فعله عن المصلحة . قال السعد : والحق أن تعليل بعض الافعال لاسيما الاحكام الشرعية بالحكم والمصالح ظاهر . ومذهب سلف الائمة على ما حكاه شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح الاصفهانية وانه القولالوسط الجامع للحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول وعليه أشهـــر الطوائف انتسابا الى السنة هم مثبتة القدر الذين يقرون بمااتفق عليه سلف الامة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه وانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وانه خالق كل شيء بقدرته ومشيئته ويثبتون لله تعالى حكمة يفعل لاجلها قائمة به تعالى لا منفصلة عنه ويثبتون له رحمة ومحبة ورضا وسخطا ويثبتون للحوادث أســـبابا تقتضى التخصـــيص ويثبتون ما خلقه الله من الاسباب والموانع ، قال وهذا هو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول وهو الذى يجمع مافى الاقوال المختلفة من الصواب ويجتنب ما فيها من الخطأ ، قال فهذه طريقة سلف الامة وأئمة الدين وهى التى يدلعليها الكتاب والسنةواجماع السلففان اللهتعالى بين فى كتابهالحق وأدلته بما ضربه فيه من الامثال وسنه من البراهين العقلية . انتهى . قال بعض متكلمى الاشاعرة ان الاشاعرة يقولون بالحكمة والمصلحة فى نفس الامر لانهم يمنعون العبث فى أفعاله تعالى كما يمنعون الغرض ولذلك كان التعبدى من الاحكام ما لا يطلع على حكمته لا ما لا حكمة له على أن بعضهم نقل عن الاشاعرة انهم انما يمنعون وجوب التعليل لا انهم يحيلونه كما صرح به الامام ابن عقيل الحنبلى واستغربه بعض الاشاعرة وباللهالتوفيق

الكلام فى الصلاح والاصلح

فاذا علمت ذلك وفهمته ((فلم يجب عليه)) سبحانه وتعالى ((فعل الاصلح)) أى الانفع ((ولا)) يجب عليه أيضا فعل ((الصلاح)) لعباده خلافا للمعتزلة فمعتزلة البصرة قالوا بوجوب الاصلح فى الدين وقالوا تركه بخل وسفه يجب تنزيه البارى عنه ومنهم الجبائى ، وذهب معتزلة بغداد الى وجوب الاصلح فى الدين والدنيا معا لكن بمعني الاوفق فى الحكمة والتدبير • وهذه المسئلة مترجمة فى كتب القوم بمسئلة وجوب الصلاح والاصلح وحاصلها ان المعتزلة قالوا بوجوب ما هو الاصلح للعباد عليه تعالى • وتفصيل ذلك انهم اتفقوا بعد القول بوجوب الاصلح للعباد عليه تعالى وعلى وجوب الاقدار والتمكين وأقصى ما يمكن فى معلوم الله تعالى مما يؤمن عنده الكافر ويطيع العاصى وانه تعالى فعل بكل أحد غاية مقدوره من الاصلح ، قالوا وليس فى مقدوره — تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا — لطف لو فعل بالكفار لآمنوا جميعا والا لكان تركه بخلا وسفها • ثم اختلفوا فيما يجب مراعاة الاصلح بالنسبة اليه كما نبهنا عليه من جهة الدين والدنيا أو الدين فقط على ما مر ، ثم اختلفوا فى تفسير الاصلح هل هو الاوفق فى الحكمة والتدبير أو الانفع كما تقدم آنفا، ثم اختلفت معتزلة البصرة فمنهم من اعتبر الانفع فى علم الله تعالى فأوجب ما علم الله نفعيته ، ومن هؤلاء الجبائى ، ومنهم من لم يعتبر ذلك فزعم أن من علم الله منه الكفر على تقدير تكليفه اياه يجب تعريضه للثواب بأن يبقيه الى أن يبلغ عاقلا قادرا على اكتساب الخيرات ، والبغدادية وان لم يلزمهم فيها شىء لكن الالزام علهم فى تخليد الفساق فى النار أشد قبحا وشناعة ، وتمسكوا على ذلك بقولهم نحن نقطع بأن الحكيم اذا أمر بطاعته أحدا وقدر على أن يعطى المأمور ما يصل به الى الطاعة من غير تضرر بذلك ثم لم يفعل كان مذموما عند العقلاء معدودا فى زمرة البخلاء ، وكذلك من دعا عدوه الى الموالاة والرجوع الى الطاعة والمصافاة لا يجوز أن يعامله من الغلظ واللين الا بما هو أنجع فى حصول المراد وادعى الى ترك العناد • قالوا : وأيضا من اتخذ ضيافة لرجل واستدعاه الى الحضور وعلم انه لو تلقاه ببشر وطلاقة وجه لدخل وأكل والا لم يدخل فالواجب عليه عند العقلاء البشر والطلاقة والملاطفة لا اضدادها • وأجلبوا وأجنبوا من هذا التمويه الذى لا يصدر

الا من ضال سفيه ولهذا قال ((ويح)) هذه كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع فى هلكة لا يستحقها وهى منصوبة على المصدر وقد ترفع وتضاف كما هنا ، وضدها ويل فانها تقال للحزن والهلاك والمشقة من العذاب وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل ، وقيل وى كلمة مفردة ولامة مفردة وهى كلمة تفجع وتعجب • فان قلت كان المناسب هنا الاتيان بكلمة ويل لاقتضاء المقام • قلت بل الانسب كلمة ويح لانه يتوجع ويترحم لاخوانه من الملة الاسلامية كيف استزلهم الشيطان وتلاعب بهم تلاعب الصبيان بالكرة والصولجان مع ظهور أدلة القرآن والسنة لمذهب أهل السنة ، فعلى عقولهم الدمار وعلى فهو مهم البوار ((من)) أى شخص بالغ عاقل ((لم يفلح)) أى لم يفز بمتابعة الحق وموافقة الشرعة ورفض الباطل ومجانبة البدعة ، والفلاح من الكلمات الجوامع وهو عبارة عن أربعة أشياء بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل قالوا فلا كلمة فى اللغة أجمع للخيرات منها • ولمذهب المعتزلة لوازم فاسدة تدل على فساده منها أن القربات من النوافل صلاح فلو كان الصلاح واجبا وجبت وجوب الفرائض • ومنها أن خلود أهل النار يجب أن يكون صلاحا لهم دون أن يردوا فيعتبوا ربهم ويتوبوا اليه ، ولا ينفعكم اعتذاركم عن هذا بأنهم لو ردوا لعادوا فان هذا حق ولكن لو أماتهم وأعدمهم فقطع عتابهم كان أصلح لهم ولو غفر لهم وأخرجهم من النار كان أصلح من اماتتهم واعدامهم ولم يتضرر سبحانه بذلك • ومنها أن عدم خلق ابليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه البارى جل شأنه • وأيضا انظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانهم من الآدمى مجرى الدم فى ابشارهم ينافى مذهبهم فكان يلزمهم أن لا يكون شىء من ذلك والواقع خلافه • ومنها ما ألزمه الامام أبو الحسن الاشعرى للجبائى وقد سأله عن ثلاثة أخوة أمات الله أحدهم صغيرا وأحيا الآخرين فاختار أحدهما الايمان والآخر الكفر فرفع الله درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير فى الجنة بعمله فقال أخوه الصغير يا رب لم لا بلغتنى منزلة أخى ؟ فقال انه عاش وعمل عملا استحق به هذه المنزلة • فقال يارب فهلا أحييتنى حتى اعمل مثل عمله فأبلغ منزلته ؟ فقال كان الاصلح لك ان توفيتك صغيرا لانى علمت انك أن

بلغت اخترت الكفر فكان الاصلح فى حقك ان أمتك صغيرا • قال الاشعرى فان قال الثانى يا رب لم لم تمتنى صغيرا لئلا أعصى فلا أدخل النار ، ماذا يقول الرب ؟ فبهت الجبائى وكان الاشعرى على مذهب أبى على الجبائى فترك مذهبه • قال ابن خلكان كان أبو الحسن الاشعرى أولا معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فقام فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة فرقى كرسيا ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وان الله تعالى لا يرى بالابصار وان أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم • قال ابن خلكان : مولد الاشعرى سنة سبعين وقيل ستين ومائتين بالبصرة وتوفى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة ودفن بين الكرخ وباب البصرة • انتهى • قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة فاذا علم الله سبحانه انه لو اخترم العبد قبل البلوغ وكمال العقل لكان ناجيا ولو أمهله وسهل عليه النظر لعند وكفر وجحد فكيف يقال ان الاصلح فى حقه ابقاؤه حتى يبلغ ، قال والمقصود عندكم - يعنى المعتزلة القائلين بالاصلح - بالتكليف الاستصلاح والتفويض بأسنى الدرجات التى لا تنال الا بالاعمال • وأيضا قال القائلون بوجوب الاصلح : الرب تعالى قادر على التفضل بمثل الثواب ابتداء بلا واسطة عمل فأى غرض له فى تعريض العباد للبلوى والمشاق ؟ وكونه تعالى قادرا على ذلك حق ثم كذبوا وافتروا فقالوا الغرض فى التكليف ان استيفاء المستحق حقه أهنأ وألذ من قبول التفضل واحتمال المنة • وهذا كلام أجهل الخلق بالرب تعالى وبحقه وعظمته ومساواة بينه وبين آحاد الناس وهو من أقبح التشبيه وأخبثه تعالى عن ضلالهم وأفكهم علوا كبيرا • وأيضا يلزم القائلين بوجوب الاصلح ن يوجبوا على الله عز وجل أن يميت كل من علم من الاطفال انه لو بلغ لكفر وعاند فان اخترامه هو الاصلح له بلا ريب أو أن يجحدوا علمه سبحانه بما سيكون قبل كونه التزمه سلفهم الخبيث الذين اتفق سلف الامة على تكفيرهم ولا خلاص لهم عن أحد هذين الالزامين الا بالتزام مذهب أهل السنة والجماعة من أن أفعال الله لا تدخل تحت شرائع عقولهم القاصرة ولا تقاس بأفعالهم الخاسرة بل

أفعاله تعالى لا تشبه أفعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ولا ذاته ذواتهم اذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير • وأيضا يلزمهم ان من علم الله تعالى اذا بلغ من الاطفال يختار الايمان والعمل الصالح أن لا يميته طفلا فان الاصلح فى حقه أن يحييه حتى يبلغ ويؤمن ويعمل صالحا فينال بذلك الدرجات العالية ، وهذا مما لا جواب لهم عنه ، وأيضا يلزمهم أن يقولوا ليس فى مقدور الله تعالى لطف لو فعله تعالى بالكفار لآمنوا وقد التزمه المعتزلة القدرية وبنوه على أصلهم الفاسد انه يجب على الله تعالى أن يفعل فى حق كل عبد ما هو الاصلح له فلو كان فى مقدوره ما يؤمن العبد عنده لوجب عليه أن يفعله به ، والقرآن من أوله الى آخره يرد هذا القول ويكذبه ويخبر سبحانه وتعالى انه لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لآمن من فى الارض كلهم جميعا • وأيضا يلزمهم وقد التزموه أن لطفه تعالى ونعمته وتوفيقه بالمؤمن كلطفه بالكافر وان نعمته عليهما سواء لم يخص المؤمن بفضل عن الكافر ، وكفى بالوحى وصريح المعقول رفطرة الله والاعتبار الصحيح واجماع الامة ردا لهذا القول وتكذيبا له • وأيضا ما من أصلح الا وفوقه ما هو أصلح منه والاقتصار على رتبة واحدة كالاقتصار على الصلاح فلا معنى لقولكم يجب مراعاة الاصلح اذ لا نهاية له فلا يمكن فى الفعل رعايته ــ الى غير ذلك مما يلزم القائلين بالصلاح والاصلح فانه تعالى خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا بالفقر وفى الآخرة بعذاب الكفر المخلد المستمر ولا سيما المبتلى فى الدنيا بالاسقام والآلام والمحن والآفات مع الكفر والهفوات وكيف ينهض لهم دليل وخلود الكفار فى النار ليس بأصلح لهم من غير تفصيل

(تنبيــــه)

الكلام فى الحسن والقبح

مذهب القول بالصلاح والاصلح مبنى فيما قاله متكلمو الاشاعرةوغيرهم على قاعدتين احداهما تحسين العقل وتقبيحه فى الاحكام الشرعية ، الثانية استلزام الامر للارادة ، فان قلت قد أسلفت عن اسلافك مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم وغيرهما الميل والاستدلال لاثبات التعليل والحكمة فى الخلق والامر وذلك من أصول القول بالصلاح

والاصلح ثم هنا ابطلت هذا القول وذكرت من لوازمه مالا جواب عنه فما تصنع في هذه اللوازم التى ألزمت بها المعتزلة وما الجواب عنها اذا وجهت اليكم ؟ قلت لا ريب اننا نثبت لله ما أثبته لنفسه وشهدت به الفطرة والعقول من الحكمة في خلقه وأمره فكل ما خلقه وأمر به فله فيه حكمة بالغة وآية قاهرة لاجلها خلقه وأمر به ولكن نقول ان لله في خلقه وأمره كله حكمة ليست مماثلة للمخلوق ولا مشابهة له بل الفرق بين الحكمتين كالفرق بين الفعلين وكالفرق بين الوصفين والذاتين فليس كمثله شيء في وصفه ولا في فعله ولا في حكمة مطلوبه له من فعله بل الفرق بين الخالق والمخلوق في ذلك كله أعظم فرق وأبينه وأوضحه عند العقول والفطر وعلى هذا فجميع ما ألزمت به الفرقة القائلة بالصلاح والاصلح بل واضعاف ماذكر من الالزامات لله فيه حكمة يختص بها لا يشاركه فيها غيره ولأجلها حسن منه ذلك وقبح من المخلوقين لانتفاء تلك الحكمة في حقهم وهذا كما يحسن منه تعالى مدح نفسه والثناء عليها وان قبح من أكثر خلقه ذلك ، ويليق بجلاله الكبرياء والعظمة ويقبح من خلقه تعاطيهما كما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه حكى عن الله تعالى انه قال « الكبرياء ازارى والعظمة ردائى فمن نازعنى واحدا منهما عذبته » وكما يحسن منه اماتة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بأنواع المحن ويقبح ذلك من خلقه ، وهذا أكثر من أن تذكر أمثلته فليس بين الله وبين خلقه جامع يوجب أن يحسن منه ماحسن منهم ويقبح منه ماقبح منهم وانما تتوجه تلك الالزامات على من قاس أفعال الله تعالى بأفعال عباده دون من أثبت له حكمة يختص بها لا تشبه ما للمخلوقين من الحكمة فهو عن تلك الالزامات بمعزل ومنزله منها أبعد منزل ، ونكتة الفرق ان بطلان الصلاح والاصلح لا يستلزم بطلان الحكمة والتعليل كما أن التعليل الذى نثبته غير الذى تثبته المعتزلة كما مر فان المعتزلة أثبتوا لله شريعة عقلية وأوجبوا عليه فيها وحرموا بمقتضى عقولهم فالمعتزلة يوجبون على الله ويحرمون بالقياس على عباده ولا ريب أن هذا من أفسد القياس وأبطله كما نبه عليه وبينه الامام المحقق ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة • وأما زعم المعتزلة استلزام الامر للارادة الكونية فباطل لا يعول عليه وبالله التوفيق

((فكل من)) أى أى آدمى من خلقه ((شاء)) أى الله تعالى ((هداه)) المراد بالهدى هنا التوفيق والالهام وهذه الهداية هى المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهى المذكورة فى قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وفى قوله تعالى (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » وفى قوله تعالى (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) فنفى عنه هذه الهدابة وأثبت له هداية الدعـــوة والبيان فى قوله (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) والمشيئة ترادف الارادة فكل من شاء الله تعالى هدايته من جميع خلقه ((يهتدى)) الهداية المطلوبة فى قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) من النبين والصديقيين والشهداء والصالحين

أنواع الهداية

واعلم أن أنواع الهداية أربعة أحدها الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة فى قوله تعالى (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى أعطى كل شىء صورته التى لا يشتبه فيها بغيره وأعطى كل عضو شكله وهيأته وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه الى ما خلقه له من الاعمال ، وهذه الهداية تعم هداية الحيوان المتحرك بارادته الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهداية الجماد المسخر لما خلق له ، فله هداية تليق به كما ان لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وان اختلفت أنواعها وضروبها وكذلك لكل عضو هداية تليق به فالرجلان للمشى واليدان للبطش والعمل واللسان للكلام والاذن للاستماع والعين لكشف المرئيات وكل عضـــو لما خلق له وهدى الزوجين من كل حيوان للازدواج والتناسل وتربية الولد وهدى الولد الى التقام الثـــدى عند وضعه وطلبه • ومراتب هدايتـــه سبحانه لا يحصيها الا هو فتبارك الله رب العالمين وقد هدى النحل ان تتخـــذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الابنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصى عليها ثم تأوى الى بيوتها وهداها الى طاعة يعسوبها ثم هداها الى بناء البيوت العجيبة الصفة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم •

(النوع الثانى) هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدى الخير والشر وطريقى الهلاك والنجاة وهذه لا تستلزم الهدى التام فانها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينتفى الهدى معها كقوله تعالى (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ومنها قوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)

(الثالث) هداية التوفيق والالهام المستلزمة للاهتداء التى ذكرناها آنفا .

(الرابع) غاية هذه الهداية وهى الهداية الى الجنة والنار اذا سيق أهلهما اليهما قال تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار في جنات النعيم) وقال أهل الجنة فيها (الحمد لله الذى هدانا لهذا) وقال تعالى عن أهل النار (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) وتفاصيل أنواع الهداية وأسبابها ومتعلقاتها كثيرة جدا ذكرها الامام المحقق ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد وقد لخصت لك منه ما لعله يحصل به أصل المقصود والله أعلم (تنبيه) المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم ان الهداية هى الدلالة الموصلة الى المطلوب فان لم تكن موصلة الى المطلوب فليست بهداية عندهم وعند أهل الحق ان الهداية مجرد الدلالة على طريق يوصل الى المطلوب سواء حصل الوصول والاهتداء أولم يحصل كما ذكرنا ذلك في النوع الثانى من أنواع الهداية وقوله تعالى (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وبالله التوفيق .

((وان يرد)) الله سبحانه وتعالى ((ضلال عبد)) من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور ((يعتد)) بارتكاب ذلك وانتهاك المحارم واقتحام المهالك ، والضلال ضدالهدى يقال عدا عدوا وعدوانامحركةوتعدى وأعدى أحضر وعدا عليه عدوانا بالظلم ظلمه كعدى واعتدى.قال الامام ابن القيم في شرح منازل السائرين ان العدوان أن يتعدى ما أبيح منه الى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه اما ان يعتدى على ماله أو بدنه أو عرضه فاذا أتلف انسان عليه شيئا أتلف عليه أضعافه واذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها فهذا كله عدوان وتعد للعدل . قال وهو نوعان عدوان في

حق الله تعالى وعدوان في حق العبد فالذى في حق الله كما اذا تعدى ما أباح له من الوطء الحلال في الازواج والمملوكات الى ما حرم عليه من سواهما كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون * الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون *) وكذلك لو تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته الى ما حرم عليه منها كوطئها في حيضها أو نفاسها أو في احرام أحدهما أو صيامه الواجب ، وكذا كل ما أبيح له منه قدر معين فتعداه الى أكثر منه فهو من العدوان ، وكذلك العدوان في حق العبد تجاوز القدر الذى أبيح له منه فمتى تجاوز القدر المحدود كان معتديا وباغيا وظالما فارتكاب الاثم والعدوان والفحشاء والمنكر والخطايا والذنوب من الضلال ومن أعظمها القول على الله بلا علم فهو أشد المحرمات تحريما وأعظمها اثما ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من مراتب المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والاديان ولا تباح بحال بل لا تكون الا محرمة وهى المذكورة في قوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وفي قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا) الآيات والحاصل ان الله تعالى اذا شاء هداية عبده يهتدى واذا أراد ضلاله وهلاكه يعتدى فهو سبحانه الموفق لمن أراد له السعادة والخاذل من شاء ابعاده فالتوفيق والخذلان من الحكيم المنان . قال الامام ابن القيم فى شرح منازل السائرين :قدأجمع العارفون بالله ان التوفيق ان لا يكلك الله الى نفسك والخذلان أن يخلى بينك وبينها ، فالعباد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فان وفقه ففضله ورحمته وان خذله فبعدله وحكمته ، وهو تعالى المحمود فى هذا وهذا له أتم حمد وأكمله ولم يمنع العبد شيئا هو له وانما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله ، فاذا علم العبد هذا المقام وشهده وأعطاه حقه علم ضرورته وفاقته الى التوفيق والهداية في كل نفس ولحظة وطرفة عين ، وعلم ان توحيده وايمانه ممسك

بيد غيره لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرشه ولخرت سماء ايمانه على الارض وان الممسك له من يمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه فدأب هذا المشاهد لهذا المقام أن يقول بقلبه ولسانه يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبى الى طاعتك ، ودعواه يا حى يا قيوم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام لا اله الا أنت برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا الى أحد من خلقك • ثم قال : والتوفيق ارادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه مريدا له محبا له مؤثرا له على غيره ويبغض اليه ما يسخطه ويكرهه وهذا مجرد فعله والعبد محل له قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله فلا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله • ولم يرتض بتفسير التوفيق بأنه خلق الطاعة ، والخذلان خلق المعصية، لان ذلك مبنى على مذهب الجبر وانكار الاسباب والحكم ، وقابلهم القدرية ففسروا التوفيق بالبيان العام والهدى العام والتمكن من الطاعة والاقتدار عليها وتهيئة أسبابها وهذا حاصل لكل أحد كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين اذ الاقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين ولو أفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الايمان منهم والكفار بخذلان امتنع به الايمان منهم لكان ذلك عندهم محاباة وظلما والتزموا لهذا الاصل لوازم قامت بها عليهم سوق الشناعة من العقلاء ولم يجدوا بدا من التزامها فظهر فساد مذهبهم وتناقضه لمن أحاط به علما وتصوره حق تصوره وعلم انه من أردأ مذهب في الدنيا وأبطله وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فأثبتوا القضاء والقدر وعموم مشيئة الله للكائنات وأثبتوا الاسباب والحكم والغايات والمصالح كما مر ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء وان يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وان يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته ، ومن قال ذلك

فلم يعرف ربه ولم يثبت له كمال الربوبية . والتوفيق في اللغة التأليف وجعل الاشياء متوافقة ، ونقل السعد التفتازانى عن امام الحرمين أن العصمة هى التوفيق بعينه فان عمت كانت توفيقا عاما وان خصت كانت توفيقا خاصا وأن اللطف هو التوفيق أيضا وأن الموفق لا يعصى اذ لا قدرة له على المعصية كما أن المخذول لا يطيع . والحاصل أن مذهب السلف على ماقرره الامام المحقق ان الهداية والتوفيق ارادة الله من نفسه ان يفعل بعبده ما يصلح العبد كما تقدم ومن أسمائه تعالى الهادى وهو الذى بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق الى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده وبالله التوفيق .

(تنبيه)

تقسيم الارادة الى كونية ودينية

فهم من النظم ان البارى جل وعلا يريد من العبيد ما لا يرضاه ولا يحبه فان الارادة والمشيئة مترادفتان وهى لا تستلزم الامر والرضا والمحبة كما تقدم في بحثها ، وقالت المعتزلة يمتنع عليه تعالى ارادة الشرور والمعاصى والقبائح وقالوا يريد ما لا يقع ويقع ما لا يريد ، فزعموا انه تعالى أراد من الكافر الايمان وان لم يقع لا الكفر وان وقع ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى زعموا ان أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراده تعالى الله عن ذلك وزعموا ان ارادة القبيح قبيحة والله تعالى منزه عن القبائح ورد بأنه تعالى لا يقبح منه شيء وان خفى علينا وجه حسنه وتقدم هذا في قوله :

وكل ما يفعله العباد من طاعة أو ضدها مراد

الابيات المارة آنفا ، والحاصل أن الامر والرضا والمحبة لا تكون الا فى الخير والارادة قد تكون في الخير وقد تكون في غيره فهى تتعلق بكل ممكن كما تقدم قال الله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر ــ ان الله لايأمربالفحشاء» فان قلت قد قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) فالجواب ان الارادة التى نعنيها هى الارادة الكونية ، وأما الارادة الدينية فهىترادف الرضا والمحبة ، وكذلك الامر الذى نعنيه أو نتكلم عليه الامر الدينى وأما

الامر الكونى فهو يرادف الارادة كما في عدة آيات قرآنية على أن أظهر تفاسير قوله تعالى « أمرنا مترفيها » أى أمرناهم بطاعتنا والانقياد لأمرنا على ألسنة رسلنا ففسقوا بمخالفة رسلنا • ومما يحكى أن القاضى عبد الجبار الهمذانى المعتزلى دخل على الصاحب بن عباد وكان معتزليا أيضا وكان عنده الاستاذ أبو اسحاق الاسفراينى من أئمة أهل السنة ومحققى الاشاعرة فقال عبد الجبار على الفور سبحان من تنزه عن الفحشاء • فقال أبو اسحاق فورا سبحان من لا يقع فى ملكه الا ما يشاء • فقال له عبد الجبار ـ وفهم انه قد عرف مراده : أيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال أبو اسحاق : أيعصى ربنا قهرا ؟ فقال له عبد الجبار : أرأيت أن منعنى الهدى وقضى على بالردى أحسن الى أم أساء ؟ فقال له الاستاذ أبو اسحاق : ان كان منعك ما هو لك فقد أساء وان كان منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء • فانصرف الحاضرون وهم يقولون والله ليس عن هذا جواب • وقد قدمنا ما لعله يشفى ويكفى والله الموفق •

فان قيل كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع ارادته له وبغضه وكراهته ؟ فالجواب اعلم أن هذا السؤال أصل الافتراق والاضلال الواقع بين طوائف المسلمين وفرق الموحدين، واعلم ان المراد نوعان مراد لنفسه ومراد لغيره فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث افضاؤه وايصاله الى مراده فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته من غير تناف لاختلاف متعلقهما كالدواء المتناهى في الكراهة اذا علم متناوله ان فيه شفاءه ، وقطع العضو المتأكل اذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وقطع المسافة الشاقة جدا اذا علم أنها توصل الى مراده ومحبوبه ، بل العاقل يكتفى في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته ولا ينافي ذلك ارادته لغيره وكونه سببا لأمر هو أحب اليه من فوته ،

من ذلك خلق ابليس الذى هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات وهو سبب شقاء العبيد وعملهم بما يغضب الرب المريد وهو الساعى في وقوع مساخط الله ومناهيه بكل طريق وحيلة فهو مسخوط للبارى مبغوض قد لعنه وأبعده وغضب عليه وطرده ، ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للبارى جل وعلا ترتب وجودها على خلقه وايجاده ،ووجودها أحب الى الله من عدمها لحكمة جرت منه في عباده على وفق مراده (منها) اظهار القدرة على خلق المتضادات المتقابلات كخلق هذه الذات التى هى أخبث الذوات وشرها وهى سبب كل شر فى مقابلة ذات جبريل التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وازكاها وهى مادة كل خير فتبارك الله خالق الاضداد وكما ظهرت قدرته التامة في خلق الليل والنهار والضياء والظلام والداء والدواء والحياة والموت والحر والبرد والحسن والقبح والارض والسماء والماء والنار والخير والشر وكل ذلك ونظائره من دلائل كمال قدرته وعزته فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

(ومنها) ظهور آثار أسمائه القهرية كالقهار والمنتقم والعدل والضار ونحوها وظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وفى الحديث « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » (ومنها) ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذى يضع الاشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته من المنع والعطاء والثواب والعقاب والخفض والرفع والعز والذل ونحوها (ومنها) حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق ابليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها لا كلها فعبودية الجهاد سببها الكفر والعناد الناشيء عن تلبيس ابليس، وعبودية التوبة المحبوبة الى الله تعالى وعبودية مخالفة أعدائه ومراغمتهم

ومنها عبودية الاستعاذة من الشيطان الرجيم ونفس اتخاذ ابليس عدوا من أكبر أنواع العبودية وأجلها ، الى غير ذلك من الحكم والفوائد التى أبداها الامام المحقق ابن القيم في شرح منازل السائرين فلخصت منها ما لعله يدل الفطن على ما لا يدخل تحت الاحصاء فان وجودها مترتب على وجود ابليس ترتيب وجود المسبب على سببه والملزوم على لازمه •

ثم قال : فان قلت فاذا كانت هذه الاسباب مرادة لما تفضى اليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم هى مسخوطة من جميع الوجوه ؟ فأجاب بأن هذا السؤال يرد على وجهين أحدهما من جهة الرب سبحانه وهل يكون محبا لها من جهة افضائها الى محبوبه وان كان يبغضها لذواتها ؟ والثانى من جهة العبد وهو انه هل يشرع له الرضا بها من تلك الجهة أيضا ؟ فاعلم ان الشر كله يرجع الى العدم أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية اليه وهو من هذه الجهة شر وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه ، مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة وانما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فانها خلقت في الاصل متحركة لا تسكن فان أعينت بالعلم والهام الخير تحركت به وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه وحركتها من حيث هى حركة خير وانما تكون شرا بالاضافة لا من حيث هى حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه فلو وضع فى موضعه لم يكن شرا ، فعلم أن جهة الشر فيه نسبة اضافية ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذى حلت به لما أحدثت فيه من الالم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك الالم شرا بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة الى الفاعل حيث وضعه موضعه فانه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات فان حكمته تأبى ذلك بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن فى جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه وبكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال فانه سبحانه بيده

الخير،والشر ليس اليه بل كل ما اليه فخير، والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه فلو كان اليه لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته اليه هو الذى صيره شرا •

فان قلت لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة،قلت هو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذى فيه من عدم امداده بالخير وأسبابه والعدم ليس بشىء حتى ينسب الى من بيده الخير • فان أردت مزيد ايضاح في ذلك فاعلم ان أسباب الخير ثلاثة الايجاد والاعداد والامداد فهذه هى الخيرات وأسبابها فايجاد هذا السبب خير وهو الى الله ، واعداده خير وهو اليه أيضا وامداده خير وهو اليه أيضا فاذا لم يحدث فيه اعدادا ولا امدادا حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس الى الفاعل وانما اليه ضده • فان قلت فهلا أمده اذ أوجده ؟ قلت ما اقتضت الحكمة ايجاده وامداده فانه سبحانه يوجده ويمده ، وما اقتضت الحكمة ايجاده وترك امداده أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته فايجاده خير والشر وقع من عدم امداده •

فان قلت فهلا أمد الموجودات كلها ؟ فالجواب هذا سؤال فاسد يظن مورده ان (•••) الموجودات أبلغ في الحكمة ،وهذا عين الجهل ،بل الحكمة كل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الواقع بينها وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت والتفاوت انما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق والا فليس فى الخلق من تفاوت • قال رحمه الله تعالى فان اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وسر المسئلة ان الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها بل حقيقة العبودية ان يوافقه عبده في رضاه وسخطه فيرضى منها بما رضى ويسخط منها ما سخطه •

فان قيل هو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة فكيف يمكن العبد ان يرضى بعقوبته له فالجواب لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورا ولكن لا يقع منه ذلك فان لم يوافقه في محبة طاعته التى هى سرور النفس وقرة العين وحياة القلب فكيف يوافقه فى محبة العقوبة التى هى أكره شىء

اليه وأشق شيء عليه بل من كان كارها لما يحبه من طاعته وتوحيده فلا يكون راضيا بما يختاره من عقوبته ولو فعل ذلك لارتفعت عنه العقوبة • ويأتي لهذا تتمة في الرضا بالقضاء ان شاء الله تعالى •

((فصل))

فصل في الكلام على الرزق

في الكلام على الرزق وهو اسم لما يسوقه الله تعالى الى الحيوان فيأكله قال في القاموس الرزق بالكسر ما ينتفع به كل مرتزق والجمع ارزاق وبالفتح المصدر وقد أشار الناظم الى ذكره بقوله :

((والرزق ما ينفع من حلال	أو ضده فحل عن المحال))
((لأنه رازق كل الخلق	وليس مخلوق بغير رزق))
((ومن يمت بقتله من البشر	أو غيره فبالقضاء والقدر))
((ولم يفت من رزقه ولا الاجل	شيء فدع أهل الضلال والخطل))

((والرزق ما ينفع)) المرتزق أي ينتفع[1] المرتزق بحصوله سواء كان

---

(١) بهامش مط قوله : ينتفع : وللشيخ تقي الدين تفصيل نفيس نصه « والرزق يراد به شيئان أحدهما بيان ما ينتفع به العبد والثاني ما يملكه العبد فالثاني هو المذكور في قوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون - وانفقوا مما رزقناكم » وهذا هو الحلال الذي ملكه الله اياه وأما الاول فهو المذكور في قوله تعالى : « وما من دابة » الآية وقوله صلى الله عليه وسلم : « وان نفسا » الآتي في كلام المصنف والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بالاعتبار الاول لا الثاني ا هـ عبد الوهاب (كذا في هامش الاصل) وفي تعليق ينسب الى الشيخ عبد الله بابطين ما لفظه :

لا ريب أن ما ذكره المؤلف رحمه الله أولى بالصواب لكن ينبغي أن يعرف أن رزق الله تعالى على نوعين أحدهما خاص وهو الرزق الحلال للمؤمنين وهذا هو الرزق النافع الذي لا تبعة فيه كما قال تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » • وقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » • وأما النوع الثاني فهو رزق عام يكون فيه قوام البدن فقط وان كان قد يكون فيه تبعة وهذا هو رزق البهائم والرزق الحرام ومنه رزق الكفار فان الكفار لا يرفعون لقمة الى أفواههم ولا يتجرعون جرعة ماء الا حوسبوا عليها كما يفيده قوله تعالى : « قل هي لنذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقوله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح » فان مفهوم الآيتين يدل على أن الكفار عليهم تبعة فيما يطعمونه ويلبسونه وليس بخالص لهم ولان الله تعالى انما أباح لنا الاكل والشرب واللباس لنستعين بها على طاعته لا على معصيته • وبهذا التفصيل يتضح المعنى ولله الحمد • والله أعلم •

ذلك المنتفع به ((من حلال)) وهو ما انحلت عنه التبعات وهو ضد الحرام ولهذا قال ((أو ضده)) أى ضد الحلال وهو الحرام وهو ما منع منه شرعا اما لصفة في ذاته ظاهرة كالسم والخمر أو خفية كالربا ومذكى المجوس ونحوه لأنه في حكم الميتة ، واما لخلل في تحصيله كالربا والغصب ونحو ذلك فكل ذلك رزق لأن الله يسوقه للحيوان فيتناوله ويتغذى به ، وخالفت المعتزلة في ذلك فقالوا الحرام ليس برزق وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به وذلك لا يكون الا حلالا فيلزمهم على التفسير الاول ان ما يأكله الدواب ليس برزق مع ظاهر قوله تعالى (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) فيكون مصادما للقرآن لانه يقتضى أن تكون كل دابة مرزوقة ، ولا ينفعهم زعمهم ان تسمية ما يأكله الدواب رزقا مبنى على تشبيهه بما هو مملوك الانسان فيأكله فيكون لفظ الرزق مجازا عما تأكله الدواب فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة • لأنا نقول هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن وهو خلاف المتعارف في اللغة فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة ثم ان تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولا منعكس لدخول ملك الله تعالى وخروج رزق الدواب والعبيد والاماء ويلزمهم أيضا على الوجهين ان من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله تعالى أصلا وهو خلاف الاجماع الحاصل من الامة قبل ظهور المعتزلة أن لا رازق الا الله وان استحق العبد الذم واللوم على أكل الحرام • والاضافة الى الله تعالى معتبرة في مفهوم الرزق وكل أحد مستوف رزق نفسه حلالا كان أو حراما ولا يتصور أن لا يأكل انسان رزقه أو يأكل غير رزقه لان ما قدر الله تعالى غذاء لشخص يجب أن يأكله ويمتنع ان يأكله غيره ولهذا قال ((فحل)) أى زل وارجع ((عن المحال)) وجه كونه محالا أنه لا أحد يبقى بلا رزق ولا يمكن الا أن يأكل رزقه فاذا تغذى طول عمره بالحرام يكون ما رزقه الله تعالى وهو محال وعلى كل حال ما ذهب اليه المعتزلة ضرب من المحال ولهذا أوضح كون ذلك محالا بقوله ((لأنه)) سبحانه وتعالى ((رازق كل الخلق)) كما في الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية مما

لا يحصى الا بكلفة كقوله تعالى « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها - وكلوا من رزقه - ان الله هو الرزاق » ((وليس)) يوجد ((مخلوق)) من سائر الحيوانات ويبقى ((بغير رزق)) فظهر فساد مذهب المعتزلة وحقيقة[1] مذهب أهل الحق فان الله تعالى قسم بين الخلق معايشهم في الحياة الدنيا ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الانام والله الفعال لما يريد ((ومن يمت)) من سائر الحيوانات ((بقتله)) من سائر أنواع القتل ((من البشر)) محركة الانسان ذكرا كان أو أنثى واحدا أو جمعا وقد يثنى ويجمع ابشارا وقدمه للاعتناء به والاهتمام بأحواله ولأنه المقصود بالذكر وانما قال ((أو غيره)) من سائر الحيوانات لدفع توهم ان ما قتل منها ليس كذلك ((ف)) موته ((بالقضاء)) أى بقضاء الله تعالى وهو لغة الحكم وعرفا ارادة الله الازلية المتعلقة بالاشياء على ما هى عليه فيما لا يزال ((والقدر)) بتحريك الدال وتسكن مصدر قدرت الشيء بفتح الدال مخففة اذا أحطت بمقداره وأل فيه وفى القضاء عوض عن مضاف اليه أى بتقدير الله تعالى لذلك ، وهو عند الماتريدية تحديده تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذى يوجد به من حسن وقبح ونفع وضر وما يحويه من زمان ومكان وما يترتب عليه من طاعة وعصيان وثواب وعقاب وغفران ، وعند الاشاعرة ايجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم ، قال الخطابى رحمه الله تعالى قد يحسب كثير من الناس ان معنى القدر من الله تعالى والقضاء معنى الاجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم ان قوله صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى » من هذا الوجه وليس كذلك وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلق لها خيرها وشرها ، قال والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض أسماء لما صدر عن فعل الهادم والناشر والقابض ، يقال قدرت الشيء وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد ، قال والقضاء معناه فى هذا الخلق كقوله تعالى (فقضاهن

موت القتيل بالقضاء والقدر

معنى القضاء والقدر

---

(١) الظاهر « وحقية » .

سبع سموات في يومين) أي خلقهن واذا كان الامر كذلك فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم واكتسابهم ومباشرتهم تلكالامور وملابستهم اياها عن قصد وتعمد وتقديم ارادة واختيار والحجة انما تلزمهم بهـــا واللائمة تلحقهم عليها ، قال وجمـــاع القول في هذا انهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الاساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضــه ، وانما كان موضع الحجـة لآدم على موسى عليهما السلام ان الله سبحانه وتعالى كان قد علم من آدم انه يتناول الشجرة ويأكل منهـا فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيـه وان يبطله بعد ذلك ، وبيان هذا في قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة) فاخبر قبل كون آدم انما خلقه للأرض وانه لا يتركه في الجنة حتى ينقله عنها اليها ، وانما كان تناوله سببا لوقوعه الى الارض التى خلق لها ليكون فيها خليفة واليا على من فيها ، فانما أدلى آدم بالحجة على موسى لهذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفســـه ، ولذلك قال أتلومنى على أمر قد قدره الله على من قبل أن يخلقنى قال فقول موسى وان كان في النفوس منه شبهة وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذى جعل امارة لخروجه من الجنة فقول آدم في تعلقه بالسبب الذى هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوى والفلج قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقـــع بالبرهان الذى لا معارض له انتهى .

حديث حج آدم موسى

والحديث الذى احتج فيه آدم على موسى رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ، وروى أيضا باسناد جيد من حديث ابن عمـــر رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « احتج آدم وموسى » وفي لفظ ان موسى قال يارب أرنا آدم الذى أخرجنا من الجنة بخطيئتـه فقال موسى يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده فبكم تجد فيهـا مكتوبا : وعصى آدم ربه فغـوى ـ قبل أن أخلق ؟ قال بأربعين ســـنة ، وفي لفظ قال أفتلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أخلق بأربعين ســـنة ؟ قال

فحج آدم موسى » قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه ظن طوائف في هذا الحديث ان آدم احتج بالقدر على الذنب وانه حج موسى بذلك ، فطائفة من هؤلاء يدعون التحقيق والعرفان يحتجون بالقدر على الذنوب مستدلين بهذا الحديث ، وطائفة يقولون الاحتجاج به سائغ في الآخرة لا في الدنيا ، وطائفة يقولون هو حجة للخاصة المشاهدين للقدر دون العامة ، وطائفة كذبت به كالجبائي وغيره ، وطائفة تأولته تأويلات فاسدة مثل قول بعضهم انما حجه لأنه كان قد تاب ، وقول آخر كان أباه والابن لا يلوم أباه ، وقول آخر كان الذنب في شريعة واللوم في أخرى ، قال وهذا كله تعريج عن مقصود الحديث . وظاهر ما يؤخذ من كلام شيخ الاسلام ومن مفهوم الحديث ان آدم انما حج موسى عليهما السلام لكونه قد كان تاب من الذنب الصورى واستسلم للمصيبة التى لحقت الذرية بسبب أكله المقدر عليه فالحديث تضمن التسليم للقدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعايب فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب كما قال تعالى (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قالت طائفة من السلف كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم . فالايمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب ، والتسليم لذلك هو من حقيقة الايمان ، وأما الذنوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله تعالى ، بل عليه أن لا يفعلها واذا فعلها فعليه أن يتوب منها كما فعل آدم عليه السلام . وقال العلامة ابن مفلح في الآداب قال شيخ الاسلام تقي‌الدين ابن تيمية قدس الله روحه : موسى قال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله لا لأجل كونها ذنبا ، ولهذا احتج عليه آدم عليه السلام بالقدر ، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مرادا بالحديث فان آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس ، قال ولأن آدم عليه السلام احتج بالقدر وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر أهل الملل وسائر العقلاء . وقال شيخ الاسلام أيضا

في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : وهذا الحديث قد ضلت به طائفتان طائفة كذبت به لما ظنوا انه يقتضى رفع الذم والعقاب عمن عصى الله عز وجل لأجل القدر ، وطائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون أن لهم فعلا - وذكر نحو ماقدمنا من الطوائف ، ثم قال : وكل هذا باطل ولكن وجه الحديث ان موسى عليه السلام لم يلم أباه الا لأجل المصيبة التى لحقته من أجل أكله من الشجرة فقال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب وتاب منه فان موسى عليه السلام يعلم ان التائب من الذنب لا يلام ولو كان آدم عليه السلام يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) والمسلم مأمور عند المصائب ان يصبر ويسلم وعند الذنوب يستغفر ويتوب والله أعلم •

اذا علمت هذا مع ما قدمناه تحت قوله* وكل ما يفعله العباد* البيتين والتنبيهات التى ذكرناها في أثناء ذلك علمت أن القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن الى الأبد • وانه عز وجل قدير مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الازل وعلم سبحانه وتعالى انها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها • قال شيخ الاسلام ابن تيمية أغدق اللهالرحمةعلىضريحه: « ان علم الله السابق محيط بالأشياء على ما هى عليه ولا محو فيه ولا تغيير ولا زيادة ولا نقص فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون كما تقدم ، قال وأما ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ فهل يقع فيه محو واثبات ؟ على قولين للعلماء ، قال وأما الصحف التى بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والاثبات • انتهى • وتقدم • اذا علمت هذا فقوله ومن يمت بقتله الخ ان المراد ان المقتول ميت بأجله أى الوقت المقدر لموته لا كما يزعم بعض المعتزلة من ان الله تعالى قد قطع عليه الأجل ، والحق عند أهل الحق ان المقتول ميت فى الوقت الذى قدره الله تعالى له وعلم انه يموت فيه لا كما زعمت المعتزلة انه قد قطع عليه الاجل ، يعنى لم يوصلهاليه وانه لو لم يقتل لعاش الى أمد هو أجله الذى علم الله تعالى موته فيه لولا

القتل ، فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل • وحاصل النزاع ان المراد بالاجل المضاف زمان تبطل فيه الحياة قطعا من غير تقدم ولا تأخر فهل يتحقق ذلك في المقتول أم المعلوم في حقه انه ان قتل مات وان لم يقتل فيعيش الى وقت هو أجل له ، فعندهم القاتل قد قطع عليه الاجل وانه لو لم يقتل لعاش الى أمد هو أجله الذى علم الله تعالى موته فيه لولا القتل ، وزعم أبو الهذيل منهم انه لو لم يقتل لمات في ذلك الوقت البتة ، وقول غيره لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وان لا يموت ، وهو مذهب أهل السنة يعنى الى أجله الذى اذا جاء لا يتأخر عنه ولا يتقدم كما قال تعالى (اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وادعى أبو الحسين ومن تابعه من المعتزلة بأن المسألة بديهية يعنى موت المقتول من فعل القاتل وبقاؤه لولا القتل ضرورية يدرك من غير استدلال بل بمجرد البديهة ، والجمهور منهم كانوا يقولون ان المسألة استدلالية ، وقال الكعبى منهم ان المقتول تبطل حياته بأجل القتل وليس المقتول بميت فيخص الموت بما لا يكون على وجه القتل على ما يشعر به قوله تعالى (أفان مات) الآية لكن المعنى مات حتف أنفه فمجرد بطلان الحياة موت ، والحاصل ان المقتول مات بأجله الذى أجله الله تعالى الذى لا يتقدم موته عليه لحظة ولا يتأخر عنه لحظة فانه عز وجل حكم بآجال العباد على علم من غير تردد فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون • وأما الاحاديث التى فيها ان بعض الطاعات تزيد في العمر مثل صلة الرحم ونحو ذلك مما جاء انه يقصر العمر فهذا في الصحف التى يقع فيها المحو والاثبات وعلم الله تعالى لا يقع فيه تغيير ولا زيادة ولا نقصان كما مر آنفا • والحق ان الاجل واحد لا كما زعم الكعبى ان للمقتول أجلين القتل والموت وانه لو لم يقتل[1] لعاش الى أجله الذى هو الموت ولا كما

---

(١) بهامش مط ما لفظه : قوله ولو لم يقتل الخ وللشيخ هنا كلام نفيس نصه : المقتول يموت بأجله عندعامة المسلمين الا فرقة من القدرية قالوا ان القاتل قطع أجل المقتول ثم تكلم الجمهور لو لم يقتل فقال بعضهم كان يموت لأن اجله فرغ وقال بعضهم لايموت لانتفاء السبب ، وكلا القولين قال من ينتسب الى السنة وكلاهما خطأ فان القدر سبق بأنه يموت بهذا السبب لا بغيره فاذا قدر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ولو كان المقدور انه لا يموت بهذا أمكن أن يكون المقدر انه يموت بغيره وأمكن أن

زعمت الفلاسفة ان للحيوان أجلا طبيعيا قيل هو في الانسان ان يبلغ مائة وعشرين سنة وموته عندهم بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين وأجل آخر غير الطبيعي اخترامه بحسب الآفات والامراض • ولرد هذه المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة العاطلة أشير بقوله ((ولم يفت)) على المقتول ولا غيره ((من رزقه)) المقسوم له في علم الملك الحى القيوم شيء قل ولاجل ((ولا)) فاته أيضا من ((الاجل)) المحتوم ((شيء)) ولا لحظة واحدة ((فدع)) أي اترك وجانب ((أهل الضلال)) من طوائف الاعتزال فانهم ضلوا الطريق القويم وأضلوا عن الصراط المستقيم ((و)) دع أهل ((الخطل)) وهو بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة الخفة والسرعة والكلام الفاسد الكثير وهذا مناسب لحال الفلاسفة لسرعة كلامهم وتنميقه وخفته وتزويقه مع ما فيه من الاضطراب وكثرة الخطأ وقلة الصواب والتناقض والتحكم بالعقول والخوض فيما لا يعلم حقيقته الا بالتلقى عن الرسول فكم لهم من هفوة باردة ومقالة فاسدة فدع نحاتة أفكارهم ونخالة آرائهم وابتكارهم واكرع من المنهل العذب الزلال الصافى وتضلع من الغذاء الهنيء المريء الشافي الذى جاء به الرسول عن جبريل عن رب العالمين لا ما قذفته الأفكار من الوساوس ووحى الشياطين •

أحاديث في القضاء والقدر

(تتمة) في ذكر بعض ما ورد في هذا الفصل من الاخبار عن النبى المختار صلى الله عليه وسلم ما تعاقب الليل والنهار روى ابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تستبطؤا الرزق فانه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له فأجملوا في الطلب أخذ الحلال وترك الحرام » وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وان أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » رواه ابن ماجه

يكون المقدر انه لا يموت فالجزم بأحدهما جهل فما تعددت أسبابه لم يجزم بعدمه عند عدم بعضها ولم يجزم بثبوته ان لم يعرف له سبب آخر بخلاف ماليس له الا سبب واحد مثل دخول النار فانه لايدخلها الا من عصى الله اهـ ع ب (كذا في هامش الاصل) •

والللفظ له والحاكم وقال على شرط مسلم • وأخرج الحاكم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس من عمل يقرب من الجنة الا وقد أمرتكم به ولا عمل يقرب من النار الا وقد نهيتكم عنه فلا يستبطئن أحد منكم رزقه فان جبريل ألقى في روعى ان أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب فان استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله تعالى فان الله لا ينال فضله بمعصيته » وفي حديث حذيفة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا رسول رب العالمين جبريل عليه السلام نفث في روعى انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها • رواه البزار • وفي حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما • وقد روى عن محمد بن يزيد الاسفاطى قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم فقلت يا رسول الله حديث ابن مسعود الذى حدث عنك فقال حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذى لا اله الا هو حدثته به أنا » يقولها ثلاثا ثم قال غفر الله للأعمش كما حدث به وغفر الله لمن حدث به قبل الأعمش ولمن حدث به بعده • وفي الصحيحين من حدث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « وكل الله بالرحم ملكا يقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضى خلقا قال يارب أذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه » وفي مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضى الله عنه يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم : ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص • وقد روى انه يكتب على جبهته أو بطن كفه أو ورقة تعلق في عنقه • وفي رواية بين عينيه • قال الحافظ ابن رجب في شرح الاربعين النووية : وبكل حال فهذه الكتابة التى

تكتب للجنين في بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق المذكورة في قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها) كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله تعالى قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة » كما تقدم • قال علماء الحديث فيكتب رزقه قليلا كان أو كثيرا ، وصفته حلالا كان أو حراما أو مكروها ، ويكتب أجله طويلا كان أو قصيرا • وبالله التوفيق •

* * * *

الباب الثالث في الاحكام والايمان

((البـــاب الثالث

في الأحكام والكلام على الايمان ومتعلقات ذلك))

علة التكليف

اعلم وفقنى الله واياك وسائر المسلمين لمرضاته ان طرق النـــاس قد اختلفت في علة التكليف وحكمته مع كون الله سبحانه وتعالى لا ينتفع بطاعة ولا تضره معصية فسلكت الجبرية ومن وافقهم مسلكهم المعروف وان ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الارادة وأنه لا علة ولا حكمة له ولا ما يحث عليه سوى محض الارادة ، وسلكت القدرية مسلكها المعروف وهو أن ذلك استئجار منه لعبيده لينالوا أجرهم بالعمل فيكون الذنب اقتضاؤهم الثواب بلا عمل لما فيه من تكدير المنة،والمسلكان فاسدان كما ترى،وتقدم ذلك، وحسبك ما يدل عليه العقل الصريح والنقـل الصحيح من بطلان هذين المذهبـين وفسادهما ، وليس عند الناس غير هذين المسلكين الا مسلك من هو خارج عن الديانات واتباع الرسل ممن يرى ان الشرائع وضعت نواميس تقوم عليهـا مصلحة الناس ومعايشهم وان فائدتها تكميل قوة النفس العمليـة وارتياضها لتخرج عن شبه الانعام فتصير مستعدة لأن تكون محلا لقبول الفلسفة العليـا والحكمة • وهــذا مسلك خارج عن مناهج الانبيـاء وأممهـم • وأما أتباع الرسل الذين هم أهل البصائر فحكمة الله عز وجل في تكليفهم ما كلفهم به أعظم وأجل عندهم مما يخطر بالبال أو أعرب به المقال فيشهدون

له سبحانه في ذلك من الحكم الباهرة والاسرار العظيمة أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته من الاسرار والحكم، ويعلمون مع ذلك انه لا نسبة لما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك الى ما طوى علمه عنهم واستأثر به دونهم وان حكمته في أمره ونهيه لأنه جل وعلا أهل ان يعبد ، والى هذا المقام أشار بقوله :

وجوب عبادة الله تعالى

((وواجب على العباد طرا ان يعبدوه طاعة وبرا))
((ويفعلوا الفعل الذى به أمر حتما ويتركوا الذى عنه زجر))

((وواجب على العباد طرا)) أى جميعا وفى حديث قس بن ساعدة الايادى : ومرادا لمحشر الخلق طرا ـ قال فى النهاية أى جميعاوهو منصوب على المصدر أو الحال ((ان يعبدوه)) سبحانه وتعالى ((طاعة)) أى لأجل الطاعة وامتثال الامر لما ندب الخلق من التكليف على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ((وبرا)) أى لأجل البر والاحسان الناشىء عنهما المحبة قال في النهاية البر بالكسر الاحسان والتقرب الى الله تعالى•فهو سبحانه أهل ان يعبد وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة له حتى لو لم يخلق جنة ولا نارا ولا وضع ثوابا ولا عقابا لكان جل شأنه أهلا ان يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة ، وفي بعض الآثار الالهية « لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا ان أعبد » وفي الفطرة والعقل ما يقتضى شكره وافراده بالعبادة كما فيهما ما يقتضى تناول المنافع واجتناب المضار فان الله تعالى فطر خلقه على محبته والاقبال عليه وابتغاء الوسيلة اليه وانه لا شىء على الاطلاق أحب الى العباد منه وان فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها بما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) فبين سبحانه ان اقامة الوجه وهو اخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفا مقبلا عليه معرضا عما سواه هو فطرته التى فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعى فطرهم لما مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج

البهيمة بهيمـــة جمعاء[1] هل تحسون فيها من جـــدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها » ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه اقرؤا « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولـــكن أكثر النـــاس لا يعلمون*منيبين اليه » ومنيبين نصب على الحال من المفعول أى فطـــرهم منيبين اليه ، والانابة اليه تتضمن الاقبال عليه بمحبته وحده والاعراض عما سواه • وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار - بكسر الحاء المهملة - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى مقامى هذا انه قال كل ما نحلته عبدا فهو له حلال وانى خلقت عبادى حنفاء فأتتهم الشياطين فاستجالتهم عن دينهم وأمرتهم ان يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا وحرمت عليهم ما أحللت لهم » فأخبر سبحانه انه انما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره ، وهذا من الحق الذى خلقت له وبه قامت السموات والارض وما بينهما وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار ولأجـله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التى خرجت عنه وآثرت غيره ، فكونه سبحانه أهلا أن يعبد ويحب ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته فهو سبحانه الاله الحق المبين ، والاله هو الذى يستحق أن يؤله محبة وتعظيما وخشية وخضوعا وتذللا وعبادة فهو الاله الحق ولو لم يخلق خلقه ، وهو الاله الحق ولو لم يعبدوه ، فهو المعبود حقا الاله حقا المحمود حقا ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه ، لم يستحدث تعالى بخلقه لهم ولا بأمره اياهم استحقاق الالهية والحمد بل الهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له سبحانه يستحيل مفارقتها له كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله • وقد جاءت الرسل وأنزلت الكتب بتقرير ما استودع سبحانه فى الفطر والعقـول من ذلك وتكميله وتفصـيله وزيادته حسنا الى حسـنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا، فعبده عباده وأحبوه ومجدوه بداعى الشرع وداعى الفطرة والعقل ، فاجتمعت لهم الدواعى ودعتهم الى وليهـم والههم وفاطرهم فأقبلوا اليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شـــبهة

(١) فى الاصلين « عجماء »

توجب ريبا وشكا ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وايثارها سواه ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه فقيل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبدا شكورا » واقتصر صلى الله عليه وسلم من جوابهم على ما تدركه عقولهم وتناله افهامهم والا فمن المعلوم أن باعثه على ذلك الشكر أمر يجل عن الوصف ولا تحيط به العبارة والاذهان فأين هذا الشهود من شهود طائفتى القدرية والجبرية .

واعلم انه لا يمكن أحدا من خلقه قط أن يعبده تعالى حق عبادته ولا يوفيه حقه من المحبة والحمد ، ولهذا قال أكمل خلقه وأفضلهم وأعرفهم به وأحبهم اليه وأطوعهم له : «لا أحصى ثناء عليك» وأخبر صلى الله عليه وسلم أن عمله لا يستقل بالنجاة فقال « لن ينجى أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وفى الحديث المرفوع المشهور أن من الملائكة من هو ساجد لا يرفع رأسه منذ خلق ومنهم راكع لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق الى يوم القيامة وانهم يقولون يوم القيامة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

ولما كانت عبادته سبحانه وتعالى تابعة لمحبته واجلاله وكانت المحبة نوعين محبة تنشأ عن الانعام والاحسان فتوجب شكرا وعبودية بحسب كمالها ونقصانها ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله فتوجب عبودية وطاعة أمر واجتناب نهى أكمل من الاولى وكان الباعث على الطاعة والعبودية ان لا يخرج عن هذين النوعين قال الناظم عاطفا امتثال الامر والانتهاء عما عنه الزجر ((ويفعلوا)) يعنى العباد ((الفعل الذى به أمر)) سبحانه وتعالى أى الفعل الذى أمر به فان كان على سبيل الحتم والتأكيد فعلوه على الوجوب وان كان على سبيل الندب والارشاد فعلى الندب ولهذا قال ((حتما)) أى لازما مصدر حتم يعنى انهم يفعلون ما أمر الله به أمرا على سبيل الحتم واللزوم وأما اذا كان الامر لا على سبيل الحتم ففعله غير لازم بل هومندوب ومرغوب فيه ومستحب ، قال فى النهاية الحتم اللازم الواجب الذى لا بد من فعله ((و)) ان ((يتركوا)) الشيء ((الذى عنه زجر)) ولا يخفى ان الزجر يفيد التحريم لأن معنى الزجر المنع قال في القاموس زجره منعه

ونهاه كأزجره فانزجر وازدجر • فان لم يكن على سبيل الزجر والتحتيم فيكون للكراهة وخلاف الاولى وتركه على سبيل الندب والاستحباب •فتكون الطاعة تارة تقع عن محبة وشوق وأخرى عن خوف مقرون بحب ، وأما من أتى بصورة الطاعة خوفا مجردا عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وانما هو كالمكره أو كأجير السوء الذى ان أعطى عمل وان لم يعط كفر وأبق فالعبادة والطاعة الناشئة عن محبة الكمال والجلال أعظم من الطاعة الناشئة عن رؤية الانعام والافضال والاحسان فان الذوق السليم يدرك الفرق بين ما تعلق بالحى القيوم الذى لا يموت وبين ما تعلق بالمخلوق من رغبة فى جنة أو خوف من نار وان شمل النوعين اسم المحبة لان من يحبك لذاتك وأوصافك وجمالك أتم وأكمل وأعظم ممن يحبك لخيرك ودينارك،وأسماء الله الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فأمره سبحانه وتعالى ونهيه هو موجب أسمائه وصفاته فى العالم وآثارها ومقتضاها من غير أن يتزين تعالى بطاعة ولا يشان بمعصية وتأمل قوله تعالى في الحديث القدسى « عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى » الحديث، فبين سبحانه ان ما أمرهم به من الطاعات وما نهاهم عنه من السيآت لا يتضمن استجلاب نفعهم ولا اندفاع ضرهم كأمر السيد عبده والوالد ولده والامام رعيته بما ينفع الآمر والمأمور به ونهيهم عما يضر الناهى والمنهى ، بل هو سبحانه المنزه عن لحوق نفعهم وضرهم به في احسانه اليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به من اجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات فليس ذلك لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة فانه الغنى الحميد، ولكن له سبحانه في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم من الحكم البالغة ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته ولو لم يكن من ذلك الا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التى لا تحصى ومننه التى لا تستقصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغى له فانه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه لكان كافيا ، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه ، فهذان مسلكان آخران في التكليف والامر والنهى أحدهما يتعلق بذاته تعالى وصفاته وانه أهل لذلك ، والثانى يتعلق

باحسانه وانعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وانه انما يحسن اليهم رحمة منه وجودا وكرما لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة، فأي المسلكين سلكه العبد أوقعه على محبته وبذل الجهد في مرضاته • ذكر ذلك في مفتاح دار السعادة وأطال جدا فلخص منه هذا وبالله التوفيق • قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : يجب امتثال أمره تعالى واجتناب نهيه الجازمين ويستحب في غيرهما ويلزم به الطاعة والخضوع والاخلاص في الكل • قال والامر بالشيء نهى عن ضده معنى والنهى عنه أمر بضده معنى ان كان ضده واحدا أو أحدها ان كانت أكثر من واحد والامر والنهى المطلقان للفور والتكرار الممكن شرعا كما هو مذكور في محاله من أصول الفقه •

فصل

((فصل))

في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم قال

((وكل ما قدر أو قضاه فواقع حتما كما قضاه))

بحث الرضا بالقضاء

((وليس واجب(؟) على العبد الرضا بكل مقضى ولكن بالقضا))

((لأنه من فعله تعالى وذاك من فعل الذى تقالى))

((وكل ما)) أى كل شيء ((قدر)) الله سبحانه وتعالى ((أو قضاه)) من سائر الأشياء وتقدم تعريف القضاء والقدر قريبا ((ف)) هو ((واقع حتما)) لازما ((كما قضاه)) أى كما حكم به وقدره حسبما سبق به علمه وجرى به القلم في الكتاب الذى كتبه قبل أن يخلق السموات والارض والخلائق بخمسين ألف عام المذكور في قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها) قال في النهاية قد تكرر فى الحديث ذكر القدر وهو عبارة عما قضاه الله وحكم به من الامور • وقال فى القضاء انه الفصل والحكم • وقال وقد تكرر فى الحديث ذكر القضاء وأصله القطع والفصل يقال قضى يقضى قضاء فهو قاض اذا حكم وفصل وقضاء الشيء احكامه وامضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق •

معانى القضاء

وقال الازهرى القضاء في اللغة على وجوه مرجعها انقطاع الشيء واتمامه وكلما أحكم عمله أو أتم أو ختم أو أدى أو أوجب أو أعلم أو انفذ أو

امضى « قال وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الاحاديث ومنه القضاء المقرون بالقدر فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الاساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه ـ وتقدم • وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في أول تفسير سورة الاسراء ان اسماعيل ابن أحمد النيسابوري قد استوعب الاوجه في القضاء في كتابه (الوجوه والنظائر) فقال : لفظة «قضى» في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجها الفراغ (فاذا قضيتم مناسككم) والامر (اذا قضى أمرا) والاجل (فمنهم من قضى نحبه) والفصل (لقضي الامر بيني وبينكم) والمضي (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) والهلاك (لقضي اليهم أجلهم) والوجوب (لما قضي الامر) والابرام (في نفس يعقوب قضاها) والاعلام (وقضينا الى بني اسرائيل) والوصية (وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه) والموت (فوكزه موسى فقضى عليه) والنزول (فلما قضينا عليه الموت) والخلق (فقضاهن سبع سموات) والفعل (كلا لما يقض ما أمره) يعني حقا لم يفعل ما أمره ، والعهد (اذ قضينا الى موسى الامر) • وذكر غيره القدر المكتوب في اللوح المحفوظ كقوله تعالى (وكان أمرا مقضيا) والفعل (فاقض ما أنت قاض) أي وجب لهم العذاب • والوفاء بغاية العبادة والكفاية « ولن يقضي عن أحد بعدك » وبعض هذه الوجوه متداخل ، ويرد القضاء بمعنى الانتهاء (فلما قضى زيد منها وطرا) وبمعنى الاتمام (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) وبمعنى كتب (اذا قضى أمرا) وبمعنى الاداء وهو ما ذكره بمعنى الفراغ ومنه قضى دينه ، وتفسيره (وقضى ربك ان لاتعبدوا) بمعنى وصى منقول من مصحف أبي بن كعب أخرجه الطبري وأخرجه أيضا من طريق قتادة قال هي في مصحف ابن مسعود «ووصى» ومن طريق مجاهد في قوله تعالى وقضى قال وأوصى ، ومن طريق الضحاك انه قرأ ووصى وقال لصقت الواو بالصاد فصارت قافا فقرئت وقضى • كذا قال واستنكروه منه • انتهى ملخصا • فقوله في النظم « فواقع حتما كما قضاه » اشارة الى ما قدمنا ذكره من ان الله تعالى قدر الاشياء في

الازل وعلم سبحانه انها ستقع في أوقات معلومة عنده على صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها وقضاها من غير زيادة ولا نقص • وقصد بذلك الرد على المعتزلة القدرية المنكرة لسبق العلم بالاشياء قبل وجودها وزعمهم ان الله تعالى لم يقدر الامور أزلا ولم يكتبها ولم يتقدم له علم بها وانما يأتنفها علما حال وقوعها ، وهؤلاء انقرضوا كما مر ، وأما القدرية المثبتة لسبق العلم بالاشياء انما خالفوا السلف في زعمهم ان أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال لا اذن ولا صنع للبارى في ذلك كما مر الكلام على ذلك بما فيه غنية فراجعه ان شئت ((وليس واجب(؟) على العبد)) المكلف ((الرضا)) وهو سكون القلب وطمأنينته الى قدم اختيار الله للعبد انه اختار له الافضل فيرضى به ، وقال الجنيد قدس الله روحه : الرضا صحة العلم الواصل الى القلب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الى الرضا • وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف فان الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة لا يفارقان في الدنيا ولا في الآخرة ولا في البرزخ بخلاف الخوف والرجاء فانهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه وان كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائما لكنه ليس رجاء مشوبا بشك بل رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون، وقد قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله متى يبلغ العبد الى مقام الرضا ؟ فقال اذا أقام نفسه على أربعة أصول فى مايعامل به ربه فيقول ان أعطيتنى قبلت وان منعتنى رضيت وان تركتنى عبدت وان دعوتنى أجبت • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه شرح منازل السائرين :الرضا بالله أعلى من الرضا بما من الله ، قال وليس من شرط الرضا أن لا يحس بالالم والمكاره بل ان لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا هذا ممتنع على الطبيعة وانما هو الصبر والا فكيف يجمع الرضا والكراهة وهما ضدان • والصواب انه لا تناقض بينهما وان وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافى الرضا كرضا المريض بشرب الدواء الكريه ورضا الصائم فى اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الظمأ والجوع ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها

وقال : أجمع العلماء على أن الرضا مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا فى وجوبه على قولين • قال وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما قولين لأصحاب الامام أحمد رضى الله عنه وكان - يعنى شيخ الاسلام - يذهب الى القول باستحبابه ، قال ولم يجىء الامر به كما جاء بالصبر وانما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم • قال وأما ما يروى من الاثر: من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى • فهذا اثر اسرائيلى ليس يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم • قال ابن القيم ولا سيما عند من يرى أن الرضا من جملة الاحوال التى ليست مكتسبة وانه موهبة محضة فكيف يؤمر به وليس مقدورا ، وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، فعلى هذا يمكن أن يتوصل اليه العبد بالاكتساب • والعراقيون قالوا هو من جملة الاحوال وليس كسبا للعبديل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الاحوال•وحكمت طائفة ثالثة بين الطائفتين منهم القشيرى فقالوا : بداية الرضا مكتسبة للعبد فهى من جملة المقامات • ونهايته من جملة الاحوال فأوله مقام ونهاية حال ، والفرق بين المقامات والاحوال ان المقامات عندهم من المكاسب ، والاحوال من مجرد المواهب • قال المحقق ابن القيم : هنا ثلاثة أمور الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله ، فالرضا بالله فرض ، والرضا عنه وان كان من أجل الامور وأشرف أنواع العبودية فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به • وأما الرضا بقضاء الله فهو المشار اليه بقوله لا يجب الرضا ((بكل مقضى)) بل حكم المقضى لا بد فيه من التفصيل لأنه اما أن يكون مقضيا دينيا شرعيا فالواجب على العبد ان لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربه وسيده كما قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لايمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا ، واما أن يكون كونيا قدريا وهذا منه ما لا يسخطه الله كالمصائب التى يبتلى عبده بها فهذا لا يضره فراره منها الى القدر الذى يرفعها عنه ويكشفها وليس فى ذلك منازعة

للربوبية وان كان فيه منازعة للقدر بالقدر فهذا تارة يكون واجبــا ، وتارة يكون مستحبا ، وتارة يكون مباحا مستوى الطرفين ، وتارة يكون حراما ، وتارة يكون مكروها ، فالمقضى الذى لا يحبه الرب ولا يرضاه مثل المعايب والذنوب فالعبد مأمور بسخطه ومنهى عن الرضا به وهذا هو التفصيل الواجب بالرضا بالقضاء المشار اليه بقوله ((ولكن)) يجب الرضا ((بالقضاء)) فان لفظ الرضا بالقضاء لفظ محمود مأمور به وهو من مقامات الصــديقين فصار له حرمة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل وظنــوا ان كل ما كان مقضيا للرب تعالى مخلوقا له ينبغى الرضا به ثم انقسموا فرقتين فقالت فرقة اذا كان القضاء والرضا متلازمين فمعلوم انا مأمورون بتغيير المعاصى والكفر والظلم فلا تكون مقضية مقدرة ـ وهم القدرية ، وقالت فرقة قد دل العقل والشرع على انها واقعة بقضاء الله وقدره فنحن نرضى بها ـ كالمرجئة والجبرية، وكل من الفريقين على سبيل ضــلال وانحراف عن نهــج الحق وطريق الصواب، والحق فى ذلك التفصيل فنرضى بقضاء الله الذى هو خلقه الذى أمرنا أن نرضى به ولا نرضى من ذلك بالمقضى مما نهانا عن الرضا به فنرضى بالقضاء ونسخط من المقضى ما لا يحبه الله تعالى ويرضاه ولهــذا قال ((لأنه)) أى القضاء ((من فعله)) أى من فعل الله سبحانه و ((تعالى)) وهذا أحد الاجوبة عن الرضا بالقضاء فنرضى بفعله تعالى دون المعصية الصادرة من العبد ، وهذا ونحوه لا يتمشى على أصول من يجعل محبة الرب ورضاه ومشيئته واحدة فان من قال كل ما شاءه الله تعالى وقضاه فقد أحبه ورضيه لا يحسن منه ولا عنده هذا التفصيل كما لا يخفى ، وأيضا هذا انما يصح عند من جعل القضاء غير المقضى والفعل غير المفعول وهو مذهب السلف، وأما من لم يفرق بينهما فكيف يصح هذا عنده ؟ قال الامام المحقق ابن القيم في شرح منازل السائرين : انما نشأ الاشكال من جعلهم المشيئة نفس المحبة ثم زاد بجعلهم الفعل نفس المفعول والقضاء عين المقضى فنشأ من ذلك الزامهم بكونه تعالى راضيا محبا لذلك والتزام رضاهم به ، والذى يكشف هذه الغمة وينجى من هذه الورطة التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبــة فليسا واحدا ولا هما متلازمان بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه،

فالأول كمشيئته وجود ابليس وجنوده ، ومشيته العامة لجميع مافى الكون مع بغضه لبعضه ، والثانى كمحبة ايمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فاذا تقرر هذا فالاصل ان الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضى وان الله جل شأنه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه وقد زالت الشبهات وانحلت الاشكالات • اذا عرف هذا فالرضا بالقضاء الدينى الشرعى واجب وهو أساس الاسلام وقاعدة الايمان فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فأقسم تعالى انهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ويرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه ويسلموا لحكمه وهذا حقيقة الرضا بحكمه ،فالتحكيم في مقام الاسلام وانتفاء الحرج في مقام الايمان والتسليم في مقام الاحسان،ومتى خالطت القلب بشاشة الايمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين وحيي بروح الوحي وتمهدت طبيعته وانقلبت النفس الامارة مطمئنة راضية وادعة وتلقى الاسلام بصدر منشرح فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء المحبوب للهورسوله ((وذاك)) أى المقضى المبغوض لله ورسوله من المعاصى والظلم والعدوان ونحوها لا يرضى به العبد لأنه ((من فعل)) الشخص ((الذى تقالى)) تفاعل من قلاه كرماه رفضه وأبغضه أى من فعل الذى أتى بما يبغضه الله باتيانه به وملابسته له وفعله الذى فعله من المظالم والمعاصى والاشياء المبغوضة للبارى سبحانه وتعالى فأتى بما يوجب بغضه ويكرهه اليه غاية الكراهة فهذا لا يسوغ الرضا به ، وسر المسألة ان الذى الى الرب منها غير مكروه وانما المكروه المسخوط ما للعبد منها • قال الحافظ ابن عبد الهادى رحمه الله تعالى : القضاء يراد به ثلاثة أشياء أحدها الامر والنهى فهذا الرضا بهواجب، والثانى الكفر والمعاصى فهذا الرضا به ليس بواجب ، والثالث المصائب التى تصيب العبد فهل الرضا بها واجب أو مستحب ؟ قال ثم يقال : القضاء الذى هو صفة الله الرضا به واجب ، وأما المقضى وهو الكفر والمعاصى التى هى أفعال العباد فالرضا بها ليس بواجب • انتهى • ومقصوده ولا جائز •وفى تائية

شيخ الاسلام ابن تيمية :

وقال فريق نرتضي بقضائه ولا نرتضي المقضى لاقبح خلقة
وقال فريق نرتضي باضافة اليه وما فينا فنلقى بسخطة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

قال الطوفي في شرح التائية المذكورة : (الثالث) قول من قال نرضى بالقضاء الذى هو تقديره ولا نرضى بالمقضى الذى هو أفعالنا القبيحة ، قال وبهذا أجاب بعض أهل السنة للمعتزلة عن قولهم لو كان الكفر بقضاء الله لوجب الرضا به لان الرضا بالقضاء واجب ولكن الرضا بالكفر كفر فلا يكون بقضاء الله تعالى فأجابهم بالفرق بين القضاء والمقضى • قال : الرابع قول من قال نرضى بالمقضى من حيث انه خلق الله ومراده ونسخطه من حيث هو مكتسب لنا ، وهذا من باب اختلاف الجهتين كما قال الفقهاء في الوضوء من آنية الذهب والفضة ونحو ذلك والله أعلم • فان قلت ليس الى العبد شيء منها قلنا هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق ، والقدري أقرب الى التخلص منه من الجبرى، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين • والرضا بالقضاء من السعادة كما في مسند الامام أحمد وسنن الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله » فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة ، والسخط على القضاء من أسباب الشقاوة • وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن عمر بن ذر قال بلغنا ان أم الدرداء رضى الله عنها كانت تقول ان الراضين بقضاء الله الذى ما قضا الله لهم رضوا به لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة • وقال سيدنا الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه لعدى بن حاتم وقد رآه كئيبا حزينا لقتل ابنيه وفقء عينه « يا عدى من رضى بقضاء الله كان له أجر ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله » رواه ابن أبى الدنيا والله أعلم •

فصل في الذنوب ومتعلقاتها

((فصل في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها))

اعلم وفقك الله تعالى ان فرقة المعتزلةمن أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان رضى الله عنهم في باب العقائد ، وذلك ان رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل مجلس الحسن البصرى يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين فقال له الحسن اعتزل عنا فسموا المعتزلة وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب الصلاح والاصلح وثواب المطيع وعقاب العاصى على الله تعالى ونفى الصفات القديمة عنه كما تقدم ذلك • قال الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن عبد الهادى الحنبلى من بنى قدامة في مناقب شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : أول خلاف حدث فى الملة فى الفاسق الملى هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقالت الخوارج انه كافر وقالت الجماعة انه مؤمن وقالت طائفة المعتزلة هو لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين وخلدوه في النار واعتزلوا حلقةالحسن البصرى وأصحابه فسموا معتزلة ، وأما أهل السنة فلم يخرجوه من الاسلام ولم يحكموا عليه بخلود في النار وانما هو فاسق بكبيرته مؤمن بايمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى ولهذا قال :

الخلاف في مرتكب الكبيرة

((ويفسق المذنب بالكبيره	كدا اذا أصر بالصغيره))
((لا يخرج المرء من الايمان	بموبقات الذنب والعصيان))
((وواجب عليه أن يتوبا	من كل ما جر عليه حوبا))
((ويقبل المولى بمحض الفضل	من غير عبد كافر منفصل))
((مالم يتب من كفره بضده	فيرتجع عن شركه وصده))
((ومن يمت ولم يتب من الخطا	فأمره مفوض لذى العطا))
((فان يشأ يعف وان شاء انتقم	وان يشأ أعطى وأجزل النعم))

((ويفسق)) المسلم المكلف ((المذنب بـ)) ـاتيانه للمعصية ((الكبيرة)) أصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور وبه سمى العاصى فاسقا وفي الحديث « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والغراب الأبقع

والفارة والكلب العقور والحداة » وسميت فواسق لخروجها بالايذاء والافساد عن طريق معظم الدواب ، وسمى الرجل الفاسق لخروجه عن أمر الله ، والمذنب هو المقترف للذنب وهو الاثم كما في القاموس والجمع ذنوب وجمع الجمع ذنوبات قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) قال في شرح منازل السائرين : الاثم والعدوان كل منهما اذا افرد تضمن الآخر فكل اثم عدوان اذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به فهو عدوان على أمره ونهيه وكل عدوان اثم فانه يأثم به صاحبه ،لكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما فالاثم ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة بأن يتعدى ما أبيح منه الى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه بأن يعتدى على ماله أو بدنه أو عرضه • والكبيرة كل معصية فيها حد فى الدنيا أو وعيد في الآخرة ، وزاد شيخ الاسلام : أو ورد فيها وعيد بنفى ايمان أو لعن ونحوهما • وقيل ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة • قال ابن عبد السلام الشافعي : لم أقف للكبيرة على ضابط سالم من الاعتراض، وعدل أمام الحرمين عن تعريفها الى حد السالب للعدالة فقال : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة فهى مبطلة للعدالة ، وكل جريمة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن بصاحبها لا تحبط العدالة • وقد ذهب بعض العلماء الى أن كل محرم كبيرة منهم الاستاذ أبو اسحاق الاسفرايني والقاضي أبو بكر الباقلاني وامام الحرمين الجوينى بل حكاه ابن فورك عن الاشاعرة ، والصواب تقسيم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، ويقال انه لا خلاف بين الفريقين في المعنى بل في التسمية والاطلاق لاتفاق الجميع على أن من المعاصى ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح ، والحامل لمن أطلق على الجميع اسم الكبيرة تعظيم الحضرة الالهية من أن يكون العاصى له تعالى مرتكبا الا معصية كبيرة ، فبالنظر للمعصية فمنها الكبائر ومنها الصغائر وبالنظر الى المعصى فالجميع كبائر • وفي شرح البخارى للبدر العينى عن سعيد بن جبير رحمه الله قال رجل لابن عباس رضى الله عنهما الكبائر سبع ؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هى الى السبعمائة

تعريف الكبيرة

أقرب منها الى السبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع اصرار • وقد أوصلها علماؤنا الى نيف وسبعين كبيرة كما في الاقناع وغيره • وقوله ((كذا)) أي مثل اتيانه الكبيرة ((اذا أصر)) على الجريمة الصغيرة يقال أصر يصر على الشيء اصرارا اذا لزمه وداومه وثبت عليه، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب ، وأما من أتبع الذنب الصغير بالاستغفار فليس بمصر عليه وأن تكرر منه وفي الحديث « ما أصر من استغفر » وفيه أيضا « ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » فمن أصر فانه يفسق حتى ((ب)) الجريمة ((الصغيرة)) لأن الاصرار يصير الصغيرة في حكم الكبيرة • قال بعض العلماء : تصير الصغيرة كبيرة بخمسة أشياء الاصرار عليها والتهاون بها والفرح بها والافتخار بها وصدورها عن عالم فيقتدى به فيها • ثم ذكر ما عليه أهل السنة من أن اتيان الجريمة وان كانت كبيرة لا يخرج بها الشخص المؤمن عن الايمان بقوله ((لا يخرج المرء)) هو بتثليث الميم الانسان أو الرجل ولا يجمع من لفظه أو سمع مرون قاله في القاموس وهي بهاء ويقال مرة وامرأة ، وفي امرىء مع ألف الوصل ثلاث لغات فتح الراء دائما واعرابها دائما وتقول هذا امرؤ ومرء ورأيت امرأ ومرأ ومررت بامرىء وبمرء معربا من مكانين • كله من القاموس ((من الايمان)) الآتي تعريفه فيما بعد ((بموبقات الذنب)) متعلقة بقوله لا يخرج، والموبقات بموحدة وقاف المهلكات جمع موبقة سميت الجريمة الكبيرة بذلك لانها سبب لاهلاك مرتكبها في الدنيا بما يترتب عليها من العقاب وفي الآخرة من العذاب • قال الحافظ ابن حجر : والمراد بالموبقة الكبيرة وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات » وثبت في حديث أبي هريرة أيضا من وجه آخر : الكبائر الشرك بالله ـ الحديث • وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قيل له الكبائر سبع ؟ قال هن أكثر من سبع وسبع • وفي رواية عنه هي الى السبعين أقرب • وفي رواية الى السبعمائة ـ كما تقدم يعني باعتبار

أصناف أنواعها . والحكمة في الاقتصار على السبع المذكورة في الحديث مع ورود ما يزيد على السبعين في أحاديث متفرقة ان هذه موصوفة بصفة زائدة على مجرد الكبيرة وهى الموبقة أى المهلكة . فان قيل قد ورد فى عـــدة أحاديث «الكبائر سبع» ففى حديث عمرو بن العاصى رضى الله عنه عندالامام أحمد فى المسند وصحيح البخارى والترمذى والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وقذف المحصنة والفـــرار من الزحف وأكل (الربا وأكل ـ ١) مال اليتيم والرجوع الى الاعرابية بعد الهجرة » فعد فى هـذا الحديث ثمانية في بادى الرأى وكأنه عد الاكل للربا ولمال اليتيم واحـدة . وفي حديث ابن عبـاس رضى الله عنهما مرفوعا عند البزار باســناد حسن « الكبائر الشرك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله » وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما عند البيهقى باسناد صحيح مرفوعا «الكبائر الاشراك بالله وقذف المحصنة وقتل النفس المؤمنة والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين والحـاد بالبيت قبلتكم أحياء وأمواتا » الى غير ذلك من الاحاديث التى وصف فيهـــا الذنوب بالكبر مما يزيد عن السبعين . الجواب ان هذا مما يؤيد ان العدد لا مفهوم له أو انه صلى الله عليه وسلم علم أولا بالسبع المذكورات ثم علم بما زاد فيجب الاخذ بالزائد، أو ان الاقتصار على السبع وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة ، والاقوى ان التنصيص على السبع فى كل حديث لزيادة عظمها . ومن الكبائر الزنا وبحليلة الجار أشد وبالمحارم أشد وأشد فان الجريمـــة الصغيرة قد تنقلب كبيرة بقرينة تضم اليها وتنقلب الكبيرة فاحشة فان قتل النفس بغير حق كبيرة فان قتل أصلا له أو فرعا أو ذا رحم أو بالحرم أو في الاشهر الحرم أو في رمضان فهو فاحشة، وكذا الزنا ، وتفاصيل ذلك كثيرة جدا . والمراد ان الانسان لا يخرج من الايمان بملابسته واتيانه بموبقات الذنوب التى هى أكبر الكبائر ، وأل في الذنب للجنس أو الاســـتغراق فيشمل كل الذنوب ((والعصيان)) دون الشرك بالله تعالى والكفر به بأى

---

(١) من مخ .

أنواع المكفرات فان ذلك يخرجه من الدين بيقين • والعصيان ضد الطاعة وهو يرادف الذنب • والاثم والجرم وكذا البغى والعدوان والظلم ولكن قد يفهم من هذه تجاوز الحد المباح الى ما وراءه ، وكذا الفحشاء والمنكر فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريدا لقصد الصفة وهى الفعلة الفحشاء والخصلة الفحشاء وهى ما ظهر قبحها لكل أحد واستخبثها كل ذى عقل سليم ولهذا فسر بالزنا واللواط وقد سماه الله فاحشة لتناهى قبحه وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا وهو ما ظهر قبحه جدا من السب القبيح والقذف ونحوه ، وكذا المنكر صفة لموصوف محذوف أى الفعل المنكر وهو ما أنكرته العقول السليمة والفطر المستقيمة •

والحاصل ان الشخص المؤمن لا يخرج من الايمان بملابسة كبائر الذنوب والعصيان • وقد اختلف الناس في هذه المسألة على طرق فطريق الخوارج ان من ارتكب كبيرة من الذنوب - بل والصغيرة لان عندهم كل ذنب كبيرة نظرا لعظمة من عصى - وكل كبيرة كفر يخرج من الايمان ويدخل الكفر ويخلد في النار قالوا لأنه لا يخلد في النار الا الكفار •وطريق المعتزلة انه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر فهو في منزلة بين الكفر والايمان ، ومن أصول المعتزلة اثبات المنزلة بين المنزلتين كما مر ومع ذلك هو خالد مخلد في النار مع قولهم ان مرتكبى الكبائر ليسوا بكفار بل هم فساق مخلدون في النار ، هذا كله عند الطائفتين اذا لم يتوبوا قبل معاينة الموت • والحق مذهب أهل الحق من أهل السنة ان مرتكبى الكبيرة في مشيئة الله تعالى وعفوه لأن أصل الايمان من التصديق بالله والمعرفة والاذعان موجود ، ونصوص الكتاب والسنة لا تدل الا على هذا كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) الآيتين وفي ذلك يقول (فمن عفى له من أخيه شيء) فسماه أخا وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا) وقوله (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الى قوله تعالى : (انما المؤمنون أخوة) الآية وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه انه قال وحوله عصابة من أصحابه « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا

أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصـــونى في معروف ، فمن وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه » قال فبايعناه على ذلك • وقال صلى الله عليـــه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى « ابن آدم لو لقيتنى بقراب الارض خطايا ثم أتيتنى لا تشرك بى شـــيئا أتيتك بقرابها مغفرة » أقرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح • وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس وأبو عوانة في مسنده من حديث أبى ذر وأيضا الامام أحمد في مسنده من حديث أبى ذر أيضا • وأخرج مسلم في صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيتـــه هرولة ومن لقينى بقراب الارض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بقرابهـــا مغفرة » وأخرج الامام أحمد من رواية اخشن السدوسى قال دخلت على أنس رضى الله عنه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والارض ثم استغفرتم الله لغفر لكم » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات لا يشرك بالله شيئا دخـل الجنة » وقال « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الحنة » وقال « ان الله حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله » وفي حديث الشفاعة « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » وفيه يقول الله عز وجل « وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا اله الا الله » فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة فهو السبب الاعظم فمن فقده فقد المغفرة ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة قال الله تعالى : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فدلت الآية مع حديث أنس ان من جاء مع التوحيد بملء الارض خطايا لقيه الله بملئهـــا مغفرة مع مشيئة الله تعالى فان شاء غفر له وان شاء واخـــذه بذنوبه ثم مكان عاقبته ان لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنـــة • قال بعض المحققين الموحد لا يلقى في النار كمايلقى الكفار ولا يبقى فيهـا كمـــا يبقى

الكفار • والنصوص على قول أهل الحق والادلة كثيرة جدا فدل الكتاب والسنة واتفاق الفرقة الناجية على انه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد• وأما آية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) فلها نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) وقوله (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وكذلك ما ورد من السنة كقوله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها خالدا مخلدا فى نار جهنم » ونظائره كثيرة فقالت فرقة : الوعيد في حق المستحل لها لأنه كافر وأما من فعلها غير مستحلها لم يلحقه وعيد الخلود وان لحقه وعيد الدخول• وقد أنكر الامام أحمد رضى الله عنه هذا القول وقال لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا والنبى صلى الله عليه وسلم انما قال من فعل كذا وكذا (وقالت فرقة أخرى) : الاستدلال بنصوص الوعيد هذه مبنى على ثبوت العموم ، قالوا وليس في اللغة ألفاظ عامة ، وقصدهم تعطيل هذه الادلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها لكن ذلك يستلزم تعطيل جملة الشرع فهم ردوا باطلا بأبطل منه وبدعة بأقبح منها فكانوا كمن رام أن يبنى قصرا فهدم مصرا • (وقالت فرقة أخرى) : في الكلام اضمار ـ فمنهم من قال باضمار الشرط والتقدير فجزاؤه كذا ان جازاه أو ان شاء ـ ومنهم من قال باضمار الاستثناء والتقدير فجزاؤه كذلك الا أن يعفو • (وقالت فرقة أخرى) هذا وعيد واخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح فيجوز على الله تعالى اخلاف الوعيد لا اخلاف الوعد ، والفرق بينهما ان الوعيد حقه فاخلافه عفو وهبة واسقاط ذلك موجب كرمه وجوده واحسانه ، والوعد أوجبه على نفسه بوعده والله لا يخلف الميعاد ولهذا مدح به كعب بن زهير رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

من يقتل مؤمنا متعمدا

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد المعتزلى صاحب واصل بن عطاء فقال عمرو بن عبيد يا أبا عمرو لا يخلف الله وعده وقد قال تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله

عليه) فقال أبو عمرو ويحك يا عمرو من العجمة أتيت ان العرب لا تعد اخلاف الوعيد ذما بل جودا وكرما أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العمم ما عشت صولتى ولا يختشى من صولة المتهدد
وانى وان أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

وعلى كل حال قد قام الدليل على ذكر الموانع من انفاذ الوعيد بعضها بالاجماع وبعضها بالنص فالتوبة مانع بالاجماع والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب المكفرة مانعة، واقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص فلا تعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها فلا بد من أعمال النصوص من الجانبين ، ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارا لمقتضى العقاب ومانعه أعمالا لأرجحهما ، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الاحكام الشرعية والاحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود وبه ارتباط الاسباب ومسبباتها خلقا وأمرا، وقد جعل تعالى لكل ضد ضدا يدافعه ومانعا يمانعه ويكون الحكم للاغلب منهما • والحاصل والله أعلم كون المذنب الملى وان كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه فى مشيئة مولاه ان شاء عذبه وان شاء عافاه وعلى كل حال خلود أهل التوحيد في النار من المحال فالصواب اجتنابه وعدم الالتفات اليه والتعويل على مذهب أهل الحق والركون اليه وبالله التوفيق •

* * *

وجوب التوبة

ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة وكانت واجبة على كل من تلبس بذنب ذكر ذلك بقوله ((وواجب)) وجوب لزوم لا بد منه ((عليه)) أى المذنب ((ان يتوبا)) بألف الاطلاق للوزن أى ان يرجع فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال فمن لا توبة له لا مقام له ولا حال ، وهى لغة الرجوع من شيء الى آخر ، وقال الامام النووى : أصل التوبة لغة الرجوع يقال تاب وثاب بالمثلثة وآب وأناب رجع والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الذنب • انتهى • فهى الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرضى الآدمى عن ظلامته ان تعلقت به • وقال بعضهم التوبة

الواجبة الرجوع عما كان مذموما في الشرع من ترك واجب أو فعل محرم الى ما هو محمود في الشرع • قال النووى : أركانها ثلاثة[1] الاقلاع والندم على فعل تلك المعصية والعزم على أن لا يعود اليهـــا أبدا وان لا يغرغر • انتهى • فان كانت المعصية لآدمى فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك الحق • وأصلها الندم وهو ركنها الاعظم وقد فسرت الصحابة رضى الله عنهم كأميري المؤمنين عمر وعلى وابن مسعود التوبة بالنــــدم ، ومنهم من فسرها بالعزم على ان لا يعود وقد روى ذلك مرفوعا من وجه فيه ضعف لكن لا يعلم مخـــالف من الصحابة في هذا وكذلك التابعـــون ومن بعدهم كعمر بن عبدالعزيز والحسن وغيرهما • وفي قوله ((من كل ما)) أى شىء أو الذى ((جر)) أى قاد وجذب ((عليه)) أى المـذنب ((حوبا)) أى اثمـا وفي القاموس الحوب الاثم يقـــال حاب بكذا اثم حوبا ويضم والحوب الحزن والوحشة ويضم فيهما • وفي القاموس أيضا : الحوب بالضم الهلاك والبلاء والتحوب التوجع وترك الحوب كالتـــأثم • ومراد الناظم من ذلك من كل ما جر عليـــه الهلاك والبـــلاء اشعارا بوجـــوب التـــوبة من كل ذنب كبير أو صغير ، وهذا مما اتفق عليه العلماء فانهم اتفقوا على أن التوبة من كل معصية واجبة على الفور لا يجوز تأخـــيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة وانها من مهمات الاسلام وقواعد الدين المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع وعند المعتزلة بالعقل ، وظاهر النصوص القرآنية والاحاديث النبوية والآثار السلفية على ان من تاب لله توبة نصوحا واجتمعت شروط التوبة في حقه انه يقطع بقبول توبته كرما منه وفضلا • وعرفنا قبولهـــا بالشرع والاجماع خلافا للمعتزلة أما فى حق قبول توبة الكافر بالاســـلام فهذا بالاجماع كما نقله غير واحد ، قال النووى فى شرح مسلم وغيره : توبة الكافر من كفره قبولها مقطوع به ، وفي كلام ابن عقيل من أئمة علمائنا

أركان التوبة

---

(١) هامش مط : نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلى رحمه الله تعالى فى ثلاثة أبيات وسماها شروطا وهى :

شروط توبتهم ان شئت عدتها … ثلاثة عرفت فاحفظ على مهـــل
اقـــلاعه ندم وعـــزمه أبدا … ان لا يعـــود لما منه جرى وقل
ان كان توبته من ظلم صاحبـه … لا بد من رده الحق على عجل

ما يخالف ذلك فانه قال انه لا يجب ويجوز ردها • انتهى • وأما قبـــول توبة المذنب النصوح بشروطها فقول الجمهور وكلام الامام ابن عبد البر يدل على انه اجماع ، ومن الناس من قال لا يقطع بقبول التوبة بل يرجى ، وصاحبها تحت المشيئة منهم امام الحرمين • قال القرطبى من استقرأ الشريعة علم ان الله يقبل توبة الصادقين قطعا • نقله في الفتح وأقره • والى قبول التوبة فضلا وكرما أشار بقوله ((ويقبل المولى)) الذى هو رب العـــالمين وخالق الخلق وباسط الرزق ذو الكرم الواسع والفضل العظيم ((بمحض)) أى خالص ((الفضل)) والكرم من غير وجوب عليه تعالى ولا الزام ((من)) كل عبد مذنب تاب الى الله توبة نصوحا بشروطها المذكورة من الندم والاقلاع والعزم ان لا يعود وان يرد ما أمكن من المظالم من حقـــــوق الآدميين أو يستحلهم مما أمكن ، فاذا اجتمعت الشروط قبلت التوبة فضلا من الله تعالى، ولا بد أن تكون من شخص مســـلم ((غير عبد كافر)) بالله ورســـوله ((منفصل)) عن الدين اما بردة أو كان كافرا أصليا فلا تقبل توبتـــه من الذنوب ((مالم يتب)) أى يرجع ((من كفره)) فيسلم ويقر لله بالوحدانية ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويقر ويذعن بجميع ما جاء بــه محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمن بالكتاب وبما جاء به الكتاب فيتصف من بعد رجوعه عن الكفر ((بضده)) من الاسلام فان كان مرتدا بانكار ما علم من الدين بالضرورة ايجابا وتحريما فـيرجع عن انكاره ذلك ويقر ويذعن حسبما جاء به النبى الكريم وكلام الله القديم وان كان مشركا أو معتقدا ان لله شريكا يستقل بالنفع والضرر وعلم الغيب مما استأثر الله بعلمه ((ف))لا يقبل منه مالم ((يرتجع عن شركه)) الذى كان متصفا به ((وصده)) أى اعراضه عن الدين واتباع سيد العالمين بأن يذعن وينقاد لشريعة خـير العباد مسلما خاضعا مقبلا بقلبه وقالبه خالعا ما كان عليه من ترهاته ومطالبــه فهذا يقبل اسلامه اجماعا ، وأما المذنب فزعم بعض الناس انه لا يقطع بقبول توبته مع استيفاء الشروط متعللا بقوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فجعل كل الذنوب تحت المشيئة وربما تعلقوا بمثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم

ان يكفر عنكم سيئاتكم) وبقوله (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وبقوله (فأما من تاب وآمن وعمل صالحـا فعسى أن يكون من المفلحين) وبقوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) والظاهر أن هذا في حق التائب لأن الاعتراف يقتضى الندم • وفي حديث عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» والصحيح قول الجمهور وهذه الآيات لا تدل على عدم القطع فان الكريم اذا أطمع لم يقطـع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنهما ان عسى من الله واجبة• نقله عنه على بن أبى طلحة ، وقد ورد جزاء الايمان والعمل الصالح بلفظ عسى أيضا فلم يدل ذلك على انه غير مقطوع به كما فى قوله (انما يعمـر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية وأما قوله تعالى (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فان التائب ممن يشاء ان يغفر له كما أخـبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه •

تنبيهات

((تنبيهـات))

الاولى تكفير الحسنات للسيئات

(الأول) اختلف الناس هل تكفر الاعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر فروى عن عطاء وغيره من السلف في الوضـوء انه يكفر الصغائر ، وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه الوضوء يكفر الجراحات الصغائر ، والمشى الى المساجد يكفر أكبر من ذلك ، والصلاة تكفر أكبر من ذلك • خرجه محمد بن نصر المروزى• وأما الكبائر فلا بلا لها من التوبة لأن الله أمر العباد بها وجعل من لم يتب ظالما فقال (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) واتفقت الأمة[1] على أن التوبة فرض والفرائض لا تؤدى الا بنية وقصد ولو وقعت الكبائر مكفرة بالوضوء والصلاة أو اداء بقية أركان الاسلام لم يحتج الى التوبة ـ وهذا باطل بالاجماع ،وأيضا فلو كفرت الكبائر بفعل الفرائض لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار اذا أتى بالفرائض • قال الحافظ

(١) مخ : الادلة

ابن رجب وهذا يشبه قول المرجئة وهو باطل • وكما ذكره ابن عبد البرفي التمهيد وحكى اجماع المسلمين على ذلك واستدل عليه بأحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه • وقد حكى ابن عطية في تفسيره قولين في معنى هذا الحديث أحدهما عن جمهور أهل السنة ان اجتناب الكبائر شرط لتكفير هذه الفرائض للصغائر فان لم يجتنب لم تكفر هذه الفرائض شيئا بالكلية ،والثانى انها تكفر الصغائر مطلقا ولا تكفر الكبائر وان وجدت لكن بشرط عدم الاصرار عليها ، مراده انه اذا أصر عليها صارت كبيرة فلم تكفرها الاعمال• وفى صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من امرىء مسلم يحضر صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة • قال الحافظ ابن رجب وقد ذهب قوم من أهل الحديث الى أن هذه الاعمال تكفر الكبائر منهم الامام أبو محمد على بن حزم الظاهرى،وإياه عنى الامام ابن عبد البر في كتاب التمهيد بالرد عليه وقال قد كنت أرغب بنفسى عن الكلام في هذا الباب لولا قول ذلك القائل وخشيت ان يغتر به جاهل فينهمك في الموبقات اتكالا على انها تكفرها الفرائض من الصلوات ونحوها دون الندم والاستغفار والتوبة والله نسأله العصمة والتوفيق • قال الحافظ ابن رجب وقد وقع مثل هذا في كلام طائفة من أهل الحديث في الوضوء ونحوه ووقع مثله في كلام ابن المنذر في قيام ليلة القدر قال يرجى لمن قامها ان يغفر له جميع ذنوبه كبيرها وصغيرها قال فان كان مرادهم ان من أتى بفرائض الاسلام وهو مصر على الكبائر انها تغفر له قطعا فهذا باطل قطعا يعلم بالضرورة من الدين بطلانه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر » يعنى بعمله في الجاهلية والاسلام • قال وهذا أظهر من أن يحتاج الى بيان • قال وان أراد هذا القائل أن من ترك الاصرار على الكبائر وحافظ على الفرائض من غير توبة ولا ندم على ما سلف منه كفرت ذنوبه كلها بذلك واستدل بظاهر قوله

تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنـــه نكفر عنكم سيآتكم) تشمل الكبائر والصغائر[1] فكما ان الصغائر تكفر باجتناب الكبائر من غير قصد ولا نيـــة فكذلك الكبائر ، وقد يستدل لذلك بأن الله وعد المؤمنين والمتقين بالمغفـــرة وتكفير السيئات ، وهذا مذكور في غير موضع من القرآن وقد صار مثل هذا من المتقين فانه فعل الفرائض واجتنب الكبائر واجتناب الكبائر لا يحتاج الى نية وقصد فهذا القول[2] يمكن أن يقال في الجملة والصحيح قول الجمهور ان الكبائر لا تكفر بدون التوبة لانها فرض لازم على العباد ، وأما النصوص المتضمنة مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين فانه ســبحانه لم يبين في الآيات خصال التقوى ولا العمل الصالح فان من جملة ذلك التوبة النصوح وأما من لم يتب فهو ظالم غير متق ، ومما يبـــين أن الكبائر لا تكفر بدون التوبة منها أو العقوبة عليها حديث عبادة بن الصامت المار وهو في الصحيحين « فمن وفي فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو الى الله ان شاء عذبه وان شاء غفر له » وفي لفظ لمسلم « من أتى منكم حدا فأقيم عليه فهـــو كفارته » قال الحافظ ابن رجب قوله فعوقب به يعم العقوبات الشرعية وهي الحدود المقدرة أو غير المقدرة كالتعزيرات ويشمل العقوبات القدرية كالمصائب والاســقام والآلام فانه صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « لا يصيب المسلم نصب ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه الحد كفارة لمن أقيم عليه . وذكر ابن جرير الطبرى في هذه المسألة اختلافا بين الناس ورجح ان اقامة الحد بمجرده كفارة ، ووهن القول بخلاف ذلك جدا . قال الحافظ ابن رجب : وقد روى عن سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم ان اقامة الحد ليس بكفارة ولا بد معه من التوبة ، ورجحه طائفة من المتأخرين منهم البغـــوى وأبو عبد الله ابن تيمية في تفسيريهما وهو قول أبى محمد بن حزم والاول قول مجاهد وزيد بن أسلم والثورى والامام أحمد . وأما حديث أبى هريرة

الحـدود كفـــارات

---

(١) بهامش مط : يقول مصحح الطبع ربما كان فى الكلام حذف هنا .
(٢) هذا جواب الشرط فى قوله « فان أراد هذا القائل » .

المرفوع « لا أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ » فقد خرجه الحاكم وغيره وعلله البخارى وقال لا يثبت وانما هو من مراسيل الزهرى وهى ضعيفة وغلط عبد الرزاق فوصله • وقد صح عن النبى صلى عليه وسلم ان الحد كفارة • وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم لمن قال أصبت حدا فأقمه على فتركه حتى صلى ثم قال « ان الله قد غفر لك حدك » فليس صريحا فى أن المراد به شيء من الكبائر لأن حدود الله محارمه كما قال تعالى (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) فكل من أصاب شيئا من محارم الله فقد أصاب حدوده وارتكبها وتعداها وعلى فرض كونه كبيرة فهذا الرجل جاء نادما تائبا وأسلم نفسه الى اقامة الحد عليه والندم توبة والتوبة تكفر الكبائر بغير تردد • ثم قال الحافظ ابن رجب : والاظهر والله أعلم في هذه المسألة ـ يعنى مسألة تكفير الكبائر بالاعمال ـ انه ان أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الاتيان بالفرائض وتقع مكفرة بذلك كالصغائر باجتناب الكبائر فهذا باطل ، وان أريد أنه قد يوازن يوم القيمة بين الكبائر وبين بعض الاعمال فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ويسقط العمل فلا يبقى له ثواب فهذا قد يقع ، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما انه ضرب عبدا له فأعتقه وقال ليس لى فيه من الاجر مثل هذا ـ وأخذ عودا من الارض ـ انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من لطم مملوكه أو ضربه فان كفارته ان يعتقه » فجعل ابن عمر رضى الله عنهما ان عتقه كفارة لذنبه ولم يكن ذنبه من الكبائر فكيف بما كان من الاعمال المنافية لها كما يبطل المن الصدقة وتبطل المعاملة بالربا ثواب الجهاد كما قالت عائشة رضى الله عنها لام ولد زيد بن أرقم انه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يتوب • وقال حذيفة رضى الله عنه : قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة • وروى عنه مرفوعا أخرجه البزار • وكما يبطل ترك صلاة العصر العمل فلا يستنكر أن يبطل ثواب العمل الذى يكفر الكبائر ، وقد أخرج البزار فى مسنده والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته يوم القيامة فيقص ـ أو يقضى ـ بعضها من بعض فان بقيت له

هل نحبط بعض الحسنات ببعض السيئات ؟

حسنة وسع له بها في الجنة ، وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره*) كان المسلمـــون يرون انهم لا يؤجرون على الشيء القليل اذا أعطوه فيســـتقلون ان يعطوا المسكين تمرة أو كسرة أو جوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون ما هذا بشيء انما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون انهم لا يلامـون على الذنب اليسير كالكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك يقولون انمـــا أوعد الله النار على الكبائر فرغبهم الله فى القليل من الخير أن يعطوه فانه يوشك ان يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فانه يوشك ان يكبر فنزلت ، والـذر اصغر النمل (خيرا يره) يعنى في كتـــابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حســـنة عشر حسنات فاذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمن أيضا بكل واحدة عشرا فيمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة .

فظاهر هذا انه يقع المقاصة بين الحسنات والسيئات ثم تسقط الحسنات المقابلة للسيئات وينظر الى ما يفضل منها بعد المقاصة ، وهذا يوافق من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أثيب بتلك الحسنة خاصة وتسقط باقى حسناته في مقابلة سيئاته ، خلافا لمن قال يثاب بالجميع وتسقط سيئاته كأنها لم تكن ، وهذا في الكبائر ، وأما الصغائر فانها قد تمحى بالاعمـــــال الصالحة مع بقـــاء ثوابها كما قال صلى الله عليه وسلم « ألا أدلـــكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة » فأثبت صلى الله عليه وسلم لهذه الاعمال تكفير الخطايا ورفع الدرجات، وكذلك قوله صلى الله عليـه وسلم « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير مائة مرة كتب الله له مائة حسنة ومحا عنه مائة سيئة وكانت له عدل عشر رقاب » فهذا يدل على ان الذكر يمحـــــو السيئات ويبقى ثوابه لعامله مضاعفا ، وكذلك سيئات التائب توبة نصوحا تكفر عنه وتبقى له حسناته كما قال تعالى « حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين ســنة ـ الى قوله ـ وانى من المسلمين » قال تعالى (أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن

ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) وفي هذا المعنى أخبار كثيرة • والحاصل انه يوجد في بعض الاعمال كفارة للذنوب ورفع درجات وفي كلام بعض السلف انه يمحى بازاء السيئة الواحدة ضعف واحد من أضعاف ثواب الحسنة ويبقى له تسع حسنات ، قال الحافظ ابن رجب : والظاهر ان هذا مختص بالصغائر وأما في الآخرة فيوازن بين الحسنات والسيئات ويقص بعضها من بعض فمن رجحت حسناته على سيئاته فقد نجا ودخل الجنة قال سواء في هذا الصغائر والكبائر وهكذا من كان له حسنات وعليه مظالم فاستوفى المظلومون حقوقهم من حسناته وبقى له حسنة دخل بها الجنة ، قال ابن مسعود رضى الله عنه ان كان وليا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله حتى يدخل الجنة وان كان شقيا وال الملك : رب فنيت حسناته وبقى له طالبون كثير قال « خذوا من سيئاتهم فأضيفوها الى سيئاته ثم صكوا له صكا الى النار» أخرجه ابن أبى حاتم وغيره• قال الحافظ ابن رجب والمراد التفضيل من مثقال الذرة من الحسنات انما هو بفضل الله عز وجل لمضاعفته لحسنات المؤمن وبركته فيها وهكذا حال من كانت له حسنات وسيئات وأراد الله رحمته فصل له من حسناته ما يدخله الجنة وكله من فضل الله ورحمته فانه لا يدخل أحد الجنة الا بفضل الله ورحمته • وأخرج أبو نعيم باسناده عن على رضى الله عنه مرفوعا:أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل « قل لأهل طاعتى من أمتك لا يتكلوا على أعمالهم فانى لا أقاص عبدا الحسنات يوم القيامة أشاء أن أعذبه الا عذبته، وقل لأهل معصيتى من أمتك لا يلقوا بأيديهم فانى أغفر الذنب العظيم ولا أبالى » ومصداقه قول نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « من نوقش الحساب عذب - وفي رواية - هلك »

(تتمة) روى الامام أحمد رضى الله عنه في المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق بنى آدم ، والملائكة تستأذنه ان تعاجله وتهلكه والرب تعالى يقول : دعوا عبدى فأنا أعلم به اذ أنشأته من الارض ان كان عبدكم فشأنكم به وان كان عبدى فمنى الى عبدى وعزتى وجلالى ان أتانى ليلا قبلته وان تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا

وان تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وان مشى الى هرولت اليه وان استغفرني غفرت له وان استقالني أقلته وان تاب الى تبت عليه ، من أعظم مني جودا وكرما وأنا الجواد الكريم ، عبيدى يبيتون يبارزونني بالعظائم وأنا أكلؤهم في مضاجعهم وأحرسهم على فرشهم، من أقبل الى تلقيته من بعيد ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد ومن أراد مرادى أردت ما يريد ، أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتى وأهل طاعتى أهل كرامتى وأهل معصيتى لا أقنطهم - وفي لفظ - لا اوئسهم من رحمتى، ان تابوا فأنا حبيبهم فانى أحب التوابين وأحب المتطهرين وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لاطرهم من المعايب» والله الموفق .

التنبيه الثانى هل تجب التوبة من الصغائر ؟

((التنبيه الثانى))

تقدم ان الصحيح المعتمد وجوب التوبة حتى من الصغائر كالكبائر ، وقيل لا تجب من الصغائر توبة لانها تقع مكفرة باجتناب الكبائر لقوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما) قال الحافظ ابن رجب أوجب أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم التوبة من الصغائر كالكبائر، وقد أمر الله سبحانه عقيب ذكر الصغائر والكبائر بالتوبة في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) الى قوله (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون) الآية وأمر بالتوبة من الصغائر بخصوصها بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم.) الى قوله (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) قال الحافظ ومن الناس من لا يوجب التوبة من الصغائر وحكى عن طائفة من المعتزلة . ومن المتأخرين من أوجب أحد أمرين اما التوبة منها أو الاتيان ببعض المكفرات للذنوب من الحسنات. وحكى ابن عطية في تفسيره في تكفير الصغائر بامتثال الفرائض واجتناب الكبائر قولين أحدهما وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث انه يقطع بتكفيرها بذلك قطعا لظاهر الآية والحديث، وحكى عن الاصوليين انه لا يقطع

بتكفيرها بل يحمل على غلبة الظن وقوة الرجاء وهو في مشيئة الله تعالى اذ لو قطع بتكفيرها لكانت الصغائر في حكم المباح الذى لا تبعة فيه وذلك نقض لعرى الشريعة • قال الحافظ لا يقطع بتكفيرها لان أحاديث التكفير المطلقة بالاعمال جاءت مقيدة بتحسين العمل كما ورد ذلك في الوضوء والصلاة وحينئذ فلا يتحقق وجود حسن العمل الذى يوجب التكفير ، وعلى هذا الاختلاف ينبني وجوب التوبة من الصغائر وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار • وروى مرفوعا من وجوه ضعيفة • واذا صارت الصغائر كبائر بالمداومة عليها فلا بد للمحسنين من اجتناب المداومة على الصغائر حتى يكونوا مجتنبين لكبائر الاثم والفواحش وقد قال تعالى (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فهذه الآيات تضمنت وصف المؤمنين بقيامهم بما أوجب الله عليهم من الايمان والتوكل واقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله والاستجابة لله في جميع طاعاته ومع هذا هم مجتنبون كبائر الاثم والفواحش فهذا تحقق التقوى ، ووصفهم في معاملتهم للخلق بالمغفرة عند الغضب وندبهم الى العفو والاصلاح • وأما قوله تعالى (والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون) فليس منافيا للعفو فان الانتصار يكون باظهار القدرة على الانتقام ثم يقع العفو بعد ذلك فيكون اتم وأكمل قال النخعي في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فاذا قدروا عفوا ، وقال مجاهد كانوا يكرهون للمؤمن أن يذل نفسه فيجترىء عليه الفساق فالمؤمن اذا بغي عليه يظهر القدرة على الانتقام ثم يعفو بعد ذلك وبالله التوفيق •

التنبيه الثالث
هل يبلغ العبد حالا لا تقبل توبته فيها

((الثالث))

تنازع الناس في العبد هل يصير الى حال يمتنع عليه فيه قبول التوبة اذا أرادها فصوب شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ان التوبة ممكنة من

كل ذنب لمن أرادها ويمكن أن الله يغفر له ، قال وهذا الذى عليه أهـــل السنة والحمهور وقد فرض بعض الناس ان من توسط أرضا مغصوبة ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له الى التوبة، قال والصحيح ان هذا وغيره اذا تاب قبل الله توبته فان خروج من توسط أرضا مغصوبة بنية تخلية المكان وتسليمه الى مستحقه ليس بمنهى عنه ولا محرم بل الفقهاء متفقون على ان من غصب دارا وترك فيها قماشه وماله اذا أمر بتسليمها الى مستحقها فانه يؤمر بالخروج منها وباخراج أهله وماله منها وان كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل اخلائهـــا وقد قال تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) الآيات فهذه في حق التائبين واما آية النساء وهى قوله (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة فان التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضـا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين وقد خص الله تعالى فى هده الآيةالشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وفي هذه الآية رد على الخوارج والمعتزلة كما ان فيها ردا على المرجئة والجبرية لانه سبحانه علق المغفرة بالمشيئة فلو كان يغفـــر لكل أحد بطل قوله : لمن يشاء ، ولو كان لا يغفر لأحد بطل قوله : ويغفـــر ما دون ذلك لمن يشاء ، فدلت الآية على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك لكنها لبعض الناس وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة وسلف الامة وسائر الائمة وهو القطع بأن من عصاة الامة من يدخل النار ومنهم من يغفر له • والمقصود أن الآية الاولى فيها النهى عن القنوط من رحمة الله وان عظمت الذنوب وكثرت فليس لأحـــــد أن يقنط من رحمة الله وان كثرت ذنوبه وعظمت ولا أن يقنط الناس من رحمة الله ، قال بعض السلف ويروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على

معاصى الله • والقنوط بأن يعتقد ان الله لا يغفر له اما لكونه اذا تاب لا يقبل الله توبته ولا يغفر له ذنوبه واما ان نفســـه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب والشيطان ونفسه قد استحوذا عليه فييأس من توبة نفسه وان عـــلم بأنه اذا تاب غفر له ، وهذا يعترى كثيرا من الناس والقنوط يحصل بهـذا تارة وبهذا تارة ، فالاول كالراهب الذى أفتى قاتل تسع وتسعين نفسا ان الله لا يغفر له فقتله وكمل به المائة ثم دل على عالم فسأله فأفتاه بأن الله يقبـــل توبته والحديث في الصحيحين ، والثانى كالذى يرى للتوبة شروطا كثيرة أو يقال له ان للتوبة شروطا كثيرة يتعذر عليك فعلها والاتيان بها فييأس من أن يتوب وقد نهى الله عن ذلك وأخبر انه يغفر الذنوب جميعا والمـراد ان الله يغفر الذنوب ولم يخبر سبحانه انه يغفر لكل مذنب بل أخبر تعالى انه لا يغفر لمن مات كافرا فقال (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) وقال في حق المنافقين (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) وليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب بحال بل ما من ذنب الا والله يغفره في الجملة ، وهذه الآية عظيمة جامعـــة من أعظم الآيات نفعا وفيها رد على طوائف كما سنوضحه فيما يأتى ان شاء الله تعالى •

((الرابع))

التنبيه الرابع تصح التوبة من ذنب مع الاصرار على آخر

تصح التوبة في المعتمـــد من ذنب مع الاصرار على اخر عـــد السلف والخلف ، وقالت طائفة من متكلمى المعتزلة كأبى هاشم بن أبى على الجبائى لا تصح التوبة الا من الجميع ، وحكى القاضى وابن عقيل رواية عن الامام أحمد رضى الله عنه تدل على مثل هذا ، والمعروف من مذهبه هو الاول وما روى عنه محمول على أنها ليست توبة تجعله تائبا مطلقـــا فان الذى ذكره المروذى عنه انه سئل عمن تاب عن الفاحشـــة ولم يتب عن النظر فقال أى توبة ذه ؟ وهذا لا يعطى ما قالوه عنه وانما أراد انهـــا ليست توبة عامة ، فان نصوصه المتواترة عنه خلاف ذلك فحمل كلامه على ما توافقه أولى لا سيما اذا كان القول الآخر مبتدعا لا يعرف له سلف كما قاله شيخ الاسلام في

فتاويه ، قال والامام أحمد رضى الله عنه من أشد الناس توصية بالسنة والاتباع وتوصية باتباع السلف وترك الابتداع ، قال شيخ الاسلام ومن تاب من بعض ذنوبه فالتوبة تقتضى مغفرة ما تاب منه فقط ،قال وماعلمت فيه نزاعا الا في الكافر اذا أسلم فان اسلامه يغفر له الكفر وهل يغفر له الذنوب التى فعلها في حال كفره ولم يتب منها في الاسلام ؟ على قولين معروفين ،الصحيح انه اذا لم يتب من الذنب بقى على حكمه ولا يغفر الا بمشيئة الله تعالى كغيره من المسلمين الذين عملوا في الاسلام • انتهى • واذا تاب الانسان توبة عامة فهى تتناول كل ما رآه ذنبا لان التوبة العامة تتضمن عزما عاما لفعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور • والندم سواء قيل انه من باب الاعتقادات أو من باب الارادات أو من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ، فاذا استشعر القلب انه فعل ما يضره حصل له معرفة بأن الذى فعله كان من السيئات وهذا من باب الاعتقادات، وكراهة ما كان فعله وهو من جنس الارادات، وحصل له أذى وغم لما كان فعله وهذا من باب الآلام كالغموم والاحزان ، وعلى كل فمن تاب توبة عامة كانت مقتضية لغفران الذنوب كلها وان لم يستحضر أعيان الذنوب الا أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة ارادته أو لاعتقاده انه حسن فلا يدخل في التوبة • وقال الامام النووى انها تصح من ذلك الذنب عند أهل الحق وهو الذى ذكره القرطبى انه خلاف قول المعتزلة يعنى صحة التوبة من بعض الذنوب دون بعض • قال العلامة ابن مفلح في الآداب : أما صحة التوبة عن بعض الذنوب فهى أصل السنة وانما يمنع صحتها المعتزلة القائلون بالاحباط وانه لا تنفع طاعة مع معصية فأما من صحح الطاعة مع المعاصى صحح التوبة من بعض المعاصى • وقال ابن عقيل في الفنون قال بعض الأصوليين لا تصح التوبة من ذنب مع الاصرار على غيره فان الانسان لو قتل لانسان ولدا وأحرق له بيدرا ثم اعتذر عن احراق البيدر دون قتل الولد لم يعد اعتذارا وهذا أحد الروايتين عن الامام أحمد رضى الله عنه والمعتمد الصحة وبالله التوفيق •

((الخامس))

التنبيه الثالث التوبة من مظالم العباد

من اغتاب انسانا أو قذفه ونحوه هل يشترط لصحة توبته اعلامه بذلك واستحلاله من ذلك ؟ أما المال وما يجوز أن يعتاض عنه بمثله أو قيمته فلا بد من الرد ان قدر، قال في الهداية : مظالم العباد تصح التوبة منها على الصحيح في المذهب وهو قول ابن عباس ومن مات نادما عليها كان الله عز وجل المجازى للمظلوم عنه - يعنى حيث لم يقدر على رد المظلمة- وفي الخبر « لا يدخل النار تائب من ذنوبه » وفي الرعاية يرد ما أثم به وتاب بسببه بذله الى مستحقه وينوى ذلك اذا أمكنه أو تعذر رده في الحال ، فالمشهور عند الجمهور لا يجب الاعلام ولا الاستحلال ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية انه قول الاكثرين وانه ان تاب من قذف انسان أو غيبته قبل علمه به لا يشترط لتوبته اعلامه والتحلل منه ، واختاره القاضى لما روى أبو محمد الخلال باسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا « من اغتاب رجلا ثم استغفر له بعد غفر له غيبته » وباسناده أيضا عن أنس مرفوعا « كفارة من اغتيب أن يستغفر له » ولان فى اعلامه ادخال غم عليه ، قال الشيخ عبدالقادر قدس الله سره في الغنية ان كفارة الاغتياب ما روى أنس رضى الله عنه - وذكره • وخبر أنس المذكور ذكره الحافظ ابن الجورى في الموضوعات وفيه عنبسة بن عبد الرحمن متروك، وذكر مثله من حديث سهل بن سعد وفيه سليمان بن عمرو كذاب • ومن حديث جابر وفيه حفص بن عمر الأبلى متروك • وذكر ابن الجوزى أيضا حديث أنس في كتابه الحدائق وقال انه لا يذكر فيها الا الحديث الصحيح • قلت وقد ذكر في مختصر الموضوعات ان حديث أنس ذكره البيهقى فى الدعوات وقال : فى هذا الاسناد ضعف • وله شاهد عن الامام عبد الله بن المبارك من قوله أخرجه البيهقى في الشعب وأورد له شاهدا حديث حذيفة : كان في لسانى ذرب على أهلى فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أين أنت من الاستغفار » ثم أوله على أن الامر بالاستغفار رجاء أن يرضى عنه خصمه يوم القيامة ببركة استغفاره • وذكر الامام ابن القيم في كتابه الكلم الطيب والعمل الصالح ما لفظه : يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ان كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبته تقول

اللهم اغفر لنا وله وذكره البيهقى في الدعوات الكبير وقال ابن عبد البر في كتاب بهجة المجالس قال حذيفة رضى الله عنه كفارة من اغتبته ان تستغفر له ، وقال عبد الله بن المبارك لسفيان بن عيينة التوبة من الغيبة ان تستغفر لمن اغتبته ، قال سفيان بل تستغفره مما قلت فيه، فقال ابن المبارك لا تؤذه مرتين. ومثل قول ابن المبارك اختار شيخ الاسلام ابن تيمية وابن الصلاح الشافعى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه بعد أن ذكر الروايتين فى المسألة : فكل مظلمة فيالعرض من اغتياب صادق وبهت كاذب فهو فىمعنى القذف اذ القذف قد يكون صادقا فيكون غيبة وقد يكون كاذبا فيكون بهتا ، قال واختار أصحابنا انه لا يعلمه بل يدعو له دعاء يكون احسانا اليه فيمقابلة مظلمته فان تضرر الانسان بما علمه من شتمه أبلغ من تضرره بما لا يعلم،ثم قد يكون الاعلام سبب العدوان على الظالم أولا اذ النفوس لا تقف غالبا عند العدل والانصاف ، وأيضا فيه زوال ما كان بينهما من كمال الالفة والمحبة أو تجدد القطيعة والبغضة والله تعالى أمر بالجماعة ونهى عن الفرقة . فعلى هذا لو سأل المقذوف والمسبوب قاذفه هل فعل ذلك أم لا لم يجب عليه الاعتراف على الصحيح من الروايتين اذ توبته صحت فى حق الله تعالى بالندم وفي حق العبد بالاحسان اليهبالاستغفار ونحوه . وهل يجوز الاعتراف أو يستحب أو يكره أو يحرم ؟ الاشبه ان ذلك يختلف باختلاف الاحوال. وعلى هذا لو استحلف على ذلك جاز له أن يحلف ويعرض لانه مظلوم بالاستحلاف فاذا كان تاب وصحت توبته لم يبق لذلك عليه حق فلا تجب اليمين عليه . قال شيخ الاسلام ابن تيمية طيب الله ثراه قد سئلت عن نظير هذه المسألة وهو رجل تعرض لامرأة غيره فزنى بها ثم تاب من ذلك وسأله زوجها عن ذلك فأنكر فطلب استحلافه فان حلف على نفى الفعل كانت يمينه غموسا وان لم يحلف قويت التهمة وان أقر جرى عليه وعليها من الشر أمر عظيم قال فأفتيته أن يضم الى التوبة فيما بينه وبين الله تعالى الاحسان الى الزوج بالدعاء والاستغفار أو الصدقة عنه ونحو ذلك مما يكون بازاء ايذائه له في أهله فان الزنا بها تعلق به حق الله تعالى وحق زوجها من جنس حقه في عرضه وليس هو مما يجبر بالمثل كالدماء والاموال بل هو من جنس

القذف الذى جزاؤه من غير جنسه فتكون توبة هذا كتوبة القاذف وتعريضه كتعريضه وحلفه على التعريض كحلفه • وأما لو ظلمه في دم أو مال فلا بد من ايفاء الحق فان له بدلاً وقد نص الامام أحمد رضى الله عنه على الفرق بين توبة القاتل وتوبة القاذف • قال العلامة ابن مفلح : وفي هذا خلاص عظيم وتفريج كربات النفوس من آثار المعاصى والمظالم فان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله عز وجل ولا يجرئهم على معاصيه وجميع النفوس لا بد أن تذنب فتعريف النفوس ما يخلصها من الذنوب من التوبة والحسنات الماحيات كالكفارات والعقوبات من أعظم فوائد الشريعة وبالله التوفيق •

حال من مات ولم يتب

((ومن)) أى أى امرىء مذنب ((يمت)) أي يدركه الموت وهو مصر على ذنوبه ومنهمك في شهواته ((ولم يتب من الخطأ)) الذى ارتكبه والاثم الذى اكتسبه لم نحكم عليه بالكفر كما زعمت الخوارج، ولم نقل انه خرج من الاسلام بارتكابه كبائر الآثام ولم يدخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتى الكفر والاسلام كما زعمت المعتزلة، ولا نحكم عليه بالخلود في النار بل ولا بدخولها بل نقول في من مات مصرا على كبائر الذنوب والخطايا ((فأمره)) الذى يؤل اليه ((مفوض)) أى موكول ومردود ((لذى)) أى صاحب ((العطا)) الواسع والكرم والجود والنعم والعطا ويمد النوال وفى الاسماء الحسنى المعطى أي يعطى من يريد ما يريد ومن ثم قال ((فان يشا)) سبحانه وتعالى ((يعف)) أى يتجاوز عمن مات مرتكبا لذنوبه ولم يتب منها والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو وذهاب الاثر وفى الاسماء الحسنى العفو هو فعول من العفو الذى هو التجاوز ((وان شاء انتقم)) منه فان عامله بالفضل عفا وأنعم وان عامله بالعدل انتقم وآلم، والانتقام ان يبلغ في العقوبة حدها وفي الاسماء الحسنى المنتقم وهو المبالغ في العقوبة لمن يشاء وهو مفتعل من نقم ينقم اذا بلغت به الكراهة حد السخط ((وان يشأ أعطى)) النوال السهل ((وأجزل)) أى أكثر وأعظم لهم ((النعم)) بكسر النون المشددة وفتح العين المهملة جمع نعمة بكسر النون وسكون العين المهملة والاسم بالفتح قال في القاموس النعمة بالكسر

المسرة واليد البيضاء الصالحة كالنعمى بالضم والنعماء بالفتح ممدودة واجمع أنعم ونعم ونعمات بكسرتين وبفتح العين ونعيم الله عطيته • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه الجيوش الاسلامية : النعمة نعمتان نعمة مطلقةونعمةمقيدة فالنعمة المطلقة هى المتصلة بسعادة الابد وهى نعمة الاسلام وهى التى أمرنا الله سبحانه وتعالى ان نسأله في صلاتنا ان يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الاعلى حيث يقول (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) فهؤلاء الاصناف الاربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وهم المعنيون بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) واذا قيل ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح ، والنعمة الثانية هى النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد والزوجة الحسنة وأمثال ذلك فهذه مشتركة بين البر والفاجر والمؤمن والكافر واذا قيل لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق ، فلا يصح اطلاق السلب ولا الايجاب الا على وجه واحد وهو ان النعم المقيدة لما كانت استدراجا للكافر ومآلها الى العذاب والشقاء فكأنها لم تكن نعمة وانما كانت بلية كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك فقال (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) الآيتين ولهذا قال (كلا) أى ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها فقد أنعمت عليه وانما دلك ابتلاء منى واختبار ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته من غير فضلة أكون قد أهنته بل أبتلى عبدى بالنعم كما أبتليه بالمصائب •

والحاصل ان مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة ان من مات مذنبا ولو مصرا على كبائر الذنوب ولم يتب منها لعلام الغيوب لم نقطع له بخروج من الدين بل نثبت انه من المؤمنين ولم نقطع له بدخول النار بل نفوض أمره الى الحليم[١] الغفار فان شاء عذبه غير أنه لا يخلده في النار وان شاء عفا عنه ابتداء اما بشفاعة مقبولة أو بدعوة صالح أو بمصيبة من تشديد عند الموت أو غيره من مصائب البرزخ والصدقة عند الموت والاعمال الصالحة

---

(١) مخ « العزيز » •

التى يهد بها غيره له أو يرحمه أرحم الراحمين ونحو ذلك ، وان شاء رفع عنه العذاب وأجزل له الثواب ورفع له الدرجات وبدل الله سيئاته حسنات.

تنبيهان الاول يقال لهذه المسألة مسألة وعيد الفساق

تنبيهان

هذه المسألة يترجمها بعض القوم بمسألة وعيد الفساق وبعضهم بمسألة عقوبة العصاة وبعضهم بمسألة انقطاع عذاب أهل الكبائر، وضابطها ان يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استحلال ويموت بلا توبة، وقد اختلف الناس في حكمه كما تقدم فأهل السنة لا يقطعون له بالعقوبة ولا بالعفو بل هو في مشيئة الله تعالى وانما يقطعون بعدم الخلود فى النار بمقتضى ما سبق من وعده وثبت بالدليل خلافا للمعتزلة في قولهم نقطع له بالعذاب الدائم والبقاء المخلد في النار لكنه عندهم يعذب عذاب الفساق لا عذاب الكفار ، وأما الخوارج فعندهم انه يعذب عذاب الكفار لكفره عندهم ، والدليل لمذهب أهل الحق الآيات والاحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة فان كان بعد العذاب ودخول النار فهى مسألة انقطاع العذاب وان كان قبل ذلك فهى مسألة العفو التام قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * - ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا اله الا الله دخل الجنة » وقال « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وان زنى وان سرق » وكقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار قوم بعد ما امتحشوا وصاروا حمما وفحما فيفرقون على أنهار الجنة ويرش عليهم من مائها فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فيحيون ويعودون لحالهم الاولى وأحسن » وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » وسيأتى تمام هذا بعد ان شاء الله تعالى .

التنبيه الثاني لا بد من نفوذ الوعيد فى الجملة

((الثانى))

ذكر بعض المحققين انعقاد الاجماع على أنه لا بد سمعا من نفوذ الوعيد في طائفة من العصاة أو طائفة من كل صنف منهم كالزناة وشربة الخمر

وقتلة الانفس وأكلة الربا وأهل السرقة والغصوب اذا ماتوا على غير توبة فلا بد من نفوذ الوعيد في كل طائفة من كل صنف لا لفرد معين لجواز العفو وأقل ما يصدق عليه نفوذ الوعيد واحد من كل صنف والادلة قاضية بقصر العصاة على عصاة الموحدين وقد رتب بعض الناس على ذلك امتناع سؤال العفو لجميع المسلمين لمنافاته لذلك وهذا ساقط الا اذا قصد العفو ابتداء لكل فرد من أفراد الامة على أن العفو يصدق بما بعد العذاب والتعذيب فمن قال بمنع المنع فهو المصيب وبالله التوفيق •

* * *

فصل فيما قيل من عدم قبول اسلام الزنديق ونحوه

((فصل في ذكر من قيل بعدم قبول اسلامه

من طوائف أهل العناد والزندقة والالحاد))

أعلم وفقنى الله واياك ان علماءنا ذكروا تحتم قتل جماعة من الزنادقة وأهل الالحاد لعدم قبول اسلامهم بحسب الظاهر كالزنديق ومن تكررت ردته أو كفر بسحره أو سب الله أو رسوله أو تنقصه ، واما حكمهم في الآخرة فان صدقوا قبل بلا خلاف وعن الامام أحمد رضى الله عنه رواية ثانية ان توبتهم تقبل كغيرهم وهذا الذى نختاره ولهذا قال .

((وقيل في الدروز والزنادقة	وسائر الطوائف المنافقه)
((وكل داع لابتداع يقتل	كمن تكرر نكثه لا يقبل))
((لأنه لم يبد من ايمانه	الا الذى أذاع من لسانه))
((كملحد وساحر وساحره	وهم على نياتهم في الآخره))
((قلت وان دلت دلائل الهدى	كما جرى للعيلبونى اهتدى))
((فانه أذاع من أسرارهم	ما كان فيه الهتك عن استارهم))
((وكان للدين القويم ناصرا	فصار منا باطنا وظاهرا))
((فكل زنديق وكل مارق	وجاحد وملحد منافق))
((اذا استبان نصحه للدين	فانه يقبل عن يقين))

لمحة عن الاسماعيلية

((وقيل)) وهو المذهب فقها[١] ((في)) طوائف ((الدروز)) من الحمزاوية اتباع حمزة المدعو عندهم بهادى المستجيبين والبرذعي والدرزى وغيرهم من الحاكمين القائلين بالهية الحاكم العبيدى وكان أخصهم بالحاكم وأعجبهم اليه حمزة المدعو بهادى المستجيبين وهو حمزة اللباد وكان أعجميا من الزورى فأظهر الدعاء الى عبادة الحاكم وزعم ان الاله حل فيه واجتمع اليه جماعة من غلاة الاسماعيلية وكثر جمعه ومن دخل في دعوته وشاع ذلك فظهر وكان الحاكم اذا ركب الى تلك الجهة التى هو بها فانه كان مقيما في المسجد الذى عند سقاية زيدان بظاهر باب النصر من مصر خرج اليه من المسجد وانفرد به ويقف الحاكم له راكبا فيحادثه ويفاوضه وارتفع شأن هذا الملعون واتخذ لنفسه خواصا لقبهم بألقاب منهم رجل لقبه بسفير القدرة وجعله رسولا فكان يرسله لأخذ البيعة على مايعتقده الحاكم ، ثم نبغ شاب من موالى الاتراك اسمه أنوشتكين البخارى ويعرف بالدرزى فسلك طريق الزورى فكثر تبعه والمتابون اليه واليه تنسب طائفة الدروز وكان أيضا يقف للحاكم ويخلو به ويقرر معه ما يفعله وسمى نفسه سيد الهادين وحياة المستجيرين ، وهؤلاء وأتباعهم ومن نحا نحوهم هم الطائفة الموسومة بالاسماعيلية . قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الاسماعيلية كانوا ملوك مصر القاهرة وكانوا يزعمون انهم خلفاء علويون فاطميون وهم عند أهل العلم من ذرية عبيد الله القداح وقال فيهم الامام أبو حامد الغزالى في كتابه الذى صنفه عليهم : ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض . وقد جزم شيخ الاسلام بكفر الاسماعيلية في محلات متعددة من مصنفاته وانهم من القرامطة النصيرية وانهم أشد كفرا من الغالية الذين يقولون بالهية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ونبوته . وعبيد الله هو الملقب بالمهدى أول العبيديين والمحققون ينكرون دعواه فى نسبته لآل البيت ويقولون ان اسمه سعيد ولقبه عبيد الله وزوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح وسمى قداحا لانه كان كحالا يقدح العين التى ينزل فيها الماء وسموا بالاسماعيلية نسبة الى عبيد الله بن محمد بن اسماعيل

---

(١) مخ « وهو مذهب فقهائنا ».

ابن جعفر • وهو (؟) أبو طاهر المنصور بن القائم بن المهدى صاحب افريقية وهم أهل هذه البدعة ، ويقال ان جدهم كان يهوديا ولا مزيد على ما هم عليه من الكفر والالحاد والزندقة والعناد وقد فشت نحلتهم وانتشرت بدعتهم وكثرت وعظم ضررها واستفحل كفرها وشررها ولا سيما في شوف[1] ابن معن ونواحي كسروان وفي الكرمل ونواحي عكا وتلك البلدان والله المستعان •

((والزنادقة)) جمع زنديق قال في المطلع الزنديق فارسى معرب وجمعه زنادقة قال سيبويه الهاء في زنادقة بدل من (ياء) زناديق • قال الجوهرى وقد تزندق والاسم الزندقة • قال ثعلب ليس زنديق ولا فرزين من كلام العرب انما يقولون زندق وزندقى اذا كان شديد البخل • وفي القاموس الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان أو معرب زن دين أى دين المرأة قال والجمع زنادقة أو زناديق • انتهى • قال الامام الموفق في المغنى : الزنديق هو الذى يظهر الاسلام ويخفى الكفر كان يسمى منافقا ويسمى اليوم زنديقا• ومن ثم قال ((وسائر)) أى بقية ((الطوائف)) جمع طائفة وهى القطعة أو الواحد فصاعدا أو الى الالف أو أقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس ـ كله من القاموس • وقال في النهاية الطائفة الجماعة من الناس ويقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة، قال وسئل اسحاق بن راهويه عنه فقال : الطائفة دون الالف ((المنافقة)) من النفاق وهو ابطان الكفر واظهار الايمان قال في النهاية قد تكرر في الاحاديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسما وفعلا، قال وهو اسم اسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ـ وهو الذى يستر كفره ويظهر ايمانه ـ وان كان أصله في اللغة معروفا يقال نافق ينافق منافقة ونفاقا وهو مأخوذ من النافقاء احدى جحرة اليربوع اذا طلب من واحد هرب الى الآخر وخرج منه ، وقيل هو من النفق وهو السرب الذى يستتر فيه لستره كفره • قال الامام أبو حامد الغزالى في كتابه التفرقة بين الايمان والزندقة: فأما ما يتعلق بهذا الجنس ـ يعنى التأويلات البعيدة بأصول العقائد المهمة ـ قال : وأصول الايمان ثلاثة الايمان بالله وبرسوله وباليوم

---

(١) مخ « سوق »

الآخر ، وما عداه فروع فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذى ينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع فيجب تكفيره قطعا.ويجب تكفير من قال منهم ان الله عز وجل لا يعلم الا نفسه أو لا يعلم الا الكليات فأما الامور الجزئية المتعلقة بالاشخاص فلا يعلمها ، لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعا وليس من قبيل الدرجات التى يسوغ فيها التأويل اذ أدلة القرآن والاخبار على تفهيم حشر الاجساد وتفهيم علم الله تعالى لكل ما يجرى على الانسان مجاوزة حدا لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ، قالوا ولكن لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا حشر الاجساد لقصور عقولهم عن[1] فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم جاز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يفهمهم ذلك قالوا وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وان لم يكن كما قاله ، قال الغزالى وهذا القول باطل قطعا لانه تصريح بالتكذيب ويجب اجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة ففى الصدق واصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب ، قال وهذه أول درجات الزندقة وهى رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة فان المعتزلة تقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة الا فى هذا الامر الواحد وهو أن المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه والفلسفى لا يقتصر مجاوزته للظواهر على ما يقبل التأويل على قرب أو بعد ، قال وأما الزندقة المطلقة فهو أن ينكر أصل المعاد عقليا أو حسيا وينكر الصانع للعالم أصلا ورأسا ، قال وأما اثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية واثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل الامور فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الانبياء ، وظاهر ظنى ـقال والعلم عند الله تعالى ـ ان هؤلاء المرادون بقوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة كلهم في الجنة الا الزنادقة وهى فرقة » قال وهذا لفظ الحديث في بعض الروايات قال وظاهر الحديث يدل على أنه أراد الزنادقة من أمته اذ قال

---

(١) فى الاصلين : عر .

ستفترق أمتى ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ يزعمون ان الموت عدم محض وان العالم لم يزل كذلك موجودا لنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينسبون الانبياء الى التلبيس فلا يمكن نسبتهم الى الامة فاذا لا معنى لزندقة هذه الامة الا ما ذكرناه • انتهى • أقول أما هذا الحديث الذى ذكره فلا أصل له وتقدم الكلام عليه في صدر الكتاب وقول شيخ الاسلام ابن تيمية طيب الله مثواه بأنه موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ بل الحديث الذى في كتب السنن والمسانيد عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه انه قال « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار » وروى عنه انه قال « هى الجماعة » وفي حديث آخر « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » وتقدم الحديث والكلام عليه مستوفى عند قوله :

بان ذى الأمة سوف تفترق بضعا وسبعين اعتقادا والمحق

الأبيات • قال شيخ الاسلام ابن تيمية وأيضا لفظ الزندقة لا يوجد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يوجد في القرآن وهو لفظ أعجمى معرب من كلام الفرس بعد ظهور الاسلام وقد تكلم به السلف والأئمة في توبة الزنديق ونحو ذلك ، قال والزنديق الذى تكلم الفقهاء في قبول توبته في الظاهر المراد به عندهم المنافق الذى يظهر الاسلام ويبطن الكفر وان كان مع ذلك يصلى ويصوم ويحج ويقرأ القرآن ، وسواء كان في باطنه يهوديا أو نصرانيا أو مشركا أو وثنيا ، وسواء كان معطلا للصانع وللنبوة أو للنبوة فقط أو لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فقط فهذا زنديق وهو منافق ، وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا باجماع المسلمين وقد قال تعالى (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) قال ومثل هؤلاء المنافقين كفار في الباطن باتفاق المسلمين وان كانوا مظهرين للشهادتين

والاقرار بما جاء به الرسول ومؤدين للواجبات الظاهرة فان ذلك لا ينفعهم في الآخرة اذا لم يكونوا مؤمنين بقلوبهم باتفاق المسلمين • قال شيخ الاسلام وبهذا يظهر ضعف ما ذكره الغزالى من أنه لا معنى لزندقة هذه الأمة الا ما ذكره من الزندقة المقيدة التى هى مذهب الفلاسفة المشائين فان الزندقة في هذه الامة وغيرها باتفاق أئمة المسلمين أعم من هذا كما ذكره الفقهاء كلهم في باب توبة الزنديق وسائر أحكامه وان لم يكن لفظ الزنديق واردا فى الكتاب والسنة بل معناه عندهم المنافق ، وجميع من بلغته دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق والمنافق كافر في الباطن مسلم في الظاهر وقد أنزل الله تعالى وصف الاصناف الثلاثة في أول سورة البقرة فأنزل أربع آيات في المؤمنين وآيتين فى الكافرين وبضع عشرة آية في المنافقين • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه وعامة ما يوجد النفاق في أهل البدع فان الذى ابتدع الرفض كان منافقا زنديقا وكذلك يقال عن الذى ابتدع التجهم وكذلك رؤوس القرامطة وأمثالهم لا ريب انهم من أعظم المنافقين وهؤلاء لا يتنازع المسلمون في كفرهم • ولهذا قال :

توبة المبتدع الداعية

((وكل داع لـ)) انتحال ((ابتداع)) مكفر من بدع الضلال ، ذكر القاضى وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الامام أحمد رضى الله عنه : لا تقبل توبة داعية الى بدعة مضلة، واختارها أبو اسحاق ابن شاقلا، وفي الرعاية من كفر ببدعة قبلت توبته على الاصح ، وقيل ان اعترف بها ، وقيل لا تقبل من داعية ، والمذهب تقبل توبة من كفر ببدعة ولو داعية خلافا لابن حمدان والبليانى في عقيدتهما • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه قد بين الله تعالى انه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع • قال شيخ مشايخنا بدر الدين البليانى فى مختصر عقيدة ابن حمدان : ولا تقبل يعنى التوبة ظاهرا من داعية الى بدعته المضلة ولا من ساحر وزنديق وهو المنافق ولا ممن تكررت ردته ولذا قال ((يقتل)) الداعية لبدعته المضلة لعدم قبول توبته ظاهرا كالدرزى والزنديق وسائر طوائف المنافقين ((كمن)) أى كمكلف ((تكرر نكثه)) أى نقضه للاسلام بأن تكررت ردته واتجه العلامة الشيخ مرعى فى غايته ان أقل التكرار ثلاث • قال فى النهاية : النكث

نقض العهد والاسم النكث بالكسر ((لا يقبل)) منه بعد تكرر ردته منـــه الاسلام على ظاهر المذهب لظاهر قوله تعالى (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) وقوله (ان الذين كفروا بعدا يمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) والازدياد يقتضي كفرا متجددا أو لا بد من تقديم ايمان عليه • ولما روى الاثرم باسناده عن ظبيان بن عمارة ان ابن مسعود رضى الله عنه أتى برجل فقال له انه قد أتي بك مرة فزعمت انك تبت وأراك قد عدت فقتله ولان تكرار الردة منه يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالدين • والسبب فى عدم قبول توبة نحو المنافق ((لانه لم يبد)) للعيان ظاهرا ((من ايمانه)) الذى زعم أنه أتى به ودخل به الى الاسلام والدين القويم ((الا الذى أذاع)) أى أظهر ونشر قبل توبته ((من لسانه)) مع عدم اعتقاده للاسلام فلم يزد على ما كان يقوله ويأتى به ويذيعه فى حال كفره وكتمانه للعقيدة الفاسدة والنحلة البـــاطلة والكفر المستور شيئا وقد قال تعـــالى (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) وهؤلاء لا يظهر منهم على ما يتبين به رجوعهم فلا يظهر منهم بالتوبة خلاف ما كانوا عليه فانهم كانوا ينفون عنهم الكفر قبل ذلك وقلوبهم لا يطلع عليها فلا يكون لما قاله حكم لأن الظاهر من حال هؤلاء انهم انما يستدفعون عنهـم القتل باظهار التوبة اذا بدا منهم ما يؤاخذون به ((ك)) ما لا يقبل ايمـان ((ملحد)) مأخوذ من الالحاد وهو الميل والعدول عن الشيء ومنه حديث طهفة « لا يلطط في الزكاة ولا يلحد في الحياة » أى لا يجرى منكم ميـل عن الحق ما دمتم أحياء، قال في النهاية ورواه القتيبي لا تلطط ولا تلحد على النهى للواحد قال ولاوجه له لانه خطاب للجماعة ، وذكره الزمخشري لا نلطط ولا نلحد بالنون قال والوجه بالياء التحتية مبنيا لما لم يسم فاعله ، واللط المنع وفى حديث أنشأت تلطها أى تمنعها حقها ، وفى كلام الاعشى الحرمازى فى شأن امرأته (اخلفت الوعد ولطت بالذنب) أرادمنعته بضعها من لطت الناقة بذنبها اذا سدت فرجها به اذا أرادها الفحل • قال في كنز الاسرار: الملاحدة والزنادقة هم الذين يسبون الله عز وجل أو واحدا من أنبيائه وكذلك من سب النبى صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه

حكم من سب الله أو أحد أنبيائه

أو دينه أو خصلة من خصاله أو شبهه بشيء على طريق التشويه أو الازراء عليه أو التصغير لشأنه ، قال في الفروع ويقتل من سب الله أو رسوله ، نقل حنبل عن الامام احمد رضى الله عنه : أو تنقصه ولو تعريضا • وقال من عرض بشيء من ذكر الرب فعليه القتل مسلما كان أو كافرا • قال وهو مذهب أهل المدينة • وسأله ابن منصور ما الشتيمة التى يقتل بها ؟ قال نحن نرى في التعريض الحد • وفي فصول ابن عقيل عن الاصحاب لا تقبل توبته ان سب النبى صلى الله عليه وسلم لانه حق آدمى لم يعلم اسقاطه وأما ان سب الله فتقبل توبته لانه يقبل التوبة فى خالص حقه •

((و)) ك ((ساحر وساحرة)) ممن يكفر بسحره من ذكر أو أنثى لما روى جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حد الساحر ضربه بالسيف » رواه الترمذى والدارقطنى • وعن بجالة ابن عبدة قال كنت كاتبا لجزء بن معاوية عم الاحنف بن قيس فأتانا كتاب عمر قبل موته بسنة ان اقتلوا كل ساحر وساحرة وفرقوا بين كل ذى رحم محرم من المجوس وأنهوهم عن الزمزمة ـ فقتلنا ثلاث سواحر وجعلنا نفرق بين الرجل وحريمه • رواه الامام أحمد وأبو داود وللبخارى منه التفريق بين ذى المحارم • وروى الامام مالك في الموطا عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة انه بلغه أن حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت • وكل من قلنا ان اسلامه لا يقبل بل حكمه ان يقتل يعنى بحسب الظاهر في الدنيا ((وهم)) يعنى الزنادقة والدروز والمنافقة ونحوهم يبعثون ((على نياتهم في)) الدار ((الآخرة)) فمن صدق منهم في توبته قبلت باطنا ونفعه ذلك بلا خلاف كما ذكره الامام ابن عقيل وموفق الدين ابن قدامة وغيرهما ، وقيل يقبل الاسلام والتوبة من كل من ذكر حتى فى الدنيا • قال الامام ابن عقيل التوبة من سائر الذنوب مقبولة خلافا لاحدى الروايتين عن الامام أحمد رضى الله عنه: لا تقبل توبة الزنديق • قال ابن عقيل اذا أظهر لنا الزنديق التوبة والرجوع عن زندقته يجب أن نحكم بايمانه ظاهرا وان جاز أن يكون عند الله عز وجل كافرا ، قال ولان الزندقة نوع كفر فجاز أن تحبط بالتوبة كسائر

الكفر من التوثن والتمجس والتهود والتنصر اذ ليس علينا معـــرفة الباطن جملة وانما الماخوذ علينا حكم الظاهر فاذا بان لنا فى الظاهر حسن طريقته وتوبته وجب قبولها ولم يجز ردها لما بينا وان جميع الاحكام تتعلق بها • والولم أجد لهم ـ يعني القائلين بعدم القبول ـ شبهةأو ردها الا أنهم حكوا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قتل زنديقا ولا أمنع من ذلك وان الامام اذا رأى قتله لانه ساع في الارض بالفساد ساغ له ذلك وأما ان تكون توبته لا تقبل بدلالة ان قطاع الطريق لا يسقط الحد عنهم بعـــد القدرة ويحكم بصحتها عند الله عز وجل في غير اسقاط الحد عنهم فليس من حيث لم يسقط القتل لا تصح التوبة ، ولعل الامام أحمد رضى الله عنه عنى بقوله لا تقبل في اسقاط القتل فيكون ما قبله هو مذهبه رواية واحدة ، قال وكمن قال لا تقبل توبة المبتـــدع فانا لا نمنع أن يكون مطالبا بمظـــالم الآدميين ولكن لا يمنع هذا صحة التوبة كالتـــوبة من السرقة وقتل النفس وغصب الاموال صحيحة مقبولة والاموال والحقوق للآدمى لا تسقط ويكون الوعيد راجعا الى ذلك ويكون نفى القبول عائدا الى القبول الكامل • وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه رادا قول من قال الداعية الى البدعـــة لا يغفر له ولا تقبل توبته قال : ويحتجون بحديث الاسرائيلى وفيه انه قيل له : فكيف بمن أضللت ؟ وهذا تقوله طائفة ممن ينسب الى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك كأبى على الاهوازى وأمثاله ممن لا يميزون بين الاحاديث الصحيحة والموضوعة وما يحتج به بل يروون كل ما في البـــاب محتجين به وقد حكى هذا طائفة قولا في مذهب الامام أحمد ورواية عنه ، وظاهر مذهبه مع سائر مذاهب أئمة المسلمين انه تقبل توبة الداعية الى الكفر وتوبة من فتن الناس عن دينهم وقد تاب قادة الاحزاب مثل أبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم وحضهم عليه من قتـــل وكانوا من أحسن الناس اسلاما وغفر الله لهم كما قال تعالى (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وكذلك عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة الى الكفر والايذاء للمسلمين وقد قال له النبى صلى الله عليه

وسلم لما أسلم « يا عمرو أما علمت ان الاسلام يجب ما قبله » فالداعي الى الكفر والبدعة وان كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا وتبعه وهذا عليه وزره ووزر من تبعه الى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فاذا تاب هذا من ذنبه غفر له ذنبه فلم يبق عليه وزره ولا وزر من تبعه ولا ما حمله هو لأجل اضلالهم وأما هم فسواء تاب من أضلهم أو لم يتب حالهم واحد ولكن توبة مثل هذا تحتاج الى ضد ما كان هو عليه من الضلال الى الهدى كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع وصاروا دعاة الى الاسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر وتعليم السحر وتعلموا ثم أسلموا وختم لهم بخير ، وكذا قاتل النفس، والجمهور على أن توبته مقبولة وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : لا تقبل ، وعن الامام أحمد في ذلك روايتان وحديث قاتل المائة في الصحيحين يرد ذلك فهو دليل على قبول توبته وآية (ان الله يغفر الذنوب جميعا) تدل على ذلك وآية النساء انما فيها وعيد قاتل النفس اذا لم يتب كسائر وعيد القرآن ، وقال وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس فبأى وجه يكون وعيد القاتل لاحقا به وان تاب ، هذا في غاية الضعف ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى لا تسقط حق المظلوم بالقتل وانما التوبة تسقط حق الله ، والمقتول له مطالبته بحقه فهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدين، وفي الصحيحين « الشهيد يغفر له كل شيء الا الدين » وحق الآدمى يعطاه من حسنات من ظلمه فمن تمام التوبة ان يستكثر العبد من الحسنات ليوفي غرماءه وتبقى له بقية يدخل بها الجنة . قال ولعل ابن عباس رضى الله عنهما رأى ان القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذى رآه يقع في بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب وأصلح وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيآت المظلوم ما يعذب به ؟ هذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) الآيات

فهى تدل على أن الله تعالى يغفر كل ذنب من الشرك وغيره من حيث الجملة فهى عامة في الافعال مطلقة في الاشخاص مختصة بالتائبين بدليل قوله تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) فاخبر انه تعالى يغفر جميع الذنوب ولم يخبر انه يغفر لكل مذنب بل قد أخبر في غير موضع انه لا يغفر لمن مات كافرا فمن تاب من الكفر قبلت توبته حيث كانت التوبة قبل مجيء العذاب وقبل الغرغرة وبالله التوفيق •

والحاصل ان شيخ الاسلام ومن نحا منحاه لم يمنع توبة تائب من زنديق ومنافق وساحر وداعية بدعة ضلالة وقاتل نفس ولا من تكررت ردته فانه قال في قوله تعالى (ثم ازدادوا كفرا) أى ثبتوا عليه حتى ماتوا وذلك لان التائب راجع عن الكفر وغيره ومن لم يتب فانه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله ثم ازدادوا كفرا بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر واستمروا عليه فهم كفروا بعد اسلامهم ثم ازدادوا كفرا أى ازداد كفرهم فهؤلاء لا تقبل توبتهم يعنى عند الموت وأما من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره فلم يزدد كفرا بل نقص بخلاف المصر على الكفر والمعاصى الى حين المعاينة فانه في ازدياد من ذلك وما بقى له زمان مخفف لبعض كفره فضلا عن هدمه والله أعلم •

وقد سئل سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه عما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل احتجز التوبة عن صاحب بدعة وحجز التوبة أى شيء معناه ؟• فقال لا يوفق ولا ييسر صاحب بدعة لتوبة • وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فقال صلى الله عليه وسلم هم أهل البدع والاهواء ليست لهم توبة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه لأن اعتقاد المبتدع الفاسد يدعوه الى أن لا ينظر نظرا تاما الى دليل خلافه فلا يعرف الحق ولهذا قال السلف ان البدعة أحب الى ابليس من المعصية، وقال أيوب السختيانى وغيره ان المبتدع لا يرجع • وقال شيخ الاسلام أيضا : التوبة من الاعتقاد الذى كثر ملازمة صاحبه له ومعرفته بحججه تحتاج الى ما يقابل ذلك من المعرفة والعلم والادلة ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم

« اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شبابهم » قال الامام أحمد وغيره لأن الشيخ قد عسا في الكفر فاسلامه بعيد بخلاف الشاب فان قلبه لين فهو قريب الى الاسلام والله أعلم • والحاصل ان الشيخ وغيره من المحققين بل وجمهور الامة وأكثر الائمة جزموا بقبول توبة كل زنديق ومنافق وملحد ومارق ظاهرا ووكلوا سريرته الى الله تعالى والمشهور فقها عدم توبتهم كما مر وقد توسطت في المسألة في ما أشير اليه بقوله :

((قلت وان دلت)) من الشخص التائب والمسلم الآيب ((دلائل الهدى)) وقرائن الاحـــوال ((كما جرى لـ)) لمرجل الصالح الفاضـــل حسن ا ((لعيلبونى)) نسبة الى بلدة عيلبون وهى بليدة ما بين قـــرية حطـــين وديرحنا كانت لطائفة منالدروز ومسكنا لهممن أعمال صفد،وكانهودرزيا من جملتهم فتاب ورجع عن كفره والحـــاده وزندقته وعناده وحسن حاله وصلحت أعماله وأقبل بقلبه وقالبه على دين الاسلام ورفض ما كان عليه من الكفر والضلال والاوهام ، فمن ظهرت منه قرائن الاحوال واتباع الهدى ورفض الضلال والاضلال كما جرى لهذا الرجل الصالح فقد ((اهتدى)) وأنقذه الله من الضلال والردى ((فانه)) أى العيلبونى ((أذاع)) أى نشر وأظهر ((من أسرارهم)) أى من أسرار طائفة الدروز وما هم عليـــه من الكفر الذى لا مزيد عليه وانتحالهم ما لا يجوز عند أحد من ســـائر أهل الملل من الوقوع على المحارم من البنات والاخـــوات وأكلهم الخنزير ورفضهم العادات وانكارهم الشرائع وارتكابهم الضلالات ((ما)) أى شيئا كثيرا ((كان فيه)) أى ذلك المذاع ((الهتك)) أى الكشف والظهـــور والابانة ((عن استارهم)) التى كانوا يكتمونها ويستترون باظهارهمالاسلام تقية مع عكوفهم على الكفر الصراح واعتقادهم ان كل ما حرمتـــه الشريعة فهو مباح ، ولهم من الاصطلاحات التى يريدون لها معان فيما بينهم غـــير ظواهرها ما هو معروف عند كل من أطلع علىعقائدهم وأظهرد العيلبونى من مقاصدهم فيجعلون الصلاة معـــرفة أسرارهم ويريدون بالصوم كتمـــان أسرارهم وبالحج قصدهم عقالهم ومن نحو هذا الهذيان ما يخالفون به جميع الاديان ، فمن ظهرت قرائن اسلامه ودلائل صدقه والتزامه فانه يقبل منـــه

الاسلام عند الخاص والعام ((وكان)) العيلبوني ومن نحا منحاه ((للدين القويم)) والهدى المستقيم ((ناصرا)) باتباعه والعكوف عليه وذم من خالفه وكشف فضائحهم واظهار قبائحهم ((فصار منا)) معشر المسلمين أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية من أهل الايمان والطاعة ((باطنا)) أى في الباطن ((وظاهرا)) فهو مسلم مقبول الاسلام في الظاهر والباطن • وكان حسن العيلبوني شاعرا لبيبا فائقا وكان حسن المطارحة طيب العشرة ارتحل الى مصر وأخذ بها عن الشمس البابلي والشيخ سلطان والنور الشبراملسى وغيرهم ودخل دمشق الشام وجاور بها فى الخانقاه السميساطيةوله شعر كثير منه القصيدة النونية التى هجا بها الدروز وهى طويلة تبلغ ثلاثمائة بيت يذكر فيها مذاهبهم الفاسدة وضلالاتهم الباردة وله غير ذلك قاله أمين حلبى في تاريخه خلاصة الاثر في أعيان المائة الحادية عشرة قال وأجود ما ظفرت له من شعره قوله :

حكى دخان علا ما فوق وجنته ... من مص غليونه اذ هزه الطرب
غيما على بدر تم قد تقطع من ... أيدى النسيم فولى وهو ينسحب
فقلت والنار في قلبى لها لهب ... لقد حكيت ولـكن فاتك الشنب

قال المحبى فى التاريخ المذكور : ثم ارتحل العيلبونى من دمشق الى عكا فأقام بها مدة وبها توفي سنة خمس وثمانين وألف رحمه الله وعفا عنه •

فالذى نختاره وندين الله به ما أشرنا اليه بقولنا ((فكل زنديق)) لا يتدين بدين ((وكل مارق)) من أهل البدع والضلالات وانتحال الاهواء وارتكاب المحالات ((و)) كل ((جاحد)) من درزى ودهرى وفيلسوفي وبرهمي ومعطل وعابد وثن وشمس ونار وغيرها ((و)) كل ((ملحد)) في آيات الله ومنكر لشرائع الله وكافر برسول الله وهو مع ذلك ((منافق)) أى ذى نفاق يبطن الكفر الذى منطو عليه ويظهر الاسلام الذى لا ركون له اليه ((اذا)) تاب مما هو عليه من الكفر والالحاد والضلال والعناد و ((استبان)) أى امتحن حاله وطلب بيانه فظهر صحة ايمانه و ((نصحه للدين)) القويم وصدق ايقانه ((فانه)) أى هذا التائب الناصح والراجع الصالح ((يقبل)) منه ذلك الرجوع والتوبة عن تلك الترهات وهو مقبول

لدى من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ((عن يقين)) وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع وانما كان كذلك لقوله تعالى (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم) الآية •

تنبيه في طوائف تدخل في الحكم السابق

((تنبيـــــه))

دخل في عموم ما ذكرنا الحلولية والاباحية ومن يفضل متبوعه علـــى الانبياء ومن يزعم انه اذا حصلت له المعرفة والتحقيق سقط عنه الامر والنهى ومن يزعم ان العارف المحقق يجوز له التدين بدين اليهود والنصارى وبأى دين شاء وانه لا يجب عليه الاعتصام بالكتاب والسنة ـ وأمثال هؤلاء الطوائف المارقين فمن صدقت توبته وصلحت سريرته ومدحت سيرته ودلت قرائن الاحوال على رجوعه عما كان مرتكبه من الافك والضلال فمقبول عند ذى المنة والافضال وبالله التوفيق •

فصل في الايمان والخلاف فيه وحول السلف انه قول وعمل

((فصـــــل))

((في الكلام على الايمان واختلاف الناس فيه
وتحقيق مذهب السلف في ذلك))

اعلم وفقك الله تعالى ان الناس اختلفوا في حقيقة الايمان لغة واصطلاحا والمشهور أن الايمان لغة التصديق واصطلاحا تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متفق عليه، ثم وقع الاختلاف هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة ابداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب اذ التصديق من أفعال القلوب ـ أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المحظورات ، وهذا هو الذى اشتهر من مذهب السلف ولذا قال :

((ايماننا قول وقصـــــد وعمل تزيده التقوى وينقص بالزلل))

((ايماننا)) معشر الاثرية من أهل السلف ما يأتى ذكره وهو فيما قيل مشتق من الامن وفيه نظر لتباين مدلولى الامن والتصديق الا أن لوحظ معنى مجازى فيقال آمنه اذا صدقه أى آمنه التكذيب وفي الآية الكريمة (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا وقد اعترض على ذلك جماعة فقالوا بل الايمان في اللغة الاقرار وعند محققى السلف ان الايمان وان قلنا هو التصديق الا أنه تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها وهذا ليس نقلا للفظ عن أصل اللغة ولا تغيرا له فان الله لم يأمرنا بايمان مطلق بل بايمان خاص وصفه وبينه وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الاعمال القلبية وأعمال الجوارح فان هذه لوازم الايمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ولهذا قال ((قول)) باللسان فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى مصدقا فليس بمؤمن كما اتفق على ذلك سلف الامة من الصحابة والتابعين لهم باحسان ((وقصد)) أى عقد بالجنان فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو منافق وليس بمؤمن خلافا للكرامية الزاعمين بأن الايمان هو القول الظاهر، واذا كان مصدقا بقلبه غير ناطق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن عند سلف الامة خلافا للجهمية ومن وافقهم من المتكلمة قال الله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) فنفى الله الايمان عن المنافقين وهذا يرد مذهب الكرامية فان المنافق ليس بمؤمن وقد ضل من سماه مؤمنا وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول وما جاء به ويعاديه كاليهود وغيرهم ممن سماه الله كافرا ولم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شيء من أحكام الايمان فهم كفار خلافا للجهمية في زعمهم انهم اذا كان العلم في قلوبهم فهم مؤمنون كاملو الايمان حتى قالوا ان ايمانهم كايمان النبيين والصديقين ، وفي الآيات القرآنية مما يرد هذا ما لا يحصى الا بكلفة كقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ((وعمل)) بالاركان وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف قال البخارى في صحيحه الايمان قول وعمل . قال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى وهو اللفظ الوارد عن السلف

الذين أطلقوا ذلك وقد روى مرفوعا باسناد ضعيف ، قال والمراد بالقول النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات ، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الايمان ومن نفاه انما هو بالنظر الى ما عند الله فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالاركان ، وأرادوا بذلك ان الاعمال شرط في كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بزيادة الايمان ونقصه كما سيأتى ، والمرجئة قالوا هو اعتقاد ونطق فقط ، والكرامية قالوا هو نطق فقط ، والمعتزلة قالوا هو العمل والنطق والاعتقاد ، والفرق بينهم وبين السلف انهم جعلوا الاعمال شرطا في صحته والسلف جعلوها شرطا في كماله ، وهذا بالنظر الى ما عند الله تعالى، أما بالنظر الى ما عندنا فالايمان هو الاقرار فقط فمن أقر أجريت عليه الاحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر الا أن اقترن باقراره فعل يدل على كفره كالسجود للصنم فان كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن اطلق عليه الايمان فبالنظر الى اقراره ومن نفى عنه الايمان فبالنظر الى كماله ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر الى أنه فعل فعل الكافر ومن نفاه عنه فبالنظر الى حقيقته، وأثبتت المعتزلة الواسطة كما مر فقالوا : الفاسق لا مؤمن ولا كافر . انتهى . وقال الحافظ ابن رجب في شرح الاربعين وغيره : المشهور عن السلف وأهل الحديث ان الايمان قول وعمل ونية وان الاعمال كلها داخلة في مسمى الايمان ، وحكى الشافعى رضى الله عنه اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم على ذلك. قال الحافظ ابن رجب : أنكر السلف على من أخرج الاعمال عن الايمان انكارا شديدا وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولا محدثا سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختيانى والنخعى والزهرى ويحيى بن أبى كثير وغيرهم ، وقال الثورى هو رأى محدث أدركنا الناس على غيره . وقال الاوزاعى كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الايمان والعمل فمن استكملها استكمل الايمان ومن لم يستكملهما لم يستكمل الايمان . ذكره الامام البخارى في صحيحه . وقد دل على دخول الاعمال في الايمان قوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم

يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا) وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لوفد عبد القيس « آمركم بأربع الايمان بالله وهل تدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله إلله وأقام الصلاة وايساء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا من المغانم الخمس » وفي الصحيحين أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الايمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » ولفظه لمسلم وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه الايمان والاسلام قال أبو القاسم الانصارى شيخ الشهرستانى في شرح الارشاد لابى المعالى بعد أن ذكر قول أصحابه الا شاعرة من انه مجرد التصديق : وذهب اهل الاثر الى أن الايمان جميع الطاعات فرضها ونفلها وعبروا عنه بأنه اتيان ما أمر الله فرضا ونفلا والانتهاء عما نهى عنه تحريما وأدبا . قال وبهذا كان يقول أبو على الثقفى من متقدمى أصحابنا وأبو العباس القلانسى ، وقد مال الى هذا المذهب أبو عبد الله ابن مجاهد ، وهذا قول مالك بن أنس أمام دار الهجرة ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين فكانوا يقولون الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان . وبعض السلف من أهل السنة زاد واتباع السنة لان ذلك لا يكون محبوبا لله تعالى الا باتباع السنة . ومنهم من اقتصر على أنه قول وعمل وأراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومن زاد الاعتقاد أى المعرفة والتصديق رأى ان لفظ القول لا يفهم منه الا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال منهم انه قول وعمل ونية قال القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا تفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن قال منهم انه قول وعمل لم يرد كل قول وعمل انما أراد ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال . قال شيخ الاسلام ابن تيمية كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط فقالوا بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الايمان ما هو ؟ فقال قول وعمل ونية وسنة

لان الايمان ان كان قولا بلا عمل فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة • ثم قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الايمان الذى أصله في القلب لا بد فيه من شيئين تصديق القلب واقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب ، قال الجنيد بن محمد رحمه الله تعالى : التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب • فلا بد فيه من عمل القلب وقوله ثم قول البدن وعمله لا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله ويحب ما يحبه الله ورسوله واخلاص العمل لله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان • ثم القلب هو الاصل فاذا كان فيه معرفة وارادة سرى ذلك الى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ،ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث « الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لهـا سائر الجسد (واذا فسدت فسد الجسد كله - ١) الا وهى القلب » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : القلب ملك والاعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده - قال شيخ الاسلام قدس الله روحه قول أبى هريرة تقريب وقول النبى صلى الله عليه وسلم أحسن بيانا فان الملك وان كان صالحا فان الجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فقد يكون فيهم صلاح مع فساده أوفساد مع صلاحه بخلاف القلب فان الجسد تابع له لا يخرج عن ارادته قط ، قال فلا بد فى ايمان القلب من حب الله ورسوله وان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) أى من المشركين وفي الآية قولان قيل يحبونهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا أشد حبا (منهم لاوثانهم ، وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا - ١) لله منهم وهذا هو الصواب فان المشركين لا يحبون الانداد مثل محبة المؤمنين لله ، والمحبة تستلزم ارادة والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الانسان محبا لله ورسوله مريدا لما يحبه الله ورسوله ارادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو

---

(١) من مخ •

لا يفعله فاذا لم يتكلم بالايمان مع قدرته دل على أنه ليس فى قلبه الايمـان الواجب الذى فرضه الله عليه ، ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الايمان مجرد تصديق القلب وعمله ثم جعلوا ايمان القلب من الايمان وظنوا انه قد يكون الانسان مؤمنا كامل الايمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى أولياء الله ويوالى أعداء الله ويقتل الانبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف يكرم الكفار ويهين المؤمنين ، قالوا وهـذه كلها معاصى لا تنافى الايمان الذى فى قلبه بل يفعل هذا وهو فى الباطـن عند الله مؤمن ، قالوا وانما ثبت له في الدنيا أحكام الكافر لان هذه الاقوال والافعال امارة على الكفر فيحكم بالظاهر كما يحكم بالاقرار والشهود وان كان الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به ، فاذاأورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الامر معذب في الآخرة قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبـه • والكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل ، والايمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فانهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو• قال شيخ الاسلام وهذا القول مع انه أفسد قول قيل في الايمان فقد ذهب اليه كثير من أهل الكلام وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح والامام أحمد وأبى عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا فابليس كافر بنص القرآن وانما كفره باستكباره وامتناعه من السجود لآدم لا لكونه كذب خبرا ، وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال موسى عليه السلام لفرعون (لقد علمت ما أنزل هـؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) فموسى هو الصادق المصدوق يقول لقـد علمت ما أنزل هؤلاء يعنى الآيات البينات الا رب السموات والارض بصائر فدل على أن فرعون كان عالما بأن اللهتعالى أنزل هذه الآيات وهو من أكثر خلق الله عنادا وبغيا لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه ، وقال تعالى في أهل الكتاب (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله تعالى فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخ الاسلام فهؤلاء غلطوا فى أصلين (أحدهما) انهم ظنوا ان الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وارادة ومحبة وخشية فى القلب ، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا فان أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات ومنازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الايمان الواجب وكل ما فيها مما أحبه الله ولم يفرضه فهو من الايمان المستحب فالاول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الابرار أصحاب اليمين والثانى للمقربين (السابقين ـ ١) (والأصل الثانى) الذى غلطوا فيه ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار فانما ذاك لانه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا فيه الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمى الفطرة وجماهير النظار فان الانسان قد يعرف الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم ان الحق معه . وعامة من كذب الرسل علموا ان الحق معهم وانهم صادقون لكن الحسد وارادة العلو والرياسة وحبهم لما هم عليه والفهم لما ارتكبوا أوجب لهم التكذيب والمعاداة لهم ، وجميع من كذب الرسل لم يأت بحجة صحيحة تقدح فى صدقهم وانما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح عليه السلام (أنؤمن لك واتبعك الارذلون) وقول فرعون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقوله لموسى (ألم نربك فينا وليدا) الآيتين وقول مشركى العرب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) قال الله تعالى رادا عليهم (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى أليه ثمرات كل شىء) بل أبو طالب وغيره كانوا مع محبتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ومحبتهم لعلو كلمته من عدم حسدهم له وعلمهم بصدقه وحملهم الفهم لدين قومهم وكراهتهم لفراقه وذم قريش لهم على عدم اتباعه على دينه القويم وهديه المستقيم فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بل لهوى الانفس ، فكيف يقال مع هذا ان كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله ؟

---

(١) من مخ .

فان قيل اذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما تقوله المعتزلة وكل هذين القولين شر من قول المرجئة فان من المرجئة جماعة من العباد والعلماء المذكورين عند الامة بخير ، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم (فالجواب) أولا مما ينبغى ان يعرف ان القول الذى لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار فان هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان • واتفقوا أيضا على أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع في من يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته كما يأتى في ذكر الشفاعة ان شاء الله تعالى • ومن بدع الخوارج الخارجة تكفيرهم للمسلم بالذنب ، وسلب المعتزلة له اسم الايمان فهو عندهم ليس بمؤمن ولا كافر كما تقدم ، وكل هذه بدع قبيحة مخالفة للصحابة والتابعين ولأئمة السلف من أهل السنة والجماعة ، والحق ما عند أهل الحق انه مؤمن ناقص الايمان فهو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق من الايمان ولا يسلب مطلق الاسم ، وما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان القاتل لا توبةلهوانه يخلد في النار فغلط فانه لم يقل أحد من الصحابة ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لاهل الكبائر ولا قال انهم يخلدون فى النار ولكن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال ان القاتل لا توبة له • والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد لما يتعلق بالقتل من حق الآدمى ، وتقدم الجواب عنه في الفصل الذى قبل هذا • وأما قول القائل ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله فممنوع وهذا هو الاصل الذى تفرعت منه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه ذهب كله ثم قالت الخوارج والمعتزلة الايمان هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الايمان المطلق كما قاله أهل الحديث قالوا فاذا ذهب شىء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شىء فيخلد في النار ، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم

كما يأتي لا يذهب من الايمان بالكبائر وبترك الواجبات الظاهرة شيء منه اذ لو ذهب منه شيء لم يبق منه شيء فيكون شيئا واحدا يستوى فيه البر والفاجر •

الايمان يزيد وينقص

ومذهب أهل الحق من السلف ومن وافقهم أن الايمان يتفاضل فيزيد وينقص ولهذا قال ((تزيده)) أي الايمان المطلق عند الاثرية من السلف ((التقوى)) هي لغة الحاجز بين الشيئين والتاء فيه مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية ، واصطلاحا التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه وقوله تعالى (هو أهل التقوى) أي أهل ان يتقى عقابه ((وينقص)) الايمان ((بـ)) ارتكاب ((الزلل)) وتعاطيه بفتح الزاى المشددة واللام من زللت تزل زلا وزليلا ومزلة بكسر الزاى وزلولا وأزله غيره واستزله والمزلة موضعه والاسم الزلة وهي الخطيئة والسقطة • والحاصل ان الايمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة أهل السنة والعرفان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه الايمان والاسلام : مذهب أهل السنة والحديث على ان الايمان يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ، ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما يروى عن الامام مالك في احدى الروايتين ، ومنهم من يقول يتفاضل كالامام عبدالله ابن المبارك • قال شيخ الاسلام وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف منهم فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الايمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته ونقصانه قال اذا ذكرنا الله ووحدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسيناها فذاك نقصانه • وروى اسماعيل بن عياش عن حريز بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدداء رضي الله عنه قال الايمان يزيد وينقص • وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حريز بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا ان أبا الدرداء قال ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد ايمانه أم ينقص ، وان من فقه الرجل ان يعلم نزغات الشيطان أنى يأتيه • وروى اسماعيل بن عياش

عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال : الايمان يزيد وينقص • وروى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه هلموا نزدد ايمانا ـ فيذكرون الله عز وجل • وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي رضي الله عنه ان الايمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد ايمانا ازدادت اللمظة • قال الاصمعي اللمظة مثل النكتة أو نحوها •

وفي نهاية ابن الاثير في حديث علي الايمان يبدو في القلوب لمظة ـ اللمظة بالضم مثل النكتة من البياض ومنه فرس ألمظ اذا كان بجحفلته بياض يسير • والجحفلة بتقديم الجيم على الحاء بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير • وروى الامام أحمد عن عبد الله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها • وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه انه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان انصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم • ذكره البخاري في صحيحه • وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا • وقال شيخ الاسلام : والآثار في هذا كثيرة جدا رواها المصنفون في هذا الباب لآثار الصحابة والتابعين في كتب كثيرة •

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) قال شيخ الاسلام : وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات ازداد قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان مالم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر مالم يكن فيزداد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذا زيادة الايمان وقال تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الله الخالق وحده وقال تعالى (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا) وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد

أو غيره ازدادوا رغبة فيه وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال (وهم يستبشرون)والاستبشار غير مجرد التصديق • وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا) الآية وهذه نزلت لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية وأصحابه فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان ، والسكينةهي طمأنينة فى القلب ، وقوله تعالى(يهدقلبه) هداه لقلبه زيادة في ايمانه كما قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

أوجه زيادة الايمان أولها

قال شيخ الاسلام قدس الله روحه زيادة الايمان الذى أمر الله به والذى يكون من عباده المؤمنين من وجوه (أحدها) الاجمال والتفصيل فيما أمروا به فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا فمعلوم أنه لا يجب في أول الامر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل عبد من الايمان المفصل ما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره فمن عرف القرآن والسنن ومعانيهما لزمه من الايمان المفصل بذلك مالم يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الايمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل ايمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها بل ايمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا فان ما وجب عليه من الايمان أكمل وما وقع منه أكمل وقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أى فى التشريع بالامر والنهى لا أن كل واحد من الامة وجب عليه ما يجب على سائر الامة وانه فعل ذلك بل الناس متفاضلون فى الايمان أعظم تفاضل •

الثانى

(الثانى)

الاجمال والتفصيل فى ما وقع منهم فمن طلب علم التفصيل وعمل به فايمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به ولم يعمل بذلك كله ، وهذا المقر المقصر فى العمل ان اعترف بذنبه وكان خائفا من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل ايمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول

ولا عمل بذلك ولا هو خائف ان يعاقب بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول مع انه مقر بنبوته باطناوظاهرا،فكل ماعمل القلب بماأخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك وان كان معه اقرار عام والتزام ، وكذلك من عرف أسماء الله تعالى ومعانيها فآمن بها كان ايمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الاسماء بل آمن بها ايمانا مجملا أو عرف بعضها ، وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته كان ايمانه أكمل .

الثالث

(الثـــالث)

ان العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب وهذا أمر يشهده كل واحد من نفسه كما ان الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس الهلال وان اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض ، وكذلك سماع الصوت وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام ، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة للمعانى التى يؤمن بها من معانى أسماء الله تعالى وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها .

الرابع

(الرابـــع)

ان التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذى لا يستلزم عمله فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به ، واذا كان شخصان يعلمان أن الله حق والرسول حق والجنة حق والنار حق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار ، والآخر علمه لم يوجب له ذلك ، فعلم الاول أكمل ، فان قوة المسبب تدل على قوة السبب وقد نشأت هذه الامور عن العلم فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس الخبر كالمعاينة » فان موسى عليه السلام لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الالواح فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر

الله لكن المخبر وان جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره اذا عاينه بل قد يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به وان كان مصدقا به ، ومعلوم انه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر (به) مالم يكن عند الخبر فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق •

الخامس

(الخامس)

ان أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا ظاهرا •

السادس

(السادس)

الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضا من الايمان والناس يتفاضلون فيها

السابع

(السابع)

ذكر الانسان بقلبه ما أمر به واستحضاره بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فان الغفلة تنقصه وكمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ولهذا قال عمير بن حبيب رضى الله عنه اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه •

الثامن

(الثامن)

قد يكون الانسان مكذبا ومنكرا لامور لا يعلم ان الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر بل قلبه جازم بأنه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ثم يسمع الآية والحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذبا به ويعرف ما كان منكرا له ، وهذا تصديق جديد وايمان جديد ازداد به ايمانه ولم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا ، وهذا وان أشبه المجمل والمفصل لكن صاحب المجمل قد يكون قلبه سليما عن تكذيب وتصديق شيء من

التفاصيل وعن معرفة وانكار شيء من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الاجمال على قلب ساذج ، وأما كثير من الناس بل من أهل العلم والعبادة فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لا يعرفون انها تخالف فاذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع في الدين قولا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عمل عملا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول لو(١) عرف ما قاله وآمن به لم يعدل عنه هو من هذا الباب ، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب ، فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك ، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك .

تقرير ابن عبد البر

اذا علمت هذا فاعلم أن مذهب سلف الامة وجل الائمة ان الايمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، قال الامام ابن عبد البر في التمهيد : أجمع أهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية ، قال والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن أبى حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الى أن الطاعات لا تسمى ايمانا قالوا انما الايمان التصديق والاقرار ، ومنهم من زاد المعرفة - وذكر ما احتجوا به الى أن قال : وأما سائر الفقهاء من أهل الرأى والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث ابن سعد وسفيان الثورى والاوزاعي والشافعى وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن على والطبرى ومن سلك سبيلهم قالوا الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة ، وقالوا كل ما يطاع الله به من فريضة ونافلة فهو من الايمان ، قالوا والايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى ، قال وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملى الايمان من أجل ذنوبهم وانما صاروا ناقصى الايمان بارتكابهم الكبائر ألا ترى الى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفى جميع الايمان عن فاعل ذلك بدليل الاجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة

(١) فى الاصلين « او »

وانتحلوا دعوة المسلمين من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الاحوال ثم قال : وعلى ان الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفتيا في الامصار وهذا مذهب الجماعة من أهـل الحديث والحمد لله •

ثم رد على المرجئة وعلى الخوارج والمعتزلة بالموارثة وبحديث عبادة بن الصامت « من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة » وقال الايمان مراتب بعضها فوق بعض فليس ناقص الايمان ككامله قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياتـه زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) الى قوله (حقا) أي هم المؤمنون حقا، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث « أكمل المؤمنـين ايمانا » ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص وقوله «أوثق عرى الايمان الحب في الله » وقوله « لا ايمان لمن لا أمانة له » يدل على أن بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض ، وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكي اجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية • قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه لما صنف الفخر الرازي مناقب الامام الشافعي رضي الله عنه ذكر قوله في الايمان انه قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان ـ كقول الصحابة والتابعين وقد ذكر الامام الشافعي أنه اجماع من الصحابة والتابعين ومن لقيه ، استشكل الرازي قول الامام الشافعي جـدا لانه كان انعقد في نفسه شبهة أهل البدع في الايمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية وسائر المرجئة وهو أن الشيء المركب اذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله لكن هو لم يذكر الا ظاهر شبهتهم • قال شيخ الاسلام والجواب عما ذكره سهل فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الاجزاء ـ

حل شبهة المخالفين

يعني كبدن الانسان اذا ذهب منه أصبع أو يد أو رجل ونحوه لم يخرج عن كونه انسانا بالاتفاق وانما يقال له انسان ناقص • والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون ان الذنب يقدح في كمال الايمان ولهـذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء ـ يعني عن الزاني والسارق وشارب الخمر

ونحوهم فذلك المجموع الذى هو الايمان لم يبق مجموعا مع الذنوب لكن يقولون بقي بعضه اما أصله واما أكثره واما غير ذلك فيعود الكلام الى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه ، ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة لانه اذا نقص لزم ذهابه كله عدهم ان كان متبعضا متعددا عند من يقول بذلك وهو الخوارج والمعتزلة ، وأما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد فيثبتون واحدا لا حقيقة له كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب عز وجل ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم •

قال شيخ الاسلام روح الله روحه ومن العجب ان الاصل الذى أوقعهم في هذا اعتقادهم أنه لا يجتمع في الانسان بعض الايمان وبعض الكفر أو ما هو ايمان وما هو كفر واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن الاشعرى وغيره ولأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا في ما هو مخالف للاجماع الحقيقي اجماع السلف الذى ذكره غير واحد من الائمة بل وصرح غير واحد بكفر من قال بقول جهم في الايمان ، ولهذا نظائر متعددة يقول الانسان قولا مخالفا للنص والاجماع القديم حقيقة ويكون معتقدا انه متمسك بالنص والاجماع ، وهذا اذا كان مبلغ علمه واجتهاده فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن • (قال شيخ الاسلام) وقد قال لى بعضهم مرة : الايمان من حيث هو ايمان لا يقبل الزيادة والنقصان • فقلت له قولك من حيث هو كقولك من حيث هو انسان ومن حيث هو حيوان ومن حيث هو وجود فتثبت لهذه المسميات وجودا مطلقا مجردا عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له في الخارج وانما هو شيء يقدره الانسان في ذهنه كما يقدر موجودا لا قديما ولا حادثا ولاقائما بنفسه ولابغيره،والماهيات من حيث هي هي شيء يقدر في الاذهان لا في الاعيان ، وهكذاتقدير ايمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد بل ما ثم ايمان في الخارج الا مع المؤمنين كما ما ثم انسانية في الخارج الا ما اتصف بها الانسان فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له ايمان يخصه فانسانية زيد تشبه انسانية عمرو وليست هي هي والاشتراك انما هو في أمر كلى مطلق يكون

في الذهن ولا وجود له في الخارج الا في ضمن أفراده فاذا قيل ايمان زيد مثل ايمان عمرو فايمان كل واحد يخصه معين وذلك الايمان يقبل الزيادة والنقصان ، ومن نفى التفاضل انما يتصور في نفسه ايمانا مطلقا كما يتصور انسانا مطلقا (ووجودا مطلقا - ١) عن جميع الصفات المعينة له ثم يظن ان هذا هو الايمان الموجود في الناس وذلك لا يقبل التفاضل بل لا يقبل في نفسه التعدد اذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره ، ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الامور المشتركة في شيء واحد هي واحدة في الشخص والعين حتى انتهى الامر بطائفة من علمائهم علما وعبادة الى أن جعلوا الوجود كذلك فتصوروا ان الموجودات مشتركة في مسمى الوجود وتصوروا هذا في أنفسهم فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم ثم ظنوا انه الله تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فجعلوا رب العالمين هو هذا الوجود الذى لا يوجد قط الا في نفس متصوره لا يكون في الخارج أبدا . وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعدادا مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الافلاطونية ، وزمانا مجردا عن الحركة والمتحرك وبعدا مجردا عن الاجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم مافي الاذهان بما في الاعيان وتولد من هذا بدع ومفاسد كثيرة والله المستعان.

كلام النووى

وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى : ذهب السلف الى أن الايمان يزيد وينقص وأنكر ذلك أكثر المتكلمين ، قال الامام النووى والاظهر المختار ان التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الادلة ولهذا كان ايمان الصديق أقوى من ايمان غيره بحيث لا تعتريه الشبهة . وقال ويؤيده ان كل واحد يعلم ان ما في قلبه يتفاضل حتى انه يكون في بعض الاحيان أعظم يقينا واخلاصا وتوكلا منه في بعضها وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها . وما نقل عن السلف - يعنى ان الايمان يزيد وينقص - صرح به عبد الرزاق في مصنفه عن سفيان الثورى ومالك بن أنس والاوزاعى وابن جريج ومعمر وغيرهم وهؤلاء فقهاء الامصار في عصرهم ، وكذا نقله أبو القاسم اللالكائى في كتاب السنة عن

---

(١) من مخ .

الشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبى عبيد وغيرهم من الأئمه ، ويروى بسند صحيح عن البخارى قال لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص • وأطنب ابن أبى حاتم واللالكائى في نقل ذلك بالاسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الاجماع من الأئمة • وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة • وقال الحاكم في مناقب الامام الشافعى ثنا أبو العباس الاصم أنا الربيع قال سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول الايمان قول وعمل ويزيد وينقص • وأخرجه أبو نعيم في ترجمة الشافعى من الحلية من وجه آخر عن الربيع ، وزاد : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وتلا (ويزداد الذين آمنوا ايمانا) الآية • انتهى • وقد روى الامام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه مرفوعا « الايمان يزيد وينقص » وأخرجه الديلمى في مسند الفردوس من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا أيضا ، والآثار عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الدين من أهل السنة والجماعة المعتبرين وأئمة أهل الحديث وأعلام علماء الصوفية أكثر من أن تذكر بأن الايمان قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان يزيد بالطاعة ويضعف بالعصيان ، وقد ذكرنا من ذلك ما لعله يحصل به المقصود والله ولى الاحسان •

(تنبيهات)

تنبيهات الاول قال جمهور الاشاعرة الخ

(الاول) قال جمهور الاشاعرة والماتريدية : الايمان هو التصديق بالنبى صلى الله عليه وسلم وبكل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة أى الاذعان والقبول مع الرضا والتسليم وطمأنينة النفس لذلك تفصيلا فيما علم تفصيلا واجمالا فيما علم اجمالا ، قالوا ولا ينحط الايمان الاجمالى عن التفصيلى من حيث الخروج عن عهدة التكليف به وان كان التفصيلى أكمل من الاجمالى ، وهذا قاله بعض متأخري الاشاعرة والا فقد قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى التمهيد : الايمان هو التصديق بالله وهو العلم ،والتصديق يوجد بالقلب ، قال فان قيل فما الدليل على ما قلتم ؟ قلنا اجماع أهل اللغة

قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم هو التصديق لا يعرفون فى اللغة ايمانا غير ذلك ، ويدل على ذلك قوله تعالى (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا فوجب ان الايمان في الشريعة هو الايمان فى اللغة لان الله ما غير اللسان ولا قلبه . وتقدم انه نوقش فيما قاله ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وهذا حقيقة قول جهم في مسألة الايمان وقد نصر أبو الحسن الاشعرى هذا القول مع انه نصر المشهور عن السلف من انه يستثنى في الايمان ، وكذلك مشى على هذا أكثر أصحابه ، وأما أبو العباس القلانسى وأبو على الثقفى وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضى أبى بكر الباقلانى صاحب أبى الحسن فانهم نصروا مذهب السلف . وقال عبد الله بن سعيد بن كلاب نفسه وهو متأخر في زمن محنة الامام أحمد رضى الله عنه والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعا موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبى سليمان ومن أتبعه وقد أنكر على ابن كلاب ومن وافقه علماء السنة وعلماء البدعة جميعا وبدعوه فكيف بمن قال بالتصديق بقلبه ولم يتكلم بلسانه فانه لا يعلق به شيء من أحكام الايمان لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله (يا أيها الذين آمنوا) . والحاصل أن الايمان عند المرجئة التصديق والقول ، وعند الجهمية مجرد التصديق ، وعند الكرامية انه مجرد قول اللسان فقط ، وهم يقولون المنافق مؤمن وهو مخلد في النار لأنه آمن ظاهرا لا باطنا وانما يدخل الجنة من آمن باطنا وظاهرا ، قالوا والدليل على شمول الايمان له انه يدخل فى الاحكام الدنيوية المعلقة باسم الايمان . وهذا القول وان كان من أقبح البدع وأفظعها ولم يسبقهم اليه أحد فقول الجهمية أبطل منه وأبعد من الاستدلال باللغة والقرآن والعقل . والكرامية توافق المرجئة والجهمية فى (أن) ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الايمان بل يقولون هو مؤمن حقا لمن أظهر الايمان واذا كان منافقا فهو مخلد في النار عندهم فانه لا يدخل الجنة الا من آمن باطنا وظاهرا ، ومن حكى عنهم أنهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم بل يقولون المنافق مؤمن لأن الايمان هو القول الظاهر عندهم كما يسميه

قول الكرامية

غيرهم مسلما اذ الاسلام هو الاستسلام الظاهر كما حكاه شيخ الاسلام ، ثم قال ولا ريب ان قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعا ولغة وعقلا ، واذا قيل قول الكرامية قول خارج عن اجماع المسلمين قيل له بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الايمان ، وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر ففى القرآن والسنة من نفى الايمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما فيهما من نفى الايمان عن المنافقين . وأما الايمان بقلبه مع المعاداة المخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمنا ،وعند الجهمية اذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل الايمان ايمانه كايمان الصديقين ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الايمان الا اذا زال ذلك العلم من قلبه ، وأما المرجئة المتكلمون منهم والفقهاء يقولون ان الاعمال قد تسمى ايمانا مجازا لان العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ولانها دليل عليه ، ويقولون قوله صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق » مجاز ، قال شيخ الاسلام ابن تيميمة في كتابه (الايمان والاسلام) : المرجئة ثلاثة أصناف الذين يقولون الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما ذكر أبو الحسن الاشعرى أقوالهم في كتابه وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم لكن ذكرنا جمل أقوالهم، ومنهم من لا يدخلها كالجهم بن صفوان ومن أتبعه كالصنايجى (؟) وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه (الثانى) من يقول هو مجرد قول اللسان وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية (الثالث) تصديق القلب وقول اللسان وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم ، قال شيخ الاسلام : وهؤلاء غلطوا من وجوه (أحدها) ظنهم أن الايمان الذى فرضه الله على العباد متماثل فى حق العباد وان ماوجب على شخص يجب مثله على كل شخص، وليس الأمر كذلك بل ذلك يتفاوت ويتفاضل أشد تفاوت وتفاضل كما نبهنا على ذلك فيما مر فالايمان الواجب متنوع ليس شيئا واحدا في حق جميع الناس (الثانى) من غلط المرجئة ظنهم أن ما في القلب من الايمان

قول الجهمية

اصناف المرجئة

بيان خطأ المخالفين

ليس الا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة (الثالث) ظنهم ان الايمان الذى في القلب يكون تاما بدون شيء من الاعمال ولهذا يجعلون الاعمال ثمرة الايمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له ، والتحقيق ان الايمان التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع ان يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذى بين البدن والقلب مثل قولهم رجل في قلبه من الايمان مثل ما في قلب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وهو لايسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزنى بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ، يقولون هذا مؤمن تام الايمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار ، قال سيدنا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثنا خلف بن حيان ثنا معقل بن عبيد الله العبسى قال قدم سالم الافطس بالارجاء فنفر منه أصحابنا نفورا شديدا منهم ميمون بن مهران وعبدالكريم ابن مالك فانه عاهد الله أن لا يأويه واياه سقف بيت الا المسجد ،قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبى رباح في نفر من أصحابى وهو يقرأ (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قلت ان لنا حاجة فاخل لنا . ففعل فأخبره بالارجاء وان ناسا أتوا به وان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، فقال أو ليس الله تعالى يقول (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فالصلاة والزكاة من الدين ، وذكر من أقوالهم وزعموا أنهم انتحلوك ؟ فتبرأ منهم ، وكذلك نافع تبرأ منهم ، وكذلك الزهرى فقال : سبحان الله قد أخذ الناس في هذه الخصومات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » والجميع تبرءوا منهم وقالوا ليس ايمان من أطاع الله كايمان من عصاه . قال شيخ الاسلام المرجئة كلهم يقولون الصلاة والزكاة ليستا من الايمان واما من الدين فحكى عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولا نفرق بين الايمان والدين ، قال شيخ الاسلام هذا المعروف من أقوالهم ولم أر فى كتاب أحد منهم انه قال

ان الاعمال ليست من الدين بل يقولون ليست من الايمان وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم فان أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الاعمال من الدين فذكر قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) انها نزلت في حجة الوداع قال أبو عبيد فاخبر تعالى انه أكمل الدين في آخر الاسلام في حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال وزعم هؤلاء انه كان كاملا قبل ذلك بعشرين سنة من أول ما أنزل عليه الوحى بمكة حين دعا الناس الى الاقرار. قال حتى لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه الحجة الى أن قال ان الايمان ليس بجميع الدين ولكن الدين ثلاثة أجزاء فالايمان جزء والفرائض جزء والنوافل جزء . قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : هذا الذى قاله هو مذهب القوم . قال أبو عبيد وهذا غير ما نطق به الكتاب ألا تسمع الى قوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام - ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه - ورضيت لكم الاسلام دينا) فأخبر أن الاسلام هو الدين برمته وهؤلاء يزعمون انه ثلث الدين . وسيأتى تحرير ذلك ان شاء الله تعالى .

ولما كان الامام أحمد وكذا أبو ثور وغيرهما من الائمة قد عرفوا قول المرجئة وهو أن الايمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة فانه اذا كان له عدد أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه بل لا يكون الا شيئا واحدا قال لهم الامام أحمد من زعم أن الايمان الاقرار فما يقول في المعرفة ؟ هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء ، وان جحد وقال لا يحتاج الى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيما . قال ولا أحسب أحدا يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الاشياء . انتهى . قال شيخ الاسلام قالت الجهمية الايمان شيء واحد في القلب ، وقالت الكرامية هو شيء واحد على اللسان، كل ذلك فرارا من تبعيض الايمان وتعدده فاحتج أبو ثور عليهم بما اجتمع عليه فقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول

ارجاء بعض الفقهاء

متكلميهم وجهميتهم أو لم يعد خلافهم خلافا ، ولهــذا دخل في أرجاء الفقهاء جماعة هم عند الائمة أهل علم ودين ولم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء بل جعلوا هذا من بدع الاقوال والافعال لا من بدع العقائد فان كثيرا من النزاع فيها لفظى ، نعم اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب فليس لأحد أن يقول بخلافه ولا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام من أهل الارجاء وغيرهم الى ظهور الفسوق فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والاعمال فلهذا أعظم القــول في ذم الارجاء حتى قال ابراهيم النخعى لفتنتهم يعنى المرجئة أخوف على هذه الامة من فتنة الازارقة . يعنى الخوارج . وقال

انكار السلف قول المرجئة

الزهرى : ما ابتدع في الاسلام بدعة أضر على أهله من الارجاء . وقال الاوزاعى كان يحيى بن أبى كثير وقتادة يقولان : ليس شىء من الاهواء أخوف عندهم على الامة من الارجاء . وقال شريك القاضى المرجئة أخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثا ، ولكن المرجئــة يكذبون على الله . وقال سفيان الثورى تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سابرى . وقال وكيع المرجئة الذين يقولون الاقرار يجزى عن العمل ومن قال هــذا فقد هلك ومن قال النية تجزى من العمل فهو كفر وهو قول جهم . وكذا قال الامام أحمد رضى الله عنه انه كفر . وقال قتادة انما حدث الارجاء بعد فرقة ابن الاشعث . وقال أيوب السختيانى : أول من تكلم فى الارجاء رجل من أهل المدينة من بنى هاشم يقال له الحسن . وقال زاذان مر بنا الحسن بن محمد(١) فقلنا ما هذا الكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذى أخرج كتاب المرجئة فقال لى يا أبا عمر لوددت انى كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب أو أضع هذا الكتاب . فان الخطأ فى اسم الايمان ليس كالخطأ فى اسم محدث ولا كالخطأ فى غيره من الاسماء اذ كانت أحكام الدنيــا والآخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والكفر والنفاق . وحاصل قــول غلاة المرجئة انه كما لا ينفع مع الكفر طاعة لا يضر مع الايمان معصية .

قول غلاة المرجئة

---

(١) يعنى الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب وراجع ترجمته في تهذيب التهذيب ب.

وهذا شر قول قيل في الاسلام والله تعالى الموفق •

الاقوال في الايمان خمسة

وحاصل ذلك قوله ان للناس في الايمان أقوالا خمسة منها ثلاثة بسيطة واثنان مركب فاما البسيطة فالتصديق وحده أو القول وحده أو العمل وحده ، الاول مذهب جهم ومن وافقه من الاشاعرة وغيرهم ، والثاني قول الكرامية والثالث عزاه الكرماني في شرح البخاري للمعتزلة ولعله لبعضهم • وأما المركب فقسمان ثنائي وهو قول الحنفية ومن وافقهم فانهم قالوا انه مركب من التصديق والقول ، وثلاثي التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان وهذا مذهب سلف الامة •

(التنبيه الثاني)

التنبيه الثاني الايمان والاسلام شيء ام شيئان

الكلام على الايمان والاسلام هل هما شيء واحد أو شيئان ؟ • قد ثبت في القرآن اسلام بلا ايمان في قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رهطا ـ وفي رواية قسم قسما ـ وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم الي فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله اني لأراه مؤمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو مسلما » أقولها ثلاثا ويرددها علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال اني لأعطى الرجل وغيره أحب الي منه مخافة ان يكبه الله في النار • فهذا الاسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الايمان في قلوبهم هل هو اسلام يثابون عليه أم من جنس اسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف (أحدهما) انه اسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق ، وهذا يروى عن الحسن البصري وابن سيرين وابراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر وهو قول حماد بن زيد والامام احمد بن حنبل وسهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي وكثير من أهل الحديث والسنن والحقائق **(الثاني) ان هذا الاسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل اسلام المنافقين ،** قالوا وهؤلاء كفار فان الايمان لم يدخل في قلوبهم ومن لم يدخل الايمان

البحث في حال الاعراب الذين قالوا آمنا

في قلبه فهو كافر ، وهذا اختيار الامام البخاري ومحمد بن نصر المروزى • قال شيخ الاسلام والسلف مختلفون في ذلك ، وحقيقة الامر أن من لم يكن من المؤمنين يقال فيه انه مسلم ومعه ايمان يمنعه من الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين أهل السنة لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ هذا هو الذى تنازعوا فيه فقيل يقال انه مسلم ولا يقال مؤمن ، وقيل بل يقال مؤمن • قال والتحقيق انه يقال مؤمن ناقص الايمان مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم • قال وعلى هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه ثلاث طوائف ، المؤمن حقا ، والمنافق في أحكامه الظاهرة وان كان المنافق في الآخرة في الدرك الاسفل من النار وهو في الباطن ينفى عنه الاسلام والايمان وفي الظاهر يثبتان له ظاهرا • ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم لكن معهم جزء منه واسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون (عليه كأهل الكبائر لكن يعاقبون - ١) على ترك المفروضات وهؤلاء كالاعراب المذكورين في الآية وغيرهم فانهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنا وظاهرا فلا دخلت حقيقة الايمان الى قلوبهم ولا جاهدوا وقد كان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وقد يكونون من أهل الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام بل هم مسلمون ولكن بين السلف فيهم نزاع لفظى هل يقال انهم مؤمنون ؟ قال الشالنجي سألت الامام أحمد عن الايمان والاسلام فقال : الايمان قول وعمل والاسلام اقرار • وبه قال أبو خيثمة • وقال ابن أبى شيبة لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : الامام أحمد رضى الله عنه لم يرد عنه قط انه سلب من يقال انه مسلم - يعنى من زنى وسرق وشرب الخمر ونحوهم - جميع الايمان فلم يبق معه شيء كما تقوله الخوارج والمعتزلة فان الامام أحمد قد صرح في غير موضع بأن أهل الكبائر معهم ايمان يخرجون به من النار واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » وليس هذا -

---

(١) من كتاب الايمان لشيخ الاسلام ابى تميمة

يعنى سلبهم اسم الايمان جميعه ـ قوله ولا قول أحد من أئمة السنه بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار المنافقين ، لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم أن يدخل في الاسلام(١) المطلق الممدوح وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » والمعتزلة ينفون عنه اسم الايمان والاسلام بالكلية ويقولون يخلد في النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها ، وهذا هو الذى أنكر عليهم وكل أهل السنة متفقة انه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب ، وانما ينازع في ذلك من يقول الايمان لا يتبعض كالجهمية والمرجئة فيقولون عن مثل هذا انه كامل الايمان لكنه من أهل الوعيد •

الفرق بين الاسلام والايمان والدين

قال شيخ الاسلام وحقيقة الفرق بين الاسلام والايمان والدين ان الاسلام دين والدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل ودين الاسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسوله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما ، والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له • هكذا قال رحمه الله وعزاه لاهل اللغة ، فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح ، وأما الايمان فأصله تصديق واقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان مخصوص وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الاسلام باسلام مخصوص وهو المبانى الخمس ، وهكذا فى سائر كلامه صلى الله عليه وسلم • قال

سر حصر بناء الاسلام على الخمس

شيخ الاسلام قدس الله روحه : ومما يسئل عنه انه اذا كان مما أوجبه الله من الاعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس فلماذا قال الاسلام هذه الخمس ؟ وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شرائع الاسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده ، قال والتحقيق أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذى هو استسلام

(١) الصواب « فى الاسم » كما فى كتاب الايمان

العبد لربه مطلقا الذى يجب لله عبادة محضة على الاعيان فيجب على كل من كان قادرا عليه ليعبد الله بها مخلصا له الدين ، وهذه هى الخمس وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب المصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس بل اما ان تكون فرضا على الكفاية كالجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وحكم وفتيا واقراء وتحديث وغير ذلك ، وأما أن تجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه وقد يسقط باسقاطه ، وكذلك ما يجب من صلة الارحام وحقوق الزوجية والاولاد والجيران والشركاء والفقراء ، وكذا قضاء الديون ورد الغصوب والعوارى والودائع والانصاف من المظالم من الدماء والاموال والاعراض انما هى حقوق الآدميين واذا أبرؤا منها سقطت وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال لم تجب عبادة محضة لله تعالى على كل عبد قادر ، ولهذا يشترك فى أكثرها المسلمون واليهود والنصارى بخلاف الخمسة ، والزكاة وان كانت حقا ماليا فهى واجبة لله والاصناف الثمانية مصارفها ولهذا وجب فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا اذنه ولم تطلب من الكفار ، وحقوق العباد لا يشترط لها نية ولو أداها عنه غيره ولو بغير اذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار • وفي كتاب الايمان والاسلام للامام شيخ الاسلام ابن تيمية قال ابو طالب المكى : مثل الاسلام من الايمان كمثل الشهادتين احداهما من الاخرى في المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الاعيان واحداهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشىء واحد ، كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشىء واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له اذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصحح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه • ثم قال وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وكتبه • وقال الحافظ ابن رجب اذا أفرد كل من الاسلام والايمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ وان قرن بين الاسمين كان بينهما فرق ، والتحقيق في الفرق بينهما أن الايمان هو تصديق القلب واقراره ومعرفته والاسلام هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد له وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما سمى الله تعالى في كتابه الاسلام دينا وفي

حديث جبريل سمى النبى صلى الله عليه وسلم الايمان والاسلام والاحسان دينا فالايمان والاسلام كاسم الفقير والمسكين اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر واذا قرن بينهما احتاج كل واحد منهما الى تعريف يخصه فاذا قرن بين الايمان والاسلام فالمراد بالايمان جنس تصديق القلب والاسلام جنس العمل •

واعلم ان مسائل الاسلام والايمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جدا فان الله تعالى علق بهذه الاسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار ، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الامة وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الاسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر وعاملوهم معاملة الكفار واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم ان الفاسق مؤمن كامل الايمان ، وقد أكثر الائمة من التصنيف في هذا الباب ، وحاصل ذلك ان الدين وأهله كما أخبر خاتم النبيين وامام المرسلين ثلاث طبقات أولها الاسلام وأوسطها الايمان وأعلاها الاحسان فمن وصل الى العليا فقد وصل الى التي تليها فالمحسن مؤمن والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنا وهكذا جاء القرآن فجعل الامة على هذه الاصناف الثلاثة قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فالمسلم الذى لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه والمقتصد الذى أدى الواجب وترك المحرم هو المؤمن المطلق والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه ، وقد ذكر الله تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة فى سورة الواقعة والمطففين(١) وبالله التوفيق •

(الثالث)

الثالث التصديق يحتمل الزيادة والنقص

هل قبول الايمان للزيادة والنقص مختص بقول السلف ومن تبعهم من أن الايمان تدخل فيه الاعمال وذهب اليه جماعة من محققي الاشاعرة كالقلانسى وغيره وهو مذهب الفقهاء والمحدثين ونقل الشافعى على ذلك

---

(١) تراجع الآيات ويتدبر سياقها

الاجماع وقال البخارى لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص كما تقدم وقد قدمنا من الاحتجاج لذلك من العقل والنقل ما لعله يشفى ويكفى لمن لم تتحكم به علة التقييد ونزع من عنقه ربقة التقليد اذ لو لم تتفاوت حقيقة الايمان وتتفاضل لكان ايمان آحاد الامة المنهمكين في الفسق والمعاصى مساويا لايمان الانبياء والصديقين والملائكة المقربين وتصور هذا المذهب ولوازمه يغنى عن اقامة البرهان على رده مع ما في الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة من التفاضل والتفاوت فدع عنك هذا التمادى والتهافت - أو يعم القول بأن الايمان التصديق أيضا ؟ الحق كما قاله الامام النووى وجماعة محققون من علماء الكلام ان الزيادة والنقصان تدخل الايمان ولو قلنا انه التصديق والاذعان لان التصديق القلبى يزيد وينقص أيضا بكثرة النظر ووضوح الادلة وعدم ذلك كما تقدم في كلام شيخ الاسلام وما اعترض عليه به من أنه متى قبل ذلك كان شكا فمدفوع بأن مراتب اليقين متفاوتة الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين مع انها لا شك معها ، وفي القرآن العظيم ما حكى عن ابراهيم خليله بقوله (ولكن ليطمئن قلبى) وتقدمت قصة موسى لما رأى قومه عاكفين على عبادة العجل مع ما كان أخبر الله تعالى بذلك أولا ، وقال الامام أبو حنيفة وأصحابه ومن تبعهم من المتكلمين الايمان لا يزيد ولا ينقص محتجين بأنه اسم التصديق البالغ بحد الجزم والاذعان ، والمعلوم من النقل والعقل خلافه وبالله التوفيق .

قول انا مؤمن ان شاء الله

((ونحن فى ايماننا نستثنى من غير شك فاستمع واستبن))

((ونحن)) معشر الاثرية ومن وافقنا من الاشعرية وغيرهم ((في ايماننا)) الذى تقدم تعريفه ((نستثنى)) فيقول أحدنا أنا مؤمن ان شاء الله ((من غير شك)) منا في ذلك والشك التردد بين طرفين لا مزية لأحدهما على الآخر والمراد هنا ما يعم الظن وكل ما ليس بجزم موافقة للسلف الصالح في ذلك ((فاستمع)) أى اطلب سماع ذلك واستقباله ((واستبن)) أى اطلب بيانه واظهاره بأدلته النقلية والعقلية تظهر لك فيه

الحقيقة ، واعلم ان الناس في ذلك على ثلاثة أقوال منهم من يوجبه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجوز الامرين باعتبارين وهذا الاخير أصح الاقوال ، فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ومن وافقهم ممن يجعل الايمان شيئا واحدا يعلمه الانسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه فيقول أحدهم أنا أعلم انى مؤمن كما أعلم انى تكلمت بالشهادتين وكما أعلم انى قرأت الفاتحة وكما أعلم انى أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانى أبغض اليهود والنصارى فقولى أنا مؤمن كقولى أنا مسلم ونحو ذلك من الامور الحاضرة التى أنا أعلمها وأقطع بها وكما انه لا يجوز أن يقال أنا قرأت الفاتحة ان شاء الله كذلك لا يقول أنا مؤمن ان شاء الله لكن اذا كان يشك في ذلك فيقول فعلته ان شاء الله ، قالوا فمن استثنى في ايمانه فهو شاك فيه وسموهم الشاكة . والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان أحدهما ان الايمان هو ما مات عليه الانسان والانسان انما يكون عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله انه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا والايمان الذى يتعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا ليس بايمان كالصلاة التى يفسدها صاحبها قبل الكمال وكالصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب فصاحب هذا هو عند الله كافر بعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا في الكفر ، وهذا المأخذ لكثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر أهل الحديث في قولهم أنا مؤمن ان شاء الله ويريد مع ذلك أن يجعل الايمان لا يتفاضل والانسان لا يشك في الموجود منه وانما يشك في المستقبل ، وبهذا قال كثير من المتكلمين ومن أتباع المذاهب من الحنابلة والشافعية والمالكية وغيرهم قالوا يحب في ازله من كان كافرا اذا علم انه يموت مؤمنا ما زالوا محبوبين لله وان كانوا قد عبدوا الاصنام مدة من الدهر ، وابليس ما زال يبغضه وان كان لم يكفر بعد ، يعنى ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد ايمانهم ويعاقب ابليس بعد كفره ، وهذا معنى صحيح فان الله يريد أن يخلق كل ما علم ان سيخلقه ، وعند هؤلاء لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطا عليه فمن علم انه يموت كافرا لم يزل مريدا

لعقوبته والايمان الذى كان معه باطل لا فائدة فيه بل وجوده كعدمه ، واذا علم أنه يموت مؤمنا مسلما لم يزل مريدا لاثابته ، والكفر الذى فعله وجوده كعدمه فلم يكن هذا كافرا عندهم أصلا . فهؤلاء يستثنون فى الايمان بناء على المأخذ وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر مثل أبى منصور الماتريدي كما نقله عنه شيخ الاسلام ، نعم جماهير الائمة لا يستثنى في الكفر والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ولكن هؤلاء لازم لهم ،والذين فرقوا من هؤلاء قالوا نستثنى فى الايمان رغبة الى الله في أن يثبتنا عليه الى الموت والكفر لا يرغب فيه أحد، قال شيخ الاسلام وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحدا مؤمنا الا اذا علم أنه يموت عليه ، وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الائمة . قال لكن ليس هذا قول أحد من السلف لا الائمة الاربعة ولا غيرهم ولا كان احد من السلف الذين يستثنون في الايمان يعللون بهذا لا الامام أحمد ولا من كان قبله ، قال ومأخذ هذا القول طرد طائفة ممن كانوا في الاصل يستثنون في الايمان اتباعا للسلف وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف وكان أهل الشام شديدين على المرجئة وكان محمد بن يوسف الفريابى صاحب الثورى مرابطا بعسقلان لما كانت عامرة وكانت من خيار ثغور المسلمين وكانوا يستثنون اتباعا للسلف واستثنوا أيضا فى الاعمال الصالحة كقول الرجل صليت ان شاء الله ونحو ذلك يعنى القبول لما فى ذلك من الآثار عن السلف ، ثم صار كثير من هؤلاء يستثنون فى كل شىء فيقول : هذا ثوبى ان شاء الله ، وهذا جبل ان شاء الله فاذا قيل لأحدهم هذا لا شك فيه ، قال نعم لا شك فيه لكن اذا شاء الله أن يغيره غيره فيريدون بقولهم ان شاء الله جواز تغييره فى المستقبل وان كان فى الحال لا شك فيه كأن الحقيقة عندهم التى لا يستثنى فيها ما لم (؟) تتبدل كما يقوله أولئك فى الايمان أن الايمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه ، قال وهذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون فى كل شىء تلقوا ذلك عن بعض أتباع شيخهم وشيخهم الذى ينتسبون اليه يقال له أبو عمرو

عثمان بن مرزوق لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء بل كان فى الاستثنا على طريقة من قبله ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه وكان شيخهم منتسبا الى الامام أحمد رضى الله عنه وهو من أتباع عبد الوهاب ابن الشيخ أبى الفرج المقدسى وأبو الفرج من تلامذة القاضى أبى يعلى • (قلت) وهو الذى نشر مذهب أحمد في نواحى جبل نابلس وهو الامام أبو الفرج الشيرازى قدس الله روحه اسمه عبد الوهاب الفقيه الزاهد الانصارى السعدى العبادى الخزرجى شيخ الشام في وقته ، وهذا البيت يعرف ببيت الحنبلى ، وكان أبو الفرج اماما عالما بالفقه والاصول شديدا في السنة زاهدا عارفا عابدا متألها ذا أحوال وكرامات ظاهرة وكان قد صحب القاضى أبا يعلى سنة نيف وأربعين وأربعمائة وتردد الى مجلسه سنين عدة وعلق عنه أشياء فى الاصول والفروع ثم قدم الشام وحصل له الاتباع والتلاميذ والغلمان وكان ناصرا لمذهبنا متجردا لنشره وله تصانيف في الفقه والوعظ والاصول توفي يوم الاحد ثامن عشر ذى الحجة سنة ست وثمانين وأربعمائة بدمشق ودفن بمقبرة باب الصغير والى جنبه الحافظ ابن رجب وقد زرتهما كثيرا رحمهما الله ورضى عنهما • وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء كلهم وان كانوا منتسبين الى الامام أحمد رضى الله عنه فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذى كان الامام أحمد ينكره عليه وعلى سائر أتباعه الكلابية وأمر بهجر الامام الحارث المحاسبى صاحب الرعاية من أجله كما يوافقه على أصله طائفة من أصحاب الامامين مالك والشافعى رضى الله عنهما بل وأصحاب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه كأبى المعالى الجوينى الشافعى وأبى الوليد الباجى المالكى وأبى منصور الماتريدى الحنفى وغيرهم ، وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال «قطعا» فى شيء من الاشياء مع غلوهم فى الاستثناء حتى صار هذا اللفظ -يعني قطعا- منكرا عندهم وان جزموا بالمعنى فيجزمون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيهم وان الله ربهم ولا يقولون : قطعا • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه شرح الايمان والاسلام : وقد اجتمع بى طائفة منهم فأنكرت عليهم ذلك وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعا :

وأحضروا لى كتابا فيه أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقول الرجل : قطعا ، وهى أحاديث موضوعة مختلفة قد افتـــراها بعض المتأخرين .

وهؤلاء واضرابهم ظنوا أن ما هم عليه هو قول السلف وليس كذلك مع ان هذا لم يقله أحد من السلف وانما حكاه هؤلاء عنهم بحســب ظنهم . والذين قالوا بالموافاة جعلوا الثبات على الايمان الى العاقبة والوفاء به في المآل شرطا في الايمان شرعا لا لغة ولا عقلا حتى ان الامام محمد بن اسحاق بن خزيمة كان يغلو في هذا ويقول من قال أنا مؤمن حقا فهـــو مبتدع . قال شيخ الاسلام ومذهب أصحاب الحـــديث كابن مسعود وأصحابه والثورى وابن عيينة وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء البصرة والامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يستثنون في الايمان وهذا متواتر عنهم لكن ليس في هؤلاء من قال انما استثنى لاجل الموافاة وان الايمان انما هو اسم لما يوافى به بـــل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لان الايمان يتضمن فعل جميـع الواجبات فلا يشـــهدون لانفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبـــر والتقوى فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم . قال شيخ الاسلام وأما الموافاة فما علمت أحـــدا من السلف علل بها الاستثناء نعم كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب الامام أحمد والشـــافعى ومالك وغيـــرهم رضى الله عنهم . قال شـــيخ الاســـلام وأكثر الناس يقولون بل هو اذا كـــان كافـــرا فهـــو عـــدو الله ثم اذا آمن واتقى صار وليا لله . فمأخذ سلف الامة فى الاستثنــــاء ان الايمان المطلق فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات فاذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الابرار المتقين القائمين بفعل جميع ماأمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله تعالى وهذا تزكية الانسان لنفسه وشهادته لها بما لا يعلم ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لساغ أن يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال ولا أحد يسوغ له

بدلك فهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وان جـــوروا ترك الاستثناء ، قال الخلال فى كتاب السنة ثنا سليمان بن الاشعث - يعنى الامام الحافظ أبا داود صاحب السنن - قال سمعت أبا عبد الله - يعنى الامام احمد رضى الله عنه - قال له رجل قيل لى أمؤمن أنت ؟ قلت : نعم ، هل على فى ذلك شيء ؟ هل الناس الا مؤمن أو كافر ؟ فغضب الامام احمد وقال هذا كلام الارجاء قال الله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله) من هؤلاء ؟ ثم قال الامام احمد أليس الايمان قولا وعملا ؟ قال له الرجل : بلى ، قال فجئنا بالقول ؟ قال نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال : لا ، فكيف تعيب أن يقول ان شاء الله ويستثنى ؟ قال أبو داود أخبرنى احمد بن أبى شريح ان الامام احمد رضى الله عنه كتب اليه فى هذه المسئلة أن الايمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل ونحن نستثنى فى العمل • وكان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل يقول نحن نعمل ولا ندرى يقبل منا أم لا ؟ قال شيخ الاسلام : والقبول متعلق بفعله كما أمر فمن فعل كما أمر فقد تقبل منـــه لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال الله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله هو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ قال : « لا يابنت الصديق بل هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » وقال الامام احمد : أذهب الى حديث ابن مسعود فى الاستثناء فى الايمان لان الايمان قول وعمل والعمل الفعل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا فى العمل فيعجبنى أن يستثنى فى الايمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله • وقال فى رواية الميمونى أقول مؤمن ان شاء الله ومؤمن ارجو ، لأنه لا يدرى كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا • ومثل هذا كثير فى كلام الامام احمد رضى الله عنه وفى كلام أمثاله من أئمة السلف ، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحق للجنة اذا مات على ذلك وان المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه انه مؤمن مطلق وان المؤمن المطلق هو البر التقى ولى الله فاذا قال انا مؤمن قطعا كان كقوله أنا بر تقى ولى الله قطعا ، وقد كان الامام احمد وغيره من السلف مع هذا

يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن ان شاءالله(١)ويكرهونالجواب لان هذه بدعة أحدثتها المرجئة ، ولهذا كان الصحيح انه يجور أن يقول أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين انه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان الامام احمد رضى الله عنه يكره أن يجيب عن المطلق بلا استثناء تقدمه • وقال المروذى قيل لأبى عبد الله نقول نحن المؤمنون ؟ فقال نحن المسلمون • ومع هذا فلم يكن ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده فعل المرجئة ان الايمان مجرد القول بل يتركه لما يعلم ان فى قلبه ايمانا وان كان لايجزم بكل ايمـــانه • وقال الخلال أخبرنى احمد بن اصرم المزنى ان أبا عبد الله قيل له اذا سألنى الرجل فقال أمؤمن أنت ؟ قال قل له سؤالك اياى بدعة ولا شك فى ايمانى أو قال لا نشك فى ايماننا • قال المزنى وحفظى ان أبا عبد الله قال أقول كما قال طاووس آمنت بالله وملائكته ورسله • فقد أخبر الامام احمد انه قال لانشك فى ايماننا وان السائل لا يشك فى ايمان المسئول وهذا أبلغ وهو انما يجزم بأنه مقر مصدق بما جاء به الرسول لا انه قائم بالواجب ، فعلم ان الامام احمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون فى وجود ما فى القلوب من الايمان فى هذه الحال ويجعلون الاستثناء عائدا الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فى ما لا شك فيه وهذا مأخذ ثان وان كنا لا نشك في ما في قلوبنا من الايمان فالاستثناء فى ما يعلم وجوده مما قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة قال تعـــالى (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقال صلى الله عليه وسلـــم لأصحابه « انى لأرجو أن أكون اتقاكم الله » وقال فى الميت « وعليه يبعث ان شاء الله » وقال صلى الله عليه وسلم لما وقف على المقابر « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وقوله « انى اختبأت دعوتى وهى نائلة ان شاء الله من لا يشرك بالله شيئا » وهذا كثير ، وفى الصحيحين ان سليمان بن داود عليهما السلام قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تأتى بفارس يقاتل فى سبيل الله • فقال له صاحبه قل ان شاء الله ، فلم يقل فلم يحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل قال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى

(١) الذى فى كتاب الايمان « أمؤمن انت »

بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون » فاذا قال ان شاء الله لم يشك فى طلبه وارادته بل لتحقيق الله ذلك له اذ الامور لا تحصل الا بمشيئة الله فاذا تألى العبد على الله من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده فانه من يتألى على الله يكذبه ، ولهذا يروى « لا أتممت لمقدر أمرا » وقيل لبعضهم بما عرفت ربك ؟ قال بفسخ العزائم ونقض الهمم • وقد قال تعالى (ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) • وفى شرح مختصر التحرير يجوز الاستثناء فى الايمان بأن يقول أنا مؤمن ان شاء الله نص على ذلك الامام احمد والامم الشافعى وحكى عن ابن مسعود رضى الله عنهم ، وقال ابن عقيل يستحب ولا يقطع لنفسه ومنع ذلك الامام أبو حنيفة وأصحابه والاكثرون والله أعلم

تتمة

تتمة فى الاسلام ايزيد وينقص ويدخله الاستثناء

هل الاسلام مثل الايمان يدخله الزيادة والنقصان ويدخله الاستثناء أم لا ؟ خلاف مشهور قال فى شرح مختصر التحرير : وأما الاسلام فلا يجوز الاستثناء فيه بأن يقول أنا مسلم ان شاء الله بل يجزم به ـ قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين ، وقيل يجوز ان شرطنا فيه العمل • انتهى • واعلم ان الناس فى الاسلام والايمان على ثلاثة أقوال فالمرجئة يقولون الاسلام أفضل

المفاضلة بين الايمان والاسلام

من الايمان قالوا فانه يدخل فيه الايمان ، وآخرون يقولون الايمان والاسلام سواء وهم المعتزلة والخوارج وطائفة من أهل الحديث والسنة بل حكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، والقول الثالث ان الايمان أكمل وأفضل وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فى غير موضع وهم المانور عن الصحابة والتابعين لهم باحسان كما فى شرح الايمان والاسلام لشيخ الاسلام ، وقال : الصحيح ان الاسلام هو الاعمال الظاهرة كلها• قال: والامام احمد رضى الله عنه انما منع الاستثناء فيه على قول الزهرى مو الكلمة هكذا نقل الأثرم والميمونى وغيرهما عنه ، وأما على جوابه الآحر الذى لم يختر فيه قول من قال الاسلام الكلمة فيستثنى فى الاسلام كما يستثنى فى الايمان فان الاسلام لا يجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الاسلام ولذا

قال النبى صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « بنى الاسلام على خمس » فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بايمانه فقد قال تعالى (ادخلوا فى السلم كافة) أى فى الاسلام كافة أى فى جميع شرائع الاسلام • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه :وتعليل الامام احمد وغيره من السلف فى اسم الايمان يجيء فى اسم الاسلام فاذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه كما نص عليه الامام احمد وغيره واذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الايمان • قال شيخ الاسلام ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلما متميزا عن اليهود والنصارى تجرى عليه أحكام الاسلام التى تجرى على المسلمين كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه • قلت والزيادة والنقصان يترتبان على ذلك وبالله التوفيق • وقد علمت ما عليه السلف وأئمة الدين وهو اعتقاد الطائفة الاثرية من أهل الفرقة الناجية بلامين (١) ولهذا قال :

لا يقال الايمان مخلوق ولا غير مخلوق

((نتابع الاخبار من أهل الاثر ونقتفى الآثار لا أهل الاشر))
((ولا نقل ايماننا مخلوق ولا قديم هكذا مطلوق))
((فانه يشمل للصلاة ونحوها من سائر الطاعات))
((ففعلنا نحو الرجوع محدث وكل قرآن قديم فابحثوا))

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٦٩ ما نصه :
« اعلم وفقك الله انه لا يكفي فى الايمان بالله مجرد الاعتقاد بالقلب فقط فان هذا هو مذهب الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام بل لا بد مع ذلك من نطق اللسان واعتقاد الجنان والعمل بالاركان فان اعتقاد القلب وحده لا يكفى فى النجاة بل هو مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة وأئمة الحديث وغيرهم •

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتاب الايمان : ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الايمان فتارة يقولون هو قول وعمل وتارة يقولون هو قول وعمل ونية وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح فاذا قالوا قول وعمل فانه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك ـ الى أن قال : والمقصود هنا أن من قال من السلف الايمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومن أراد أن لفظ القول لا يفهم

=

((نتابع)) فى اعتقادنا الجازم وسيرنا الحازم ((الاخيار من)) الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة ((أهل الاثر)) على نهج سيد ولد عدنان على مقتضى محكم القرآن ((ونقتفى)) أى نتبع يقال قفوته قفوا اتبعته كتقفيته كما فى القاموس • وفى النهاية يقال قفوته وقفيته واقتفيته اذ اتبعته واقتديت به

منه الا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال قول وعمل ونية قال القول يتناول ذلك ، ومن زاد اتباع السنة فلان ذلك كله لا يكون محبوبا لله الا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل وانما أرادوا ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الايمان ما هو فقال قول وعمل ونية وسنة لأن الايمان اذا كان قولا بلا عمل فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق واذا كان قولا وعملا ونية بلا اتباع سنة فهو بدعة •

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب الصلاة وههنا أصل آخر وهو أن حقيقة الايمان مركبة من قول وعمل والقول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام والعمل قسمان عمل القلب وهو نية واخلاص وعمل الجوارح فاذا زالت هذه الاربعة زال الايمان بكماله واذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الاجزاء فان تصديق القلب شرط فى اعتقادها وكونها نافعة - الى آخر كلامه رحمه الله اذ المقصود بهذا التنبيه فمن أراد الكلام بتمامه فليراجعه هناك •

وقال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كشف الشبهات ما ذكره بقوله : ولنختم الكلام ان شاء الله بمسألة عظيمة مهمة جدا - فذكر كلاما ثم قال : فنقول لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فان اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما فان عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وابليس وأمثالهما قال : فان عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق وهو شر من الكافر الخالص - الى آخر كلامه • وكذلك الكفر بالطاغوت لا يكفي في ذلك مجرد اعتقاد القلب فقط كما قال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فى كتاب التوحيد :

باب ماجاء أن بعض هذه الامة يعبد الاوثان وقول الله تعالى (ألم ترالى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) قال في المسائل في معنى الطاغوت (الرابعة) وهي من أهمها ما معنى الايمان بالجبت والطاغوت ؟ هل هو اعتقاد القلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ انتهى •

فاذا تبين لك هذا فاعلم أن اعتقاد بطلان عبادة غير الله لا يكفى في النجاة وحده بل لا بد مع ذلك من تكفيرهم والبراءة منهم ومن دينهم

((الآثار)) المأثورة عن الكتاب المنزل والنبى المرسل والصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الدين من أهل التحقيق والعرفان بالنقل الصحيح والمعنى الصريح فهم أهل الدراية والرواية وأحق الناس بالاصابة والهداية

والتصريح لهم بذلك واظهار العداوة والبغضاء لهم كما قال شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن علي ما ذكر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب بقوله : أصل الاسلام وقاعدته أمران : (الاول) الامر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه (الثاني) الانذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله ، فذكر كلاما طويلا ثم قال رحمه الله تعالى :

وقد وسم أهل الشرك بالكفر فيما لا يحصي من الآيات فلا بد من تكفيرهم وأيضا هذا هو مقتضى لا اله الا الله كلمة الاخلاص فلا يتم معناها الا بتكفير من جعل لله شريكا في عبادته كما في الحديث الصحيح « من قال : لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» فقوله وكفر بما يعبد من دون الله ـ تأكيد للنفي فلا يكون معصوم الدم والمال الا بذلك فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله فهذه الامور هي تمام التوحيد لان لا اله الا الله قيدت في الاحاديث بقيود ثقال بالعلم والاخلاص والصدق واليقين وعدم الشك فلا يكون المرء موحدا الا باجتماع هذا كله واعتقاده وقبوله ومحبته والمعاداة فيه والموالاة انتهى » .

ونسوق هنا بقيةما فى تنبيه ابن سحمان وهى تتعلق بموضع سابق من الكتاب وفاتنا أن نعلقها هناك فنستدركها هنا .

قال فى ص ٧٣ :

« (قوله) في البصر ولا على سبيل تأثر حاسة :

فأقول اعلم أن هذه اللفظة من جملة الالفاظ المخترعة المبتدعة التى لم ينطق بها السلف رضوان الله عليهم لا نفيا ولا اثباتا فاعلم ذلك

وكذلك ما ذكره الشارح بقوله في السمع والبصر انهما صفتان زائدتان على الذات وهذا القول الذى ذكره الشارح من أقوال أهل البدع كالاشاعرة وغيرهم وكما ذكره شيخ الاسلام عن ابن رشد وغيره واذا كان من المعلوم بالاضطرار أن السمع والبصر من الصفات اللازمة القائمة بذات الرب سبحانه وتعالى فكيف يجوز أن يقال انهما صفتان زائدتان على الذات وهذا من أمحل المحال وأبطل الباطل فان ما كان من الصفات زائدا على الذات لا يكون منها بل يكون مفارقا لها ومن المعلوم ان ما كان مفارقا للذات لا يكون من الصفات القائمة بذاته بل يكون مخلوقا من مخلوقاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد قال الشيخ الامام عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رده على الزيدية لما أثبت الصفات اللازمة القائمة بذات الله .

قال الزيدى فان ترد انها تدل على صفات زائدة على الذات لزمك ما لزم الاشاعرة وهو أن يكون مع الله قدماء وهى المعانى التى لحقت ذاته تعالى

===

فمهما بذلنا مجهودنا فى النظر والتحرير لا يكون الا دون ما سلكوه من التحقيق والتنقير ((لا)) تتابع ونقتدى وننحو فى سيرنا ((أهل الاشر)) بفتح الهمزة وسكون الشين (؟) المعجمة فراء الفرح والمرح من كل متحذلق

بالوصف ونحن نبرأ من هذا نحن وأنت ، قال الشيخ عبد الله في جوابه فيقال أهل السنة والجماعة يقولون ان الله تبارك وتعالى موجود كامل بجميع صفاته فاذا قال القائل دعوت الله أو عبدت الله كان اسم الله متناولا للذات المتضمنة لصفاتها ليس اسم الله اسما لذات مجردة عن صفاتها اللازمة لها وحقيقة ذلك انه لا يكون نفسه الا بنفسه ولا تكون ذاته الا بصفاته ولا يكون نفسه الا بما هو داخل في مسمى اسمها ولكن قول القائل انه يلزم أن يكون مع الله قدماء ، تلبيس - فان ذلك يشعر أن مع الله قدماء منفصلة عنه وهذا لا يقوله الا من هو من أكفر الناس وأجهلهم بالله كالفلاسفة لان لفظ الغير يراد به ما كان مفارقا له بوجود أو زمان أو مكان ويراد به ما أمكن العلم به دونه فالصفة لا تسمى غيرا له فعلى المعنى يمتنع أن يكون معه غيره وأما المعنى الثانى فلا يمتنع أن يكون وجوده مشروطا بصفات وأن يكون مستلزما لصفات لازمة له واثبات المعانى القائمة التى يوصف بها الذات لا بد منها لكل عاقل ولا خروج من ذلك الا بجحد وجود الموجودات مطلقا وأما من جعل وجود العلم هو وجود القدرة ووجود القدرة هو وجود الارادة فطرد هذه المقالة يستلزم أن يكون وجود كل شيء هو عين وجود الخالق تعالى وهذا منتهى الاتحاد وهو مما يعلم بالحس والعقل والشرع أنه فى غاية الفساد ، ولا مخلص من هذا الا باثبات الصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات وهو دين الذين آمنوا وعملوا الصالحات - ثم ذكر كلاما طويلا تركناه خشية الاطالة .

وقال الامام أحمد في الرد على الزنادقة : فقالت الجهمية لنا - لما وصفنا الله : هذه الصفات ان زعمتم أن الله ونوره والله وعظمته والله وقدرته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته فقلنا لا نقول ان الله لم يزل وقدرته ونوره ولكن نقول لم يزل بقدرته وبنور لا متى قدر ولا كيف قدر ؟ وقالوا لا تكونوا موحدين أبدا حتى تقولوا كان الله ولا شيء فقلنا نحن نقول كان الله ولا شيء ، ولكن اذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف الها واحدا بجميع صفاته وضربنا لهم في ذلك مثلا فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذوع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها اسم شيء واحد نخلة سميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله سبحانه وتعالى وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد ، ولا نقول انه كان فى وقت من الاوقات ولا قدرة حتى خلق القدرة والذى ليس له قدرة هو عاجز ، ولا نقول قد كان في وقت من الاوقات ولا علم له حتى خلق العلم والذى لا يعلم هو جاهل ولكن نقول لم يزل الله عالما قادرا مالكا لا متى ولا كيف ، وقد سمى الله رجلا كافرا اسمه الوليد بن المغيرة المخزومى فقال : (ذرنى ومن خلقت وحيدا) وقد

═

ومتشدق ومتعمق ومتودق من فروخ الجهمية وشيوخ المرجئة واتباع الكرامية فهم فى طرف ونحن فى طرف فبيننا وبينهم من البون كما بين الحركة والسكون .

كان هذا الذى سماه الله وحيدا وله عينان واذنان ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة فقد سماه الله وحيدا بجميع صفاته فكذلك الله تعالى وله المثل الاعلى هو بجميع صفاته اله واحد انتهى .

فتبين بما ذكره الامام أحمد أن الله سبحانه وتعالى اله واحد بجميع صفاته اللازمة القائمة بذاته ولم يقل ان من هذه الصفات صفة زائدة على ذاته كالسمع والبصر كما ان النخلة بجذوعها وكربها وليفها وسعفها وخوصها نخلة واحدة بجميع هذه الصفات لها ولا يمكن في العقل أن السعف والليف زائد ان على مسمى النخلة اذ جعل هذه المسميات من مسمى واحد وليس منها شىء زائد على ذاته والله أعلم .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد بعد كلام سبق : حلوا لنا شبه من قال باتحادهما ليتم الدليل فانكم أقمتم دليلا وعليكم الجواب عن المعارض فمنها ان الله وحده هو الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة وللزم ألا يكون له اسم في الازل ولا صفة لأن أسماءه صفات وهذا هو السؤال الاعظم الذى قاد متكلمى الاثبات الى أن يقولوا الاسم هو المسمى فما عندكم في دفعه ؟

والجواب ان منشأ الغلط في هذا الباب من اطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعانى وتنزيل ألفاظها عليها ولا ريب أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها فلم يزل بصفاته وأسمائه وهو اله واحد له الاسماء الحسنى والصفات العلى وصفاته وأسماؤه داخلة في مسمى اسمه وان كان لا يطلق على الصفة وحدها انها اله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هى نفس الاله . وبلاء القوم من لفظة الغير فانها يراد بها معنيين أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون الا مخلوقا ، ويراد به مغايرة الصفة للذات اذا جردت عنها . فاذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحا ولكن الاطلاق باطل فاذا أريد أن العلم هو الكلام (؟) المغاير لحقيقته المختصة التى امتاز بهما عن غيره كان باطلا لفظا ومعنى وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن قالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه فالله تعالى اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال ومن تلك الصفات صفة الكلام كما ان علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوق ولا يقال انه غير الله فكيف يقال ان بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة وهى غيره فقد حصحص الحق بحمد الله وانحسم الاشكال وان أسماءه

==

ولما انتهى الكلام على الايمان وما يتعلق به وذكر خلاف الناس في حقيقته وما يترتب عليه من الزيادة والنقصان والاستثناء ختم الكلام عليه بذكر مسئلة عظيمة فقال ((ولا تقل)) أيها الاثرى من الحنابله ومن وافقهم

الحسنى التى في القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غيره ولا هو هو وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه تعالى غيره وهى مخلوقة ولمذهب من رد عليهم ممن يقول أسماؤه نفس ذاته لا غيره وبالتفصيل تزول الشبهة ويتبين الصواب والحمد لله ٠ انتهى ٠

اذا تبين هذا فقد كان معلوما بالاضطرار أن أسماء الله وصفاته من الله وانها داخلة في مسمى اسمه لا مغابرة له ولا منفصلة عنه ٠ وقال الشيخ عبد الله بن شيخ الاسلام محمد أيضا فى رده على الزيدية بعد كلام ذكره عن أهل البدع فى لفظ الغير : ولهذا أطلق كثير من مثبتة الصفات عليها انها اغيار للذات وقالوا يقولون (؟) انها غير الذات ولا يقول انها غير الله فان لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فانه يتناول الصفات ولهذا كان الصواب على قول أهل السنة أن لا يقال في الصفات انها زائدة على اسم الله بل من قال ذلك فقد غلط عليهم ، واذا قيل هل هى زائدة على الذات أم لا ؟ كان الجواب أن الذات الموجودة فى نفس الامر مستلزمة للصفات فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات بل ولا يوجد شيء من الذوات مجردا عن جميع الصفات بل لفظ الذات تأنيث (ذو) ولفظ (ذو) مستلزم للاضافة وهذا اللفظ مولد واصله أن يقال ذات علم وذات قدرة وذات سمع كما قال الله تعالى (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) ويقال فلانة ذات مال وجمال ثم لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقدرة وسمع وبصر ردا على من نفى صفاتها عرفوا لفظ الذات وصار التعريف يقوم مقام الاضافة بحيث اذا قيل لفظ الذات فهو ذات كذا فالذات لا يكون الا ذات علم قدرة ونحوه من الصفات لفظا ومعنى وانما يريد محققو أهل السنة بقولهم الصفات زائدة على الذات انها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات فانهم أثبتوا ذاتا مجردة لا صفات لها فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبته هؤلاء فهى زائدة في العلم والاعتقاد والخبر لا زيادة على نفس الله جل جلاله بل نفسه المقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن ان تفارقها ولا توجد الصفات بدون الذات ولا الذات بدون الصفات والمقصود هنا بيان بطلان كلام هذا المعترض ٠

اذ تأملت هذا فاعلم ان ما قاله محققو أهل السنة حيث قالوا ان الصفات زائدة على الذات انما مرادهم بذلك انها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات فانهم أثبتوا ذاتا مجردة لا صفات لها ومقصود أهل السنة انها زائدة على ما اثبته هؤلاء النفاة فهى زيادة فى العلم والاعتقاد والخبر لا زيادة على نفس الله جل جلاله بل نفس مقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن أن تفارقها ولا توجد الصفات بدون الذات ولا الذات بدون الصفات كما تقدم بيانه ٠ اذا تحققت هذا فتخصيص الشارح السمع والبصر بأنهما

==

((ايماننا)) الذى هو قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان ((مخلوق)) لدخول الاعمال فه التى من جملتها الصلاة المشتملة على فاتحة الكتاب القديم ولدخول الاقوال التى من جملتها لا آله الا الله كلمة الاخلاص التى هى من كلام الله تعالى (فاعلم انه لا آله الا الله) ((ولا)) تقل أيها الاثرى ايماننا ((قديم هكذا مطلوق)) عن القيود لدخول أفعالنا من الركوع والسجود والقيام والقعود وأعمال القلوب ونحو ذلك ((فانه)) أى الايمان ((يشمل للصلاة)) المشروعة فرضا كانت أو نفلا ((و)) يشمل ((نحوها)) أى نحو الصلاة ((من سائر)) أى بقية ((الطاعات)) التى يتقرب العبد بها الى ربه وسائر العبادات التى يأتى بها لغفران ذنبه وانارة قلبه • والطاعات جمع طاعة مأخوذة من طاع يطوع اذا انقاد وهى فى اصطلاح الفقهاء عبادة غير واجبة والمراد هنا كل عبادة والعبادة ما أمر به شرعا من غير اطراد عرفى ولا اقتضاء عقلى وحينئذ يجب التفصيل وهو ما أشير اليه بقوله ((ففعلنا)) معشر الخلق ((نحو الركوع)) والسجود فى الصلاة من القيام والقعود وسائر أفعال الخلق ((محدث)) لانه مسند اليه ومنسوب ومضاف الى فعله والله خالق لافعال العباد ، وللعبد فعل ينسب اليه ومنسوب تقدم ((وكل)) ماكان من ((قرآن)) فهو ((قديم)) (١) غير مخلوق لان

صفتان زائدتان على الذات تخصيص لا أدرى ما مقصوده بذلك وأهل السنة أطلقوا لفظ الصفات ولم يخصوا السمع والبصر فتأمل ذلك مع أن الاجمال والاطلاق فىهذاالموضع وغيره من غير تفصيل ولا تبيين لما أرادوه من اثبات الصفات الزائدة على ما أثبته النفاة من الذات يوهم من لا معرفة له بكلام أهل السنة رضوان الله عليهم أن المقصود بذلك انها زائدة على نفس الله جل جلاله وهذا من أبطل الباطل وأمحل المحال وقد قال ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية :

فعليك بالتبيين والتفصيل فال ... اطلاق والاجمال دون بيان

كمأفسدا هذا الوجود وخبطا ال ... آراء والاذهان كل زمان

ثم لا يخفى عن المحب أن أهل السنة لم يقولوا أن الصفات زائدة على الذات فقط كما توهمه الشارح وانما قالوا انها زائدة على ما أثبته النفاة من الذات لانهم انما أثبتوا ذاتا مجردة عن الصفات فتأمل ذلك والله أعلم•

(١) راجع التعليق على بحث القرآن

كلام الله قديم كما مر البحث فيه فى محله مستوفيا ، وقوله ((فابحثوا)) أتى به لتتمة البيت والبحث التفتيش والطلب والتنقيب والتقصى عن دقائق المعانى ، فكل من ادخل الاعمال فى الايمان فلا يسوغ له اطلاق اسم الحدوث ولا القدم على الايمان بل لا بد من هذا التفصيل ، وأما من لم يدخل الاعمال فيه كالاشاعرة فيقولون الايمان عندهم مخلوق وهذا لا يتمشى على أصولنا • قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : من قال الايمان مخلوق كفر ومن قال غير مخلوق ابتدع • فقيل بالوقف مطلقا وقيل أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة • قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين وهو أصبح ، ونقله عن ابن أبى موسى وغيره • ونقل الامام الحافظ ابن رجب فى طبقات الاصحاب فى ترجمة الحافظ عبد الغنى المقدسى قدس الله روحه ما لفظه قال روى عن امامنا احمد رضى الله عنه انه قال من قال الايمان مخلوق فهو كافر ومن قال قديم فهو مبتدع • قال الحافظ عبد الغنى وانما كفر من قال بخلقه لان الصلاة من الايمان وهى تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله عز وجل ومن قال بخلق ذلك كفر ، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع • انتهى • بحروفه والله تعالى الموفق

***

تتمة فى الكرام الكاتبين

((تتمة)) ألحق علماؤنا فى آخر هذا الباب ذكر الملكين الموكلين بالعبد يكتبان أفعاله وكأنهم نظروا لمناسبة ذلك للأحكام وكونه مما يجب الايمان به والا فكان الانسب ذكر ذلك فى الباب الآتى فى السمعيات لانه منها فلهذا قال :

((ووكل الله من الكرام   اثنين حافظين للآنام))
((فيكتبان كل أفعال الورى   كما أتى فى النص من غير امترا))

((ووكل الله)) سبحانه وتعالى ((من)) الملائكة ((الكرام)) وصفهم بالكرم لما جاء فى الكتاب والسنة كما سيأتى ، والحق ان الملائكة عليهم السلام ذوات قائمة بأنفسها قادرة على التشكل بالقدرة الالهية كما ثبت فى الاحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين وتغير صور الملائكة والجن والشياطين الى الله

تعالى لا اليهم • وقد حكى غير واحد من محققى العلماء الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون يسبحون الليل والنهـــار لا يفترون ((اثنين)) مفعول وكل ((حافظين للأنام)) كسحاب وبالمـــد والانيم كأمير الخلق من الجن والانس وجميع ما على وجه الارض والمراد هنا من الانس ((فيكتبان)) يعنى الملكين الحافظين ((كل أفعال الورى)) كفتى الخلق ((كما أتى فى النص)) القرآنى كما فى قوله تعالى (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) ((من غير امترا)) أى من غير شك وهو مشتق من المماراة والمرية بالضم والكسر الشـــك والجدل يقال ماراه مماراة ومراء ، وامترى فيه وتمارى شك كمافى القاموس وامتراه حقه جحده • وفى نهاية ابن الاثير فى الحديث « لاتماروا فى القرآن فان مراء فيه كفر » قال المراء الجدال والتمارى والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال للمناظرة مماراة لان كل واحد منهمـــا يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمترى الحالب اللبن من الضرع • قال أبو عبيد فى توجيه الحديث المذكور ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف فى التأويل ولكنه على الاختلاف فى اللفظ وهو أن يقرأ الرجل على حرف فيقول الرجل ليس هو كذا ولكنه على خلافه ، وكلا هما منزل مقروءة فيهما فاذا جحد كل منهما قراءة صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك يخرجه الى الكفر لانه نفى حرفا أنزله الله على نبيه • والتنكير فى المراء فى الحديث ايذانا بأن شيئا منه كفر فضلا عما زاد عليه • وقيل انما أراد الجدال والمراء فى الآيات التى فيها ذكر القدر ونحوه من المعانى على مذاهب أهل الكلام وأصحاب الاهواء والآراء دون ماتضمنته من الاحكام وأبواب الحلال والحرام فان ذلك قد جرى بين الصحابة فمن بعدهم من العلماء وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة والتعجيز والله أعلم •

قال علماؤنا ـ منهم ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله كما قال

تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) وقوله (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) ولا يفارقان العبد بحال وقيل بل عند الخلاء ، وقال الحسن ان الملائكة يجتنبون الانسان على حالين عند غائطه وعند جماعه ، ومفارقتهمـــا للمكلف حينئذ لا تمنع من كتبهما ما يصدر منه في تلك الحال كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما امارة على ذلك ، قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : للعبد ملائكة يحفظونه بأمر الله تعالى -يشير الى قوله تعالى(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) قال العلامة الشيخ عبد الرحمن العليمي العمري الحنبلي فى تفسيره للقرآن العظيم المسمى بفتح الرحمن فى تفسير القرآن ، العظيم المسمى بفتح الرحمن فى تفسير القـــرآن : التعقيب العـــود بعـــد البدء وانما ذكر بلفظ التأنيث لان المـــراد الجمـــاعات التى يعقب بعضها بعضا • وقوله « يحفظونه من أمر الله » من المضار ويراقبون أحواله من أجل أمر الله فاذا جاء القدر خلوا عنه • وقال البيضاوى يحفظونه من أمر الله من بأسه متى اذنب بالامهال والاستغفار أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله وقد قرىء به وقيل « من » بمعنى الباء • وقال فى قوله معقبات : التاء للمبالغة أو لأن المراد بالمعقبات جماعات وقرىء معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من أحد القافين • انتهى • وفى صحيح البخارى : معقبات ملائكة حفظة تعقب الاولى منهمـا الاخرى ومنه قيل المعقب أى عقيب فى أثره • قال ابوعبيدة أى ملائكة تعقب بعد ملائكة حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار وحفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل • وروى الطبرى باسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدره خلوا عنه • وأخرج من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (من أمر الله) أى باذن الله • فالمعقبات هى من أمر الله وهى الملائكة • ومن طريق سعيد بن جبير عنه قال : حفظهم اياه بأمر الله • ومن طريق ابراهيم النخعى قال : يحفظونه من الجن • ومن طريق كعب الاحبار قال لولا ان الله و كل بكل ملائكة

يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتم • وأخرج الطبرانى من طريق كنانة العدوى أن عثمان سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلة بالآدمى فقال : لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جنبه وآخر قابض على ناصيته فان تواضع رفعه وان تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه الا الصلاة على محمد والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه ـ يعنى اذا نام • قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى وجاء فى تأويل ذلك قول آخر رجحه ابن جرير فاخرج باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (له معقبات) قال ذكر ملكا من ملوك الدنيا له حرس ومن دونه حرس • ومن طريق عكرمة فى قوله لهمعقبات: قال : المواكب•وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال«يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » • وفى بعض التفاسير فى قوله تعالى (ان كل نفس لما عليها حافظ) وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه مالم يقدر عليه ، للبصر من ذلك سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ، ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين ، وذكره فى كنز الاسرار من حديث أبى امامة رضى الله عنه مرفوعا • قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته : واما الملائكة الكاتبون فقيل أربعة اثنان بالليل واثنان بالنهار ، وقيل خمسة واحد لا يفارق فى ليل ولا نهار • انتهى • والمشهور انهما اثنان لكل واحد ، قال الضحاك مجلس الملكين تحت الشعر على الحنك • ومثله عن الحسن • وكان الحسن يعجبه ان ينظف عنفقته • وعنه عليه السلام « مقعد ملكيك على شفتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك ولا تستحى من الله ولا منهما » • وعنه عليه الصلاة والسلام « كاتب الحسنات عن يمين الرجل ـ يعنى الشخص ـ وكاتب السيئات عن يساره وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فاذا عمل الشخص حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » • ونقل الحافظ ابن رجب فى شرح الاربعين النووية عن شويس

العدوى وكان من قدماء التابعين أن صاحب اليمين أمير – أو دال أمين – على صاحب الشمال فاذا عمل ابن آدم سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين لا تعجل لعله يعمل حسنة ، فان عمل حسنة ألقى واحدة بواحدة وكتب له تسع حسنات فيقول الشيطان يا ويله من يدرك تضعيف ابن آدم . وقال واحد وهو المشهور أن أحد الملكين على عاتق الانسان الايمن وهو كاتب الحسنات والآخر على عاتقه الايسر ، وان كاتب الحسنات له امارة على كاتب السيئات فلا يمكنه من كتبها الا بعد مضى ست ساعات من غير توبة من المكلف أو استغفار أو فعل مكفر لها مع مبادرته بكتب الحسنات فورا ، والذى رواه البغوى من حديث أبى أمامه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات : دعه سبع ساعات لعله يسبح لله او يستغفر .

فوائد (الاولى)

فوائد الاولى فيما يكتبه الملكان

اختلف فيما يكتب الملكان فقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه أو يوزر عليه . انتهى . وظاهر النص أنهما يكتبان أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولا كان أو عملا أو اعتقادا هما كانت أو عزما أو تقريرا فلا يهملان من أفعال العباد شيئا فى كل حال وعلى كل حال ، ولهذا قال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه فى مرضه . فقوله تعالى (مايلفظ من قول الا لديه) أى عنده (رقيب) أى حافظ يرقب أعماله ويحفظها (عتيد) أى حاضر معه أين ماكان . قال الامام مالك يكتبان على العبد كل سىء حتى أنينه فى مرضه – كقول مجاهد – محتجا بقوله تعالى (مايلفظ من قول) فافادة العموم بطريق وقوع النكرة فى سياق النفى، وحينئذ يدخل فى العبد الكافر لانه تضبط عليه أعماله وأنفاسه . قال الامام النووى الصواب الذى عليه المحققون بل نقل فيه بعضهم الاجماع أن الكافر اذا فعل أفعالا جميلة كالصدقة وصلة الرحم ثم أسلم ومات على الاسلام أن ثواب ذلك يكتب له ، ودعوى كونه مخالفا للقواعد غير مسلم . انتهى . قال بعضهم وضابط

ذلك الطاعات التى لا تتوقف صحتها على نية وقد سلم ذلك له ابن حجر وابن المنير وابن بطال وغيرهم • وممن نص على أن للكافر حفظه بعض المالكية ، قال بعضهم : وهو الذى لا يصح غيره • وهو الجارى على القول بتكليفهم بفروع الشريعة وهو معتمد الثلاثة خلافا لابى حيفة • والصحيح من مذهبنا كالمالكية كتب حسنات الصبى ، قال علماؤنا يكتب له ولا يكتب عليه فيكون عليه حفظة بخلاف المجنون لانه لا يكتب له ولا عليه •والصحيح كتبهم الصغائر المغفورة وان غفرت باجتناب الكبائر ، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : لا تمحى الذنوب من صحائف الاعمال بتوبة ولا غيرها بل لا بد أن يوقف عليها صاحبها ويقرأها يوم القيامة • واستدل بقوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية وبقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (وقالو يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيره الا أحصاها) • وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا القول هو الصحيح عند المحققين وقد روى هذا القول عن الحسن البصرى وبلال بن سعد الدمشقى ، قال الحسن فى العبد يذنب ثم يتوب ويستغفر : يغفر له ولكن لا يمحاه من كتابه دون أن يقفه عليه ثم يسأله عنه ، ثم بكى الحسن بكاء شديدا وقال لو لم نبك الا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغى لنا أن نبكى • وقال بلال بن سعد ان الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحاها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وان تاب

الفائدة الثانية اذا رفع الملكان صحيفة بدئت وختمت بخير

(الثانية) جاء فى حديث أبى هريرة وأنس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من حافظين يرفعان الى الله تعالى ما حفظا فيرى الله تعالى فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا الا قال للملائكة اشهدوا انى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » أخرجه الطبرانى وغيره قال الحافظ ابن رجب : وهو موجود فى بعض نسخ كتاب الترمذى• وفى حديث آخر مرفوع « ابن آدم اذكرنى من اول النهار ساعة ومن آخر النهار ساعة أغفر لك مابين ذلك الا الكبائر أو تتوب منها » وقال ابن المبارك: من ختم نهاره بذكر الله كتب نهاره كله ذكرا يشير الى أن الاعمـــال

بالخواتيم . قال الحافظ ابن رجب : فاذا كان البداية والختام ذكرا فهو أولى أن يكون حكم الذكر شاملا للجميع . انتهى .

الثالثة هل يكتب انين المريض

(الثالثة) قوله فى الخبر حتى أنينه فى مرضه ربما أشعر بأنه مما يكتبه كاتب السيئات لانه يكتب كل ما أهمله كاتب الحسنات ، ويدل له قول علمائنا يكره الانين قال فى الفروع : على الاصح لانه يترجم عن الشكوى مالم يغلبه مع انه جاء فى حديث « المريض أنينه تسبيح وصياحه تكبير ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب الى جنب جهاد فى سبيل الله » لكن قال الحافظ ابن حجر انه ليس بثابت . وقد روى الامام احمد فى الزهد عن طاوس انه قال أنين المريض شكوى . قال ابن حجر فى شرح البخارى وقد جزم أبو الطيب ابن الصباغ وجماعة من الشافعية ان انين المريض وتأوهه مكروه ، وتعقبه الامام النووى فقال : هذا ضعف أو باطل فان المكروه ما ثبت فيه نهى مقصود وهذا لم يثبت فيه ذلك . ثم قال فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الاولى فانه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى .انتهى. قال الحافظ ابن حجر ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء وتورث شماتة الاعداء . انتهى .

الرابعة اذا مات الانسان بقى حافظاه على قبره

(الرابعة) جاء فى الاحاديث ان الحافظين يقيمان على قبر المؤمن يسبحان الله تعالى ويهللانه ويكبرانه ويكتب ثوابه للميت الى يوم القيامة وانهما يلعنان الكافر ، ففى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه مرفوعا « اذا قبض العبد المؤمن صعد ملكاه الى السماء فقال الله لهما وهو أعلم ماجاء بكما؟ فيقولان رب قبضت عبدك ، فيقول لهما ارجعا الى قبره فسبحانى واحمدانى وهللانى الى يوم القيامة فانى قد جعلت مثل أجر تسبيحكما وتحميدكما وتهليلكما له ثوابا منى ، فاذا كان العبد كافرا فمات صعد ملكاه الى السماء فيقول الله لهما ماجاء بكما ؟ فيقولان رب قبضت عبدك وجئناك ، فيقول لهما ارجعا الى قبره فالعناه الى يوم القيامة فانه كذبنى وجحدنى وانى جعلت لعنتكما عذابا أعذبه به يوم القيامة » وروى أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا وفيه « فاذن لنا أن نسكن السماء فيقول سمائى مملوءة من ملائكتى يسبحونى فيقولان أئذن لنا نسكن الارض

فيقزل ارضى مملوءة من خلقى يسبحونى ولكن قوما على قبره فسبحانى واحمداِنى وهللانى واكتباه لعبدى الى يوم القيامة » وروى أيضا من حديث أنس رضى الله عنه كلفظ حديث أبى سعيد ، وقد أورده الحافظ ابن الجوزى فى كتابه الموضوعات بطرقه الثلاثة وحكم عليه بالوضع وتعقبه جلال الدين السيوطى بما حاصله ان الحديث قد أخرجه البيهقى فى كتابه شعب الايمان وقال : فيه ابن مطر ليس بالقوى . ثم انه لم ينفرد به فقد تابعه عن ثابت البنانى حماد وأخرجه أيضا البيهقى والهيثم بن حماد وأخرجه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت ،قال الحافظ البيهقى:وله شاهد آخر عن أنس ، ثم روى باسنادين عنه نحوه مرفوعا .وقال الشيخ ولى الدين العراقى فى فتاويه المكية فى حديث أبى سعيد : فيه عطية العوفى ضعيف لكن ليس بكذاب ، وقد رواه عنه مسعر وهو امام جليل فان وجد له شاهد قوى عنده . انتهى . (فها أنت ترى له شواهد عدة . انتهى - ١) وقد ذكرت مافيه فى مختصر الموضوعات وبالله التوفيق

---

(١) من مغ .

خاتمة الطبـــع

قد تم طبع الجزء الاول من كتاب لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرة المضية فى عقد الفرقة المرضية ، كلاهما للشيخ العلامة محمد بن احمد السفارينى ويليه الجزء الثانى أوله الباب الرابع فى ذكر بقية السمعيات الخ .

والحمد لله رب العالمين

فهرس الجزء الاول

من لوائح الانوار البهية ، وسواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرة المضية ، فى عقد الفرقة المرضية ، للعالم الطويل الباع الواسع الاطلاع صاحب البرهان الجلى ، الشيخ محمد بن احمد السفارينى الاثرى الحنبلى أكرمه الله بلطفه الخفى والجلى آمين

صفحة

صفحة

صفحة

---

(١) فى أواخر كلامه ما يقتضى انها سبع كما يأتى .

---

(١) فى صنيع المؤلف ما يقتضى أن الفرق الكبرى سبع فالخامسة النجارية والسادسة الجبرية والسابعة المشبهة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

استدراك ما وقع فى طبع الجزء الاول من شرح العقيدة السفارينية من الخطأ :

صفحة	سطر	فى المطبوع	الصواب
٢٣	١٣	الصائبة	الصابئة
٢٧	بالهامش	اصلاح	اصطلاح
٣٧	١٠	ياللسان	باللسان
٤٩	١٣	ان	ان
٥٠	١٦	لقائها	لقائلها
٥٧	٢٣	(١)	(٤)
٦٤	٣	عبد الله	عبد الله (١)
٦٤	٣	(١ ـ	(٢ ـ
٦٤	٦	باصيله	باصليه
٦٤	١٢	اى انسان	أى أى انسان
٦٤	تعليق	(١) ليس	(كذا وقال غيره صـــنيه بنت ميمونة بنت عبد الملك (٢) ليس
٧٠	٢٣	بجوز	يجوز
٧٣	١	بن عطاء	ابن عطاء
٩٩	٣	سيفيان	سفيان
١٠٥	هامش	على	عن
١١٢	١٩	اذلا	ازلا
١١٦	(٤)	ذلك	ذلك (١)
١١٦	تعليق		راجع التعليق على ص١١٢
١١٨	٢	اعلم	اعلم
١٢٠	٦	الجاميع	الجميع
١٤٥	١٥	حادثة	حادثة
١٤٥	١٨	لكلام	الكلام
١٤٧	١٩	فان	ان
١٥٥	١٠	لزوم	لزم
١٥٥	١٨	والنتخصيص	والتخصيص
١٥٩	٩	لمعتزلة	المعتزلة
١٦١	١٠	منحديا	متحدتا
١٦٢	١٢	نزلوا	نزلنا
١٦٢	١٧	اليه	اليك
١٦٥	١٤	اثبت	اثبتت
١٦٦	٢١	واعجمى	اعجمى
١٦٧	٩	وهذ	وهذا
١٧٤	١٦	الاسلال	الاسلام
١٧٥	١	للمادة	للعادة
١٧٧	١٧	المنعوت	المنعوت (٢)

صفحة	سطر		الصواب
١٧٧	تعليق	المتن	المتن (٢) لعلة المبعوث
١٨١	هامش	فولد	قوله
١٩٧	١٠	وانه	وانى
٢٠٠	١٠	عند	عنه
٢٠٨	١٢	يركبون	تركبون
٢١٩	١٢	بعد	به
٢٢٧	٢٤	(١)	١
٢٥٦	١٤	الصحيحيين	الصحيحين
٢٩٢	٧	الحائة	الحادثة
٣٠٣	١٦	سيء	شيء
٣٣٢	١٤	رفطرة	وفطرة
٣٦٨	٢	الذنب • والاثم	الذنب والاثم
٣٧١	١٦	ا توحيد	التوحيد
٤١٢	١٦	با لمه	بالله
٤١٥	١٤	وا لذكر	والذكر
٤٣٨	٢٠	وهم	وهو
٤٤٣	٢٣	الآسماء	الاسماء
٤٤٨	الاخير	بكل	بكم



« ترجمة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي مؤلف هذا الكتاب »

جاء فى حرف الميم من كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ما نصه : هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفارينى الشهرة والمولد النابلسى الحنبلى الشيخ الامام والحبر البحر النحرير الكامل الهمام الأوحد العلامة العالم العامل الفهامة صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة أبو العون شمس الدين ولد بقرية سفارين من قرى نابلس سنة اربع عشرة ومائة وألف (١١١٤) ونشأ بها وتلا القرآن العظيم ثم رحل الى دمشق لطلب العلم فأخذ بها عن الاستاذ الشيخ عبد الغنى بن اسماعيل النابلسى وشيخ الاسلام الشمس محمد بن عبد الرحمن الغزى وأبى الفرج عبد الرحمن بن محيى الدين المجلد وأبى المجد مصطفى بن مصطفى السوارى والشهاب احمد بن على المنينى وأخذ الفقه عن أبى التقى عبد القادر بن عمر التغلبى وأبى الفضائل عواد بن عبيد الله الكورى ومصطفى بن عبد الحق اللبدى وغيرهم وحصل لصاحب الترجمة فى طلب العلم ملاحظات ربانية حتى حصل فى الزمن اليسير مالم يحصله غيره فى الزمن الكثير ورجع الى بلده ثم توطن نابلس واشتهر بالفضل والذكاء ودرس وأفتى وأفاد وألف تآليف عديدة (فمن) تآليفه شرح ثلاثيات مسند الامام احمد فى مجلد ضخم وقد طبع فى دمشق عام ١٣٨٠، وشرح نونية الصرصرى سماها معارج الانوار فى سيرة النبى المختار فى مجلدين ، وتحبير الوفاء فى سيرة المصطفى ، وغذاء الالباب فى شرح منظومة الآداب (وقد طبع بمطبعة النجاح بمصر عام ١٣٢٤) والبحور الزاخرة فى علوم الآخرة ، وكشف اللثام فى شرح عمدة الأحكام) ونتائج الأفكار فى شرح حديث سيد الاستغفار ،والجواب المحرر فى الكشف على حال الخضر والاسكندر ، وعرف الزرنب فى شرح السيدة زينب ، والقول العلى فى شرح أثر أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وشرح منظومة الكبائر الواقعة فى الاقناع ، ونظم الخصائص الواقعة فيه أيضا ، والدر المنظم فى فضل شهر الله المحرم ، وقرع السياط فى قمع أهل اللواط ، والمنح الغرامية فى شرح منظومة ابن فرح اللامية ، والتحقيق فى بطلان التلفيق ، ولواقح الأفكار السنية فى شرح منظومة الامام الحافظ أبى بكر بن داؤد الحائية مجلد ، وتحفة النساك فى فضل السواك ، والدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية وشرحها المسمى بسواطع الآثار الاثرية شرح منظومتنا المسماة بالدرة المضية (وقد طبع فى عام ١٣٢٣ والآن طبع للمرة الثانية عام ١٣٨٠) وتفاضل العمال بشرح حديث فضائل الأعمال ، والدرر المصنوعات فى الأحاديث الموضوعات ، ورسالة فى بيان الثلاث والسبعين فرقة والكلام عليها ، واللمعة فى فضائل الجمعة ، والأجوبة النجدية على الأسئلة النجدية ، والأجوبة الوهبية عن الأسئلة الزعبية ، وشرح على دليل الطالب لم يكمل وتعزية اللبيب بأحب حبيب ، وغير ذلك وأما الفتاوى التى كتب عليها الكراس والاقل فكثيرة ولو جمعت لبلغت مجلدات (وله) رحمه الله تعالى من الاشعار فى المراسلات والغزليات والوعظيات والمرثيات شىء كثير وبالجملة فقد كان غرة عصره وشامة مصره لم يظهر فى بلده بعده مثله وكان يدعى للملمات ويقصد لتفريج المهمات ذا رأى صائب وفهم ثاقب جسور على ردع الظالمين وزجر المفترين اذا رأى منكرا أخذته رعدة وعلا صوته من شدة الحدة واذا سكن غيظه وبرد قيظه يقطر رقة ولطافة وحلاوة وظرافة وله

تقريظ صاحب المنـــار

من مجلة المنار المجلد العاشر الجزء الثاني صفر سنة ١٣٢٥
١٣ ابريل سنة ١٩٠٧ صحيفة ١٤٥
شرح عقيدة السفاريني

للشيخ محمد بن احمد السفاريني الاثرى الحنبلي (رحمه الله تعالى) عقيدة منظومة اسمها « الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية » بلغنى أن الشيخ حسنا الطويل (عليه الرحمة) قال لما اطلع عليها ما معناه أن هذه أول عقيدة اسلامية اطلعت عليها • ولناظمها شرح مطول عليها سماه «لوائح الانوار البهية وسواطع الاسرار الأثرية » جمع فيه المؤلف أقوال السلف والخلف ومذاهب الفرق في مسائل الاعتقاد وبين رجحان مذهب السلف على غيره مؤيدا ذلك بالدلائل النقلية وكذا العقلية فيما يستدل على مثله بالعقل واقتبس جل تحقيقاته فيه من كلام الامامين الجليلين شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم عليهما الرحمة والرضوان • فجـــاء كتابا حافل الرأي ، جامعا لمـا لم يجمعه غيره من المأثور والمروى ، كثير الفوائد ، جم الأوابد والشوارد ، لايكاد يستغنى عنه طالب السعة والتحقيق فى العقائد الاسلامية ، أو يحيط بما في كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية • نعم انه ينكر عليه كثرة الروايات والاقوال المأثورة فى اشراط الساعـــة ونحوها من المسائل التى ليست من العقائد الدينية ومنها ما لا يصح له سند ولكن من يعلم أنه لا يجب عليه أن يعتقد ما لا يقوم عليه البرهان لا يضره ايراد ذلك وقد ينفعه الاطلاع على تلك الاقوال فيستخرج من مجموعها مايحق الحق ويبطل الباطل •

وجملة القول أن هذا الكتاب لا يستغنى عنه بشيء من كتب العقـــائد التى يتداولها طلاب العلم وكلها من وضع المتكلمين الذين جروا على طريقة فلاسفة اليونان ، ليس فيها بيان لمذهب السلف يجلى حقيقته • ويوضح طريقته ، بل فيها ما يشعر بأن مذهب السلف هو التمسك بالظواهر من غير فهم ثاقب ،ولا علم راسخ، وان الخلف أعلم منهم وهيهات هيهات لذلك بل السلف أفهم وأعلم وأحكم وما خالف المتكلمون فيه السلف فهو جهل مبيـن أو نزغات شياطين وبمثل هذا الكتاب تعرف ذلك •

رغب في نشر هذا الكتاب بعض محبى العلم والدين من العرب الكـــرام المخلصين الشيخ مقبل بن عبد الرحمن الذكير من تجار نجد رحمه الله آمين فأرسل الينا نسخة خطية منه فطبعنا له عنها عددا معينا جعله وقفا لله تعالى يوزع على طلاب العلم السلفيين فى بلاد مختلفة وطبعنا منه على نفقتنا طائفة من النسخ زيادة عن النسخ الموقوفة بأذن الطابع الواقف وهى تباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز بثمن قليل بالنسبة لحجم الكتاب وحسن ورقه وطبعه •

جعل الكتاب جزءين صفحات الاول ٣٨٨ والثانى ٤٤٨ ووضعنا له فهرسا مرتبا على حروف المعجم لتسهيل مراجعة فوائده الكثيرة المطوية فى مباحثه المختلفة وجدولا للخطأ والصواب فدخل ذلك مع ترجمة المؤلف فى ٢٨ صفحة فمجموع صفحات الكتاب ٨٦٤ ورقة كورق المنار وثمن النسخة منه غير مجلدة عشرون قرشا صحيحا ماعدا أجرة البريد

صاحب مجلة المنار الاسلامية بمصر
السيد محمد رشيد رضا

الباع الطويل فى علم التاريخ وحفظ وقائع الملوك والامراء والعلماء والادباء وما وقع فى الازمان السالفة وكان يحفظ من اشعار العرب العرباء والمولدين شيئا كثيرا وله شعر لطيف منه قوله :

من لى بان أنظر الى ... خشف بليل معتكر
واضمه من غير شف ... كالضمير المستتر

وقوله :

الصبر عيل من القلا ... والنفس أمست فى بلا
والجفن جف من البكاء ... والقلب فى الشجوى غلا
وشكا اللسان فقال فى ... شكواه لا حول ولا

وقوله :

أحبة قلبى تزعموا أن حبكم ... صحيح فان كنتم كما تزعموا زوروا
واحيوا فتى فت الغرام فؤاده ... والا فدعوى حبكم كلها زور

وله غير ذلك من الاشعار والنظام والنثار مما هو مشهور فى أيدى الناس وكانت وفاته في شوال سنة ثمان وثمانين ومائة وألف بنابلس ودفن بتربتها الشمالية رحمه الله تعالى آمين • انتهى بحروفه من تاريخ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر فى حرف الميم جزاه الله خيرا آمين •

وفى كتاب السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة تأليف الشيخ محمد بن حميد مفتى الحنابلة سابقا بمكة المشرفة قال : محمد بن احمد بن سالم ابن سليمان السفارينى أبو العون شمس الدين العلامة الفهامة المسند الحافظ المتقن نقلت من خط شيخ مشايخي الشيخ محمد بن سلوم مانصه (ولد) سنة ١١١٤ بقرية سفارين فقرأ القرآن صغيرا وحفظه وأتقنه ثم قدم دمشق فقرأ العلم فى الجامع الاموى على مشايخ فضلاء وأئمة نبلاء مابين مكيين ومدنيين وشاميين ومصريين ذكرهم فى اجازته الكبرى للسيد محمد مرتضى فمنهم في الحديث والفقه والفرائض والاصلين العلامة خاتمة المحققين شيخ المذهب فى عصره ومصره الشيخ عبد القادر التغلبى والشيخ مصطفى بن الشيخ عبد الحق اللبدى والشيخ عواد بن عبيد الكورى والشيخ طه بن احمد اللبدى والشيخ مصطفى بن الشيخ يوسف الكرمى والشيخ عبد الرحيم البكرى والمعمر السيد هاشم الحنبليونى ، وفى أنواع الفنون للعلامة الفهامة الشيخ عبد الغنى النابلسى صاحب البديعيات المشهورة والتآليف الجليلة والعلامة الشيخ احمد المنينى وشيخ الطريقة السيد مصطفى البكرى والعلامة حامد افندى مفتى الشام والحافظ محمد حياة السندى ثم المدنى والمعمر الشيخ عبد الرحمن المجلد الحنفى والملا الياس الكردى والعلامة اسماعيل جراح العجلونى والعلامة الشيخ أحمد المغربى مفتى الشافعية وقريبه الشيخ محمد المغربى الذى تولى الافتاء بعده والشيخ عبد الله البصرى والشيخ سلطان المحاسنى خطيب الجامع الاموى وغيرهم وأجازوه باجازات مطولة ومختصرة وبرع فى فنون العلم وجمع بين الامامة والفقه والديانة والصيانة وفنون العلم والصدق وحسن السمت والخلق والتعبد وطول الصمت عما لا يعني وكان محمود السيرة نافذ الكلمة رفيع المنزلة عند الخاص والعام سخى النفس كريما بما يملك مهابا معظما عليه

أنوار العلم بادية وصنف تصانيف جليلة في كل فن فمنها العقيدة الفريدة وشرحها الحافل العظيم الفوائد الجم العوائد مجلد ضخم ، شرح فضائل الاعمال للضياء المقدسي ، نفثات الصدر المكمد بشرح ثلاثيات المسند وعددها ٣٦٣ مجلدان ، شرح عمدة الاحكام مجلدان ، شرح نونية الصرصري في السيرة مجلدان ، الملح الغرامية شرح منظومة ابن فرح اللامية ، شرح الدليل في الفقه وصل فيه الى الحدود ، والبحور الزاخرة في علوم الآخرة مجلدان، أودع فيه من غرائب الفوائد ما لا يوجد في كتاب ، دراري الذخائر شرح منظومة الكبائر ، تنجيز الوفاء في سيرة المصطفى ، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب مجلدان أودع فيه من غرائب الفوائد ما لا يوجد في كتاب ، قرع السياط في قمع أهل اللواط ، الجواب المحرر في كشف حال الخضر والاسكندر ، تحفة النساك في فضل السواك ، التحقيق في بطلان التلفيق رد بها جواز التلفيق في العبادات وغيرها للشيخ مرعي ، الدر المنثور في فضائل يوم عاشوراء المأثور ، اللمعة في فضل يوم الجمعة ، القول العلي شرح أثر سيدنا علي ، نتائج الافكار شرح حديث سيد الاستغفار اودع فيه غرائب نحو سبع كراريس ، رسالة في بيان تارك الصلاة ، رسالة في ذم الوسواس ، رسالة في شرح حديث الايمان بضع وسبعون شعبة ، رسالة في فضل الفقير الصابر ، منتخب الزهد للامام احمد حذف منه المكرر والاسانيد ، تعزية اللبيب ، قصيدة في الخصائص النبوية ، وغير ذلك من التحريرات والفتاوى الحديثة والفقهية والاجوبة على المسائل العديدة ، والتراجم لبعض أصحاب المذهب وبالجملة فتآليفه نافعة مفيدة مقبولة سارت بها الركبان وانتشرت في البلدان كان اماما متقنا جليل القدر وظهرت له كرامات عظيمة وكان حسن التقرير والتحرير لطيف الاشارة بليغ العبارة حسن الجمع والتأليف لطيف الترتيب والترصيف زينة أهل عصره ونقاوة أهل مصره صواما قواما ورده كل ليلة ستون ركعة وكان متين الديانة لا تأخذه في الله لومة لائم محبا للسلف وآثارهم بحيث انه اذا ذكرهم أو ذكروا عنده لم يملك عينه من البكاء وتخرج به وانتفع خلق كثير من النجديين والشاميين وغيرهم وكانت وفاته عام ١١٨٨ أو عام ١١٨٩ انتهى .

قال في سلك الدرر توفي بنابلس ودفن بتربتها الشمالية ثم قال وبالجملة فقد كان غرة عصره وشامة مصره لم يظهر بعده مثله في بلاده الخ ما تقدم وذكره تلميذه الكمال محمد العامري العربي في كتابه الورد الأنسي بترجمة الشيخ عبد الغني النابلسي قال وقد ترجمته في معجمي المسمى بأتحاف ذوي الرسوخ وفي طبقات الحنابلة المسمى بالنعت الاكمل في تراجم أصحاب الامام أحمد بن حنبل ترجمة طويلة . قلت أخبرني بعض العلماء الصلحاء النابلسيين انه لما أراد الرحلة الى دمشق اتى به والده الى الشيخ زيد المشهور في بلاد نابلس المنتسب الى الشيخ عبد القادر الجيلاني ليدعو له وكان معتقدا في تلك الجهات فلما أخبراه بمطلوبهما ودعا له وأوصاه وقال له اذا وصلت دمشق تجد في الجامع الاموي على يمينك من الباب الفلاني شخصا صفته كيت وكيت فبلغه مني السلام وقل له يقول لك أخوك زيد ادع لي فحين وصل رأى الشخص وعرفه بالصفة وقال ما وصاه به الشيخ فقال الشخص زيد لاحقني بتوصياته في كل بلد أحبها — ودعا له كثيرا وبشره بالفتوح العظيمة . ومما ذكره المترجم في اجازته للسيد

محمد مرتضي ان شيخه الشيخ سلطان المحاسني وشي اليه بعض الوشاةبأنى سئلت من أفضل الشيخ المحاسنى أو الشيخ المنينى فزعم الواشي انىفضلت المنيني عليه فكتب لى بهذه الابيات :

لا تزدرى العلماء بالأشعـــار وتحط قدرا من أولى المقـدار
أتظن سفارين تخرج عالمـــا ينشيء القريض بدقة الانظـــار
هلا أخذت على الشيـــوخ تأدبا كى ترتقي درج العلا بفخـــار
واللين منك لاح فى مـــرءاته لا زلت تكشف مشكل الاخبار

فاجبته بقولى :

قل للامام مهذب الاشعــــار منشى القريض ومسند الاخبار
تفديك نفسى يا أديب زماننـــا ياذا الحجا يا عالى المقـــدار
من قال عنى يا همـــام بأننى ازرى بأهـــل الفضل والآثار
عجبا لمن اضحى فريدافى الورى يصغى لقـــول مفسد مكار
مقصوده وشي الحديث ووضعه فقبلته من غير ما انكـــار
وغدوت مفتخرا عـلى صب اذا جن الظلام بكى من الاكـــدار
ورشقته بسهام نظم مـــزدر للناس بالتحقير والاصغـــار
هب ان سفارين لم تخرج فتى ذا فطنة بنتائج الافكـــار
ايباح عجب المرء يا مـولاى فى شرع النبى المصطفى المختـــار
لا زلت فى أوج المكارم راقيـا تنشى القريض بهيبة ووقـــار
ما حرك الشوق التليد صبـابة صدح الحمام ونغمة الهـزار

فجاء واعتذر وظن انى لم أقبل عذره وجاء يوما بابنه وقال له قم قبل يد عمك يسمح لأبيك عما بدر منه فقلت أنا أرجو منك السماح فقـال سبحان الله قد استجزت علماء الشام واهملتنى مع مزيد الصحبة فطلبت منه اجازة فاحتفل فى اجازة مطولة فاخترمته المنية قبل وصولها الينا رحمة الله تعالى ورضى عنه آمين .

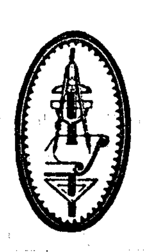
تقريظ الكتاب

قال الشيخ محمد بن قاسم المشهور بالقصبي مادحا لهذا الشرح المسمى بلوامع الانوار البهية للامام المحقق الشيخ محمد بن احمد السفاريني الاثرى الحنبلي ما نصه قال :

يا من يريد سلوك نهج المصطفى ... ومن اقتفاه من الطراز الاول
ان كنت تطلب للسلامة منهجا ... وتكون لست من الغواة الضلل
كن في أمورك كلها مستمسكا ... بالوحي لا بزخارف المتقول
وصن اعتقادك واعتمد ما قد حوى ... هذا الكتاب وعنه لا تتحول
فيه يزول الشك عن سبل الهدى ... وهو الشفاء لكل داء معضل
من يعتقده مسلما لنصوصه ... من غير تحريف وغير تأول
فقد اهتدى سبل السلام حقيقة ... ويفوز في عقباه بالفخر الجلي
قد فاق كل مصنف في فنه ... فنظيره أبدا اذا لم يحصل
أضحت مناهله لنا لما صفت ... أحلى وأعذب من رحيق السلسل
فلك يدور وقطبه ما جاء من ... رب السماء الى النبي المرسل
من لا يدين بما عليه قد انطوى ... أضحى عن الحق المبين بمعزل

أقول أنا محمد بن حسين نصيف من أهالي جدة الحجاز لما اشتريت كتاب غذاء الألباب منظومة الآداب للسفاريني من الاستاذ الشيخ عبد الفتاح الحجاوي النابلسي من علمائها لما جاء حاجا في عام ١٣٢٥ هـ جرى ذكر المؤلف السفاريني وانه كان صادعا بالحق قال ومما يذكر من شجاعته انه قال لأمير نابلس في عصره لما تولى بعد أبيه وجاء أهل العلم لتهنئته بالامارة وطلبوا منه الغاء الضرائب الزائدة عن الزكاة الشرعية فان المزارعين جائعين لا يشبعون من غلة أراضيهم من الضرائب الفاحشة فقال الامير لا أغير شيئا مما كان في عهد والدي المرحوم فقال له الشيخ السفاريني ومن ادراك انه مرحوم ؟ زل الضرائب والناس يدعون لك وله ، فالامير شكا للشيخ حاجة الدولة للمال الكثير وأزال كثيرا من الضرائب وأخذ منه كتابة بازالة الضرائب الفاحشة ودعوا له بالتوفيق .

جدة الحجاز ـ محمد نصيف



لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية

لشــــرح

الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل رب زدني علماً

الطبعة الثانية

١٤٠٢ ب. هـ - ١٩٨٢ ب. م

منشورات
مؤسسة الخافقين ومكتبتها
محمد مفيد الخيمي
دمشق - طريق الجامعة - هاتف ١١٥٣٧٦
ص. ب : ١١١٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم
وقل رب زدني علماً

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد:

إن كتاب لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية لمؤلفه الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي كتاب من أجل الكتب التي اطلعت عليها، وهو عظيم الفائدة جليل النفع، نظم فيه مؤلفه أمات مسائل عقائد أهل الأثر من السلف الصالح رضي الله عنهم فكانت مئتين وسبعة عشر بيتاً فقال:

نظمت أمهات مسائل عقائد السلف في سمط عقد أبهى من اللآلئ البهية وسميتها الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية.

ثم شرحها شرحاً شفا به الصدور من كل زيغ وريب، وأبرى به العقول من كل بدعة وضلالة، وصدع به أهل الشرك من المتصوفة والمبتدعة فكان الكتاب شفاء لما في الصدور، وصلاحاً لما في القلوب.

وان مؤسسة الخافقين ومكتبتها لتفخر إذ تجعل هذا الكتاب في عداد منشوراتها وهي تتوجه إلى الله العلي القدير بالدعاء أن يجعل نشر هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الناشر

محمد مفيد بن عنزة الخيمي

الرياض في ٢٩/ ٤/ ١٤٠٢هـ